بصائر المعرفة القرآنية
قرآن يتلى لإنسانية ترقى

بصائر المعرفة القرآنية (11)
تنوير السور القرآنية (7)

مفصّل تفسير

سورة الأعراف

(موضوعها الكلي)

القرآن بين الاتباع والتذكير والإنذار وتعريفه بتاريخ البشرية من النشأة إلى دار القرار
وبخطر دار الفاسقين وبابتلاءات السنن بين الاستضعاف والاستخلاف

الجزء الأول

تفسير - بصائر الآيات (١-٩)

القرآن كتاب الإنذار العالمي من الأخطار الواقعة والمتوقعة
فهو كتاب الإنقاذ ودرع الحماية للإنسانية

الأستاذ الدكتور
عبد السلام مقبل المجيدي
كلية الشريعة / جامعة قطر

مكتبة الأسرة العربية ®
خيارك الأفضل للمعرفة الآمنة

بسم الله الرحمن الرحيم

مُفصَّل تَفسيرِ

سورة الأعراف

الجزء الأوّل

MUFASAL TAFSİR
SURAT AL ARAF

Prof. Dr.
Abdulsalam Al Majidi

I. BASKI: İSTANBUL
2023 - 1444

بصائر المعرفة القرآنية
(11)

بصائر المعرفة القرآنية
قرآن يتلى لإنسانية ترقى

تنوير السور القرآنية
(7)

مفصّل تفسير

سورة الأعراف

(موضوعها الكلي)

القرآن بين الاتباع والتذكير والإنذار وتعريفه بتاريخ البشرية من النشأة إلى دار القرار
وبخطر دار الفاسقين وبابتلاءات السنن بين الاستضعاف والاستخلاف

الجزء الأول

تفسير - بصائر الآيات (١- ٩)

القرآن كتاب الإنذار العالمي من الأخطار الواقعة والمتوقعة
فهو كتاب الإنقاذ ودرع الحماية للإنسانية

للتعرف على مؤسسة
بصائر المعرفة القرآنية

الأستاذ الدكتور
عبد السلام مقبل المجيدي
كلية الشريعة / جامعة قطر

مكتبة الأسرة العربية®
خيارك الأفضل للمعرفة الآمنة

مُفصَّل تَفسيرِ

سُورَةُ الأَعْرَافِ

الجُزءُ الأَوَّلُ

الأُستاذُ الدُّكتُور

عَبدُ السَّلامِ مُقبِل المجيدِي

التحرير والتدقيق

د. عامر الخميسي – د. نبيل طرمم

د. حمود ردمان – أ. أميرة ردمان

الشيخ محمد المثيل

وقام بتحكيم الكتاب بعض الدكاترة المتخصصين

القياس: 17x24 سم

عدد الصفحات: 376 ص

ISBN: 978-625-6451-08-7

الطبعة الأولى

2023 - 1444

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

مكتبة الأسرة العربية ®

نحو أسرة عربية واعية ..

طباعة ونشر وتوزيع

إصدارات مُختارة للأسرة العربية

www.arabfamilybs.com

+90 212 631 81 09 - +90 555 028 11 55

info@arabfamilybs.com

UFUK neşriyat®

BASIN-YAYIN-DAĞITIM

Sertifika No: 65276

UFUK NEŞRİYATIN® TÜRKİYE BASIM YAYIN MESLEK BİRLİĞİ ÜYESİDİR.

Baskı Cilt: Enes Basın Matbaacılık Ltd. Şti. Litros Yolu Fatih San. Sit. No: 12/210 - Topkapı / İstanbul

مُقَدِّمَة

الحمد لله الذي أورث كتابه المصطفين من عباده، وجعل عواطفهم تمتلئ من أنواره وإرشاده، وألسنتهم لا تَمَلُّ من تلاوته وتَرْدَاده، وقلوبهم تزداد بهاءً وضياءً بإيراده وارتياده، ونفوسهم تسمو بكلماته وإمداده، فهم أجناده الذي يُمْسكون به، ويُمَسِّكون به العالم لتنزل عليهم أنوار إسعاده.

وأزكى الصَّلوات وأتمُّ السَّلام، على سيِّد الأنام، معلِّم الخير المنقذ للعالم من أعظم الآلام، الرَّحْمَة المُهداة للعالمين، والنِّعمة المسداة للبشريَّة أجمعين، نبيِّنا المصطفى، والخليل المجتبى، والشَّفيع المرتجى، نور شمس الهدى، مشكاة مصابيح العرفان، ومهبط أسرار القرآن، قائدنا وقدوتنا وأستاذنا ومعلِّمنا ومخرجنا من الظُّلُمات إلى النُّور:

محا ظُلُماتِ الجَهْلِ نورُ محمَّدٍ ... وأَشْرَقَ في الأكوانِ خيرُ مُمَجَّدِ
حَبَانا بِهِ الرَّحمَنُ فيضَ هِدَايةٍ ... وغَيْثًا هَنِيئًا دَائِمَ الفَضْلِ واليَدِ
مَلَائِكَةٌ بالمَكْرُماتِ تَنَزَّلَتْ ... إِمَامُهُمو جبريلُ بالمَنْهلِ النَّدِي
دَعَا للتُّقَى والحُبِّ والطُهْرِ والنَّقَا ... وحَطَّمَ ظُلْمَ الظَّالمِ المُتَعَربِدِ
رَسُولُ إِلهِ العَالَمينَ وحُبُّهُ ... عليك صَلاةُ اللهِ طِبِّي ومُرْشِدِي
سَمَوتَ بِأَخلَاقِ النَّبيِّينَ كُلِّهِمُ ... وحُزْتَ مِنَ الأوصافِ ما لَمْ يُعَدَّدِ(١)

اللَّهمَّ صلِّ وسلِّم وبارك عليه، وعلى آله وصحبه أجمعين، وعلى التَّابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدِّين..

(١) الأبيات للأستاذ/ محمَّد المثيل -وفقه الله-.

ربَّنا ها نحن بين يديك: نفوسنا تهفو للاغتراف من معين سورة الأعراف، وحياتنا تَخضَرُّ بما في القرآن من معينٍ وجناتٍ أَلْفَاف، وتتنعَّمُ بنظرٍ فيه وتَطْواف، بين البقرة والنِّسَاء والنَّاس والأحقاف، وسائر الطِّوال والقصار والأنصاف، فقد وجدنا في كتاب الغفَّار، الذِّكرى والهداية والإنذار، والإنقاذ من الأخطار، والعزَّة والسُّؤدد والانتصار، فهو درع حماية ربانيَّة، ورعاية رحمانيَّة، لنا ولسائر الإنسانيَّة.

وبعد:

فقد بقيت نحوًا من ثلاث سنين يمددني الله ﷻ بمَدَد وفيض من الرَّحْمَة الإلهيَّة أغترف به ضياء التدبُّر القرآنيِّ في سورة الأعراف، فزرعت فيه صفحاتٍ متكاثرةً دأبًا أُحَرِّرُ تفسير آياتها كلمةً كلمةً، وأَنُوءُ بالصبر على فَهْم وجوه الارتباط والمناسبة بين آياتها آيةً آيةً، وأحاول أن أبحث عن صورتها الكُلِّيَّة التي تجمع بين القضايا الكبرى التي احتوت عليها ابتداءً من أوَّل آية، حيث يشرق عليَّ مجد: ﴿الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ﴾ [الأعراف: ١، ٢].

ووصولًا إلى منتهى عرشها، حيث كانت آخر آية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ۩﴾ [الأعراف: ٢٠٦]

وخلال هذا التَّدبُّر آنست من سورة الأعراف نورًا، فذهبت أستبق الخُطَا عسى أن أقتبس منه ما يحيي به هذه البشريَّة التي ضلَّ كثير منها في دياجير الظلم والتحريف وقَلْبِ الفطرة السَّويَّة.

ومررت في تحرير سورة الأعراف بمراحل متعدِّدة جمعتها في هذه الصُّورة:

أ.د. عبد السلام مقبل المجيدي

مراحل تحرير موسوعة بصائر المعرفة القرآنية

١ التقسيم الأولي

وذلك بعد تدبر الآيات، فكتبت الأقسام المتوقعة لنحو من 58 آية، وأرجعت الأقسام إلى محاور.

٢ التحليل الأولي

فرجعت إلى تلك الآيات أحلل ألفاظها على هيئة رقمية مفهومة، وهنا يحصل التداخل والتباين في التقسيم.

٣ التحرير الأولي

بالعودة مجددًا لما قمت به، وزيادة التحرير لما كتبته، ويبدأ التفسير الآن بالتضخم، وتتضح الأقسام والبصائر بصورة أقوى.

٤ التحرير المتمم

مواصلة التقسيم الأولي لبقية آيات السورة لتكتمل الصورة الأولية لها.

٥ تفسير السابقين

أرجع إلى المفسرين الثمانية لأجد فيه مددًا عظيمًا يزيد في تنظيمي للأفكار تأييدًا، أو إرشادًا، أو نقدًا

٦ تحبير التحرير

أعود إلى البصائر بعد دمج أبرز الفوائد المنتقاة من المفسرين الثمانية لأعيد كتابتها وتجويدها.

٧ الأسئلة المثيرة

أبدأ بإدخال الأسئلة المناسبة؛ لتحقق منهجًا تعليميًا يسهم في إيضاح البصائر

٨ التصديق والهيمنة

بالرجوع إلى كتب أهل الكتاب ليظهر تصديق القرآن وهيمنته عليها

أ.د. عبد السلام مقبل المجيدي

٩ **التحبير الثاني**

بإدراج الفكرة للكلية للمحاور، والأقسام، وذكر المناسبة وجمال الاتصال.

١٠ **المدارسة الأولى**

بعرض المادة العلمية في حلقة تعليمية إذاعية أو عبر اليوتيوب؛ لتدارسها، وتجويدها.

١١ **التحبير الثالث**

بالعودة لتجويد المكتوب بعد الإفادة من المدارسة، ومراجعة جميع ما سبق، ووضع عناوين مبتكرة.

١٢ **المراجعة الخارجية ١**

بأن يُعطى المراجع ملف (وورد)، ويقوم بتقديم الاقتراحات المتعددة باستعمال تقنية تتبع التغييرات.

١٣ **المراجعة الخارجية ٢**

بإحالة المكتوب إلى مراجعين آخرين (اثنين أو ثلاثة) لوضع ملحوظاتهم وفق أنواع المراجعة، وضمن منهاج يأتي ذكره.

١٤ **إنشاء الوسيط**

بإنشاء الوسيط، وذلك باختصار المفصل بأخذ أهم العناوين الرئيسة، والفقرات الأساسية، وهذا يؤثر على تجويد المفصل.

١٥ **إنشاء الوجيز**

وذلك بالاقتصار على الخريطة الكلية للسورة، وعناوين المحاور والأقسام من غير تفصيل

١٦ **التحكيم العلمي**

يحال المكتوب إلى اثنين من المحكَّمين المتخصصين، والإفادة من ملحوظاتهم سواء فيما يتعلق بالأقسام والمحاور، أو ما يتعلق بالمادة العلمية وتجويدها.

١٧ **إجراءات الطباعة**

صُوَرٌ من لَذَّة التَّعب في استكشاف كنوز الآيات القُرآنيَّة

حتى تستبين بعض المعاناة في معالجة قضايا السُّورَة وفهمها، خذ هذا المثال:

عندما حاولت أن أضع عنوانًا للمحور الثاني من محاور السُّورَة ظللت أبحث عن أنسب العناوين له، والمحور عبارة عن خمس آيات تمتد من الآية [٥٤] إلى الآية [٥٨] أي من قول ربِّنا -جلَّ مَجْدُه-: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأعراف: ٥٤] إلى قوله: ﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [الأعراف: ٥٨].

فوضعت له عنوانًا لم أرتضه، فَكَرَرْتُ عليه أُحَبِّرُهُ حتى استقرَّ الأمر على أن يكون العنوان: معالم تعريفيَّة بالله ﷻ.

فلماذا جعلت المحور الثاني: معالم تعريفيَّة بالله ﷻ، ولم اجعله أدلَّة وبراهين تثبت وجود الله تعالى؟

لأنك عندما تنظر في الآيات الخمس تَجِدِ اللهَ ﷻ ذَكَرَ تعريفًا بنفسه، وببعض صفاته، كما تجد فيها بعض براهين ألوهيته وملكه، وليست الآيات خالصة في ذكر براهين ألوهيته فقط، فانتقلت العنونة من: (أدلَّة) إلى (معالم تعريفيَّة).

ولما أردت تحرير معنى كلمة ﴿عَفَواْ﴾ في قول ربنا ﷻ: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ﴾ [الأعراف: ٩٥]، جَرَّني ذلك إلى أن أذكر أنني أقمت ثلاثة أيام تستوقفني كلمة ﴿فَٱعْفُواْ﴾ في سورة البقرة لا أستطيع تجاوزها، ويحيرني زعم الراغب رحمه الله أن قوله: ﴿وَٱصْفَحُواْ﴾ أبلغ منها، وأقرَّهُ ابن عاشور رحمه الله [(١)]، بل قَعَّدَ بناءً على كلامه لماذا جاء التَّرتيب كذلك في قوله: ﴿فَٱعْفُواْ وَٱصْفَحُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ [البَقَرَة: ١٠٩]؟ وأجد في نفسي من ذلك شيئًا؛ إذ الله ﷻ علَّمنا أن نسأله العفو في آيات متعدِّدة، ودعاء ليلة القدر اقترن بطلب العفو،

---

(١) ينظر: المفردات في غريب القرآن (ص: ٤٨٦)، التحرير والتنوير (١/ ٦٧١).

وفي اليوم الرَّابع هداني الله ﷻ إلى أن أنتبه أن الله ﷻ أمر بالعفو مطلقًا لا بالعفو عن أناس محدَّدين، فقارن بين هذه الآية التي لم تقيِّدِ العفو بأن يكون عنهم، وبين قوله تعالى: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ١٣]، ولا بد من أن يكون لها حال كونها مطلقة معنى أشمل من معناها وهي مقيَّدة بعن، ولا أميل إلى ما يتعجَّلُ به بعضهم من حمل المطلق على المقيَّد، فتلك مجرد دعوى تجرُّد اللفظة القُرآنيَّة من معانيها الواسعة، فلماذا نضيِّق على الكلمة في سورة البقرة بأن نقيِّدَها بكلمة ﴿عن﴾، وقد وسَّع الله ﷻ معناها بناء على قاعِدَة متنازع عليها.

ودعني أُمَثِّل لك بمثال ثالث يُقَرِّبُ لك الجهد:

لك أن تتصوَّر لَذَّة الإنجاز التي شعرت بها حينما وصلت إلى تفريقٍ منطقيٍّ واضح بين مواضع سورة الأعراف وسورة طه وسورة الشعراء في كلام فرعون مع السحرة، فقد ظهرت عِدَّة مواقف في قول ربِّنا ﷻ: ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ [طه: ٧١] ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ [الأعراف: ١٢٣] ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الشعراء: ٤٩] بالإخبار وبالاستفهام في هذه المواضع، وهذه المواضع تظهر مجموعة من المشاهد المتتابعة الرَّائعة.

وعندما كنت أطيل النَّظر في تدبُّر الآيات، ثم أعيد التَّأمُّل فيها كَرَّاتٍ وَكَرَّاتٍ كنت أرى الأزهار تتفتح، وأشعر بالنَّسائم العليلة تداعب كلَّ جزء في جسدي، وكنت والله أعجب! كيف تتجدَّد المعاني في أثواب جديدة؟! وكيف تنمو نمو الشَّجرة الطَّيِّبة في البلد الطَّيب الذي يخرج نباته بإذن ربه؟! وقد مكثت أحاول فَهْمَ العلاقة بين آيات سورة الأعراف وسورة الشعراء في قِصَّة موسى عليه السلام عندما أظهر بيناته المادية، ووقف أمامها فرعون وقوى الملأ المتنفِّذة،

والجمهور المحتشد.. وقفوا جميعًا مذهولين، وجاء التَّعبير متماثلًا إلا في ثلاث كلمات. كلُّ ذلك جعلني أتمهَّل رويدًا. فأسطِّر تدبُّرًا، ثم ينمو ويُصَحَّحُ، ويُعَدَّلُ ويُقَوَّمُ، وبقيت على ذلك أيامًا لكنْ لا تَسَلْ عن طربي للنَّتائج التي تلوح لي حينها من الآيات.

القرآن المجيد حقيقٌ بأن تُسَخَّرَ له الأوقات والطَّاقات، ويُصْرَفَ لتلاوته وتَعَلُّمِ معناه الطَّارف والتَّليد[١]

هنا تشعر بعظمة التَّوجيه الذي قرَّره ابن عاشور ﷺ في فَهْمِ كلام الله، حيث قال: "وَإِنَّ كَلَامَ رَبِّ النَّاس، حَقِيقٌ بِأَنْ يُخْدَمَ سَعْيًا عَلَى الرَّأْسِ، وَمَا أَدَّى هَذَا الْحَقَّ إِلَّا قَلَمُ الْمُفَسِّرِ يَسْعَى عَلَى الْقِرْطَاسِ"[١].

وسترى في تفسير سورة الأعراف تطبيقًا للمنهج الذي سار عليه مشروع "تسوير السُّوَر القُرآنيَّة" من إظهار هذا التَّفسير على هيئة المفصل، ثم الوسيط، ثم الوجيز، ولقد درج على ذلك عددٌ من كبار المتقدِّمين، فها هو ابن الجَوْزيِّ ﷺ يقول: "نَفْعُ العلم بدرايته لا بوراثته، وبمعرفة أغواره لا بروايته"[٢]، وحَدَاه ذلك إلى أن يؤلِّف المغني في التَّفسير، ثم اختصره في "زاد المسير"، ثم اختصره في "تيسير التِّبيان في علم القرآن"، ثم اختصره في: "تذكرة الأريب في علم الغريب".

ولقد رأيت من آيات الله في تيسير كتابة هذه البصائر التَّفسيريَّة، ورجوت من ربي فوق ما رجاه ابن عاشور ﷺ لتفسيره حين قال: "وَلَا كُفْرَانَ لِلَّهِ فَإِنَّ نِعَمَهُ أَوْفَى، وَمَكَايِيلَ فَضْلِهِ عَلَيَّ

---

(١) الطَّارف التَّليد أي: المستحدث والقديم، قال ابن فارس ﷺ في باب (طرف): "ومن الباب قولهم للشَّيء الْمُسْتَحْدَثِ: طَرِيفٌ، وهو خلاف التَّلِيدِ". مقاييس اللغة (٣/ ٤٤٨).

(٢) نواسخ القرآن = ناسخ القرآن ومنسوخه (١/ ١٠٢).

لَا تُطَفِّفُ وَلَا تُكْفَا، وَأَرْجُو مِنْهُ تَعَالَى لِهَذَا التَّفسير أَنْ يُنْجِدَ وَيَغُورَ، وَأَنْ يَنْفَعَ بِهِ الْخَاصَّةَ وَالْجُمْهُورَ، وَيَجْعَلَنِي بِهِ مِنَ الَّذِينَ يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ"(١).

اللهمَّ يا مَنْ الذي هو الله لا إله إلا هو عالمُ الغَيبِ والشَّهادَةِ هو الرَّحمَن الرَّحيمُ يَسِّرْ لِي إتمَامَ تَفْسيرِ كتَابِكَ على أَحْسنِ وَجْهٍ، وأَجْمَلِهِ، وأَكْمَلِهِ، وأَحَبِّهِ إليك، وأَرْضَاهُ عندك، وأَعْظَمِهِ بَيَانًا لإعجازِ آياتِكَ، وبَيِّنَاتِ كَلِماتِكَ، وأَكْثِرِه تَأْثِيرًا في نُفُوسِ الخَلْقِ، واجْعَلْ ذلك على نَحْوٍ لم أُسْبَقْ إليه، وأَلْقِ القَبُولَ فِي قُلُوبِ الخَلْقِ له إلى يومِ الدِّينِ، واجْعَلْ لي به لسانَ صِدْقٍ في الآخِرِينَ، وآتِنِي به مَنْ فَضْلِكَ ورَحْمَتِكَ أَفْضَلَ ما تُؤْتِي عِبَادَكَ الصَّالِحِينَ، وارْفَعْنِي به مَكَانًا عَلِيًّا، وكُنْ بِي حَفِيًّا يا حَيُّ يا قَيُّومُ، يا ذا الجَلَالِ والإِكْرَامِ، يا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ.

وصلَّى الله وسلَّم على نبيِّنا محمَّد وعلى آله وصحبه أجمعين

والحمد لله ربِّ العالمين.

عبد السلام مقبل المجيدي
s١٤٣٥y@gmail.com

٣ ذو القعدة ١٤٤٤هـ

٢٣/ ٥/ ٢٠٢٣م

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٦٣٧).

الموضوع الكُلِّيُّ الذي لأجله سُوِّرت آيات سورة الأعراف

من أعظم الأسئلة التَّدبريَّة التي نجدها أول كلِّ سورة:

ما الموضوع الكُلِّيُّ الذي تدور حوله السُّورَة؟ وبأسلوبٍ آخر: ما الحكمة من تسوُّر آيات هذه السُّورَة فيها؟

ولنضع هذا السؤال في موضوع هذه السُّورَة:

اسم هذه السُّورَة الأعراف، فهل تدور السُّورَة على الأعراف أم أن لها موضوعًا آخر، والأعراف جزء منه؟ وهل حدَّد الله ﷻ لنا موضوع السُّورَة الكُلِّيِّ بصورة مباشرة؟

الجواب:

لا بد أن آيات هذه السُّورَة قد سُوِّرت لأجل موضوع أو موضوعات محدَّدة، وإلا لما جُمِعَتْ في موضع واحد هو سورة الأعراف، فما مزية هذه السُّورَة حتى جُمِعَتْ فيها هذه الآيات المحددة التي تبلغ (٢٠٦) آيات؟

معرفة الموضوع الكُلِّي للسُّورة شائق شاقٌّ، والإمام الفَرَاهي رحمه الله يراه من أشقِّ مواضيع التَّفسير، ولا نستطيع الوصول إليه إلا عندما نفسِّر الكلمات والآيات كلمةً كلمةً، وآية آية ضمن السُّورَة الواحدة؛ لننطلق من التَّفسير الجزئيِّ إلى التَّفسير الكُلِّيِّ للسُّورة، وندرك الترابط الكُلِّيَّ بين آياتها ومواضيعها التَّفصيليَّة، وهناك ندرك الموضوع الكُلِّي لها أو على الأقلِّ المواضيع الكُلِّيَّة.

> معرفة الموضوع الكلِّيِّ للسُّورة شائق شاقٌّ، ولا نستطيع الوصول إليه إلا عندما نفسِّر الكلمات والآيات كلمة كلمة، وآية آية ضمن السُّورة الواحدة لننطلق من التَّفسير الجزئيِّ إلى التَّفسير الكلِّيِّ للسُّورة.

بعد تحليلٍ للمعاني التَّفسيريَّة لسورة الأعراف -امتد لثلاث سنين- توصلت إلى ما أرجو أن يكون الموضوع الكُلِّي لها، وقد أعملت لأجل ذلك المعايير الثمانية التي جعلتها معيارًا للوصول إلى الموضوع الكُلِّي للسُّورة، وهذه المعايير الثَّمانية هي التي ميَّزت مشروع "تسوير السُّوَر القُرآنيَّة"، وتمثل مزايا لمنهج التسوير، وهي التي توضِّحها الصُّورة الآتية:

وسأذكر هنا تفصيلًا لأهمِّ هذه المعايير والأسس الثَّمانية:

أ.د. عبد السلام مقبل المجيدي

أسس الوصول إلى الموضوع الكُلِّي للسورة القرآنية

- **الأساس الأول:** النزول، أو السياق التاريخي للسورة القرآنية.
- **الأساس الثاني:** الترتيب، أو السياق المصحفي.
- **الأساس الثالث:** اسم السورة القرآنية، وعلاقته بالموضوع الكُليّ للسورة.
- **الأساس الرابع:** المواضيع الكبرى التي تناولتها السورة القرآنية.
- **الأساس الخامس:** مدد السابقين من المفسرين في التعرُّف إلى الموضوع الكُليِّ للسورة.
- **الأساس السادس:** الخريطة الكلية التي تُظْهِر المحاور العامّة المتتابعة للسورة.
- **الأساس السابع:** التفسير الجزئي لكلِّ كلمة وآية في السورة من أولها إلى آخرها .
- **الأساس الثامن:** عنونة محاور السورة وأقسامها لتعكس الموضوع الكُليّ للسورة.

﴿مفصل سورة الأعراف (1)﴾

الأساس الأول: النُّزول أو السِّياق التَّاريخيُّ لسورة الأعراف

المبحث الأول: تحديد وقت نزول سورة الأعراف

إذا عرفنا الوقت الذي نزلت فيه السُّورَة أمكننا أن ندرك الحيثيات التي تحيط بهذه السُّورَة، وهذا يساعد على فهمنا لسبب نزول هذه السُّورَة، والحكمة من اتِّساق آياتها فيها.

أي: ما الحكمة من تسوير هذه الآيات في هذه السُّورَة؟

ولذا لا بدَّ أن نتساءل:

متى نزلت سورة الأعراف؟ وما السِّياق التَّاريخيُّ الذي نزلت فيه؟

الجواب:

اتفق أهل العلم على أن سورة الأعراف مكية، فآياتها تخاطب الإنسانيَّة، وتظهر عالمية رسالة الرسول ﷺ، حيث قال الله ﷻ فيها: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ١٥٨﴾ [الأعراف: ١٥٨].

هذا الإعلان عن عالمية الرسالة كان في فجر الرسالة منذ بواكير نزول الآيات بمكة؛ ومن دلائل نبوته ﷺ أن هذا الإعلان لم يتأخر حتَّى تمكَّن النَّبيُّ ﷺ في المدينة، وتعاضدت الآيات المكية على هذه الحقيقة العظيمة، مثل قول الله ﷻ في سورة الفرقان: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان:١]، وكذلك قوله ﷻ في سورة سبأ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سبأ: ٢٨].

فكلُّ هذه السُّوَر (الأعراف-الفرقان-سبأ) نزلت بمكة بتمامها؛ بل هو الذي ذهب إليه مجموعة من المفسِّرين منهم محمَّد رشيد رضا رحمه الله(١).

---

(١) ينظر: المحرر الوجيز (٢/ ٢٧٢)، زاد المسير (٢/ ١٠٠)، تفسير المنار (٨/ ٢٦٠).

ولكن متى حدث هذا النُّزول؟

الجواب: عندما نعود إلى تاريخ نزول السُّوَر سنجد صعوبة في تحديد الوقت الذي نزلت فيه سورة الأعراف؛ لعدم ورود روايات تدلُّ على ذلك، ولكنْ هناك إشاراتٌ قد تقرِّبنا إلى المعرفة، ومن ذلك رواية أبي الشَّعثاء جابر بن زيد الأزديِّ ﵀ وهو من أخصِّ تلاميذ ابن عبَّاس﵄ أنها نزلت بعد سورة (ص)، وقبل سورة (الجِنِّ): ﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ [الجن:١][١]، والرواية لا تصحُّ[٢]، فإن صحَّت أدَّى إلى أنها نزلت قريبًا من أواسط العهد الـمكِّيِّ.

وهذا الحديث وإن لم يكن مُوَثَّقًا توثيقًا يُطْمَأَنُّ إليه، إلا أنه يُستأنس به، فاسْتَصْحِبْ هذا، ودعنا نذهب إلى نزول سورة الجنِّ، فعن ابْنِ عبَّاس﵄ قَالَ: انْطَلَقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي طَائِفَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ عَامِدِينَ إِلَى سُوقِ عُكَاظٍ، وَقَدْ حِيلَ بَيْنَ الشَّيَاطِينِ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ، وَأُرْسِلَتْ عَلَيْهِمُ الشُّهُبُ، فَرَجَعَتِ الشَّيَاطِينُ فَقَالُوا: مَا لَكُمْ؟ فَقَالُوا: حِيلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ، وَأُرْسِلَتْ عَلَيْنَا الشُّهُبُ، قَالَ: مَا حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ إِلاَّ شيء حَدَثَ فَاضْرِبُوا مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا فَانْظُرُوا مَا هَذَا الَّذِي حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ[٣].

فماذا كوَّن الشياطين أمام الحدث الغامض الذي حدث في الأرض؛ حتى حيل بينهم وبين ما اعتادوه من الوصول إلى خبر السماء؟

الجواب: كوَّنوا فرقًا استخباراتية لأجل أن يعرفوا ما الخبر الجديد الذي لم يصلهم، وهذا يعني أنه كان بإمكانهم الاطلاع على كثير ممَّا يحدث في الأرض، فهو ضمن علمهم

---

(١) ذكر رواية ترتيب السُّوَر البيهقي في دلائل النُّبوَّة (٧/ ١٤٢)، وعنه نقل البقاعي في مصاعد النظر (١/ ١٦٤).

(٢) وذلك لما ورد أن سورة الجن نزلت في أول ظهور دعوة النَّبيِّ ﷺ، وذلك في أيام الحج، ورسول الله ﷺ متوجِّه بأصحابه إلى سوق عكاظ، فلعلَّ ذلك في السنة الثَّانية من البعثة، قال ابن عاشور ﵀: "ولا أحسب أن تكون سورة الأعراف قد نزلت في تلك المدة لأن السُّوَر الطِّوال يظهر أنها لم تنزل في أول البعثة". التحرير والتنوير (٨ب/ ٦، ٧).

(٣) البخاري (٤٩٢١).

واستخباراتهم، فقولهم: «فَاضْرِبُوا مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا» يدلُّ على دِقَّة الأجهزة وقوَّة التنظيم الذي يتمتعون به؛ لأنهم يريدون الوصول إلى خبر دقيق لم تصل إليه معلوماتهم من قبل.. فلنتابع الحديث:

يبيِّن لنا الحديث أنَّ كلًّا منهم ذهب إلى ناحية صغيرة أو كبيرة من الأرض، ويدلُّ على ذلك قوله: «فَانْصَرَفَ أُولَئِكَ الَّذِينَ تَوَجَّهُوا نَحْوَ تِهَامَةَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَهُوَ بِنَخْلَةَ عَامِدِينَ إِلَى سُوقِ عُكَاظٍ».

وهنا تلاحظ أنهم قصدوا ناحية صغيرة يجتمع فيها النَّاس عادة في موسم محدَّد هي سوق عكاظ، فوجدوا مفاجأة في هذا السوق الذي لم يروا فيه من قبل مثل ما رأوه في هذه المرَّة:

وجدوا النَّبيَّ ﷺ وَهْوَ يُصَلِّي بِأَصْحَابِهِ صَلاَةَ الْفَجْرِ.

هنا تلاحظ أن النَّبيَّ ﷺ أقام الصَّلاة بعيدًا عن قريش والقُوى الوَثنيَّة حتى لا يحصل إيذاء له ولأصحابه رضي الله عنهم منهم، وكذلك ترى حرص النَّبيُّ ﷺ على إقامة الصَّلاة، وحرص أصحابه رضي الله عنهم على ذلك، وربما تظن أن هذه السُّورَة (سورة الجنِّ) نزلت بعد فرض الصَّلوات الخمس..

لا تستعجل! لأن صلاة الفجر فُرِضِتْ مِن قبل فَرْضِ الصلوات الخمس ضمن الفرض العام للصلاة دون تحديد، فيحتمل أن النَّبيَّ ﷺ كان يصلي كما كان يصلي الأنبياء عليهم السلام من قبل بالعشيِّ والإبكار وفي اللَّيل[1].

تعال بنا نواصل الرواية:

فُوجِئَ الجنُّ بِقَوْمٍ يُصَلُّونَ في مكان -ربَّما- لم يروا الصَّلاة فيه من قبل.. فماذا حدث؟

«فَلَمَّا سَمِعُوا الْقُرْآنَ اسْتَمَعُوا لَهُ، فَقَالُوا: هَذَا وَاللهِ الَّذِي حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ».

---

(١) قال ابن حجر رحمه الله: "ذهب جماعة إلى أنه لم يكن قبل الإسراء صلاة مفروضة إلا ما كان وقع الأمر به من صلاة الليل من غير تحديد، وذهب الحربيُّ رحمه الله إلى أن الصلاة كانت مفروضة ركعتين بالغداة وركعتين بالعشيِّ". فتح الباري (١/ ٤٦٥).

لماذا قالوا ذلك؟ هل رأوا معجزة أمامهم؟

لأن القرآن لا يمكن للإنسان أن يسمعه -دون عناد أو تعصب- إلا خضع لهيمنته، ولذلك أسلموا، وفي بقية الحديث:

«فَهُنَالِكَ حِينَ رَجَعُوا إِلَى قَوْمِهِمْ، وَقَالُوا يَا قَوْمَنَا ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ [الجن: ١ - ٢]، **فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ** ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾، **وَإِنَّمَا أُوحِيَ إِلَيْهِ قَوْلُ الْجِنِّ»**(١).

فإذا عرفنا متى نزلت سورة الجنِّ قرب إلينا أن نعرف متى نزلت سورة الأعراف.

تعال إلى لمحة أخرى:

السُّوَر المكِّيَّة عددها ستٌّ وثمانون سورة، وقد عدَّ جابر بن زيد رحمه الله عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما (سورة الجنِّ) السُّورَة التَّاسعة والثلاثين نزولًا -وهي بعد (سورة الأعراف) (٢) - فيُفْهَمُ من ذلك -استئناسًا- أن (سورة الأعراف) هي السُّورَة الثَّامنة والثلاثون، وذلك مقتضى أن يكون مع النَّبيِّ ﷺ أصحابه في عكاظ، وقرب منع الجنِّ من استراق السمع.

وإذا قلنا: إنها الثَّامنة والثلاثون فينبغي أن نلاحظ أنه نزلت قبلها سور قصيرة مثل: (العلق) و(المزمِّل)، و(المدثِّر)، و(الفاتحة)، و(القلم)، و(المسد)، واختلف حجم هذه السُّورَة

---

(١) قال ابن حجر رحمه الله: "قوله: "وإنما أوحي إليه قول الجن": هذا كلام ابن عباس رضي الله عنهما كأنه تقرر فيه ما ذهب إليه أولًا أنه ﷺ لم يجتمع بهم، وإنما أوحى الله ﷻ إليه بأنهم استمعوا، ومثله قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْۖ﴾ [الأحقاف: ٢٩] الآية، ولكن لا يلزم من عدم ذكرِ اجتماعه بهم حين استمعوا أن لا يكون اجتمع بهم بعد ذلك". فتح الباري (٨/ ٦٧٥).

(٢) ذكر رواية ترتيب السُّوَر البيهقي في دلائل النُّبوَّة (٧/ ١٤٢)، ولكنه ذكر رواية سقطت منها سورة الأعراف وبعض السور، ثم ذكر رواية أخرى وفيها ذِكْر ما سقط منها، ولكنه لم يرتبها بهذا التَّرتيب، في حين نقل البقاعي هذه الرواية في مصاعد النظر (١/ ١٦٤)، وجعلها بهذه التَّرتيب: ص، ثم الأعراف، ثم الجن.

عمَّا قبلها، فهي سورة طويلة، نزلت في أول الإسلام حين ظهور الدعوة الـمباركة دعوة النَّبيِّ محمَّد ﷺ.

والقِصَّة تدلُّ على أن لقاء الجن بالنَّبيِّ ﷺ كان في وقتٍ مبكِّر من البعثة؛ لأن الحيلولة بين الجن وبين خبر السماء إنما كان في أول البعثة، وظني أن ذلك كان بين السنة الثَّالثة والخامسة، وواضح من الحديث أن سورة الجن معدودة في أوائل السور نزولًا في العهد الـمكي.

ربما تقول: ولكن ابن حجر رحمه الله قال: "وذكر ابن إسحاق رحمه الله أن استماع الجن كان بعد رجوع النَّبيِّ ﷺ من الطائف لما خرج إليها يدعو ثقيفًا إلى نصرته، وذلك بعد موت أبي طالب، وكان ذلك في سنة عشر من الـمبعث، كما جزم ابن سعد رحمه الله بأن خروجه إلى الطائف كان في شوَّال"[(١)].

فكيف نصنع مع هذا القول؟

الجواب:

يُحْتَمَلُ عندي أن هذه القِصَّة مختلفة، فالرَّاجح أن الجنَّ وفدوا على النَّبيِّ ﷺ غير مرَّة، والـمرَّة الثَّانية -هي التي ذكرها ابن حجر وابن سعد رحمهما الله[(٢)]- دعوا فيها النَّبيَّ ﷺ ليُسمعهم القرآن، وعلى إثرها نزلت آيات سورة الأحقاف، أما في هذه الـمرَّة فقد سمعوه وهم يبحثون عن سبب منعهم من السَّماء، ولكن لا يوجد عندي دليل يجعلني أجزم بذلك، وابن حجر رحمه الله رأى أن قدوم الجنِّ كان بين الهجرتين.

وهو ما رجَّحه ابن كثير رحمه الله، حيث عَلَّقَ على كلام ابن إسحاق رحمه الله: "إِنَّ الْجِنَّ كَانَ اسْتِمَاعُهُمْ تِلْكَ اللَّيْلَةَ" [أي ليلة خروجه من الطَّائف] فقال: "فِيهِ نَظَرٌ؛ لِأَنَّ الْجِنَّ كَانَ

---

(١) فتح الباري لابن حجر (٧/ ١٧٢).

(٢) ينظر: الطبقات الكبرى لابن سعد (١/ ١٦٥)، فتح الباري لابن حجر (٧/ ١٧٢، ١٧٢).

اسْتِمَاعُهُمْ فِي ابْتِدَاءِ الْإِيحَاءِ، كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ حَدِيثُ ابْنِ عبَّاس رضي الله عنهما الْمَذْكُورُ، وَخُرُوجُهُ ﷺ إِلَى الطَّائِفِ كَانَ بَعْدَ مَوْتِ عَمِّهِ، وَذَلِكَ قَبْلَ الْهِجْرَةِ بِسَنَةٍ أَوْ سَنَتَيْنِ، كَمَا قَرَّرَهُ ابْنُ إِسْحَاقَ رحمه الله وَغَيْرُهُ، وَاللهُ أَعْلَمُ"(١).

فهل أخذ المفسِّرون الـمحقِّقون بهذا الاستنتاج؟

الجواب: المفسِّرون الذين يبحثون الوقت التقريبي لتاريخ النُّزول قليلون، والطاهر بن عاشور رحمه الله، من هؤلاء القِلَّة، فبالنسبة لتاريخ نزول سورة الأعراف لم يوافق ابن عاشور رحمه الله على أنها نزلت في بواكير البعثة؛ إذ يقول: "ما أحسب أن (سورة الأعراف) قد نزلت في تلك الـمدة؛ لأن السُّوَر الطِّوال يظهر أنها لم تنزل أول البعثة"(٢)، وهذا صحيح، ولكن الذي يظهر أنها نزلت في أواسط البعثة، ومما قد يهدينا في ذلك:

من المرجِّحات للقول بنزول سورة الأعراف أواسط العهد المكِّي:

أولًا: موضوعات سورة الأعراف تُبَصِّرنا أنها نزلت في أواسط العهد الـمكِّي:

ففي سورة الأعراف تفصيل عن بداية الخلق، وعن أسس التوحيد، وكلام عن القِصَّة التَّفصيليَّة لآدم عليه السلام مع إبليس، ونجد فيها مهمَّة الإنسان بالنسبة إلى حماية نفسه من الشَّيطان، والـمعركة الأزليَّة بينه وبين الشَّيطان... فكل ذلك يناسب جدًّا أن تكون في أوائل تلك المرحلة أو في وقت قريب من أواسطها.

فما الـمانع أن تكون نزلت قريبًا من أواسط العهد الـمكي بين الثَّالثة والرَّابعة من ابتداء البعثة؛ لأننا نجد فيها كلامًا تأسيسيًّا للمعرفة القُرآنيَّة التي يجب أن تعرفها البشريَّة؟

---

(١) تفسير ابن كثير (٧/ ٢٩٠).

(٢) التحرير والتنوير (٨ب/ ٧).

ثانيًا: الـموضوعات التي تذكرها سورة الأعراف تواكب بداية دعوة الخير التي أتى بها النَّبيُّ ﷺ، وهذا يدل على أنها كانت في بدايات البعثة.

لعلَّ قائلًا يقول: وكيف ذلك؟

أجيبك بأنه يظهر لي أن نزولها كان مع انطلاق حملة الاضطهاد والقمع القرشية على الـمستضعفين من الـمسلمين وفي بداية استضعافهم، ولهذا تجد فيها مواساةً كبيرةً، وبيانًا للمعركة مع الشَّيطان، وتفصيلًا لحال أهل الجنة وحال أهل النار، وتجد فيها حال الأنبياء مع أقوامهم بتفصيل مثير جدًّا.

ثالثًا: أن الله ﷻ ذكر بني إسرائيل واستضعافهم في مكة:

وربما اعترضت متدبرًا، وقلت: فهل يدلُّ هذا على تأخُّر نزولها أم على تقدُّمه؟

الجواب: لا يدلُّ على واحد من الأمرين، فقد بدأ الكلام عن بني إسرائيل منذ وقت مبكِّر من البعثة، وذُكِرَت رسالة موسى عليه السلام في سورة الـمزمِّل.

ومما يدلُّك على نزولها في أواسط العهد الـمكِّيِّ (إبَّان السنة الخامسة للبعثة) الاضطهاد الوثنيُّ للمسلمين في هذا العهد، وقد فصَّل الله ﷻ في هذه السُّورَة حال بني إسرائيل كثيرًا، فكما حَدَث للصحابة رضي الله عنهم اضطهاد شديد فقد حدَّثنا الله ﷻ عن اضطهاد شديد حدث لبني إسرائيل حتى تضجَّروا: ﴿قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩].

وقال الله تبارك وتعالى رافعًا همم أصحاب النَّبيِّ ﷺ في التغيير إلى الأحسن: ﴿وَأَوۡرَثۡنَا ٱلۡقَوۡمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسۡتَضۡعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلۡأَرۡضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۖ﴾ [الأعراف: ١٣٧]، وفي هذا كلِّه مواساة للمستضعفين من الـمسلمين...وأنه سوف يأتي يوم من الأيام يمكَّنون فيه، كما اسْتُضْعِفَ بنُوا إسرائيل ثم مُكِّنُوا.

ومن أكبر ما حاولت قريش الاعتماد عليه في رَدِّ رسالة النَّبيِّ ﷺ أن يدندنوا حول أهل الكتاب، فيقولون مثلًا: ﴿إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلۡكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيۡنِ مِن قَبۡلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمۡ لَغَٰفِلِينَ﴾ [الأنعام: ١٥٦]، ونزلت سورة الأعراف قبل سورة الأنعام –ويحتمل بعدها وهو أقوى عندي– لتكشف تفاصيل عن طائفة من بني إسرائيل، لا يعرفها كثير من الإسرائيليين.

ومن الموضوعات التي تدلُّ على أن سورة الأعراف نزلت في أواسط العهد المكي تركيز السُّورَة على قضية ﴿الملأ﴾ المستكبرين الكافرين، وغرورهم وبطشهم بالمستضعفين، فذلك يعكس بطش المستكبرين من قريش بالمؤمنين.

المبحث الثاني: الآيات في سورة الأعراف التي قيل إنها مدنية

قد تسأل: هل كلُّ آيات سورة الأعراف مكِّيَّة أم بعضها مدني، وبعضها مكِّيٌّ؟

الجواب: نُقِلَ القول بمكِّيتِها كاملة(١)، ورُوي ذلك عن ابن عبَّاس وابن الزبير رضي الله عنهم، وهناك آيتان قيل: هما مدنيتان:

الآية الأولى التي قيل: إنها مدنية:

رُويت عن قتادة رحمه الله في قوله: ﴿وَسۡـَٔلۡهُمۡ عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَتۡ حَاضِرَةَ ٱلۡبَحۡرِ﴾ [الأعراف: ١٦٣] فقال: إنها مدنية؛ رواه عنه أبو الشيخ رحمه الله(٢).

وقال السُّيوطيُّ رحمه الله في الإتقان: وقال غيره: من هنا -يعني من قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَسۡـَٔلۡهُمۡ عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَتۡ حَاضِرَةَ ٱلۡبَحۡرِ﴾ [الأعراف: ١٦٣]- إلى قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾ [الأعراف: ١٧٢] مدنيٌّ(٣).

وهنا تتساءل: ما وجه هذا الاستثناء عند قائله -إن صحَّ عنه ذلك-؟

الجواب:

قتادة رحمه الله من كبار المفسِّرين، وهذه الآية هي الآية الثَّالثة والسِّتون ومائة، وعدد آيات (سورة الأعراف) مائتان وستُّ آيات في العَدِّ الكوفيِّ والمدنيِّ والمكيِّ، وسند الرواية عنه هنا فيه نظر، ودعنا نسلِّم بصحَّته، فكأنَّ القائل باستثناء هذه الآيات يذهب إلى أن السؤال في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَسۡـَٔلۡهُمۡ عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَتۡ حَاضِرَةَ ٱلۡبَحۡرِ﴾ [الأعراف: ١٦٣] مُوَجَّهٌ لبني إسرائيل، وبنو

---

(١) ينظر: دلائل النُّبوَّة للبيهقي (٧/ ١٤٤).

(٢) الإتقان في علوم القرآن (١/ ٥٧)، وروي ذلك أيضًا عن يزيد النحوي عن عكرمة، والحسن بن أبي الحسن. ينظر: الانتصار للقرآن (١/ ٢٤٨)، وأبو الشيخ هو: حافظ أصبهان ومسند زمانه، الإمام أبو محمد عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيَّان الأنصاري (٢٩٤-٣٦٩هـ)، صاحب المصنفات السائرة. تذكرة الحفاظ للذهبي (٣/ ١٠٥).

(٣) الإتقان في علوم القرآن (١/ ٥٧)، وممن قال بذلك مقاتل بن سليمان. جمال القراء وكمال الإقراء (ص: ٥٤).

إسرائيل إنما كانوا في المدينة لا في مكة، فناسب أن يوجه السؤال إليهم، والمعنى: سل بني إسرائيل، وهذا مثل قول الله ﷻ في (سورة البقرة): ﴿سَلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ كَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّنۡ ءَايَةِۭ بَيِّنَةٖۗ﴾ [البقرة: ٢١١] فيكون معنى ﴿وَسۡـَٔلۡهُمۡ﴾ أي: سل بني إسرائيل عن القرية التي كانت حاضرة البحر.

فلعل قتاده رحمه الله تأول الآية على ما ذكرنا، ولكن غيره رأى أنه لا ينبغي استثناء هذه الآية، ولا فصلها عما بعدها؛ لأن ما بعدها إلى قوله ﷻ: ﴿وَإِذۡ نَتَقۡنَا ٱلۡجَبَلَ فَوۡقَهُمۡ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٞ﴾ [الأعراف: ١٧١] متصل بها ومتمِّمٌ لقصتها.

فإذا قلنا: إن الآية مائة وثلاثة وستين مدنية، فيجب أن يكون ما بعدها إلى الآية مائة وواحد وسبعين- في الأقل- مدنيًّا كذلك، ولم يقل أحد بذلك.

ولكنك تتساءل: هل هذا الرأي وجيهٌ؟

أقول: لا تظهر وجاهة هذا الرأي لأسباب متعدِّدة منها:

السَّبب الأول: قِصَّة موسى عليه السلام فُصِّلَتْ في السُّورَة تفصيلًا كبيرًا وكثيرًا، وقِصَّة القرية جزء من قِصَّة موسى عليه السلام وتبع لها؛ ولا دليل على تأخرها.

السَّبب الثاني: لماذا يقص الله ﷻ على قريش قِصَّة موسى عليه السلام في سور متعدِّدة، ثم نتحكم دون دليل، فنجعل قِصَّة قرية من قرى بني إسرائيل فقط خاصَّة لا تُقَصُّ إلا على بني إسرائيل في المدينة؟!!

وعندما تتأمَّل سورة الأعراف تجد فيها أن قِصَّة العهد الإسرائيلي قِصَّة واحدة ممتدَّة تشمل قِصَّة هذه القرية! فما يرد على البعض الأوَّل منها من تفصيلات يرد على البعض الآخر، وما سوى ذلك فتَحَكُّم.

سيقال: ورود السؤال في قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ﴾ [الأعراف:١٦٣] يدلُّ على أن ذلك كان موجَّهًا لليهود في المدينة لا للوثنيين في مكة؛ لأن القِصَّة تتعلق بفئة منهم، أفلا يدلُّ ذلك على أن هذه الآية وما بعدها نزلت في المدينة؟

الجواب: للسؤال في اللغة عدَّة أوجه منها الاستفهام والانكار، وقد لا يراد منه حقيقة السؤال، بل حقيقة الإيضاح للمسائل الواقعة، فيقول البليغُ في كلامه، المُفْهِمُ لأصحابه: اسألوا عن كذا وكذا، وهو يريد تثبيت المعلومة، وقد ورد مثل هذا التعبير في عدد من السُّوَر المَكِّيَّة مثل قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ [يوسف:٨٢]، ويظهر للسامع أن إخوة يوسف عليه السلام لما قالوا لأبيهم هذا لم يريدوا حقيقة المسألة، وإنما أرادوا المبالغة في إثبات صدقهم لا سؤال أهل القرية على سبيل التحقق والتحقيق، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥].

فالسؤال لا يراد به دائمًا حقيقة السؤال، فقد يراد به معنى آخر دل عليه السِّياق، ويقرر الرازي رحمه الله أن ذِكْر السُّؤالِ هنا لا تراد منه حقيقته بل النَّظَر والِاسْتِدْلالُ، كَقَوْلِ مَن قالَ: سَلِ الأرْضَ مَن شَقَّ أنْهارَكِ، وغَرَسَ أشْجارَكِ، وجَنى ثِمارَكِ؟ فَإنَّها إنْ لَمْ تُجِبْكَ جَوابًا أجابَتْكَ اعْتِبارًا[1]، ويقرر الطاهر رحمه الله[2] أن الأمر بِالسُّؤالِ هُنا تَمْثِيلٌ؛ لِشُهْرَةِ الخَبَرِ وتَحَقُّقِهِ، كَما في قَوْلِ السَّمَوْأَلِ أوِ الحارِثِيِّ:

سَـلي إِن جَهِلتِ النّاس عَنّا وَعَنهُمُ ... فَلَيسَ سَـواءً عـالـمٌ وَجَهولُ[3]

(١) تفسير الرازي (٢٧/ ٦٣٥).

(٢) التحرير والتنوير (٢٥/ ٢٢٢).

(٣) ديوانا عروة بن الورد والسموأل، دار بيروت، بيروت، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م، (ص: ٩٢).

وقَوْلِ زَيْدِ الخَيْلِ:

ســائِلْ فَوارِسَ يَرْبُوعٍ بِشِــدَّتِنـا أَهَلْ رَأَونَا بِسـفح القاعِ ذي الأكم(١)

فقول الله ﷻ: ﴿وَسۡـَٔلۡهُمۡ عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَتۡ حَاضِرَةَ ٱلۡبَحۡرِ﴾ [الأعراف: ١٦٣] ذُكِرَ في ميدان المعلومات والتَّحقق منها، بخلاف ميدان المسائل المالية والاحتياجات الأخرى؛ فإن السؤال مقصود بذاته، مثل قوله تعالى: ﴿وَسۡـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا﴾ [النِّساء: ٣٢]، ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣].

ما أقوى دلالات هذا السؤال في قوله: ﴿وَسۡـَٔلۡهُمۡ عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَتۡ حَاضِرَةَ ٱلۡبَحۡرِ﴾ [الأعراف: ١٦٣]؟

أجيبك: هذا السؤال لا يُوَجَّهُ -دائمًا- لبني إسرائيل فيما يتعلق بهم، بل قد يُوَجَّهُ إلى قريش وإلى الوَثنيِّين في قضايا تتعلَّق بأهل الكتاب، لا ليسألوا أهل الكتاب بل لإقامة الحجة على المخاطبين بطريقة أو بأخرى، وكذلك لبيان إعجاز القرآن، حيث يقصُّ على الوَثنيِّين والإسرائيليين أخبارًا دقيقة لا معرفة لعوامهم بها، وإنما يعرفها أحبار أهل الكتاب.

الآية الثَّانية التي قيل: إنها مدنيَّة:

قد يجادل بعض الفقهاء بأن قوله ﷻ: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤] نزل في المدينة؛ لأن الاستماع المأمور به إنما يكون في الصَّلاة، بل نقل العَينيُّ ؒ أن جماعة ذكروا أنها نزلت في الخطبة يوم الجمعة، والجمعة إنما كانت في المدينة(٢) فما الرأي الرَّاجح؟

(١) ديوان زيد الخيل الطائي، صنعه د: نوري حمودي القيسي، مطبعة النعمان، النجف الأشرف، (ص: ١٠٠).

(٢) عمدة القاري شرح صحيح البخاري (١٨/ ٢٣١).

الجواب:

الأمر على غير ما ذُكر، فهذه الآية في ظاهرها من أعظم الآيات التي تعلمنا الأدب عند تلاوة القرآن، فعندما تنظر إلى التَّفسير الكُلِّي والارتباط القوي بين أول السُّورَة وآخرها تجد أن الله ﷻ ذكر خصائص القرآن الكريم في أوَّلها وآخرها، فالارتباط بين أوَّلها وآخرها عظيم قويٌّ، ولم ترد رواية صحيحة يُعتمد عليها في أن هذه الآية نزلت في خصوص قضية الصَّلاة، ويرد في كلام السلف كلمة (نزلت) عادةً لا للكلام على سبب النُّزول، بل للكلام على تعلُّق آية ما بمعنى ذكروه، كما بيَّن علماء أصول التَّفسير.

وقد نزلت في آداب تلاوة القرآن في مكة آيات متعدِّدة، منها قوله تعالى:

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨] في سورة النحل، وهي مكية.

ومن الطبيعي أن يعلِّم الله ﷻ المسلمين آداب تلاوة القرآن في وقت مبكِّر، وذلك يكون في العهد المكِّي.

عدد آيات سورة الأعراف:

ربما تشتاق إلى سؤالٍ حول اختلاف علماء العدد في عدِّ آياتها، فعدد آياتها مائتان وسِتُّ آياتٍ في عَدِّ أهل المدينة ومكَّة والكوفة، ومائتان وخمسُ آياتٍ في عَدِّ أهل الشّامِ والبصرة، وهنا قد تتساءل: هل هذا الاختلاف في العدد يعني أن هناك زيادةَ آية أونقصان آية؟

الجواب: لا، إنما هو اختلاف في موضع العَدِّ [1]، وإلا فجميع كلمات السُّورَة متفق عليها في جميع القراءات المتناقلة المتواترة، وبهذا العدد فإن سورة الأعراف تعد رابعَ سورة في القرآن من حيث الحجم، لا من حيث عدد الآيات بعد سورة البقرة والنِّسَاء وآل عمران.

(١) اختلفوا في عدِّ خمس آيات: الأولى: ﴿الٓمٓصٓ ۝١﴾ عدهَا الْكُوفِي وَلم يعدها الْبَاقُونَ. والثَّانية: ﴿وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾

الأساس الثاني: التَّرتيب أو السِّياق الـمصحفيُّ

هنا لا بد أن نضع سؤالًا عن التَّرتيب الـمصحفيِّ أو السِّياق الـمصحفيِّ لهذه السُّورَة؛ إذ اختلف عن السِّياق التَّاريخيّ؟ فما دلالات مجيء سورة الأعراف في هذا الـموضع من الـمصحف؟

أجيبك: وصلنا في العامل السابق إلى الظن الغالب بأن (سورة الأعراف) نزلت في أواسط العهد الـمكي، ولكنها من حيث التَّرتيب الـمصحفي السُّورَة السَّابعة؛ لأن التَّرتيب الـمصحفيَّ يبدأ بـ(الفاتحة)، ثم (البقرة)، ثم (آل عمران)، ثم (النِّسَاء)، ثم (الـمائدة)، ثم (الأنعام)، ثم (الأعراف)، فهي السُّورَة السَّابعة من حيث التَّرتيب الـمصحفيِّ، والسَّادسة من حيث الطُّول في السَّبع الطِّوال، فـ(سورة الفاتحة) ليست منها، وفضل السبع الطوال معلوم ومنها سورة الأعراف، فعن عائشة رضي الله عنها أن النَّبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم قال: «من أخذ السَّبع الأُوَل فهو حبرٌ»[1].

(السُلَّم الـموضوعي للترتيب الـمصحفي) إلى سورة الأعراف:

ولأنها كذلك يتبادر إلى الذهن سؤال:

لِـمَ لَـمْ توضع (سورة الأعراف) قبل (سورة البقرة) باعتبار أن (سورة البقرة) مدنية وهذه مكية؟ ولماذا لم تكن الرَّابعة في السبع الطوال؟

الجواب: هذا التَّرتيب يدفعك إلى أن تتدبر القرآن.. فهنا تجد علمًا من العلوم الكبيرة للتدبر القرآني.. إنه علم "الاتصال القرآني"، فيخبرك هذا العلم عند التدبر أن التَّرتيب

﴿٢٩﴾ عدهَا الْبَصْرِيّ والشامي وَلم يعدها الْبَاقُونَ. والثَّالثة: ﴿كَمَا بَدَأَكُمۡ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾﴾ عدهَا الْكُوفِي وَلم يعدها الْبَاقُونَ. والرَّابعة: ﴿ضِعۡفًا مِّنَ ٱلنَّارِۖ﴾ [الأعراف: ٣٨] عدهَا المدنيان والمكي وَلم يعدها الْبَاقُونَ. والخامسة: ﴿ٱلۡحُسۡنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ [الأعراف: ١٣٧] عدهَا المدنيان والمكي أَيْضًا وَلم يعدها الْبَاقُونَ. ينظر: البيان في عد آي القرآن (ص: ١٥٥).

(١) أحمد (٢٤٤٤٣)، وحسَّنه الأرناؤوط.

المصحفي له حِكَمه وأسراره، كما أن التَّرتيب التَّاريخيّ له مواقعه وأهدافه، وقد ذكرنا القاعِدَة الذهبية الملوية التي تجيب على هذا السؤال في مقدمات هذا المشروع، وتنص على أن فصل الخطاب أن آياتِ القرآن "جاءت عَلَى حَسَبِ الْوَقَائِعِ تَنْزِيلًا، وَعَلَى حَسَبِ الْحِكْمَةِ تَرْتِيبًا وَتَأْصِيلًا"[(١)]، فالوقائع تاريخ، وأما الحكمة فهي الأسرار التي يبينها التَّدبر، فهناك حكم عظيمة في هذا التَّرتيب المصحفي، ودعنا نتلمس شيئًا من ذلك.

وأزيدك ما يثبت يقينك بالأهداف العظمى للتَّرتيب المصحفيِّ؛ إذ ترى تَقَدُّم (سورة الأنعام) على (سورة الأعراف)؛ لتكون دليلًا من الأدلَّة التي نعتمد عليها في إثبات توقيف ترتيب السور في القرآن المجيد؛ إذ (سورة الأعراف) أطول منها، وأطول من المائدة، وهي مكية، أي: نزلت قبل (سورة آل عمران)، وقد ورد أن (سورة الأعراف) نزلت قبل (سورة الأنعام)، فلا تجد تفسيرًا مقنعًا لهذا التَّرتيب إلا أنه توقيفي، ليدفعك ذلك دفعًا إلى البحث عن الحكمة من هذا التَّرتيب الذي لم يتبع الطول، ولا اتبع التَّاريخ.

إن هذا التَّرتيب يتعلق بصلتها بـــ (سورة الأنعام) وبموقعها من القرآن كله، وحتى نبين ذلك لابد أن نسأل:

ما موضوع (سورة الفاتحة)؟ ما موضوع (سورة البقرة)؟ ما موضوع (سورة آل عمران)؟ ما موضوع (سورة النِّسَاء)؟ ما موضوع (سورة المائدة)؟ وحول ماذا تدور (سورة الأنعام)؟

الجواب: التَّرتيب المصحفيُّ لهذه السُّوَر السَّبع إلى الأعراف ترى فيه نورًا واضحًا، فوَفْقَ التدبُّر العميق الذي ينشد النُّور القرآنيَّ سنجد أنَّ الله جلَّ مَجْدُه:

بدأ بسورة الفاتحة التي كانت مفتاحًا عظيمًا للحياة ولفهم العالم حولنا، ومفتاحًا كبيرًا للقرآن، ومفتاحًا للعالم يعرفه بالإسلام في صورة مكثَّفة مركَّزة.

---

(١) من كلمة سديدة لولي الدين الملوي (ت٧٧٤) رحمه الله. انظر: البرهان للزركشي (١/ ٣٧)، الإتقان في علوم القرآن (٣/ ٣٧٠).

ثم انتقل التَّرتيب إلى سورة البقرة حيث رأينا أنها تؤسِّس للحضارة الإسلامية الجديدة التي تشرق على العالـم، والإفادة من مكوِّن من أهمِّ الـمكونات البشريَّة السَّابقة لنا، وهم أصحاب التجربة الإِسرائيليَّة، وهذه الحضارة الإسلامية التي أسَّستها سورة البقرة تعيد التوازن والعدل إلى العالـم الذي مُلئ بالجور والظُّلم من قبل فارس والروم والأمم الوَثنيَّة.

ثم تأتي سورة آل عمران ثالثًا: حيث نقلنا الله ﷻ إلى تفاعل ضروريٍّ مع الواقع النصرانيِّ الذي لا يمكن أن نعرفه إلا بمعرفة تاريخ آل عمران، وهم أسرة سيدنا الـمسيح عليه السلام، وفي هذه السُّورَة ظهرت لنا سُنَنُ النَّصر والهزيمة باعتبار الدَّور الـمركزيِّ الذي سيكون للحضارة النصرانيَّة في التدافع بين الخير والشر، فهم عندما يُصِرُّون على التحريف يميلون إلى التآمر على الأمَّة التي تدعو إلى الخير.

ثم تأتي سورة النِّسَاء رابعًا: لتنقلنا إلى بثِّ الحياة الإنسانيَّة، والعمل على تطبيق التنظيم الإلهيِّ الحقوقيِّ للبشر، وحماية الـمستضعفين خصوصًا النِّسَاء والأطفال من الاضطهاد.

ثم تأتي سورة الـمائدة خامسًا: فبعد هذا البناء الدُّنيوي الـمتين في السُّوَر السَّابقة انتقلت بنا البصائر القُرآنيَّة في سورة الـمائدة إلى ذكر الـمواثيق الإلهيَّة على أكثر الأمم التابعة للأنبياء عليهم السلام الـمعروفين (الأمة الإسلامية، واليهودية، والنصرانية)، حتى ختمت السُّورَة بمحاسبة عيسى عليه السلام على الـميثاق الـمأخوذ عليه، وإظهار صدقه أمام العالـم، لإقامة الحجة على من حرَّف ما جاء به، وبيَّن الله ﷻ في نهايتها نتيجة الصادقين في حمل الـمواثيق: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡۚ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١١٩﴾ [الـمائدة: ١١٩].

ثم تأتي سورة الأنعام سادسًا: وفيها أقام الله ﷻ الأدلَّة والبراهين الـماديَّة والعقليَّة والجدليَّة على الإيمان، فمن أوَّل السُّورَة ترى الإثباتات الضَّخمة العظيمة على وَحْدانيَّة الله

ومَجْده: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ①﴾ [الأنعام: ١]، **وتوسطتها قِصَّة إبراهيم** عليه السلام: ﴿قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الأنعام: ٧٧].

ثم تأتي سورة الأعراف سابعًا: وتنقلنا نقلة نوعية إلى اتباع ما أنزل إلينا من ربنا، وألا نتبع من دونه أولياء، وفَصَّلَ بناءً على ذلك العهود التَّاريخيَّة الفاصلة لبني آدم عليه السلام ومعركتهم الأزليَّة مع الشَّيطان.

وهنا عرفنا كيف جاءت سورة (الأعراف) في موضعها المناسب لتفصِّل ما بدأته سورة البقرة حول التَّاريخ البشريِّ!

سورة الأعراف تشهد فيها تثبيت معاني الإيمان في ظلِّ المسيرة التَّاريخيَّة للذُّرِّيَّة الآدميَّة، والقيادة النَّبويَّة في تلك العهود الفاصلة.

العلاقة بين سورة الأعراف والسُّورَة التي قبلها (الأنعام):

لتكونَ الصُّورة أشد وضوحًا لا بد أن يرد علينا سؤال!!

قد عرفنا (السُلَّم الموضوعي للتَّرتيب المصحفيِّ) المفترضَّ لهذه السور، أي: عرفنا بعض الفوائد الموضوعية لتكون هذه السور مرتبة بهذه الهيئة: الفاتحة، فالبقرة، فآل عمران، فالنِّسَاء، فالمائدة، فالأنعام، فالأعراف.

ولكننا نسأل: ما العلاقة بينها وبين السُّورَة التي سبقتها في هذا التَّرتيب وهي (سورة الأنعام)؟

الجواب: لا بد أن نذكر التَّناسب القويَّ المدهش بين سورة الأعراف وسورة الأنعام:

ويظهر ذلك من خلال معرفة نوعين كبيرين من العلاقات بين السُّورتين:

أولاهما: علاقةُ إجمالٍ وتفصيلٍ.

وثانيهما: علاقةُ تَوْأَمَةٍ لفظيَّةٍ ومعنويَّةٍ.

وسنجد أنواعًا ثرية كثيرة مثيرة من العلاقات التَّآزُرِية التكاملية بين سورتي الأنعام والأعراف، إلا أنني سأقتصر منها على أبرزها، وهي:

العلاقة الأولى:

التكامل في الـموضوع العام.

العلاقة الثَّانية:

التناسب بين آخر آية سورة الأنعام وأول آية الأعراف.

العلاقة الثَّالثة:

استكمال خريطة الحديث القرآني عن القرآن الـمجيد.

العلاقة الرَّابعة:

استكمال خريطة الكلام على خلق الكون.

العلاقة الخامسة:

تآزر السُّورتين على بيان استخلاف الله ﷻ للحضارات وقيامها ونهضتها وتدميرها.

العلاقة السَّادسة:

قصص القيادات الهادية بين السُّورتين.

العلاقة السَّابعة:

تكامل التفصيل للمقصد الأول من خلق الإنسان وإيجاد الحضارات: الرَّحْمَة.

العلاقة الثَّامنة: تكامل صورة مشاهد الحساب.

العلاقة التَّاسعة:

التكامل الـممتع غير الـممل بين السُّورتين في مواجهة الرؤية الجاهليَّة والأنظمة الجاهليَّة في الذبائح، والنذور، واللباس، والطعام، والتحليل، والتحريم.

العلاقة العاشرة:

تكامل السُّورتين في تفصيل أحد أهم مدمرات الحياة الإنسانيَّة، وهو الإسراف.

العلاقة الحادية عشرة:

اجتماع السُّورتين على إظهار التكامل في معركة البشريَّة ضد الشَّيطان.

العلاقة الثَّانية عشرة:

تعاضد السُّورتين في بيان شناعة الكذب على الله ﷻ، وجريمة الافتراء عليه سواء أكان الـمفترون من أهل الكتاب أم كانوا من الـمشركين.

أ.د. عبد السلام مقبل المجيدي

التناسب القوي المدهش بين سورتي الأعراف والأنعام

العلاقة الأولى:
التكامل في الموضوع العام

العلاقة الثانية:
التناسب بين آخر آية سورة الأنعام وأول آية الأعراف.

العلاقة الثالثة:
استكمال خريطة الحديث القرآني عن القرآن المجيد.

العلاقة الرابعة:
استكمال خريطة الكلام على خلق الكون.

العلاقة الخامسة:
تآزر السورتين على بيان استخلاف الله عز وجل للحضارات وقيامها ونهضتها وتدميرها.

العلاقة السادسة:
قصص القيادات الهادية بين السورتين.

العلاقة السابعة:
تكامل التفصيل للمقصد الأول من خلق الإنسان وإيجاد الحضارات: الرحمة.

العلاقة الثامنة:
تكامل صورة مشاهد الحساب.

العلاقة التاسعة:
العلاقة التكاملية في مواجهة الأنظمة الجاهلية.

العلاقة العاشرة:
تكامل السورتين في تفصيل أحد أهم مدمرات الحياة الإنسانية، وهو الإسراف.

العلاقة الحادية عشرة:
اجتماع السورتين على إظهار التكامل في معركة البشرية ضد الشيطان.

العلاقة الثانية عشرة:
تعاضد السورتين في بيان شناعة الكذب على الله تعالى، وجريمة الافتراء عليه.

﴿مفصل سورة الأعراف (1)﴾

تفصيل تلك العلاقات بين السُّورتين

العلاقة الأولى: التّكامل في الموضوع العامِّ:

فـ (سورة الأنعام) ذكرت أدلَّة الإيمان بالله، وأصَّلت لذلك مبينة ضرورة تبليغ القرآن، ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ وأكمل الله ﷻ ذلك في (سورة الأعراف)، فذكر اتباع هذا الكتاب، ومسيرة الإيمان في التَّاريخ ابتداء بآدم عليه السَّلام ووصولًا إلى النَّبيِّ ﷺ، وفصَّل العهود الفاصلة في التَّاريخ البشريِّ.

العلاقة الثَّانية: التَّناسب بين آخر آية سورة الأنعام وأول آية سورة الأعراف:

تلاحظ أن الله ﷻ ختم (سورة الأنعام) بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾ [الأنعام: ١٦٥].

فهل هناك من علاقة مع أوائل سورة الأعراف؟

الجواب: نعم، ويتضح ذلك من خلال ما يأتي:

أولًا: لاحظ قوله ﷻ: ﴿لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ﴾ [الأنعام: ١٦٥] في آخر آية من (سورة الأنعام)، ولاحظ كيف بدأت (سورة الأعراف).

بدأت بذكر أن ما آتانا الله ﷻ إياه هو ما أنزله إلينا، وهو القرآن الكريم؛ ليبلونا به هل نتبعه أم لا؟! فقال ﷻ:

﴿الٓمٓصٓ ﴿١﴾ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف:١-٣]، فأعظم ما آتانا الله ﷻ إياه هو القرآن الكريم، وهو الذي ذكره في أول سورة الأعراف.

ثانيًا: في آخر آية من سورة الأنعام قرَّر الله ﷻ هذه القاعِدَة العظيمة، فقال: ﴿لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ﴾ [الأنعام: ١٦٥]، وأكمل نتيجة ذلك في سورة الأعراف، حيث أخبرنا أنه سيسأل عن هذا الابتلاء ماذا فعل فيه المرسَلون والمرسَل إليهم، فقال ﷻ: ﴿فَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٦ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيۡهِم بِعِلۡمٖۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ٧﴾ [الأعراف: ٦-٧].

العلاقة الثَّالثة: استكمال خريطة الحديث القرآنيِّ عن القرآن المجيد:

قبل أن نبدأ بتفصيل هذه العلاقة ستتساءل قائلًا: (المثاني القُرآنيَّة) هي السور والآيات التي تُثنَّى قراءتها، وتتكرر ألفاظها أو معانيها، فمثلًا تكرر الحديث عن القرآن في معظم سور القرآن بأقسامه الأربعة الكبرى: السَّبع الطِّوال، والمثاني، والمئين، وكذلك في عدد كبير من سور المفصل.

فما السبب في أن نجعل من العلاقات بين سُورَتي الأنعام والأعراف: استكمالًا لخريطة الحديث عن القرآن المجيد؟ وكيف ظهرت فيها المثاني القُرآنيَّة؟

الجواب:

الكلام عن القرآن المجيد في السور من المثاني القُرآنيَّة، وتكرر الحديث عن القرآن المجيد في البقرة وآل عمران، وكثير من سور القرآن، ولكنَّك تجد الحديث في كلِّ سورة أخذ مزايا مبهجة تَفْصِلُه عن الحديث في غيرها عند التأمُّل، وعندما تنظر في سورتي الأنعام والأعراف تجد تكاملًا مثيرًا، وتآزرًا جهيرًا[1]، فَلْنُنْعِمِ النَّظَرَ في ذلك:

أولًا: ثلاثة من المقاصد الكبرى لإنزال القرآن (الإنذار للعالم، والذكرى للعالم وللمؤمنين، والاتِّباع):

---

(١) الذي تجتهره العيون، أي: تستعظمه وتستحسنه. ينظر: مقاييس اللغة (١/ ٤٨٧).

١) الإنذار للعالـم: ذكر الله ﷻ في بدايات سورة الأنعام هدفًا أساسيًّا من أهداف إنزال القرآن هو الإنذار، حيث قال جلَّ ثناؤه في (سورة الأنعام): ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩].

٢) الذِّكرى للعالـمين: ذكر هدفًا آخر في وسطها هو الذكرى، فقال: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٩٠].

٣) ومضت الآيات في سورة الأنعام تُقْنِعُك بعظمة الـمنزِل الذي هو الله ﷻ، وعظمة الـمنْزَل الذي هو القرآن الكريم، وأقام البراهين في (سورة الأنعام) على الأمرين معًا، وختمها أيضًا بذكر القرآن بقوله: ﴿وَهَـٰذَا كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ١٥٥﴾ [الأنعام ١٥٥]، وَذَكَرَ الله ﷻ في آخر ذلك هدفًا عمليًّا فيما يتعلَّق بإنزاله، وهو الاتِّباع، فقال: ﴿فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام:١٥٥].

٤) وذكر الله ﷻ هذه الـمقاصد الثلاثة الكبرى في سورة الأعراف: الإنذار للعالـم، والذكرى وخصَّ بها الـمؤمنين، والاتِّباع.

٥) ولكن ذلك اتخذ خطًّا جديدًا من خطوط التوجيه والإقناع بمجد القرآن، وكمال النِّعمة به: الإقناع والتوجيه للمبلِّغ وللمبلَّغ: بدأ (سورة الأعراف) بِذِكْر الهدفين الأولين معًا: الإنذار، والذِّكرى: ﴿كِتَـٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٢].

وهكذا رأيت التَّكامل والتَّآزر والتَّناصر، فزادت (الأعراف) نفسك إخباتًا عندما نهاك الله ﷻ أن يكون في صدرك حرج من القرآن، ثم ذكر لك هدفي الإنذار والذكرى، ثم ثلَّث بذكر هدف الاتِّباع، فهو الهدف العمليُّ الـمترتِّب على استماع الإنذار فقال: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٣].

ماذا تلاحظ في ذكر الأهداف الثلاثة؟

الجواب: فرّق الله ﷻ الأهداف الثلاثة في سورة الأنعام، فبدأ بالإنذار، ووسّط بالذِّكرى، وختم السُّورَة بالاتِّباع. كان ذلك مناسبًا لموضوع السُّورَة الـمتعلّق ببراهين الإيمان، وأركانه من النَّاحية النَّظريَّة.

أما في سورة الأعراف فقد ذكر الله ﷻ الأهداف الثلاثة دَفعة واحدة في أول آيتين منها.

فلماذا ذكر الأهداف الثلاثة مرَّة واحدة في سورة الأعراف في أولها؟

الجواب: ليناسب ذلك موضوعَها الـمتعلِّق بمسيرة البشريَّة عبر التَّاريخ، ومعركتها مع القبيل الإبليسي.

ثانيًا: الاستماع الـمؤثِّر؛ أشار الله ﷻ إلى أن أوَّل سبيل لفهم القرآن يكون بالاستماع له، وبين حال من يستمعه لا لينتفع به:

ففي سورة الأنعام، قال ﷻ:

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا ۚ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنعام: ٢٥].

وأما في سورة الأعراف فقد ختمها بالأمر بالاستماع للقرآن مهما جاء الـمضلون ليسلخوا القلوب عنه، أو يمنعوا الآذان عن التمتع به، حيث قال الله ﷻ: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

والتَّرتيب بينهما مثيرٌ للاهتمام، ففي سورة الأنعام بيَّن حال من لا ينتفع بالاستماع، وفي سورة الأعراف أمر بالاستماع، وزاد عليه الإنصات الذي يعني قطع الكلام الـمصاحب.

الاختلاف في الأسلوب واضح بين الإخبار والطلب، وبين الاكتفاء بالاستماع، وإضافة الإنصات، ولأن القرآن لا تنقضي عجائبه فلا يكفي أن تستمع له مرَّة واحدة، ثم تمضي كأنك قد فرغت.

ويمكن عند التأمُّل أن تبدو لنا كنوز حكمة عظيمة من هذا التَّرتيب.

ثالثًا: السُّورتان تُقَدِّمَان حكايات متكاملة وتوصيفًا دقيقًا عن المنسلخين من القرآن:

إذا كان الله ﷻ قد قصَّ علينا في سورة الأنعام حال من لا ينتفع بالاستماع إلى القرآن لإصراره على الجريمة في حق نفسه، فإنه أيضًا قد قصَّ علينا فيها حال من يستمع، ثم يزعم أنه يمكن أن يأتي بشيء يضاهي به ما أنزل الله ﷻ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام ٩٣]**، ثم ذكر مصيره البائس، وفي المقابل يقصُّ الله ﷻ علينا في آخر سورة الأعراف نبأً لواحد من هؤلاء الذين انسلخوا من آيات الله ﷻ اتِّباعًا لأهوائه السافلة، ونزواته المريضة، فقال:** ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٥].

فانظر لهذا التكامل التناسقي المحكم بين السُّورتين.

رابعًا: بين الكتاب الذي أنزله الله ﷻ إلى موسى عليه السلام والكتاب الخاتم المهيمن:

مدح الله سبحانه وتعالى كتاب موسى عليه السلام في (سورة الأنعام) في موضعين:

أولهما: قول الله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ﴾ [الأنعام: ٩١].

ثانيهما: قوله ﷻ: ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٤].

في كلٍّ من الموضعين ترى معاني خاصة تتعلق بمقاصد الكتاب، وواقع العالمين به في إخفاء ما لا يتفق مع أهوائهم، والتلاعب ببيّناته.

وفي (سورة الأعراف) يفصِّل الله ﷻ بصورة أخّاذة كيف آتى موسى عليه السلام هذا الكتاب! إنه تفصيل يروعك، فلا تجده في غير هذه السُّورَة من القرآن الكريم، حيث قال الله ﷻ: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ [الأعراف: ١٤٥-١٤٦].

في (سورة الأنعام) أثنى الله ﷻ على كتاب موسى عليه السلام، وبين أهداف إنزال هذا الكتاب، والواقع المجرم للأحبار الذين يتلاعبون به، وفي (سورة الأعراف) فصَّل الله ﷻ كيفية إيتاء موسى عليه السلام الكتاب تفصيلا مدهشًا، وكان يخاطب في الكلام على موسى عليه السلام القوتين العظيمتين-آنذاك- القوَّة الوَثنيَّة في قريش والعرب والقوة الكتابيَّة اليهوديَّة، فالخطاب صالحٌ لكليهما.

العلاقة الرَّابعة: استكمال خريطة الكلام على خلق الكون:

ذكر الله ﷻ في أول (سورة الأنعام) الخلق العامّ والخلق البشريّ، فقال عن خلق الكون ﷻ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١]، ثم ذكر خلق البَشر في الآية الثَّانية، فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ٢].

وفي (سورة الأعراف) أشار بإجمال إلى تمكين البَشر في الأرض، فقال الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٠]، ثم فصَّل ما يتعلق بالخلق الأول للبَشر تفصيلًا مدهشًا!

وفصَّل تفصيلًا مدهشًا ما يتعلَّق بالـمعركة الأولى في تاريخ البشريَّة.. إنها الـمعركة التي وقعت بين آدم وزوجه عليهما السلام من جهة وإبليس من جهة أخرى، والرغبات البشريَّة التي تتكون منها الفطرة البشريَّة من جهة ثالثة، والأشواق الإيمانية التي تملأ النُّفُوس الإنسانيَّة من جهة رابعة.

وعاد ليذكر خلق السَّموات والأرض في الآية (٥٤) على نحو منه.

وترى هنا أن (سورة الأعراف) صارت متممةً لـ(سورة الأنعام)، بصورة واضحة، فـ(سورة الأنعام) ذكرت الخلق العام للبشرية؛ و(سورة الأعراف) ذكرت تفصيل ما بعد الخلق البشري العام.

العلاقة الخامسة: تآزُر السُّورتين على بيان استخلاف الله ﷻ للحضارات وقيامها ونهضتها وتدميرها:

فهل رأينا علاقة بين السُّورتين في موضوع الحضارات والقرى والقرون؟

الجواب: نعم! وهذه العلاقة الخامسة، فقد ذكر الله ﷻ في أول (سورة الأنعام) البيان العامَّ الإجمالي حول نشوء الحضارات عبر القرون، ودمارها عبر الأزمان، الدَّمار الذي يحلُّ بالحضارات عندما تتجبَّر، وتتكبَّر عن اتِّباع الرسل، فقال: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾ [الأنعام: ٦]، وأخبر النَّبيَّ ﷺ بأنه سيجري عليه ما جرى لمن تقدَّمه من الرسل عليهم السلام؛ فما مسَّه من أذى فقد مسَّ مَن

قبله! قال ﷻ: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٤]، **وكذلك ذكر كيف مكّن لمجرمي الحضارات بصورة إجماليّة في قوله تعالى:** ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٣- ١٢٤].

وأخبر عن الحقيقة الـمختبئة وراء إهلاكه لتلك الأمم بصورة مجملة، فقال: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾ [الأنعام: ١٣١ – ١٣٣].

وختم الله ﷻ (سورة الأنعام) بذكر ما يترتّب على الاختيار البشري للحق والباطل في الحياة، فقد أخبرنا الله ﷻ أنه ابتلانا فيما آتانا، وبيّن أنه بناء على هذا الاختبار، فإنه ﷻ سريع العقاب، حيث قال ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾ [الأنعام: ١٦٥].

وفي الآية إخبار صريح بأنه تَعَالى ذِكْرُهُ جعل البشر دائمًا خلائف، تنشأ حضارة، وتموت حضارة، لتنشأ حضارة أخرى بعدها، وهكذا.

فإن قلت: تحدثت عن قيام الحضارات وتدميرها، وعن الاستخلاف في الأرض في سورة الأنعام، فهلّا ذكرت ذلك في سورة الأعراف؟

الجواب: أما في (سورة الأعراف) فنجد تفصيلًا تاريخيًّا واقعيًّا لأهمّ الحضارات التي عتت واستكبرت وتجبّرت وطغت ومالت إلى الغفلة والاستكبار والظلم فأُهلكت، ولاحظ أنه

ابتدأ (سورة الأعراف) بذكر ما يحلُّ بالحضارات الغافلة والـمستكبرة عمومًا، وقدَّم لذلك بقوله ﷻ: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾ [الأعراف: ٧].

ثم شهدنا تفصيلًا ماتعًا مدهشًا فيما يتعلَّق بهذه العواقب ابتداء من الاستكبار الإبليسيِّ، حيث بداية الحياة البشريَّة، وما يقابلها من الحياة في الدار الآخرة...ثم فصَّل حال الأمم الـمختلفة التي أصابها داء الغفلة، أو استحوذ عليها الاستكبار، فأبت أن تتَّبع ما أنزل إليها من ربِّها ﷻ... فذكر خمسة عهود فاصلة في التَّاريخ البشري بصورة متتابعة، هي عهود قوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم لوط، وقوم شعيب، ثم فصَّل تفصيلًا طويلًا العهد الإسرائيلي ابتداء من أيام موسى عليه السلام.

وبيَّن الحضارات التي قامت في هذه العهود بصورة قويَّة، فمثلًا قال ﷻ في قِصَّة عاد: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةًۖ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٦٩]، وقال في قِصَّة ثمود: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًاۖ﴾[الأعراف: ٧٤]، وقال في قِصَّة موسى عليه السلام أنه قال لقومه: ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩].

وكان ختامَ قَصَص الحضارات ذِكْرُ قِصَّة القرية التي ملكت ثروات سمكية هائلة، لا تأتيها بكثرة إلا في يوم سبتها اختبارًا من الله ﷻ، حيث تمنع تعبُّدًا من الاصطياد.

وبذلك ترى الاتِّصال والاعتناق بين هاتين السُّورتين في الـموضوع الحضاري.

كانت العلاقة الخامسة دائرة حول قصص الحضارات، فما العلاقة السَّادسة؟

العلاقة السَّادسة: قصص القيادات الهادية بين السُّورتين:

في سورة الأنعام ذكر الله ﷻ ثمانية عشر رسولًا من أعظم القيادات البشريَّة في الأرض، لكنَّه صرَّح بأسمائهم عَلَى وَجْهِ الْإِجْمَالِ، مؤسسًا ذكرهم على قِصَّة نهضة إبراهيم عليه السلام لإصلاح البشريَّة على نور النُّبوَّة، وقال في ختام ذكرهم مثبِّتًا لنبيِّه ﷺ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٩٠].

وفي (سورة الأعراف) فصَّل الله ﷻ قصص نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب، وموسى عليهم السلام.

وقد تتساءل: ما الحكمة من عدم ذكر سيدنا إبراهيم عليه السلام في سورة الأعراف؟

الجواب:

لم يذكر إبراهيم عليه السلام مع أن عهده من أعظم العهود الفاصلة في التَّاريخ، حيث تلمح الجواب في أنه قد ذُكِر بتفصيل مثير لم يذكر له مثله في سورة أخرى، ولكن أين ذكر؟

الجواب: في سورة الأنعام، وهكذا ترى التكامل العظيم بين السُّورتين.

وفي سياق آخر ختم قصص القيادات البشريَّة السيئة بالقِصَّة الواردة في قوله: ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٦].

العلاقة السَّابعة: تكامل التَّفصيل للمقصد الأول من خلق الإنسان وإيجاد الحضارات: الرَّحْمَة:

أدركنا فيما سبق الرَّوابط المتعلِّقة بالحضارات والقيادات البشريَّة، فماذا عن سؤال الوجود: لماذا أوجدهم الله ﷻ؟

الجواب: ذكر الله ﷻ في (سورة الأنعام) قوله تعالى: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۚ﴾ [الأنعام: ١٢]، وقوله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤]، وبيَّن في (سورة الأعراف) الذين يستحقون هذه الرَّحمَة فقال: ﴿قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ۝١٥٦ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦-١٥٧].

العلاقة الثَّامنة: تكامل صور مشاهد الحساب:

كانت العلاقة السَّابقة تفصِّل تكامل السُّورتين في أمور الدُّنيا، فكيف الشأن في أمور الآخرة؟

الجواب: لقد تعدَّدت صور التكامل بين السُّورتين في مشاهد الآخرة بصورة مدهشة حتى تكاد التعبيرات تتكرَّر مع اختلاف الصُّور المثيرات:

١) فيُظهر الله ﷻ لك في (سورة الأنعام) كيفية الحساب الإلهي للحسنات والسَّيِّئات البشريَّة، فيقول: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٠]؛ وتأتي (سورة الأعراف) لتبرز لك آلة الحساب الدقيقة وهي الـميزان، حيث قال الله ﷻ: ﴿وَٱلۡوَزۡنُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّۚ فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٨].

٢) وتجد في سورة الأنعام السؤال الإنكاريَّ لانتظار تحقُّق الغيب الـمستقبلي الـمتعلِّق بالسَّاعة، ثم الحكاية عن واقع القوى الـمعاندة عند مجيئها، فهم يحاولون الإيمان دون جدوى: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ رَبُّكَ أَوۡ يَأۡتِيَ بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَۗ﴾ [الأنعام:

١٥٨]، **ثم يبين ما يحدث عندما تأتي آيات السَّاعة الكبرى:** ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٨].

وقريب من هذا السؤال يطرح بصورة مختلفة في (سورة الأعراف) في قول الله ﷻ: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ﴾ [الأعراف: ٥٣]، **ثم يبين الأحداث العظمى، عندما يرون تأويل القرآن فيما يتعلق بمصيرهم قد صار حقيقة، فيقول تعالى:** ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٣].

وهذا السؤال ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ تكرر سبع مرات في القرآن المجيد بإثبات الفاء في مرتين منها، وإليكها مرتبة:

١) ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾﴾ [البقرة: ٢١٠].

٢) ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الأنعام: ١٥٨].

٣) ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [الأعراف: ٥٣].

٤) ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [النحل: ٣٣].

٥) ﴿ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ [فاطر: ٤٣].

٦) ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [الزخرف: ٦٦].

٧) ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾﴾ [محمَّد: ١٨].

وفي صورة مذهلة يمنحنا الله ﷻ في (سورة الأنعام) وصفًا دقيقًا لمن يزعم الاعتزاز بقواته وثرواته، ومن يدعمه من أعضاء مجلس الخوف العالمي، فيستقوي على الأبرياء، ويبين الله ﷻ نهايته عند الموت بتصويرٍ تخشع له الجبال الصم، وترتج لِهَوْلِهِ -لو أُذِنَ لها- السماء، فيقول الله ﷻ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣-٩٤].

فـ(سورة الأنعام) ذكرت حالهم عند الموت وفي البرزخ، و(سورة الأعراف) تكمل ما يحدث لهم في سكرات الموت وفي البرزخ، فيقول الله ﷻ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓا۟ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [الأعراف: ٣٧]**، وتكمل أيضًا أحوالهم يوم القيامة وَفق تفصيل شديد الإثارة، فتذكر مصير الجميع، وحال أهل النار وأهل الجنة، وبعض الحوارات التي تجري بينهم، وتختم باعتراف الخاسرين:** ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ﴾

[الأعراف: ٥٣] بحثوا عن قواتهم، وعن من اعتزوا بهم من الأصدقاء، بل حتى من أعدائهم... وكما ضل عنهم ما كانوا يزعمون في (سورة الأنعام)؛ فها هي (سورة الأعراف) تختم هذا المشهد الزاجر المؤلم بقوله: ﴿قَدْ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٣].

وترى في السُّورتين المساءلة للجن والإنس عن واقعهم في الدُّنيا، حيث تعرض المشاهد المتكاملة في ذلك، فتعرض لنا (سورة الأنعام) فصلًا في مساءلة الجن والإنس: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٠]، ويكتمل المشهد في (سورة الأعراف) في قوله ﷻ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓاْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: ٣٧].

العلاقة التَّاسعة: العلاقة التَّكاملية في مواجهة الأنظمة الجاهليَّة:

(التَّكامل الممتع المتدفِّق غير الممل بين السُّورتين في مواجهة القوى والأنظمة الجاهليَّة المتخلفة في الذبائح، والنذور، واللباس، والطعام، والتحليل والتحريم):

كانت العلاقة السَّابقة تتحدث عن تكامل السُّورتين في أمور الآخرة، فكيف كان حديث السُّورتين عن مواجهة الأنظمة الجاهليَّة؟

الجواب: تتَّضح طريقة عرض السُّورتين لسبل مواجهة الأنظمة الجاهليَّة من خلال ما يأتي:

١) فقد بيَّنَ الله ﷻ في (سورة الأنعام) أن الجاهليَّات تضع أنظمة صارمة لأنفسهم حيث خصَّصوا مما ذرأ الله ﷻ من الحرث والأنعام نصيبًا، قسموه لشركائهم من معبودات الجاهليَّة التي يقدِّسونها، عندما قالوا: ﴿وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن

نَّشَآءُ بِزَعۡمِهِمۡ وَأَنۡعَٰمٌ حُرِّمَتۡ ظُهُورُهَا وَأَنۡعَٰمٌ لَّا يَذۡكُرُونَ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا ٱفۡتِرَآءً عَلَيۡهِۚ سَيَجۡزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٨].

٢) وكشف عن عقلية التحليل والتحريم العنصرية في تمييزهم الذكور بطعام دون الإناث.

٣) وأخبر بأعظم خطاياهم التشريعية التي بسببها يضحُّون بأولادهم إرضاء لحريتهم في الاختيار، ولشهواتهم، فقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ قَتۡلَ أَوۡلَٰدِهِمۡ شُرَكَآؤُهُمۡ لِيُرۡدُوهُمۡ وَلِيَلۡبِسُواْ عَلَيۡهِمۡ دِينَهُمۡۖ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٧].

٤) وفضح طقوسهم الوضعية التي بها حرموا ما رزقهم الله ﷻ افتراء عليه، وأخبر بالمحرمات من المطعومات اللحمية، فقال ﷻ: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطۡعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيۡتَةً أَوۡ دَمًا مَّسۡفُوحًا أَوۡ لَحۡمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ أَوۡ فِسۡقًا أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ﴾ [الأنعام: ١٤٥]، **وأخبرنا الله ﷻ بأنه حرَّم بعض الطيبات على اليهود بسبب بغيهم.**

٥) وفي (سورة الأعراف) سارت البصائر القُرآنيَّة على نسقٍ متممٍّ لما جاء في (سورة الأنعام) بأسلوبٍ مماثل حيث ذكر الله ﷻ ما هم عليه من إشاعة الفاحشة التي تتضمَّن العري وتقنينها في شرك الحاكمية، وأخبر بما أوجب على البشريَّة لكي تترقَّى وتتقدَّم وتأخذ نصيبها من الملبوسات والمطعومات والمشروبات، فقال تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسًا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشًاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٌۚ﴾ [الأعراف: ٢٦]، **وقال ﷻ:** ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٍ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ﴾ [الأعراف: ٣١].

٦) ذكر الله ﷻ في سورة الأعراف أن الجاهليين يشرِّعون الفحشاء، ويعملون على نشرها بصورة منظمة فرديَّة وجماعيَّة، ويفترون لها الفتاوى الدينيَّة: ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ﴾ [الأعراف:٢٨].

٧) وفي سورة الأعراف أنكر على الجاهليات القديمة والحديثة أن يمارسوا شرك الحاكمية، فيحلوا ما حرم الله ﷻ، ويحرموا ما أحل الله ﷻ، فقال ﷻ: ﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةً يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٍ يَعۡلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٢].

٨) وكما أخبرنا في الأنعام بعد ذلك عن الوصايا العشر الأساسيَّة التي تتضمَّن أهمَّ المحرمات الكُلِّيَّة، وابتدأ ذلك بقوله: ﴿قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ﴾ [الأنعام: ١٥١]، كذلك أخبرنا في الأعراف عن أهمِّ المحرمات التَّفصيليَّة ، فقال ﷻ : ﴿قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

٩) ختم هذا السَّيل المتدفِّق من المعلومات عن الجاهليات القديمة والمعاصرة، والتَّشريعات المصحِّحة للأوضاع والأفكار المعوجَّة بالسؤال نفسه في سورتي الأنعام والأعراف: إنه السؤال الذي ينكر عليهم أن يكذِّبوا بآيات الله ﷻ، ويفتروا ما سواها – وقد تكرر هذا السؤال في السُّورَة بألفاظ متقاربة ثلاث مرَّات فقال ﷻ: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنۡهَاۗ﴾ [الأنعام: ١٥٧].

وهو السؤال الإنكاري المشابه في سورة الأعراف مع اختلاف مكمِّل: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ﴾ [الأعراف: ٣٧].

العلاقة العاشرة: تكامل السُّورتين في تفصيل أحد أهمِّ مدمِّرات الحياة الإنسانيَّة، وهو الإسراف:

تحدثت العلاقة السَّابقة عن تكامل السُّورتين في مواجهة الأنظمة الجاهليَّة، فكيف تناولتا موضوع الإسراف المدمر للحياة الإنسانيَّة؟

الجواب: أما في (سورة الأنعام) فجرى الحديث عن الإسراف متعلّقًا بالأكل من الزروع والثِّمار، ومتعلّقًا بإتيان حقِّه العامِّ للمجتمع، فقال الله ﷻ:

﴿كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنعام: ١٤١].

وأما في (سورة الأعراف) فجرى الحديث عنه متعلّقًا بأخذ الزينة والأكل والشرب عمومًا، فقال الله ﷻ: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١].

وهنا ترى التكامل والتتميم بين السُّورتين بصورة مدهشة، فسبحان منزل القرآن، وتعالى المتكلِّم بهذا البيان.

العلاقة الحادية عشرة: اجتمعت السُّورتان على إظهار التكامل في معركة البشريّة ضد الشّيطان:

وربما سألت: فكيف تناولت السُّورتان معركة البشريّة ضدَّ الشّيطان؟

الجواب: يتضح التكامل بين السُّورتين في تناول هذه المعركة فيما يأتي:

١) في (سورة الأنعام) نجد التحذير من اتباع خطوات الشّيطان في قوله ﷻ: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [الأنعام: ١٤٢]، وأما في (سورة الأعراف) فنجد القِصَّة التَّفصيليَّة للإغواء الشّيطانيِّ لأبوي البشريّة، حيث اتبع الأبوان عليهما السلام خطوات الشّيطان، ثم استدركا الخطأ فتابا، وتختم القِصَّة بالتحذير من فتنته وموالاته في قوله ﷻ: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف ٢٧].

٢) وتستكمل سورة الأعراف الصُّورة فتذكر قِصَّة مَنْ آتاه الله ﷻ آياته، فأخطأ الاختيار حتى أتبعه الشَّيطان، فانسلخ منها، وأهدر الكرامة التي أسبغها الله ﷻعليه: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٥]، وختم الله ﷻ سورة الأعراف بتحذير البشريَّة من مسِّ الطائف الشَّيطانيِّ الذي يغيِّرُ الأفكار والأخلاق: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾ [الأعراف ٢٠١].

العلاقة الثَّانية عشرة: تعاضد السُّورتين في بيان شناعة الكذب على الله ﷻ، وجريمة الافتراء عليه سواء أكان المفترون من أهل الكتاب أم كانوا من المشركين أم من أدعياء الانتساب للإسلام:

بيَّنت العلاقة السَّابقة تكامل السُّورتين في الحديث عن المعركة مع الشَّيطان، فكيف تناولتا جريمة الكذب على الله ﷻ؟

الجواب: تناولت هاتان السُّورتان هذا الموضوع ببيان شاف، ففي (سورة الأنعام) تجد وصفًا مُزَلْزِلًا لِقُوَى الافتراء التي تزعم أن ما تقوله وتفعله وحيٌ جاء إليها من الله ﷻ، ويصف الله ﷻ مقدار ظلمها الشنيع غير مرَّة، فيقول في الأولى: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الأنعام: ٢١]**، ثم يخبر عن كلامه الذي أنزله ويخصُّ بالذكر كتابين عظيمين من الكتب التي أنزلها: كتاب موسى عليه السلام فيقول:** ﴿قُلۡ مَنۡ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورٗا وَهُدٗى لِّلنَّاسِۖ تَجۡعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبۡدُونَهَا وَتُخۡفُونَ كَثِيرٗاۖ﴾ [الأنعام: ٩١]**، والكتاب الخاتم القرآن الكريم، فيقول فيه ﷻ:** ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَاۚ﴾ [الأنعام: ٩٢].

ويعقِّب ذلك بذكر جريمة الافتراء على الله ﷻ، فيقول: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمۡ يُوحَ إِلَيۡهِ شَيۡءٞ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثۡلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۗ﴾ [الأنعام ٩٣].

ثم يعود مرة أخرى ليبيِّن شناعة الجريمة الكبرى - جريمة القول على الله ﷻ بلا علم - وأنها جعلت أقوامًا يقومون بجرائم لا يصدقها عقل مثل جريمة قتل الأطفال!!!

ويقرن بها جريمة التشريع للحلال والحرام في أكل اللحوم وَفق الأهواء البشريَّة.

وهل تصدق أن مرشحة للرئاسة في أقوى دول العالم اليوم لما سئلت عن جريمة الإجهاض تردَّدت، ثم صرَّحت بأنها مع حقِّ الاختيار! يعني أنها مع حقِّ قتل الأطفال في بطون أمهاتهم، ولكن انظر لبريق الكلمة المختارة.

هل سمعت هذه الأيام أن الأمم المتفرِّقة والمتحدة تُشَرِّعُ جريمة الإجهاض؟ أليس هذا قتلًا شنيعًا لا يستطيع أحد أن يصدِّق بشاعته؟! إنها الجاهليَّة الأولى توافقها بعنف أكبر الجاهليَّة الأخرى.

وفي الولايات المتحدة يتمُّ تنظيم مئات التَّظاهرات في إطار "مسيرة النِّسَاء" تهدف إلى المطالبة بالحق في الإجهاض(١).

فمن قال لهم: إنَّ لهم حرية الاختيار في قتل الأطفال وتشريع الحرام والحلال فيما يفعلون ويأكلون ويشربون وهم لا يعرفون ماذا ينفع أبدانهم وما يضرُّها؟ فيوجِّه الله ﷻ لهم هذا السؤال الإنكاريَّ، بذكر جريمة الافتراء للمرة الثَّالثة، فيقول: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٤].

ولأن سورة الأنعام متعلقة ببيان أصول الإيمان تمضي الآيات القُرآنيَّة المزلزلة في تبيين جريمة الافتراء على الله ﷻ، ويذِّكر الله ﷻ عباده بأعظم مصادر الوحي الإلهيِّ، فيخبر العالم عن مكانة الكتابين العظيمين: الكتاب الذي أنزله على موسى عليه السلام والكتاب الذي أنزله على

(١) المصدر: /https: //elaph.com /Web /News ٢٠٢١/ ١٠/ ١٤٥٣١١٣html.

محمَّد ﷺ، فيقول ﷻ: ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٤-١٥٥].

ثم يعقِّب ذلك للمرَّة الرَّابعة بذكر الجريمة الكبرى عندما يكذِّب أحد بآيات الله ﷻ، فيقول ربنا سبحانه: ﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأنعام ١٥٧].

فقرن في التعبير بين جريمة الكذب على الله ﷻ، والتكذيب بآياته جل في علاه.

فإن تساءلت: قد عرفنا كيف تناولت سورة الأنعام لجريمة الافتراء على الله ﷻ، فكان تناولتها سورة الأعراف؟

الجواب: تأتي سورة (سورة الأعراف) على النسق ذاته، فيبين الله ﷻ شناعة جريمة القول على الله ﷻ بلا علم فيقول: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

ثم يعود ليقرن بين جريمة الافتراء عليه والتكذيب بآياته فقال ﷻ: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ﴾ [الأعراف: ٣٧].

فَقَلِّب طرفك في الأمم! هل تجد من مصَّاصي دماء العالـم وقاتلي الأطفال إلا مفتريًا على الله ﷻ الكذب، أو مكذِّبًا بآياته...تصوَّرْ مَنْ يُقتل من الأطفال بالإجهاض! وتصوَّرْ مَنْ يُقتل بنيران الصواريخ القادمة من ديار كسرى وقيصر الـمعاصرين، حيث يستخدمها أبناء أبي رغال في قتل الأبرياء!

إنك لترى الواقع في السُّوَر من القصص مستقلًا شافيًا، فإذا ضُمَّ بعض ذلك إلى بعض ارتفع إجمُاله، ووضح كمالُه، فتبارك مَنْ هذا كلامُه، ومن جعله حجَّة قاطعة، وآية باهرة، كما يشير إليه البقاعيُّ (نظم الدرر ٧/٣٥٤).

ولو مضينا نستقصي وجوه التَّكامل لاضطرَّنا ذلك إلى تعديد الآيات واحدةً واحدةً؛ فسنجد عند التَّفصيل ارتباطاتٍ ضخمةً تُبيِّنُ التَّكاملَ بين السُّورتين.

الأساس الثالث: اسم سورة الأعراف، وعلاقته بالموضوع الكُلِّي للسُّورة

"الأعراف" اسم فيه إثارة لطلب الـمعرفة؛ لأنه غير معتاد، فعندما تسمعه يحرِّك في نفسك الكثير من الأسئلة التي تتعلَّق بهذه التَّسمية:

فما معنى هذا الاسم؟ وهل تتعلَّق بهذا الاسم أحكام؟ وما سبب هذه التَّسمية؟ وهل لهذه السُّورَة أسماء أخرى؟

سنجيب -بإذن الله ﷻ- عن هذه الأسئلة واحدًا تلو الآخر في المباحث الآتية:

المبحث الأول: الاسم المُمَيِّزُ لهذه السُّورَة.

المبحث الثاني: سبب تسمية سورة الأعراف بهذا الاسم.

المبحث الثالث: الأعراف وعلاقته بالحجاب.

المبحث الرابع: سبب جعل هذه التَّسمية مركزية للسُّورة.

المبحث الخامس: أسماء أخرى لسورة الأعراف.

المبحث الأول: الاسم المميز لهذه السُّورَة

ما اسم هذه السُّورَة؟

الجواب: الاسم الـمُمَيِّزُ لهذه السُّورَة الـمباركة هو (الأعراف)، وبه عُرِفَتْ بين الـمسلمين، فعن مروان بن الحكم رحمه الله قال: قال لي زيد بن ثابت رضي الله عنه: ما لك تقرأ في الـمغرب بِقِصار الـمُفَصَّل – [وهن من سورة الضحى إلى النَّاس] - وقد رأيتُ رسول الله ﷺ يقرأ في الـمغرب بِطُولى الطُّولَيَيْنِ؟! قُلْتُ: مَا طُولَى الطُّولَيَيْنِ؟! قَالَ: «الأَعْرَافُ، وَالأُخْرَى الأَنْعَامُ». قال -يعني ابن جريج-: وسألت أنا ابن أبي مليكة؛ فقال لي من قِبَلِ نفسه: «الـمائدة، والأعراف» [١].

وأشار زيد بن ثابت رضي الله عنه إلى أن هذه السُّورَة كانت تعرف عندهم في مقابل (سورة الأنعام) بطولى الطُّولَيَيْنِ، ومقارنتها إنما تكون بالأنعام لا بالـمائدة، فما ورد عن ابن أبي مليكة رحمه الله إما شاذ، وإما سهو[٢]، وسورة الأعراف هي السُّورَة الرَّابعة في التَّرتيب من حيث الطول؛ إذ إن أطول سور القرآن: (سورة البقرة) تليها، (سورة النِّسَاء)، ثم (سورة الأعراف)[٣].

---

(١) أحمد (٢١٦٤١)، من دون قول ابن جريج، أبو داود (٨١٢) واللفظ له، وصحَّحه الأرناؤوط، والألباني.

(٢) وقد اختلف على ابن جريج في تعيين السورتين اللتين ذكرهما ابن أبي مليكة، فقيل: المائدة والأعراف، وقيل: الأنعام والأعراف، وقيل: يونس والأعراف، قال الحافظ في "الفتح"(٢/ ٢٤٧): "فحصل الاتفاق على تفسير الطولى بالأعراف، وفي تفسير الأخرى ثلاثة أقوال، المحفوظ منها الأنعام".

(٣) سورة النِّسَاء أكبر من سورة الأعراف من حيث عدد الكلمات، لا من حيث عدد الآيات، فهي تزيد على سورة الأعراف بأكثر من أربعمائة كلمة، حيث إن عدد كلمات سورة النِّسَاء عند الفيروزآبادي (٣٧٤٥) ثلاثة آلاف وسبعمائة وخمس وأربعون كلمة، وعدد كلمات سورة الأعراف عنده أيضا (٣٠٢٥) ثلاثة آلاف وثلاثمائة وخمس وعشرون كلمة. ينظر: بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز (١/ ١٦٩، ٢٠٣).

وذُكِرَ في مصحف (سورة) التابع لمركز تفسير أن عدد كلمات سورة النِّسَاء (٣٧٤٧)، وعدد كلمات سورة الأعراف (٣٣٢٠)، وهذا التفاوت قائم على أساس الاختلاف في مقياس الكلمة هل العُرفية أو النحوية.

سورة البقرة أطول من الأعراف، وكذلك النِّسَاء وآل عمران، فلماذا تسمى الأعراف طولى الطُّولَيين؟

الجواب: يظهر لي في معنى الحديث أن سورة الأعراف كانت أطول سور القرآن؛ إذ نزلت كاملة، وكانت تعرف بذلك قبل اكتمال سورة البقرة، والنِّسَاء، وآل عمران، وبقي هذا الاسم والتصور في الأذهان، وهذا هو الاحتمال الرَّاجح، ويمكن أن يقال: لعلَّ القائل ما كان يحفظ من البقرة والنِّسَاء ما كان يحفظه من الأنعام والأعراف(١).

وقد روى أكثر من صحابي قراءة النَّبيِّ ﷺ لسورة الأعراف في المغرب، فعن عائشة ﵂، «أن رسول الله ﷺ قرأ في صلاة المغرب بسورة الأعراف، فَرَّقَهَا في ركعتين»(٢).

ولعل المرء قد يعجب!! فيتساءل: كيف تُقْرأُ (سورة الأعراف) في صلاة المغرب؟

والجواب: ذلك كان في عهد النَّبيِّ ﷺ، ويناسب أن يقتدي به من يشبه تلك الحال، كما قال الفقهاء: هذا محمولٌ على قوم محصورين رضوا بالتطويل، ولم يكن هذا بالأمر الدائم الثابت، وإنما للإشارة إلى الجواز ولصرف النهي عن التطويل إلى الكراهة أو الأمر بالتخفيف إلى الندب (٣).

وأما قول بعضهم: "لعل ما فعله النَّبيُّ ﷺ كان في مسمى السُّورَة، فلم يقرأها كاملة، ولكن قرأ منها ما قرأ أطول مما يعهده النَّاس" فلا يظهر؛ لأن زيدًا ﵁ يخبر مروان في معرض بيان التطويل.

---

(١) قَالَ ابن الْمُنِيرِ: "تَسْمِيَةُ الْأَعْرَافِ وَالْأَنْعَامِ بِالطُّولَيَيْنِ، إِنَّمَا هُوَ لِعُرْفٍ فِيهِمَا، لَا أَنَّهُمَا أَطْوَلُ مِنْ غَيْرِهِمَا، وَاللهُ أَعْلَمُ". فتح الباري لابن حجر (٢/ ٢٤٧).

(٢) النسائي (٩٩١)، وحسن إسنادَه النووي في المجموع (٣/ ٣٨٣)، وابن الملقن في البدر المنير (٣/ ١٨٣).

(٣) قال ابن حجر -بعد أن ذكر الأحاديث الواردة في السور التي كان النبيﷺ يقرؤها في صلاة المغرب-: "وَطَرِيقُ الْجَمْعِ بَيْنَ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ أَنَّهُ ﷺ كَانَ أَحْيَانًا يُطِيلُ الْقِرَاءَةَ فِي الْمَغْرِبِ؛ إِمَّا لِبَيَانِ الْجَوَازِ، وَإِمَّا لِعِلْمِهِ بِعَدَمِ الْمَشَقَّةِ عَلَى الْمَأْمُومِينَ". فتح الباري لابن حجر (٢/ ٢٤٨).

والنَّبيُّ ﷺ ندب غيره إلى أن يقرأ بسُوَر من المفصَّل؛ فعن جابر رضي الله عنه قال: مرَّ رجل من الأنصار بِنَاضِحَيْنِ[1] على معاذ رضي الله عنه، وهو يصلي المغرب، فافتتح بسورة البقرة، فصلى الرجل، ثم ذهب فبلغ ذلك النَّبيُّ ﷺ، فقال: «أفتان يا معاذ؟ أفتان يا معاذ؟ ألا قرأتَ بـ ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾ [الأعلى: ١]، ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا﴾ [الشمس: ١] ونحوهما»[2].

والنَّبيُّ ﷺ يعلِّمنا هنا أن الإنسان لا ينبغي له أن يحرم نفسه من القراءة بالسُّوَر الطِّوال في المكان المناسب لها...كنشاط عباديٍّ، أو مخيم تربويٍّ، أو اعتمار، أو في رمضان.

لكن الأصل الثابت في الصَّلوات المفروضة ومنها المغرب إذا كان إمامًا أن يُذهَبَ إلى ما قرَّره النَّبيُّ ﷺ في قوله من التخفيف، وقد قيل:

رُبَّ إمامٍ عديمُ ذوقٍ ... قد أمَّ بالنَّاس وهو مُجْحِفْ
خَالَفَ في ذاك قولَ طَه ... مَنْ أمَّ بالنَّاس فليُخَفِّفْ

ولكن ذلك يختلف حسب الأشخاص والجهات والأوقات، فلا يترك الإنسان لَذَّة القنوت في الصَّلاة (طول الصَّلاة) عندما يسعه.

وقد ذكرنا هذه الرواية لأجل أن نبين أن اسم سورة الأعراف كان معروفًا عند الصَّحَابة رضي الله عنهم، وأن الذي علمهم بذلك النَّبيُّ ﷺ، فاسمها توقيفي، إذ ترى ذلك من تسميتها بهذا الاسم في ألفاظ الصَّحَابة رضي الله عنهم، حتى عُرِفت بينهم بذلك كما في حديثي زيد بن ثابت وعائشة رضي الله عنهما المُتَقدِّمين.

---

(١) "تثنية ناضح، هي الإبل التي يستقى عليها الماء، وجمعها نواضح". ذخيرة العقبى في شرح المجتبى (١٢ ٤٨٥).

(٢) النسائي (٩٨٤)، وصححه الألباني.

المبحث الثاني: سبب تسمية سورة الأعراف بهذا الاسم

لماذا سميت سورة الأعراف بهذا الاسم؟

الجواب: سميت هذه السُّورَة بهذا الاسم؛ لِوُرُودِهِ فيها في موضعين:

أولهما: قوله ﷻ: ﴿وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٞ﴾ [الأعراف ٤٦].

وثانيهما: قوله ﷻ: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمۡ قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ ٤٨﴾ [الأعراف: ٤٨].

ولم يَرِدْ هذا اللفظ في غير هذين الـموضعين من السُّورَة، كما لم يَرِدْ في غير هذه السُّورَة من القرآن.

وهذا يدعوك إلى التَّعجب، والبحث: فكان يمكن أن تسمى السُّورَة باسم تكرر فيها مثل: موسى عليه السلام تكرر ذكره نحوًا من عشرين مرة، فهي أكثر سورة ذُكِرِ فيها موسى عليه السلام، وتكرَّرت كلمة بني آدم عليه السلام خمس مرات.. فلماذا سُمِّيت هذا الاسم بالذَّات؟

قد يقال: ربما لندرة تكرره، ولكن هذا السبب ليس كافيًا، فدعونا ننظر ما معنى الأعراف لنتوصل إلى سبب التَّسمية:

ما معنى كلمة (الأعراف)؟

الجواب: ورد ذكر الأعراف أولًا في السُّورَة عند قوله تعالى:

﴿وَبَيۡنَهُمَا حِجَابٞۚ وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٞ يَعۡرِفُونَ كُلَّۢا بِسِيمَىٰهُمۡۚ وَنَادَوۡاْ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۚ لَمۡ يَدۡخُلُوهَا وَهُمۡ يَطۡمَعُونَ﴾ [الأعراف: ٤٦].

هذه الآية تنقلنا إلى مشهد جديد.. في هذا الـمشهد نجد فريقًا آخر لا ينتمي إلى أهل الجنة ولا إلى أهل النار، فبعد أن بيَّنت لنا الآيتان السابقتان لهذه الآية أن أهل الجنة استقروا في الجنة، وأن أهل النار استقروا في النار، وتمتع الـمؤمنون في الجنة بالافتخار بالنتيجة العظيمة التي

حازوها.. أخبرتنا الآيتان السابقتان بتمتع المؤمنين بمحاورة أهل النار، وقد تحقق وعد الله ﷻ في الآخرة... هنا ربما تساءل متسائل: هل هناك فئة لا تنتمي للفريقين؟

فجاء هذا المشهد الذي يقول الله تَعَالى جَدُّهُ فيه:

﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌۚ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَىٰهُمْۚ﴾ [الأعراف: ٤٦]:

هنا تنتقل بك الآيات لتصف لك مكانًا مميَّزًا بين الجنة والنار.. إنه المكان المتوسط الذي يكون بين الجنة والنار، حيث تجد الحجاب الذي يشبه المنطقة المتوسطة العازلة بين الجنة والنار، وهذه المنطقة تحجز نعيم الجنة من أن يصل إلى أهل النار، وتحجز جحيم النار من أن يصل إلى الجنة، ويوجد في هذه المنطقة الحاجبة الحاجزة قوم ينظرون إلى الفريقين، وهنا نسأل:

لماذا قدم الله ﷻ كلمة ﴿بَيْنَهُمَا﴾ وهي ظرف متعلق بخبر على المبتدأ في قوله: ﴿حِجَابٌ﴾؟

الجواب: تَقْدِيمُ ﴿وَبَيْنَهُمَا﴾ لِلاهْتِمامِ بِالمكانِ المتَوَسِّطِ بَيْنَ الجَنَّةِ والنّارِ، ولبيان دوره في الحجز بين الفريقين والمكانين، وبِهَذا التَّقْدِيمِ صَحَّ تَصْحِيحُ الِابْتِداءِ بِالنَّكِرَةِ، والتَّنْكِيرُ لِلتَّعْظِيمِ، والضَمِيرُ في قوله: ﴿بَيْنَهُمَا﴾ يَعُودُ إلى لَفْظَيِ الجَنَّةِ والنّارِ الواقِعَيْنِ في قَوْلِهِ ﷻ: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَـٰبَ ٱلنَّارِ﴾ [الأعراف: ٤٤]، وهُما اسْما مَكانٍ، فَيَصْلُحُ اعْتِبارُ التَّوَسُّطِ بَيْنَهُما(١).

ولَاحِظِ الآية، فقد ذكر الله ﷻ لنا أمرين: الحجاب الذي بين أهل الجنة وأهل النار، والأعراف، فهل هما واحد؟

الجواب: حتى نصل إلى ذلك يجب أن نعرف معنى هذه الكلمة ﴿حِجَابٌ﴾:

---

(١) التحرير والتنوير (٨ب/ ١٤٠).

الحجاب مشتق مِنَ (حَجَبَ) أي منع من الوصول لأمر مخصوص، يقال: حَجَبَه حَجْبًا وحِجَابًا، وَحِجَابُ الْجَوْفِ: مَا يَحْجُبُ بَيْنَ الْفُؤَادِ وَسَائِرِ الْجَوْفِ، وَالْحَاجِبَانِ الْعَظْمَانِ فَوْقَ الْعَيْنَيْنِ بَالشَّعْرِ وَاللَّحْمِ، كَأَنَّهُمَا تَحْجُبَانِ شَيْئًا يَصِلُ إِلَى الْعَيْنَيْنِ، وَكَذَلِكَ حَاجِبُ الشَّمْسِ ما يمنع رؤيتها(١)، ومنه قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾ [ص: ٣٢]، يعني الشَّمس إذا استترت بما يسترها من الأفق في المغيب في عين الرائي، فهو حجاب نِسْبيٌّ.

فنتج لنا من هذا أن الحِجَابَ من الحَجْبِ كَالْكِفَافِ مِنَ الْكَفِّ وَالصِّوَانِ مِنَ الصَّوْنِ: الشيء الذي يمنع من الوصول بين جهتين منعًا كليًّا، ويمكن أن يحدث الوصول الجزئي، وَقد يكون هذا الحِجَابُ حِسِّيًّا وَقد يكون مَعْنَوِيًّا.

فمن الحجاب مَا يَمْنَعُ الوصول لكنه لا يمنع الرُّؤْيَة كَالزُّجَاجِ، وَمنه مَا يَمْنَعُ الرُّؤْيَةَ وَحْدَهَا كَالسُّتُورِ، وَمنه مَا يَمْنَعُهُمَا جَمِيعًا كَالْأَسْوَارِ وَالْحِيطَانِ(٢).

فما خلاصة قوَّة التَّصوير التي تمنحك إيَّاها هذه الكلمة: ﴿حِجَابٌ﴾؟

الجواب: الحجاب حاجزٌ بين الجنة والنار، ويظهر لي أنه يحجب أذى النار من الوصول إلى الجنة، ويحجب نعيم الجنة من الوصول إلى النار، ولكنه لا يمنع الرؤية والتكلم بين الفريقين، كما ترى في الآيات، حيث يكلم كل من الفريقين الآخر، وقد ذهب المفسِّرون إلى أنه السور الذي ذكره الله تَعَالى جَدُّهُ في قوله: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحديد: ١٣].

وهنا قد تتساءل: بما أن للحجاب بين الجنة والنار بابًا، فهل يمكن أن يكون عَرضه خفيفًا؟

الجواب: الأمر أوسع من أن أُدْرُكُه أنا وأنت.. تَصَوَّرْ أنت الـموقف:

(١) مقاييس اللغة (٢/ ١٤٣).

(٢) تفسير المنار (٨/ ٣٨٣).

الجنة رائحتها التي تخرج منها يصف النَّبيُّ ﷺ امتدادها، فعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ قَتَلَ نَفْسًا مُعَاهَدًا لَمْ يَرَحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ رِيحَهَا يُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا»(١)، فهذا جانب لها، وجانب آخر يبينه حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من ادعى إلى غير أبيه لم يَرَحْ رَائِحَةَ الجنة، وإنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِن قَدْرِ سبعين عامًا، أو مَسِيرَةِ سبعين عامًا»(٢).

والنار تتميز من الغيظ، ولفحُها ينبعث يوم القيامة، فيكاد يحيط بالخلق، فإن لها أعناقًا تخرج منها ممتدة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تَخْرُجُ عُنُقٌ مِنَ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَهَا عَيْنَانِ تُبْصِرَانِ، وَأُذُنَانِ تَسْمَعَانِ، وَلِسَانٌ يَنْطِقُ، يَقُولُ: إِنِّي وُكِّلْتُ بِثَلَاثَةٍ؛ بِكُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ، وَبِكُلِّ مَنْ دَعَا مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ، وَبِالْمُصَوِّرِينَ»(٣)، ولذا حمى الله عز وجل من سبقت لهم الحسنى من حسيسها، فقال: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَاۖ وَهُمْ فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ١٠٢﴾ [الأنبياء: ١٠٢].

عد الآن إلى هذا الحجاب وتصوَّرْ كم سيكون عُرضه؟

وتصوَّرْ مقدار القوة التي سيحتويها ليكفَّ ريح هذه (الجنة) فلا تصل إلى النار، وكم سيكون عرض هذا الحجاب حتى يمنع شَوْبَ النار من أن يصل حسيسه إلى الجنة.. هنا تتصور مسافة ذلك الحجاب من حيث العُرض.

(١) البخاري (٦٩١٤).

(٢) أحمد (٦٥٩٢)، وقال الأرناؤوط: "إسناده صحيح على شرط الشيخين"، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٩٨٨).

(٣) الترمذي (٢٥٧٤)، وقال: "حسن صحيح غريب"، وصححه الألباني، وقال الوادعي: " هذا حديث صحيحٌ، ورجاله ثقات". الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين (٢/ ٣٩١).

والْجَنَّة تكون فِي بَاطِنِهِ، وَالنَّارُ مِنْ قِبَلِ ظَاهِرِهِ، وإذا كان الأمر كذلك، فكأن الحجاب سوْرٌ عظيم هائلٌ للجنة، فعَنْ مُقَاتِلٍ ﷺ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌ﴾ [الحديد: ١٣]. قَالَ: "يَعْنِي بِالسُّوْرِ حَائِطًا بَيْنَ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَهْلِ النَّارِ، لَهُ بَابٌ ﴿بَاطِنُهُۥ﴾ يَعْنِي بَاطِنَ السُّوْرِ ﴿فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ﴾ مِمَّا يَلِي الْجَنَّةَ، ﴿وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ يَعْنِي جَهَنَّمَ، وَهُوَ الْحِجَابُ الَّذِي ضُرِبَ بَيْنَ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَهْلِ النَّارِ"(١).

> ينقل لنا القرآن المجيد صورة الاتصال بين أصحاب الجنة وأصحاب النار مع وجود الحِجَاب المتوسِّط الحاجز بينهما، وَلَا يَقْتَضِي هَذَا النَّوْعُ مِنَ الِاتِّصَالِ الْقُرْبَ المعْهُودَ عِنْدَنَا فِي الدُّنيا بَيْنَ المتَخَاطِبِينَ.

وهنا ستسأل: هل التواصل بين أهل الجنة والنار يعني القرب الحسي المعتاد لتحدث المكالمة والمناقشة بين الفريقين؟

وإليك الجواب:

لا يقتضي ذلك أن نقيس المسافة بالأمتار أو حتى الكيلومترات، بل إنك ترى اتصالًا الآن بين الشرق والغرب مع إمكانية الرؤية عبر الشاشات المختلفة، وترى اتصالًا بين الأرض والطائرات التي تطير في أجوائها مع إمكانية الرؤية والمكالمة لكل من الفريقين، وترى اتصالًا مع اختلاف الأزمنة نسبيًا حيث يكلِّم إنسانٌ في الشرق قد طلعت عليه شمس اليوم التالي إنسانًا في الغرب لم ينم بعد.

(١) الأسماء والصفات للبيهقي (١٠١٧)، قال المحقّق (عبد الله الحاشدي): "إسناده ضعيف".

المبحث الثالث: الأعراف وعلاقته بالحجاب

ثم قال الله ﷻ: ﴿وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٌ﴾ [الأعراف: ٤٦] فما الأعراف، وما علاقته بالحجاب؟ وهل هو مكان آخر غير الحجاب؟ أو هو الحجاب نفسه؟

الجواب: الأمر محتمَل، ولكننا نجزم بأن هناك علاقة بين الأعراف والحجاب:

الاحتمال الأول: أن يكون هو، وإلى هذا مال الطَّبَري رحمه الله، واستشهد بما نقله عن مجاهد رحمه الله قال: "الأعراف" حجاب بين الجنة والنار، ونحوه عن السُّدِّيِّ رحمه الله [1]، وهذا استنباطٌ من قوله ﷻ: ﴿وَبَيۡنَهُمَا حِجَابٞۚ وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٌ﴾ [الأعراف ٤٦].

وعندما تتأمَّل في تركيب الكلمات القُرآنيَّة لا تجدها تدلُّ على ذلك؛ لأنه لو أراد ذلك لقال: "وبينهما حجاب يدعى، أو يسمَّى الأعراف عليه رجال" أو قال: "وبينهما حجاب الأعراف" من إضافة المسمى إلى الاسم؛ لكنه قال: ﴿وَبَيۡنَهُمَا حِجَابٞۚ﴾، ثم قال: ﴿وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٌ﴾ [الأعراف ٤٦].

الاحتمال الثاني: أن يكون الأعراف مكانًا مرتفعًا متعلقًا بالحجاب، حيث تشمل هذه المنطقة الحاجزة للجنة عن النار، وللنار عن الجنة: الحجاب الذي يشتمل على الأعراف.. وهذا الذي أميل إليه، فالمثير للانتباه أن الله ﷻ ذكر الأعراف أول مرة مقترنة بـ(ألْ)، و(أل) في (الأعْرافِ) لِلْعَهْدِ، ولَمْ يَسْبِقْ ذِكْرٌ لِلْأعْرافِ هُنا حَتّى تُعَرَّفَ بِلامِ العَهْدِ، فتعين أن تكون للعهد الخارجي، أي هي الأعْرافُ المعْهُودَةُ الَّتِي تَكُونُ بارِزَةً في أعالِي السُّورِ[2]، فهذه الأعراف تكون مكانًا للمراقبة الكبيرة التي يُحتاج فيها إلى بناء مثل البيوت المستقلة في الأعلى (أبراج مراقبة) والتقدير: وعَلى أعْرافِ السُّورِ أو وعلى أعراف الحجاب، ويفهم من

---

(١) تفسير الطَّبَري (١٢/ ٤٤٩).

(٢) ينظر: التحرير والتنوير (٨ب/ ١٤١).

كلام الزمخشري رحمه الله أنه رأى أن الأعراف أعالي هذا الحجاب، وليست هي الحجاب ذاته، وذلك أقرب في فَهْمِ الجملتين معًا.

فإن قلت: لماذا يُسَمَّى ذلك المكان العالي من الحجاب الحاجز بين الجنة والنار (الأعراف)؟

الجواب: لأنه المكان المميز بارتفاعه، حيث يمكن أن يكون من فيه ذا معرفة بمن حوله من الفريقين، فـ"الأعراف" جمع، واحدها "عُرْف"، ولذا قال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: "الأعراف"، هو الشيء المشرف، وكل مرتفع من الأرض عند العرب فهو "عُرْف"، وإنما قيل لعُرف الديك "عرف"؛ لارتفاعه على ما سواه من جسده، ومثله عرف الفرس، ومنه قول الشماخ بن ضرار:

وَظَلَّتْ بِأَعْرَافٍ تَغَالَى، كَأَنَّهَا ... رِمَاحٌ نَحَاهَا وِجْهَةَ الرِّيحِ رَاكِزُ[1]

يعني بقوله: "بأعراف" بنشوز من الأرض.

والظاهر أن للأعراف القائم فوق الحجاب أبوابًا خاصة به، ويقرب لك الصُّورة أنك ترى في أيامنا بعض الأبراج المرتفعة تستطيع النظر من خلالها إلى جهات متعدِّدة، فعن مجاهد رحمه الله قال: "الأعراف: حجاب بين الجنة والنار، والسُّور له باب"[2]، ولكن الأدق هو ما رواه

(١) ينظر: ديوان الشماخ بن ضرار (ص: ٢٠٠، ٢٠١). وقال أحمد شاكر: "هذا البيت من آخر القصيدة في صفة حُمُر الوحش، بعد أن عادت من رحلتها الطويلة العجيبة في طلب الماء، و(تغالي الحُمُر): احتكاك بعضها ببعض، يصف ضمور حُمُر الوحش، كأنها رماح مائلة تستقبل مهب الرياح. وفي المطبوعة: (تعالى)، وهو خطأ.

ومن شواهد كلمة (الأعراف) قول الآخر:

كُلُّ كِنَازٍ لَحْمُهُ نِيَافِ ... كَالْعَلَمِ الموفِي عَلَى الأَعْرَافِ

و(الكناز): المجتمع اللحم القوية، و(النياف): الطويل، يصف جَمَلًا، و(العَلَم): الجبل. ينظر: تفسير الطَّبَري (١٢/ ٤٤٩، ٤٥٠).

(٢) تفسير مجاهد (ص: ٣٣٧).

الطَّبَري رحمه الله عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما قال: "الأعراف: سُوْر كعُرُفِ الدِّيك"[(١)]، فأقول: إذا كان سورًا كعُرْف الدِّيك فمعنى ذلك أن السُّوْر بمنزلة رأس الدِّيك، والعُرْف هو ما فوق الرأس، فليس الحجاب هو الأعراف بل ما يكون فوقه، وهذا ما قرَّره صاحب ابن عبَّاس رضي الله عنهما سَعِيد بْن جُبَيْرٍ رحمه الله قَالَ: "الأَعْرَافُ جِبَالٌ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَهُمْ عَلَى أَعْرَافِهَا عَلَى ذُرَاهَا"[(٢)].

وبما أنا عرفنا أن الأعراف هي المنطقة العليا المرتفعة في الحجاب الحاجز بين الجنة والنار، فإننا نتشوَّق إلى معرفة من يوجد فيها؟

الجواب: يبيِّن الله عز وجل لنا ماذا يوجد على الأعراف، فيقول: ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَٰهُمْ﴾ [الأعراف: ٤٦].

لاحظ أنه بدأ بتعريفنا بالمنطقة التي في أعلى الحجاب، فقال: ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ﴾ ثم أخبرنا من يوجد فيها، فقال: ﴿رِجَالٌ﴾.

فاتفق اسم الأعراف، والتعريف بأصحابه، فهم قوم يعرفون الفريقين من أصحاب الجنة وأصحاب النار، وقد روى الطَّبَري رحمه الله عن إسماعيل بن عبد الرَّحمَن بن أبي كَريمة الإمام السُّدي الكبير أنه كان يقول: "إنما سمي الأعراف أعرافًا؛ لأن أصحابه يعرفون النَّاس"[(٣)].

الأعراف سمِّيت بذلك؛ لأنها منطقة تمكِّن أصحابها من معرفة الفريقين: فريق الجنة وفريق النار.

(١) تفسير الطَّبَري (١٢/ ٤٥٠).

(٢) تفسير ابن أبي حاتم (٥/ ١٤٨٤).

(٣) تفسير الطَّبَري (١٢/ ٤٥٠).

ربما ستسأل: ما الحكمة من تقديم الجار والـمجرور على كلمة ﴿رِجَالٌ﴾ في قوله: ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَىٰهُمْ﴾ [الأعراف: ٤٦]؟

أجيبك: قدَّم الجارَّ والـمجْرُور؛ ليظهر الاهتمام بهذا الاسم، فالـمكان أكثر أهمية لغرابته بالنسبة للسامع، فهو مكان بين الجنة والنار ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾، وأما ما ذكره الطاهر رحمه الله من أن تقديم الجار والـمجرور إنما هو لِتَصْحِيحِ الِابْتِداءِ بِالنَّكِرَةِ [(١)]، فهذا سبب نحوي لا يفيد الـمتدبِّر إذا وقف عنده، بل ينبغي أن يبحث عن السبب البياني الذي يظهر لك كيف يصوِّر القرآن الواقع القائم، وهو ما أشار إليه بعد ذلك؛ فقد كثر في القرآن الكريم الحديث عن انقسام الخلق إلى فريقين: فريق في الجنة وفريق في السعير، أما الحديث عَنْ منطقة جديدة غيرة متوقَّعة تكون بين الجنة والنار، فهذه مسألة انفردت بها هذه السُّورَة، فاقتضى الـمقام ذِكْرَ هذه الـمنطقة أولًا ليشوِّق النُّفُوس إلى معرفتها ومعرفة ما فيها، ثم جاء الـمبتدأ الـمؤخَّر ﴿رِجَالٌ﴾ ليخبرنا الله عز وجل أن في هذه الـمنطقة رِجالًا مَجْهُولِينَ يَكُونُونَ عَلى أعْرافِ هَذا الحِجابِ قَبْلَ أنْ يَدْخُلُوا الجَنَّةَ، فَيَشْهَدُونَ هُنالِكَ أحْوالَ أهْلِ الجَنَّةِ وأحْوالَ أهْلِ النّارِ، ويَعْرِفُونَ رِجالًا مِن أهْلِ النّارِ كانُوا مِن أهْلِ العِزَّةِ والكِبْرِياءِ في الدُّنيا، وكانُوا يُكَذِّبُونَ وعْدَ اللهِ عز وجل الـمؤْمِنِينَ بِالجَنَّةِ[(٢)].

> بصيرة: الحديث عَنْ منطقة جديدة غيرة متوقَّعة تكون بين الجنَّة والنَّار مسألة انفردت بها هذه السُّورة.

ولعلك تسأل: هل التعبير عن أهل الأعراف بأنهم رجال يمنع أن يكون فيهم نساء؟

(١) ينظر: التحرير والتنوير (٨-ب/ ١٤١).

(٢) ينظر: التحرير والتنوير (٨ب/ ١٤١).

الجواب: مال محمَّد رشيد رضا إلى أن التَّعْبِير بِرِجَالٍ يَمْنَعُ أَنْ يَكُونَ فِيهِمْ نِسَاءٌ، وَمنع أن يكون وصفهم بأنهم رجال على سبيل التَّغْلِيب، وخالفه الطاهر -رحمهما الله- فذهب إلى أن تَخْصِيص الرِّجالِ بِالذِّكْرِ ليس بِمُقْتَضٍ أنْ لَيْسَ في أهْلِ الأعْرافِ نِساءٌ، ولا اخْتِصاصُ هَؤُلاءِ الرِّجالِ المتَحَدَّثِ عَنْهم بِذَلِكَ المكانِ دُونَ سِواهم مِنَ الرِّجالِ، ولَكِنَّ هَؤُلاءِ رِجالٌ يَقَعُ لَهم هَذا الخَبَرُ، فَذُكِرُوا هُنا لِلاعْتِبارِ عَلى وجْهِ المصادَفَةِ يعني على وجه بيان الواقع، لا لِقَصْدِ تَقْسِيمِ أهْلِ الآخِرَةِ وأمْكِنَتِهِمْ(١).

وأرى أن هذا البحث لا معنى له، وهو يتعلق بأمر غيبي لا يتعلق بنا، إنما تتعلق بنا الأوصاف التي يذكرها أهل الأعراف عندما يشاهدون فريق الجنة وفريق النار، أعاذنا الله ﷻ من النار، ورزقنا الفردوس بفضله ورحمته وكرمه.

---

(١) ينظر: تفسير المنار (٨/ ٣٨٥)، (التحرير والتنوير (٨ب/ ١٤١، ١٤٢).

تحديد المراد بأصحاب الأعراف:

أ.د.عبد السلام مقبل المجيدي

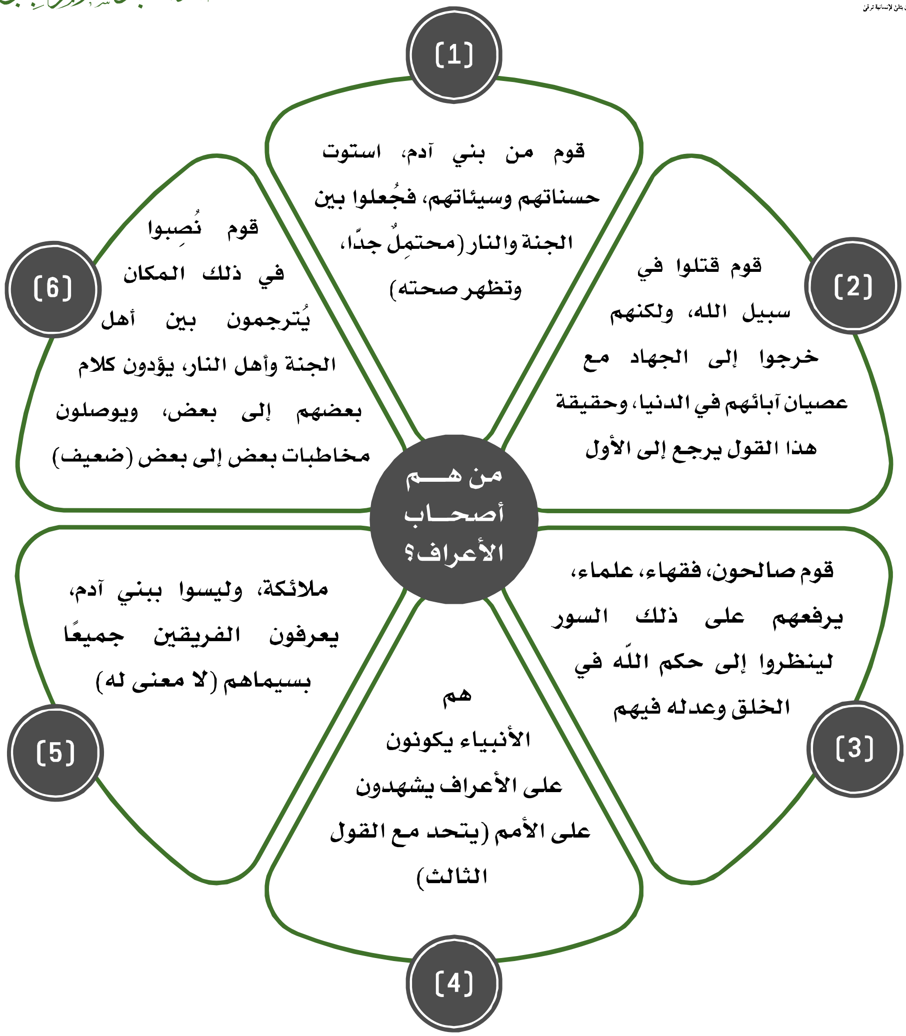

﴿مفصل سورة الأعراف (1)﴾

والآن نأتي إلى موضوع في غاية الأهميَّة: من هم هؤلاء الرجال الذين على الأعراف؟

الجواب: اختلف أهل التأويل فيهم فحَكَى الْقُرْطُبِيُّ رحمه الله فِيهِم عشرة أقوال[1]، منها:

القول الأول: هم قوم من بني آدم، استوت حسناتهم وسيئاتهم، فجُعلوا هنالك إلى أن يقضي الله عز وجل فيهم ما يشاء، وذلك لأن الأعمال الصَّالِحَة تتجسد يوم القيامة، فتمنعهم أعمالهم الصَّالِحَة من أن يدفعوا إلى النار، وتمنعهم أعمالهم السيئة من أن يساقوا إلى الجنة، فيصيرون إلى هذه المنطقة المتوسطة.

ثم إن الله عز وجل يدخلهم الجنة بفضل رحمته إياهم، فهم رِجالٌ من المسلمين من آخرهم دخولًا الجنة لِقُصُور أعمالهم، كأنهم المرجَون لأمر الله عز وجل، فيُحبَسون بين الجنة والنار إلى أن يأذن الله عز وجل لهم في دخول الجنة.

وروى الطَّبَري رحمه الله هذا الرأي عن حذيفة، وابن مسعود، وابن عبَّاس رضي الله عنهم[2].

وهذا رأي محتملٌ جدًّا، وتظهر صحته، فقد قال الشعبي رحمه الله: أرسل إليَّ عبد الحميد بن عبد الرَّحمَن، وعنده أبو الزِّنَاد عبد الله بن ذكوان مولى قريش، وإذا هما قد ذكرَا من أصحاب الأعراف ذكرًا ليس كما ذَكَرا، فقلت لهما: إن شئتما أنبأتكما بما ذكر حذيفة رضي الله عنه، فقالا: هات! فقلت: إن حذيفة رضي الله عنه ذكر أصحاب الأعراف فقال: "هم قوم تجاوزت بهم حسناتهم النار، وقصرت بهم سيِّئاتهم عن الجنة، فإذا صُرفت أبصارُهم تلقاء أصحاب النار قالوا:

---

(١) ينظر: تفسير القرطبي (٧/ ٢١١، ٢١٢).

(٢) تفسير الطَّبَري (١٢/ ٤٥٢-٤٥٥).

﴿رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف ٤٧]، **فبينا هم كذلك، اطَّلع إليهم ربك تبارك وتعالى، فقال: «اذهبوا وادخلوا الجنة، فإني قد غفرت لكم»**[(١)].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «يحاسب النَّاس يوم القيامة، فمن كانت حسناته أكثر من سيئاته بواحدة دخل الجنة، ومن كانت سيئاته أكثر من حسناته بواحدة دخل النار، ثم قرأ قول الله عز وجل: ﴿وَٱلۡوَزۡنُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّۚ فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٨ وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظۡلِمُونَ ٩﴾ [الأعراف: ٨-٩]، **ثم قال: إن الـميزان**

---

(١) حديث حذيفة رضي الله عنه رواه سعيد بن منصور، وهو منقطع بين الشعبي وحذيفة رضي الله عنه، لكنه جاء موصولًا رواه الحاكم عن عبيد الله بن موسى، وظاهره الصحة، وأعلها الدكتور سعد الحميد بأن رواية الانقطاع أكثر عددًا، ولعل فيما قرره نظرًا، وطلبت من فضيلة الشيخ الدكتور/ سعيد بديوي رأيه في هذا الأثر، فأرسل لي الآتي: "بخصوص أثر حذيفة الذي في تفسير الأعراف، رواه عنه عامر بن شراحيل الشعبي، وقد رواه عن الشعبي جماعة وهم: حصين، ومطرف، وعيسى الحناط، وجابر الجعفي، وكلهم يرويه عنه بلا واسطة بينه وبين حذيفة رضي الله عنه، ورواه جماعة وهم: وكيع، وشيبان، ويحيى بن واضح عن يونس بن أبي إسحاق عن الشعبي بلا واسطة أيضًا كرواية الجماعة السابقين، وخالفهم جميعًا عبيد الله بن موسى فرواه عن يونس بذكر واسطة بين الشعبي وحذيفة وهذه الواسطة صِلَةُ بن زُفَر، والرواية بلا واسطة أولى لأمور: الأول: أن الذين تركوا الواسطة أكثر، ولو كان الأثر متصلًا لما آثروا الانقطاع عليه، والثاني: أنه قد يكون التبس على عبيد الله، أو من دونه ذكر صِلَة لكونه موجودًا في أحاديث أخرى للشعبي.

والخلاصة أن الراجح من الروايتين الرواية الـمرسلة، لكنه مرسل قوي لسببين:

السبب الأول: أن مراسيل الشعبي قوية عند أهل العلم، ذكر ذلك غير واحد كالعجلي، والمديني، وأبي داود، والذهبي، والسخاوي. ينظر: الثقات (٢/ ١٢)، الضعفاء الكبير للعقيلي (٢/ ٣٥)، تهذيب التهذيب (٥/ ٦٨)، الـموقظة (ص: ٣٩)، فتح الـمغيث (١/ ١٩٤).

السبب الثاني: أن طريقة رواية الشعبي لهذا الأثر تدل على تثبته من صحته وأنه يحتج به، وذلك لأنه اختلف في تفسير الأعراف والي الكوفة في خلافة عمر بن عبد العزيز وهو عبد الحميد بن عبد الرَّحمَن بن زيد بن الخطاب وكاتبه أبو الزناد عبد الله بن ذكوان، وكلاهما عالـمان من علماء التَّابعين فلجآ إلى الشعبي، فقال الشعبي في روايته: "وقد ذكرا من أصحاب الأعراف ذِكْرًا ليس كما ذَكَرا"، ثم قال: "فقلت لهما: إن شئتما أنبأتكما ما ذكر من أمرهم حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: فقالا: هات. قال: فقال: قال حذيفة رضي الله عنه ..." فذكر الأثر.

هذه رواية يونس بن أبي إسحاق عن الشعبي، وهي موجودة في تفسير الطَّبَري (١٢/ ٤٥٢)، وفي البعث والنشور للبيهقي (١٠٢).

يخفُّ بمثقال حبة ويرجح، قال: فمن استوت حسناته وسيئاته كان من أصحاب الأعراف، فوقفوا على الصراط، ثم عرفوا أهل الجنة وأهل النار، فإذا نظروا إلى أهل الجنة نادوا: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۚ ۝٤٦﴾، وإذا صرفوا أبصارهم إلى يسارهم نظرُوا أصحاب النار، قالوا: ﴿رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٤٧﴾ [الأعراف:٤٧]، فيتعوذون بالله من منازلهم، قال: فأما أصحاب الحسنات، فإنهم يعطون نورًا فيمشون به بين أيديهم وبأيمانهم، ويعطى كل عبد يومئذ نورًا، وكل أَمَةٍ نورًا، فإذا أتوا على الصراط سَلب الله ﷻ نور كل منافق ومنافقة، فلما رأى أهل الجنة ما لقي المنافقون، قالوا: ربنا أتمم لنا نورنا"، وأما أصحاب الأعراف، فإن النُّور كان في أيديهم فلم ينزع من أيديهم، فهنالك يقول الله ﷻ: ﴿لَمۡ يَدۡخُلُوهَا وَهُمۡ يَطۡمَعُونَ﴾ [الأعراف: ٤٦]، فكان الطمع دخولًا، فقال ابن مسعود رضي الله عنه: على أن العبد إذا عمل حسنة كُتِبَ له بها عَشْرٌ، وإذا عمل سيئة لم تُكتب إلا واحدة. ثم يقول: هلك من غلب وُحْدَانُه أَعْشارَه"(١).

وعن ابن عبَّاس رضي الله عنهما أنه قال: "الأعراف: سور بين الجنة والنار، وأصحاب الأعراف بذلك المكان، حتى إذا أذن الله ﷻ أن يُعافيَهم، انْطُلِق بهم إلى نهر يقال له: "الحياة"، حافتاه قَصَبُ الذَّهب، مكلَّلٌ باللؤلؤ، ترابه المسك، فألقوا فيه حتى تَصْلُحَ ألوانُهم، وتبدو في نُحُورِهم شامَةٌ بيضاء يُعرفون بها، حتى إذا صَلَحت ألوانُهم، أُتِيَ بهم الرَّحمَن فقال: تمنوا ما شئتم! قال: فيتمنون، حتى إذا انقطعت أمنيتهم قال لهم: لكم الذي تمنيتم ومثله سبعين مرة! فيدخلون الجنة، وفي نُحُورِهم شامةٌ بيضاء يُعرفون بها، يُسمَّون مساكين الجنة"(٢).

وذكر ابن كثير رحمه الله عَنْ أبي زُرعة بن عَمْرِو بْنِ جَرِيرٍ قَالَ: سُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنْ أَصْحَابِ الْأَعْرَافِ قَالَ: «هُمْ آخِرُ مَنْ يُفْصَلُ بَيْنَهُمْ مِنَ الْعِبادِ، فَإِذَا فَرَغَ رَبُّ الْعَالـمين مِنْ فَصْلِهِ بَيْنَ

---

(١) تفسير الطَّبَري (٥/ ٣٥٤، ٣٥٥)، ط دار الحديث، قال المحقق: ضعيف، أبو بكر الهذلي متروك.

(٢) تفسير الطَّبَري (٥/ ٣٥٥)، ط دار الحديث، قال المحقق: ضعيف، ابن حميد متروك، وابن وكيع ضعيف.

الْعِبَادِ، قَالَ: أَنْتُمْ قَوْمٌ أَخْرَجَتْكُمْ حَسَنَاتُكُمْ مِنَ النَّارِ، وَلَمْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ، فَأَنْتُمْ عُتَقَائِي، فَارْعَوْا مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شِئْتُمْ»[١].

بصيرة: قِصَّة الذين تساوت حسناتهم وسيِّئاتهم تحذِّر من التساهل في الأعمال، فقد هلك من غلب وُحْدَانُهُ أَعْشَارَهُ، فالحسنة بعشر أمثالها، والسيئة بمثلها، فكيف تغلب الوُحْدَانُ العشراتِ!.. نعوذ بالله من الخزي.

فكيف تقبل أن تستوي حسناتك وسيئاتك في الـميزان فضلًا عن الخسارة الكاملة مع أن فضل الله ﷻ مفتوح على مصاريع واسعة، وحَسْبُك أن تشعر بأنك يمكن أن يغفر لك ما تقدم من ذنبك في يوم مرَّات عديدة، فاسمع هذه الأحاديث:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ يَقُمْ لَيْلَةَ الْقَدْرِ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»، وعَنْه رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ قَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِه»، وعنه رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»[٢]، وعنه أيضًا رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا قَالَ أَحَدُكُمْ: آمِينَ، وَقَالَتِ الـملائِكَةُ فِي السَّمَاءِ: آمِينَ، فَوَافَقَتْ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى؛ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»[٣]، وعَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ قَالَ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الـملْكُ، وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ، فِي يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ، كَانَتْ لَهُ عَدْلَ عَشْرِ رِقَابٍ، وَكُتِبَتْ لَهُ مِائَةُ حَسَنَةٍ، وَمُحِيَتْ عَنْهُ مِائَةُ سَيِّئَةٍ، وَكَانَتْ لَهُ حِرْزًا مِنَ الشَّيطان يَوْمَهُ ذَلِكَ حَتَّى

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٤٢٠)، وقال: "وَهَذَا مرسل حسن".

(٢) البخاري، رقم (٣٥، ٣٧، ٣٨).

(٣) البخاري (٧٨١).

يُمْسِيَ، وَلَمْ يَأْتِ أَحَدٌ بِأَفْضَلَ مِمَّا جَاءَ بِهِ إِلاَّ أَحَدٌ عَمِلَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ، وَمَنْ قَالَ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ فِي يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ، حُطَّتْ خَطَايَاهُ، وَلَوْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ»[١].

وقِس على ذلك.

كان ذلك هو القول الأوَّل في تحديد هوية أصحاب الأعراف، فما أهمُّ الأقوال الأخرى؟

الجواب:

القول الثاني: قَوْمٌ قُتِلُوا في سبيل الله ﷻ، ولكنهم خرجوا إلى الجهاد مع عصيان آبائهم في الدُّنيا، وحقيقة هذا القول يرجع إلى الأول، فهم قوم غزوا في سبيل الله عصاةً لآبائهم، فقتلوا، فأعتقهم الله ﷻ من النار، بما حَازُوهُ من شرف الشهادة، وحُبِسُوا عن الجنة بما افتعلوه من معصية آبائهم، فهم آخر من يدخل الجنة[٢].

القول الثالث: بل هم قوم صالحون، فقهاء، علماء، كما قال مجاهد رحمه الله، ولعل هذا القول هو الذي نقله الـماتريدي رحمه الله على أنهم أهل كرامة الله ﷻ، أكرمهم بذلك، يرفعهم على ذلك السُّوْر لينظروا إلى حكم الله ﷻ في الخلق وعدله فيهم، وينظرون إلى إحسان الله ﷻ فيمن يحسن إليه، وعدله فيمن يعاقبهم[٣]، وهذا القول أيضًا يعود إليه ما نُقِل عن الحسن رحمه الله: هم أصحاب التعريف، يُعَرِّفون أهلَ النار عدلَ الله ﷻ فيهم وحكمه، وأن ما حلَّ بهم من الشدائد وأنواع العذاب، إنما حلَّ بهم مما كان منهم في الدُّنيا مِنْ صدِّهم النَّاس عن سبيل الله ﷻ،

---

(١) مسلم (٢٦٩١).

(٢) ينظر: تفسير الطَّبَري (١٢/ ٤٥٨).

(٣) «تفسير الـماتريدي = تأويلات أهل السنة» (٤/ ٤٣١).

واستكبارهم على الرسل عليهم السلام، يعرفونهم أن ما نزل بهم إنما نزل بعدل منه، ويُعَرِّفون أهل الجنة فضل الله عز وجل وإحسانه إليهم أن ما نالوه إنما نالوه بفضل منه وإحسان(١).

القول الرابع: هم الأنبياء عليهم السلام، وأشاد الماتريدي رحمه الله بهذا القول، فقال: "والأشبه أن الأنبياء عليهم السلام يكونون على الأعراف يشهدون على الأمم؛ كقوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النِّساء: ٤١]، فوصفهم الله عز وجل هنا بالمعرفة لا بالشهادة، واجتمع لنا أن الشهداء من الأنبياء عليهم السلام لهم أوصاف يوم القيامة منها: التعريف للفريقين بسبب دخولهم الجنة أو النار(٢).

قد تردُّ هذا القول بأن أوّل من يفتح له باب الجنة النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم وأمته، ويكون الأنبياء عليهم السلام أولَ الداخلين الجنة، لكن لا يُستبعد أن يفتح النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم الجنة ثم يكون على الأعراف.

وأجاب الرازي رحمه الله بذلك فأخبر أنه لَا يَبْعُدُ أَنْ يُقَالَ: إِنَّهُ تَعَالَى بَيَّنَ مِنْ صِفَاتِ أَصْحَابِ الْأَعْرَافِ أَنَّ دُخُولَهُمُ الْجَنَّةَ يَتَأَخَّرُ، وَالسَّبَبُ فِيهِ أَنَّهُ تَعَالَى مَيَّزَهُمْ عَنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَهْلِ النَّارِ، فكان بقاؤهم في الأعراف من باب التكرمة العظمى لهم، فهم متميزون حتى عن أهل الجنة، وكما يقول الرَّازيُّ رحمه الله: "أَجْلَسَهُمْ عَلَى تِلْكَ الشُّرُفَاتِ الْعَالِيَةِ وَالْأَمْكِنَةِ الْمرْتَفِعَةِ لِيُشَاهِدُوا أَحْوَالَ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَحْوَالَ أَهْلِ النَّارِ، فَيَلْحَقُهُمُ السُّرُورُ الْعَظِيمُ بِمُشَاهَدَةِ تِلْكَ الْأَحْوَالِ، ثُمَّ إِذَا اسْتَقَرَّ أَهْلُ الْجَنَّةِ فِي الْجَنَّةِ وَأَهْلُ النَّارِ فِي النَّارِ، فَحِينَئِذٍ يَنْقُلُهُمُ اللهُ تَعَالَى إِلَى أَمْكِنَتِهِمُ الْعَالِيَةِ فِي الْجَنَّةِ، فَثَبَتَ أَنَّ كَوْنَهُمْ غَيْرَ دَاخِلِينَ فِي الْجَنَّةِ لَا يَمْنَعُ مِنْ كَمَالِ شَرَفِهِمْ وَعُلُوِّ دَرَجَتِهِمْ"(٣).

---

(١) «تفسير الماتريدي = تأويلات أهل السنة» (٤/ ٤٣٢).

(٢) «تفسير الماتريدي = تأويلات أهل السنة» (٤/ ٤٣١).

(٣) تفسير الرازي (١٤/ ٢٤٩).

قد يعترض على هذا القول بأن الله ﷻ وصف أهل الأعراف بقوله: ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ [الأعراف: ٤٦]، فكيف يسبقهم أهل الجنة، وهم ما زالوا يطمعون في دخولها؟

أجاب الرازي رحمه الله عن هذا الاعتراض فأشار إلى أن الطَّمع يدلُّ على كمال كرامتهم؛ لأنهم يطمحون إلى مكانة أعلى، ويتنعمون بانتظارهم رحمة ربِّهم، ولا يجزمون بمكانتهم، وذهب الرازي إلى أن قوله: ﴿وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ يعني الْيَقِين.

وها هو إبراهيم عليه السلام الذي اتخذه الله ﷻ خليلًا يقول: ﴿وَٱلَّذِيٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ [الشُّعَرَاء: ٨٢]، وذلك الطمع كان طمع يقين، فكذا هاهنا، فكلمة يطمعون لا تدل على أن مكانتهم دون[1].

وبذلك يتحد القول الرابع مع القول الثالث إلا أن الثالث يذكر أصحابه أن أهل الأعراف من الصالحين المختارين عمومًا، والرابع يذكر أصحابه أنهم فقط الأنبياء عليهم السلام.

وقد هبَّ علينا من حيث عبير أنفاس البشير النذير أن الله ﷻ يجعل منزلة لقوم في الجنة في مكان يقال له: الغُرَف، وأن أهل الجنة يتراءون أهلَ الغُرَف، كما يتراءى أهلُ الدُّنيا الكوكبَ الدُّرِّيَّ[2].

القول الخامس: أهل الأعراف ملائكة، وليسوا بني آدم، وذهب إلى هذا أبو مجلز لاحق بن حميد رحمه الله، حيث قال: رجال من الملائكة، يعرفون الفريقين جميعًا بسيماهم: أهل النار وأهل الجنة، وهذا قبل أن يدخل أهلُ الجَنّةِ الجَنَّةَ[3].

فإن قلت: فما رأيك بهذا القول؟

(١) تفسير الرازي (١٤/ ٢٤٩).

(٢) البخاري (٣٢٥٦).

(٣) تفسير الطَّبري (١٢/ ٤٥٩).

الجواب: اعترض عليه عمران بن حُدير رحمه الله فقال: يقول الله عز وجل: ﴿وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٌ﴾ [الأعراف: ٤٦] وتزعم أنتَ أنهم الـملائكة؟ فقال: إنهم ذكور، وليسوا بإناث.

وأجاب الإمامُ الطَّبَري رحمه الله عن هذا الرأي بأنه لا خبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يصح سنده، ولا أنه متفق على تأويلها، ولا إجماع من الأمة على أنهم ملائكة، فإذا كان ذلك كذلك، وكان ذلك لا يدرك قياسًا، وكان الـمتعارف بين أهل لسان العرب أن "الرجال" اسم يجمع ذكور بني آدم دون إناثهم ودون سائر الخلق غيرهم، كان بيِّنًا أن ما قاله أبو مجلز رحمه الله مِنْ أنهم ملائكة، قولٌ لا معنى له(١).

ولم يرتض القول بأنهم ملائكة السيد محمَّد رشيد رضا رحمه الله كذلك؛ **إِذْ لَوْ أُرِيدَ هَذَا لَعَبَّرَ عَنْهُ بِلَفْظٍ يَقْبَلُهُ كَأَنْ يَقُولَ: "عِبَادٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ"**(٢).

القول السادس: هم قوم نُصِبوا في ذلك الـمكان يُترجمون بين أهل الجنة وأهل النار، يؤدون كلام بعضهم إلى بعض، ويوصلون مخاطبات بعض إلى بعض، من ذلك قوله: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ﴾ [الأعراف: ٥٠]، وقوله: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ﴾ [الأعراف: ٤٤]، ونحوه(٣).

ويظهر لي أن هذا القول ضعيف، فإن من كمال نعيم أهل الجنة أن يطلعوا على أهل النار ويتكلموا معهم، ومن عِظَم شقاء أهل النار أن يتكلموا مع أهل الجنة راجين نوالهم، فلا يجدون شيئًا.

---

(١) تفسير الطَّبَري (١٢/ ٤٦٠، ٤٦١).

(٢) تفسير المنار (٨/ ٣٨٥).

(٣) «تفسير الـماتريدي = تأويلات أهل السنة» (٤/ ٤٣٢).

وقد نظم محمَّد المثيل -عفا الله عنه- هذه الأقوال الستة في قوله:

إِن كُنتَ تسأل عَن ذَوي الأَعْرَافِ — مَنْ هُمْ؟ فَخُذْ مِنِّي الجَوابَ الشَّافِي
قَدْ أُورِدَتْ فِيهِمْ أَقَاوِيلٌ بِهَا — حَقٌّ وَضَعْفُ البعضِ ليسَ بِخَافِ
فَأَصَحُّهَا: هُو أَنَّهُمْ مِن جِنسِنَا — يَقْضِي لَهُمْ مَا شَاءَ ذُو الأَلْطَافِ
والثَّانِي: أَنَّهُمُو عَصَوْا آبَاءَهُمْ — خَرَجُوا لِنَيْلِ شَهَادةٍ بِشَغَافِ
ويُقَالُ: قَومٌ صَالِحُونَ لِينظُرُوا — إِحْسانَ ذِي الإِحْسَانِ والإِتْحَافِ
والأنبياءُ لِيشْهَدُوا هُو رَابِعٌ — هُمْ أَهْلُ مَعْرِفَةٍ، ذُوو إِنصَافِ
وبِخَامِسِ الأقوالِ قِيلَ: مَلَائِكٌ — هُمْ يَعْرِفُونَ المُنجَلِي والخَافِي
وبِسَادِسٍ: قَومٌ كِرامٌ نُصِّبُوا — لِيُتَرْجِمُوا ويُبَلِّغُوا بِهِتَافِ

أوصاف أصحاب الأعراف:

ما القول الذي يدل عليه سياق الآيات؟

الجواب: يظهر لي أن أصحاب الأعراف جمعوا صفاتٍ تدلُّ عليهم، وهي:

الصفة الأولى: أنهم على أعراف الحجاب بين الجنة والنار.

الصفة الثَّانية: أنهم يعرفون الفريقين لا بأعيانهم، بل بسيماهم أي بصفاتهم أولًا، ولكنهم يعرفون الجهة التي سيدخلها كلٌّ من الفريقين.

الصفة الثَّالثة: أنهم يخافون ويرجون، وهذا لا يعني أنهم من أهل الجنة، ولا يعني أنهم من أهل النار، فالملائكة كذلك يخافون ربهم.

وأثر حذيفة رضي الله عنه -كما سبق- ترى له رجحانًا في الثبوت حسب الميزان الحديثي.

والذي يظهر أنهم قوم مخصوصون جعل الله ﷻ من مهماتهم الأساسية أن يعرفوا أهل الجنة والنار، فهم أهل معرفة يوم القيامة يخبرون الخلائق بمعرفتهم بمصايرهم، ويجوز أن يكون فيهم من استوت حسناته وسيِّئاته، فهو في منزلة من تلك الأعراف، ويجوز أن يكون فيهم الـمكرمون فهو في منزلة أخرى، وهل الأعراف مكان لا تكريم فيه؟

ما الـمانع أن يوجد فيه شيء من تكريم، كما أن ظل عرش الرَّحمَن يوم القيامة يوجد فيه تكريم للمصطفين من أهل الـموقف، وبذا تراني أميل إلى أن:

الأعراف مكان خاص لفئة خاصة من أولياء الله ﷻ ممن جعلهم أهل معرفة بأصحاب الجنة وأصحاب النار كأنهم يشهدون على حكم الله ﷻ فيهم.

ولذا قِيلَ لِلْحَسَنِ ؒ: هم قَوْمٌ اسْتَوَتْ حَسَناتُهم وسَيِّئاتُهم؟ فَضَرَبَ عَلى فَخْذَيْهِ ثُمَّ قالَ: هم قَوْمٌ جَعَلَهُمُ اللهُ تَعالى عَلى تَعَرُّفِ أهْلِ الجَنَّةِ وأهْلِ النّارِ، يُمَيِّزُونَ البَعْضَ مِنَ البَعْضِ، واللهِ لا أدْرِي لَعَلَّ بَعْضَهُمُ الآنَ مَعَنا(١).

ومما يبصِّرك بهذا أن كلمة الأعراف جمع وليست مفردة، فقد تكون متفاوتة في ذاتها، فمنها درجات أو منازل أو مقامات يوجد فيها من استوت حسناته وسيئاته، ومنها ما يوجد فيها أهل الكرامة العليا.

سترد عليَّ بأن أصحاب الأعراف يتأخرون في دخولهم الجنة؟

أجيبك: إذا تأخر دخولهم الجنة فإما أن يكون ذلك لاستواء حسناتهم بسيئاتهم، وإما أن يكونوا في تلك الشرفات العالية مكرمين معظمين يشرفون على الخلق، وينظرون أحوال أهل

(١) تفسير الرازي (١٤/ ٢٤٨).

الجنة وأهل النار، حتى إذا قضى الله ﷻ بين الفريقين، أدخل هؤلاء الجنة بعد ذلك المكان الذي كانوا فيه.

وأنت ترى مثلًا لذلك في الدُّنيا يقرب لك هذا المفهوم؛ إذ يجلس كبار الضيوف في صالات مناسبة ريثما يغادرون، ويجلس الضيوف الآخرون في صالات لائقة بهم، ثم ينصرف الجميع.

وربما تسأل: إذا كان أصحاب الأعراف متفاوتون، فكيف يكون معنى ﴿وَهُمۡ يَطۡمَعُونَ﴾؟

الجواب: عندها نفسِّر قَوْلَهُ: ﴿وَهُمۡ يَطۡمَعُونَ﴾ على معنيين:

طمع الرجاء لمن استوت حسناتهم وسيئاتهم، وطمع اليقين بالرَّحْمَة العليا بالنسبة للصالحين الكبار، وبذا جمعنا في هذا بين القولين الكبيرين في الأعراف: من استوت حسناتهم وسيئاتهم، وأشْرافُ أهْلِ الجَنَّةِ.

ورجَّح الطاهر بن عاشور رحمه الله أنَّ هَذِهِ الأعْرافَ جَعَلَها اللهُ ﷻ مَكانًا يُوقِفُ بِهِ مَن جَعَلَهُ اللهُ مِن أهْلِ الجَنَّةِ قَبْلَ دُخُولِهِ إيّاها، وذَلِكَ ضَرْبٌ مِنَ العِقابِ خَفِيفٌ، فَجَعَلَ الدّاخِلِينَ إلى الجَنَّةِ مُتَفاوِتِينَ في السَّبْقِ تَفاوُتًا يَعْلَمُ اللهُ ﷻ أسْبابَهُ ومَقادِيرَهُ، وقَدْ قالَ تَعالى: ﴿لَا يَسۡتَوِي مِنكُم مَّنۡ أَنفَقَ مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ وَقَٰتَلَۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡظَمُ دَرَجَةٗ مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَقَٰتَلُواْۚ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ [الحديد: ١٠](١).

---

(١) التحرير والتنوير (٨ب/ ١٤٢).

المبحث الرابع: سبب جعل هذه التَّسمية مركزية للسُّورة

لماذا حدَّثنا الله ﷻ عن أهل الأعراف؟ ولماذا صارت هذه التَّسمية تسمية مركزية للسُّورة؟ إذ نفهم من التَّسمية أن لها أثرًا في فهمنا للآيات الواردة في السُّورَة.

الجواب: أهم مزيتين أظهرتهما الآيات لأهل الأعراف:

الأولى: أنهم في أعالي السُّوْر الحاجز بين الجنة والنار.

والثَّانية: أنهم أهل معرفة بالفريقين من أصحاب الجنة وأصحاب النار بسيماهم ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌۚ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلَّۢا بِسِيمَىٰهُمْۚ﴾ [الأعراف: ٤٦].

ستسأل: وماذا أكسبتهم هذه المعرفة؟ وهل استفادوا منها شيئًا؟

الجواب: هذه المعرفة أكسبتهم أمرين:

الأول: معرفة بالله ﷻ حتى طمعوا في تكريمهم بالجنة: ﴿وَنَادَوْاْ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْۚ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ [الأعراف: ٤٦]، والطمع كما سبق لا يدل على أنهم أدنى النَّاس مكانة، بل قد يكون الطمع مزيَّة عظيمة من مزايا الإيمان.

الثاني: الإلحاح في سؤال الله ﷻ أن يحميهم من مصير الظَّالمين: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٧]، وهذا الدعاء لا يدل على ضعف مكانتهم؛ فإن كبار الصالحين دعوا بمثل هذا الدعاء، ومن ذلك أن هارون عليه السلام طلب من أخيه موسى عليه السلام ألا يجعله مع القوم الظَّالمين.

هذا المصير المنتظر للفريقين (أهل الجنة وأهل النار) تيقن به أهل الأعراف، وهو يذكرنا بعاملين في تحديده:

الأول: الجزاء على قدر الأعمال.

والثاني: التقدُّم والتأخر على حسبها.

لا أحد يسبق عند الله ﷻ إلا بسبقه في العمل، ولا يتخلَّف عنده إلا بتخلُّفه فيه، ورحمة الله ﷻ الواسعة هي التي يُطمَع فيها لتحقُّق أهمِّ الأهداف: دخول الجنة، وعدم مشاركة الظَّالمين سوء المصير.

هنا يرغب السَّامعون في حال السَّابقين، ويحرصون على إحراز سبقهم، ويتصوَّرون أن كل أحدٍ يُعرَفُ ذلك اليوم بِسِيمَاهُ التي استوجب أن يُوسَم بها أهل الخير والشر، فيرتدع المسيء عن إساءته، ويزيد المحسن في إحسانه، وليعلم أنَّ العصاة يوبخهم كل أحد حتى أقصر النَّاس عملًا.

ولعلك تسأل: كيف تنعكس التَّسمية بأصحاب الأعراف على جميع السُّورَة؟

الجواب: هذه المعرفة لأهل الأعراف تنعكس على جميع آيات السُّورَة ابتداء من أولها ﴿الٓمٓصٓ﴾، حيث تمنحك هذه المعرفة أن هذه الأحرف الذهبية هي التي تتكلم بها أنت، وتكتب بها أنت، لكنك عندما تقرؤها في القرآن يختلف الأمر عن كلامك وفهمك وعلمك.

إن الحروف في القرآن تمنحك المعرفة الصَّادقة، وترفعك إلى الفهم واليقين والاطمئنان والرَّاحة والسَّكينة.

وتمضي بك المعرفة المتجددة في القرآن إلى الغيب الماضي، حيث القِصَّة التَّفصيليَّة لما حدث بين آدم عليه السلام والشَّيطان، والغيب المستقبل عند الموت وبعده، والغيب الذي سرى في التَّاريخ في عهود الذُّرِّيَّة الآدميَّة.. يسري بك القرآن إلى كل تلك المعرفة، وبناء عليها ستحدد مصيرك القادم.. فتشبث بالمعرفة القُرآنيَّة، واستمسك بها بقوة:

أَسْرَى مَعَ القرآنِ فِي أُفُقٍ ... فَذٍّ تَبَارَكَ ذلكَ الأُفُقُ
وسَرَى بِهِ فِي رحلةٍ عَجَبٍ ... مِنْ وَاحَةِ الإيمانِ تَنْطَلِقُ
وارتادَ مِنْهُ عَوَالمًا مُلِئَتْ ... سِحرًا بِهِ الأرواحُ تَنْعَتِقُ
يا مَنْ يُريدُ العَيشَ فِي دَعَةٍ ... نَبعُ السَّعَادةِ منهُ يَنْبَثِقُ

المبحث الخامس: أسماء أخرى لسورة الأعراف

هل لهذه السُّورَة أسماء أخرى غير اسم (الأعراف)؟

الجواب: ورد في تسمية هذه السُّورَة أسماء أخرى!

ولكن هل هي أسماء توقيفيَّة أو مجرد اجتهادات تَلْقِيبِيَّة؟

الجواب: نقصد بالتلقِيبِيَّةِ: أن بعضًا من أهل العلم رأى في السُّورَة مزية معنوية، أو لفظية، أو علاقة معينة تميزها عن غيرها من السور، فأطلق عليها لقبًا محددًا؛ وظن النَّاس أن هذا الاسم توقيفي... وليس الشأن كذلك.

فمن تلك الأسماء الواردة فيها:

١) تَسْمِيتُها بحروفها المُقَطَّعة في أولها؛ فقيل: (المص)؛ إذ إن هذه الأحرف الأربعة لم تُكَرَّرْ في غيرها، أو إنها من ذواتي (الم)، وزيادة (ص) في التَّسمية لتمييزها عن بقية السور التي بدأت بذلك، فعن زيد بن ثابت رضي الله عنه أنه سمع مروان يقرأ بـ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص ١]، و﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر ١]، فقال زيد رضي الله عنه: فحلفتُ بالله، لقد رأيت رسول الله ﷺ يقرأ فيها بأطولِ الطِّوِيْلَتَيْن: ﴿الٓمٓصٓ﴾ [الأعراف: ١][1].

والذي يظهر لي أن لفظة ﴿الٓمٓصٓ﴾ [الأعراف: ١] مدرجة من زيد رضي الله عنه، أو من بعده.

والمقصود بإيراد هذا الأثر أنهم كانوا يميزون طولى الطُّولَيَيْن بالحروف المُقَطَّعة فيها.

٢) وذكر الفيروز أبادي رحمه الله في "بصائر ذوي التمييز": أن هذه السُّورَة تسمى: (سورة الميقات)؛ وذلك لاشتمالها على ذكر ميقات موسى عليه السلام في قوله ﷻ: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا﴾ [الأعراف: ١٤٣].

(١) ابن حبان (١٨٣٦)، وقوَّى الأرناؤوط إسناده على شرط مسلم.

٣) وذكر أيضًا أنَّها -كذلك- تسمَّى بـ (سُورَةَ الـميثاقِ)؛ وذلك لاشتمالها على حديث الـميثاق العام الذي ذكره الله ﷻ في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف ١٧٢]، غير أن كلمة (الـميثاق) لم ترد في هذه الآية [(١)].

لكن (ميثاق) ذكرت في (سورة البقرة) أربع مرات؛ فتسمية سورة الأعراف بـ (سورة الـميثاق) أظنه فيه شيء من الذُّهول، إلا أن يقال: إن فيها ذكر الـميثاق الأعظم على البشريَّة وهو ميثاق التوحيد، بينما (سورة البقرة) تتكلَّم على ميثاق بني إسرائيل.

والذي يظهر لي أن ما ذكره الفيروز أبادي ﵀ من أن تسميتها بــ (الـميقات، والـميثاق)، إنما هما تسميتان من باب الاجتهاد التَّلْقِيبي؛ توسع بذكرهما بعضهم؛ إذ يستجيز بعض الـمشتغلين بالقرآن الـمجيد أن ينادوا هذه السُّورَة أو تلك بتسمية محددة، ولا يعني ذلك ثبوت هذه التَّسمية، والـمحفوظ عن السلف تسميتها بــ (سورة الأعراف) فحسب. ولهذا قال ابن عاشور ﵀: "ولم أقف على هاتين التسميتين في كلام غيره"[(٢)].

---

(١) بصائر ذوي التمييز (١/ ٢٠٣، ٢٠٤).

(٢) التحرير والتنوير (٨ب/ ٧).

الأساس الرابع
المواضيع الكبرى التي تضمها سورة الأعراف

أ.د. عبد السلام مقبل المجيدي

المواضيع الكبرى التي تضمها سورة الأعراف

- الموضوع الأول: قصة البداية والنهاية للذرية الآدمية.
- الموضوع الثاني: تأثير "الملأ" على المجتمع الإنساني في الجهتين: الحكام، والشعوب.
- الموضوع الثالث: مشاهد جديدة للدار الآخرة.
- الموضوع الرابع: الاستخلاف في الأرض والعهد الموثق المأخوذ على بني آدم.
- الموضوع الخامس: الإصلاح في الأرض للنفس والبيئة والحياة.
- الموضوع السادس: السنن الاجتماعية والكونية التي تجري على الأمم عندما يأتيهم الأنبياء.
- الموضوع السابع: الافتراء على الله عز وجل، والقول عليه بلا علم.

﴿مفصل سورة الأعراف (1)﴾

ربما تسأل: ما الفرق بين هذا الأساس والأساس السادس الذي يحدِّثنا عن الخريطة الكُلِّيَّة، وفيها المحاور الكُلِّيَّة التي تتكون منها السُّورَة؟ أليست المحاور هي المواضيع الكُلِّيَّة ذاتها التي توجد في السُّورَة؟

الجواب: في هذا الأساس نتكلم عن المواضيع الكُلِّيَّة التي تفرقت الأفكار المتعلقة بها في السُّورَة بألفاظها أو معانيها، وقد تكون ضمن محور واحد، وقد تكون مفرقة بين المحاور

لحكمة عظيمة نلتمسها من التدبر، بينما ترشدنا الخريطة الكُلِّيَّة إلى المواضيع المتتابعة من أول آية إلى آخر آية، فبينهما تداخلٌ وتباينٌ في الوقت ذاته.

وعلى سبيل المثال: في سورة الأعراف نجد من المواضيع الكبرى: الافتراء على الله، وقول البشر على الله ما لا يعلمون، فيشرعون التشريعات الباطلة، ويخبرون الأخبار الكاذبة، وقد وجدنا هذا الموضوع مفرقًا بأساليب وأفكار متعدِّدة في المحور الأول، والثالث، والرابع، والخامس، والسادس، والسابع.

ومثال آخر: سورة البقرة تفصِّل لنا قِصَّة بني إسرائيل ابتداء من الآية (٤٠)، وتنتهي عند الآية (١٢٣)، ثم يعود الكلام عنهم مجددًا في الآية (٢١١)، وكذلك تكرر ذكرهم الآية (٢٤٦)، فيمكننا القول: إن الكلام عن بني إسرائيل هو أحد المواضيع الكُلِّيَّة التي تدور حولها سورة البقرة، لكننا عندما ننظر إلى الخريطة الكُلِّيَّة نجد الآيات المتعلقة ببني إسرائيل مبثوثة في ثلاثة محاور غير متتابعة هي: المحور الثالث، والمحور السابع، والمحور التاسع، وكذلك الجانب المالي موضوع من الموضوعات الكبرى لسورة البقرة لكننا عندما ننظر إليه في الخريطة الكُلِّيَّة نجده مبثوثًا بين المُقَدِّمَة الأولى، والمحور الثالث، والسادس، والثامن، والتاسع، والحادي عشر، وهكذا يكمِّل هذان الأساسان: أساس المواضيع الكُلِّيَّة، والخريطة الكُلِّيَّة بعضهما بعضًا.

وهنا ستسأل: قد عرفنا أن المحاور التي تكوَّنت منها سورة الأعراف تمثِّل المواضيع الكُلِّيَّة، فما المواضيع الكُلِّيَّة الأخرى التي لفتت أنظارنا، وتفرَّقت بين المحاور؟

الجواب: من أهمِّ المواضيع الكُلِّيَّة في هذه السُّورَة:

الموضوع الأول: قِصَّة البداية والنهاية للذُّرِّيَّة الآدميَّة.

الموضوع الثاني: تأثير "الملأ" على المجتمع الإنساني في الجهتين: الحكام، والشعوب.

الموضوع الثالث: مشاهد جديدة للدار الآخرة.

الموضوع الرابع: الاستخلاف في الأرض والعهد الـموثق المأخوذ على بني آدم.

الموضوع الخامس: الإصلاح في الأرض للنفس والبيئة والحياة.

الموضوع السادس: السُّنَن الاجتماعيَّة والكونيَّة التي تجري على الأمم عندما يأتيهم الأنبياء.

الموضوع السابع: الافتراء على الله ﷻ، والقول عليه بلا علم.

الموضوع الأول: قِصَّة البداية والنهاية للذُّرِّيَّة الآدميَّة:

ففي أول السُّورَة حيث المحور الأول تجد القِصَّة المثيرة التَّفصيليَّة لبداية وجود آدم ﵇ وذريته في التَّاريخ ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَـٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَـٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّـٰجِدِينَ﴾ [الأعراف: ١١]، وبعد تفاصيل لا توجد في سورة أخرى يظهر فيها ضعف آدم وزوجه عليهما السلام أمام الخدع الشَّيطانية، تصبح القِصَّة منطلقًا لمخاطبة الذُّرِّيَّة الآدميَّة، ثم يعود الكلام عن الذُّرِّيَّة الآدميَّة في آخر السُّورَة بصورة لافتة، تخللتها مفاجأة تاريخية لا بد أن تثير التدبُّر القرآني.

ربما تبادر متسائلًا: أين أعيد الكلام عن الذُّرِّيَّة الآدميَّة؟ وما المفاجأة التي ظهرت هناك؟

الجواب: في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، وأما المفاجأة فتتعلق بموضع هذه الآية؛ إذ جاءت في أواخر السُّورَة، مع أن موضوعها يحدثنا عن حدث وقع في أول النشأة الإنسانيَّة: إنه حدث الكلام مع جميع الذُّرِّيَّة الآدميَّة، وأخذ الميثاق عليها أن تشهد لله ﷻ بالرُّبوبية، وهذا التَّرابط يثير الفكر التَّدبُّري القرآني، وسنتطرق لذلك في موضعه إن شاء الله ﷻ.

الموضوع الثاني: تأثير "الملأ" على المجتمع الإنساني في الجهتين: الحكام، والشعوب:

قد تتساءل:

فهل "الملأ" يمكن أن يكون لهم تأثير إيجابي؟ ألم يذكروا في القرآن في معرض الذمِّ؟

الجواب: عندما ترجع إلى مصطلح "الملأ" في القرآن المجيد تجده يعبر عن: الذين يملؤون العين بوجه من وجوه التأثير التي تميزوا بها، وقد ذكروا في سورة الأعراف سبع مرَّات.

الملأ: هم القيادات المحدودة العدد، الوافرة الهم، القويَّة التَّأثير، القادرة على صنع التَّغيير، المتحكِّمة بشكلٍ ما في رأي صناع القرار، والتَّأثير في المصير.

وتجد الملأ يؤثِّرون على إحدى الجهتين: الحكام، والشعوب، أو عليهما معًا، وقد يكون التغيير الذي يحدثونه في النَّاحية الإيجابية، وقد يكون ذلك في النَّاحية السَّلبية.

وفي القرآن المجيد يأتي ذكر الملأ في كل هذه الجوانب، فليس ذكرهم مقتصرًا على المكان المذموم، أو الرأي السِّلبي:

ذكر الله ﷻ "الملأ" باعتبارهم القوَّة التَّأثيريَّة الأولى التي قادت المظلومين إلى ساحات التمكين في قِصَّة التحرر الإسرائيلية الإسلامية.

حيث قال الله ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٦].

ولكنهم أيضًا: الملأ الذي كان لهم التأثير على قرار قوم نوحٍ عليه السلام في التعامل مع نبيِّهم، وكذلك على قرار قوم هود عليه السلام في إصدار الحكم المتعلق برسالته، فقال الله ﷻ عنهم: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [الأعراف: ٦٦].

وكذلك ذكروا باعتبارهم يؤثِّرون بصورة هائلة على الشعب، فها هم يحاولون استخدام نفوذهم لإبعاد أتباع صالح عليه السلام عنه، ويصف الله عز وجل ذلك، فيقول: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٧٥].

كما تجد ذكرهم، وقد تعدَّوا التأثير على الطبقة الحاكمة ليكون لهم القرار، فهم الذين يمثلون الطبقة الحاكمة في قوم شعيب عليه السلام حيث يقول الله عز وجل: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ﴾ [الأعراف: ٧٥].

وأما في قِصَّة فرعون فإنك تجد الملأ يؤثِّرون على فرعون، ويصنعون ما يزيده استكبارًا، كما يحاولون التأثير على الجماهير في الوقت ذاته، فتسمع لقول الله عز وجل يصوِّرهم وهم يقولون: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٠٩].ثم تجدهم يحاولون صنع القرار لفرعون بصورة قوية صريحة، حيث يقول الله عز وجل: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٧].

ومما يؤكِّد لك أنهم يكونون من المؤثِّرين على الطبقات الحاكمة إيجابًا وسلبًا أن الله عز وجل ذكر منهم صاحب ملك مصر الذي كان سببًا في التعريف بيوسف عليه السلام حيث قال الله عز وجل: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾ [يوسف: ٤٣]، وهنا انبعث ساقي الملك، وكان من الملأ، فقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ﴾ [يوسف: ٤٣].

وكذلك تجد أن الله ﷻ ذكر الملأ حول ملكة سبأ: ﴿قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَـٰبٌ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٢٩]، كما ذكر الملأ حول سليمان عليه السلام ﴿قَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٣٨].

وأكثر سورة ذكر فيها الملأ هي هذه السُّورَة المباركة.

> كلُّ هذا يدفع الذين يبحثون عن إصلاح هذا العالم الغارق في الكبر، والغفلة، والظُّلم إلى أن يحاولوا صنع الملأ الذين يصلحون في الأرض ولا يفسدون.. الملأ الذين يقودون الشُّعوب في جميع المجالات، ويؤثِّرون على رأي الطبقة الحاكمة.

هناك يتحقَّق قول موسى لأخيه هارون عليهما السلام: ﴿ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٢]!!!

الموضوع الثالث: مشاهد جديدة للدار الآخرة:

حيث ابتدأ الحديث بذكر ميزان العدل المطلق من أول السُّورَة، حيث توزن كل حركة، وكلمة، ونظرة، وشعور: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ۝٧ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ﴾ [الأعراف: ٨٧].

وتظهر الحياة الآخرة في السُّورَة في مشاهد لا نظير لها ابتداء من ظهور عالم الغيب عند الموت: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓا۟ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ﴾ [الأعراف: ٣٧].

فهل ظهرت مشاهد جديدة لم نرها في بقية القرآن المجيد؟

الجواب: تكاد التفاصيل الواردة في المشاهد هنا لا تجدها في أي سورة في بقية القرآن المجيد، فمنها الحوار اللاهب بين أمم أهل النار: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا

ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨-٣٩].

يمتلئ قلبك بالرغبة في البحث عن سبيل يحميك من مصيرهم، ثم ترى أهل الجنة وقد استقروا في نعيمهم، وهم يتكئون، فيقولون: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّۖ﴾ [الأعراف: ٤٣] **فيحلق قلبك شوقًا إلى ذلك النعيم المقيم والخلود الأبدي.**

وتجد مشاهد الحوار بين أهل الجنة وأهل النار بصورة تجعلك لا تنسى في كل لحظة أن تسأل الله ﷻ الجنة، وتعوذ به من النار، حتى تدرك المأمن، وللنجاة تضمن، فتكون جنة عدن هي المسكن حيث ترى الفخر الأبدي فلا تغتم ولا تحزن: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّاۖ قَالُواْ نَعَمْۚ﴾ [الأعراف: ٤٤].

ويفاجئك السِّياق بظهور أهل الأعراف بين الجنة والنار وهم يخاطبون الفريقين: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌۚ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَىٰهُمْۚ وَنَادَوْاْ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْۚ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ ۞ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٥-٤٧].

يستمر وقع هذه المشاهد في الأحداث القادمة في السُّورَة لتجد في ختام السُّورَة لمحة تتعلق بالمصير في الآخرة، حيث ربطها الله ﷻ بعدم إعمال أدوات التَّعلُّم فقال: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

الموضوع الرابع: الاستخلاف في الأرض والعهد الـموثق المأخوذ على بني آدم:

وربما تقول: رأينا الاستخلاف في سورة البقرة، فما الجديد الذي ظهر في موضوع الاستخلاف في هذه السُّورَة؟

ذكر الله ﷻ استخلاف آدم ﵇ في سورة البقرة بصورة مجملة، لكنه هنا يذكر استخلاف بَنِيهِ بشيء من التفصيل التنظيمي والواقعي، فيبدأ ذكر الاستخلاف المقترن بالعهد الموثق من النداءات الأربعة الأولى، ووصولًا إلى العهد الأول عندما كان بنو آدم ﵇ في عالم الغيب: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ ۛ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

هذه الآية عن العهد تجعلك ترجع إلى أول السُّورَة حيث الكلام عن استخلاف الإنسان في الأرض والتمكين له، لتسمع قول الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّـٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٠].

ويُذَكِّرُ الأنبياءُ -وهم قيادات الرشد في الأرض- أَقْوامَهُم بأن الله ﷻ استخلفهم في الأرض، فيقولون لهم:

﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ [الأعراف: ٦٩]، ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ﴾ [الأعراف: ٧٤].

ويقصُّ الله ﷻ علينا من أنباء الحضارات المسْتَخْلَفَةِ، كأنهم أمة واحدة لم يفرِّق الزمان بينها: ﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٠١].

ذكر الله ﷻ الاستخلاف لآدم ﵇ في سورة البقرة لكنه هنا يذكر استخلاف بيِّنه بشيء من التَّفصيل التَّنظيميِّ والواقعيِّ.

لقد بقيت مشاهد الاستخلاف في التَّاريخ القديم تتوالى حتى جاء العهد الوسيط الفاصل.

هل تعلم ما هذا العهد الوسيط الفاصل المؤثِّر؟

الجواب: إنه عهد بني إسرائيل، حيث يتغير التَّاريخ شيئًا ما، فيُذكِّر موسى ﵇ قومه بموضوع الاستخلاف، وأن عصر الاستضعاف الذي يعيشونه لن يدوم! ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨]، **وأن الأيام دُول، وأن الله ﷻ يبتلي كل مستخلَف جديد في الأرض:** ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩].

ثم يذكر الله ﷻ استخلاف بني إسرائيل في الأرض: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ﴾ [الأعراف: ١٣٧]، **وتفاجئنا السُّورَة بأن بني إسرائيل أخلفوا عهد الله ﷻ من أول لحظات الاستخلاف:** ﴿وَجَـٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨].

وتظهر مشاهد الاستخلاف الجزئية في السُّورَة، مثل استخلاف موسى لأخيه هارون ﵉ :

﴿ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٢].

وقد تسأل: كيف أدار هارون ﵇ فترة الاستخلاف هذه؟

الجواب: يحاول هارون ﵇ النجاح في إدارة هذا الاستخلاف، لكنه يمنع من ذلك بالقوة، ويصرُّ المفسدون على تأسيس الشِّرك في الأرض، ويقدِّم هارون ﵇ تقريره المؤلم عن تهديد

المفسدين له: ﴿ٱبۡنَ أُمَّ إِنَّ ٱلۡقَوۡمَ ٱسۡتَضۡعَفُونِي وَكَادُواْ يَقۡتُلُونَنِي فَلَا تُشۡمِتۡ بِيَ ٱلۡأَعۡدَآءَ وَلَا تَجۡعَلۡنِي مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٠].

الموضوع الخامس: الإصلاح في الأرض للنفس والبيئة والحياة:

ستقول: وما علاقة الإيمان وأن يصلح الإنسان نفسه وحياته؟

الجواب: هنا ترى القصور الإيمانية المشيدة التي تعمر الحياة حيث يقرِّر الله ﷻ في النداء الرابع من نداءاته للذُّرِّيَّة الآدميَّة أنَّ الإصلاح لا ينفكُّ عن الإيمان، فيقول: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [الأعراف: ٣٥].

ويتكرر الأمر بالإصلاح: ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

ويتتابع الأنبياء عليهم السلام على الأمر بالإصلاح في الأرض، حتى يأتي شعيب عليه السلام ليبين مظاهر ضخمة للإصلاح في الأرض، منها الإصلاح الاقتصادي، والسياسي، والبيئي، فيقول لقومه: ﴿فَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَاۚ﴾ [الأعراف: ٨٥]، **ويوصي موسى عليه السلام أخاه هارون عليه السلام بأن يتبع هذا المنهج في إدارته لبني إسرائيل:** ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٢].

ويتداخل مع موضوع الاستخلاف والإصلاح في الأرض موضوع سادس.. إنه موضوع يُنسى في زحمة الاغترار بالحياة.. فهل تعلم ما هو؟

يشرق لك الجواب من خلال:

الموضوع السادس: السُنَن الاجتماعيَّة والكونيَّة التي تجري على الأمم عندما يأتيهم الأنبياء عليهم السلام:

أ.د. عبد السلام مقبل المجيدي

السنن الاجتماعية والكونية التي تجري على الأمم عندما يأتيهم الأنبياء عليهم السلام

﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ ...﴾ [الأعراف: 169]

1 **المرحلة الأولى:** القيام الحضاري: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ﴾

2 **المرحلة الثانية:** الإرث الرسالي: ﴿وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾

3 **المرحلة الثالثة:** العبث الفاسق: ﴿يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ﴾

4 **المرحلة الرابعة:** الانسلاخ المتأول: ﴿وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا﴾

5 **المرحلة الخامسة:** التلذذ المحرَّم المستمر: ﴿وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ﴾

6 **المرحلة السادسة:** النسيان المدمِّر لميثاق الكتاب: ﴿أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ﴾

﴿مفصل سورة الأعراف (1)﴾

حيث يقصُّ الله ﷻ علينا المراحل التي تمرُّ بها الأمم عندما يأتيهم الأنبياء عليهم السلام: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ﴾ [الأعراف: ٩٤].

ويذكر الله ﷻ هذه السُّنَن إجمالًا كما في الآيات ما بين [٩٤-١٠٢]، ويقصُّها علينا تفصيلًا حيث تلمح هذه السُّنَن من أول السُّورَة إلى آخرها.

فإن سألت: ما السُّنَن التي تجري عليها الأمم عندما تأتيهم الأنبياء عليهم السلام؟

والجواب: تأتي الصِّيَاغة أحيانًا بصورة مباشرة حيث تشهد في كلام الله ﷻ ما يخبر عن سُنَن الدَّمار الحضاريِّ، حيث تتدهور الأمم، وتنحطُّ، وتنسلخ عن مواثيق ربها ﷻ، فيقول تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٩]:

فالمرحلة الأولى: الانبعاث الحضاري: بقيام حضارة جديدة بعد حضارة بائدة، وأمة مستخلفة بعد أمة هالكة: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ﴾ [الأعراف: ١٦٩].

وتعقبها المرحلة الثَّانية: الإرث الرسالي: وصول الرسالة للأمة الجديدة إما برسول، وإما بورثة الرسول من العلماء: ﴿وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ [الأعراف: ١٦٩].

فتأتي المرحلة الثَّالثة: العبث الفاسق، بأن تُؤْثِرَ الأُمةُ الشهوات الدُّنيويَّة المُحَرَّمة، التي تجعل الفسق منهج حياة: ﴿يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٦٩].

ثم تأتي المرحلة الرَّابعة: الانسلاخ المتأوِّل: بأن يتلاعب الفساق بتوجيهات الكتاب، ويجعلونه حجة لفسقهم: ﴿وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا﴾ [الأعراف: ١٦٩].

ثم تأتي المرحلة الخامسة: التَّلذُّذ المحرَّم المستمرُّ، حيث يصبح الفسق عادة، ويتم تطبيع الحياة مع الإجرام، فيقول الله ﷻ: ﴿وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُ﴾ [الأعراف: ١٦٩].

وهنا تأتي المرحلة السَّادسة: بالنِّسيان المدمِّر لميثاق الكتاب: ﴿أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ﴾ [الأعراف: ١٦٩].

الموضوع السابع: الافتراء على الله تعالى، والقول عليه بلا علم:

ويلفت نظرك بشِدَّة كيف تعالج السُّورَة موضوع الافتراء على الله ﷻ، حيث يتكرَّر مجدَّدًا بصيغة أخرى هنا، ويلفت نظرك -أيضا- إلى أن الافتراء على الله ﷻ موضوع عالجته سورة الأعراف بِذْكِرِ أُصُولِه، وَضَرْبِ أَمثلةٍ له:

فأول مكان ورد فيه في أول السُّورَة: عندما ذكر الله -جلَّ مَجْدُه- أن إبليس أقسم بالله كاذبًا على معلومات كاذبة: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ۝٢٠ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ۝٢١﴾ [الأعراف: ٢٠-٢١]، تصوَّرِ المسألة: إبليس يُقْسِم بالله على أن الله ﷻ منع آدم خيرًا؟! تعالى الله عما يقول الظَّالمون.

ثم ذكر الله ﷻ الافتراء مرة ثانية: عندما أخبرنا أن الفُسَّاق سيقترفون الفواحش، وينسبون فعلهم إلى أمر الله ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٢٨﴾ [الأعراف: ٢٨].

وثالث موضع: عندما أُخْبِرْنَا أن القول على الله ﷻ بلا علم أساس المعاصي: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٣٣﴾ [الأعراف: ٣٣].

ورابع موضع: عندما أخبرنا الله ﷻ أن الافتراء على الله أشدُّ درجات الظلم: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ ۝٣٧﴾ [الأعراف: ٣٧].

وخامس موضع: عندما أعلمنا رَبُّنا -تعالى شأنه- أن أهل الأعراف يذكرون المجرمين الذين افتروا على الله الكذب، وزعموا أن الرَّحْمَة لا تنال المؤمنين المستضعفين، وهم يعنون أن الرَّحْمَة الإلهيَّة تقتصر على جنس معين أو نسب معين ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ

ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ ﴿٤٩﴾﴾ [الأعراف: ٤٩]، فأقسموا مثل ما أقسم إبليس، فأقسم الـمستكبرون أن الرَّحْمَة خاصَّة بنَسَبٍ، أو عِرْقٍ، أو مذهب خاصٍّ بهم.

وسادس موضع: عندما رد شعيب عليه السَّلام على الـمستكبرين من قومه، حيث طلبوا منه أن يترك الإسلام لصالح الثقافة الوَثنيَّة، فقال: ﴿قَدِ ٱفۡتَرَيۡنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنۡ عُدۡنَا فِي مِلَّتِكُم بَعۡدَ إِذۡ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنۡهَاۚ ﴿٨٩﴾﴾ [الأعراف: ٨٩].

وسابع موضع: عندما أخبر موسى عليه السلام أن الذين يُؤَسِّسُون لِلشِّرْك يحاولون أن يَبْنُوا في العالـم دارًا تؤوي الفاسقين، وهم الـمفترون على الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ سَيَنَالُهُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَذِلَّةٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُفۡتَرِينَ ﴿١٥٢﴾﴾ [الأعراف: ١٥٢].

وثامن موضع: حيث افترى الـمحتالون الفاسقون على الله الكذب وزعموا أنه سيغفر لهم مهما عملوا من معصية ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [الأعراف: ١٦٩].

الأساس الخامس

مدد السَّابقين من المفسّرين في التعرُّف إلى الموضوع الكلِّيّ لسورة الأعراف

وهنا لا بد أن تسأل: أفلم تجد في جهد جهابذة أئمتنا وعباقرتهم ما ينبئنا عن الموضوع الكُلِّي الذي تدور حوله السُّورَة؟

الجواب: دعني استبق الخطى فأخبرك عن آراء السابقين من أهل العلم، وكيف أمدونا بمدد زاخر في طريق معرفتنا للموضوع الكلِّيِّ لهذه السُّورَة:

الرأي الأول: رأي البِقَاعِي رحمه الله: السُّورَة تدور حول: الحثّ على اتباع الكتاب، أو حول إنْذار مَن أعْرَضَ عمّا دَعا إلَيْهِ الكِتابُ في السُّورَة الماضِيَةِ مِنَ التَّوْحِيدِ والِاجْتِماعِ عَلى الخَيْرِ:

رأى الإمام البِقَاعِي رحمه الله أنَّ مقصود السُّورَة الحثُّ على اتباع الكتاب، وهو يتضمن الحثَّ على اتباع الرسول ﷺ، والدلالة على التوحيد، والقدرة على البعث ببيان الأفعال الهائلة في ابتداء الخلق، وإهلاك الماضين؛ إشارة إلى أن من لم يتَّبعْه ويوحِّد مَنْ أنْزله على هذا الأسلوب الَّذي لا يستطاع، والمنهاج الذي وقفت دونه العقول والطباع، لما قام من الأدلَّة على توحيده بعجز من سواه عن أقواله وأفعاله - أوشك أن يعاجله قبل يوم البعث بعقاب، مثل عقاب الأمم السَّالفة والقرون الخالية، مع ما ادخر له في ذلك اليوم من سوء المنقلب وإظهار أثر الغضب(١).

ثم كأن البِقَاعِي رأى أن هذا الموضوع: "الحثَّ على اتِّباع الكتاب" موضوع عامٌّ، فرأى بعد مراجعة أن يغير هذا المقصود إلى أمر أكثر دِقَّة، فقال رحمه الله: "مقصودها إنذار من أعرض عما دعا إليه الكتاب في السُّورَة الماضية من التوحيد والاجتماع على الخير والوفاء لما قام على وجوبه من الدليل في الأنعام، وتحذيره بقوارع الدَّارين، وهذا أحسن مما كان ظهر لي

---

(١) ينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٧/ ٣٦٠).

وذكرته عند: ﴿وَٱلۡوَزۡنُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّۚ﴾ [الأعراف: ٨]، وأدلُّ ما فيها على هذا المقصد أمر الأعراف، فإنَّ اعتقاده يتضمَّن الإشراف على الجنة والنار، والوقوف على حقيقة ما فيها، وما أعد لأهلها، الدَّاعي إلى امتثال كلِّ خير، واجتناب كلِّ شر، والاتِّعاظ بكلِّ مُرَقِّقٍ"(١).

فإن قلت: فما رأيك بما ذهب إليه البِقَاعِي من تحديد موضوع سورة الأعراف العام؟

وأنت ترى أن الموضوع الذي يتكلَّم عنه فيه شيء من العمومية؛ ولو بحثت عن اتباع الكتاب لوجدته في سورة الأنعام، ثمَّ لو قلبت النظر لرأيته في سورة فُصِّلت، إلا أن رأي البِقَاعِي رحمه الله يؤسِّس تأسيسًا قويًّا يهدينا الله عز وجل به سواء السبيل في معرفة الموضوع الكُلِّي الأقرب ليكون سبب تسوير سورة الأعراف.

ولكنك تلاحظ عَظَمَة علمائنا رحمهم الله، فالبِقَاعِي هنا يعلمنا أن نُعمِل ملَكة التدبر مهما ظننا أننا وصلنا إلى هدى في النظر في معنى من معاني الآيات أو السُّورَة، ويزداد الأمر قوة وتحديًّا عندما يتعلَّق الأمر بموضوع السُّورَة، فالتدبُّر في موضوع السُّورَة يحتاج إلى تعمُّق قوي، حيث يرى المؤلِّف شيئًا ثم يرجع عنه، ثم يرى شيئًا ثم يرجع عنه؛ ولذلك رجع إمامنا وحاول أن يصحِّح ويدقِّق، وسنهتدي بما وصل إليه لمحاولة أكثر دِقَّة في تحديد الموضوع الكلِّيِّ هذه السُّورَة.

موضوع السورة يحتاج إلى تعمُّق قويٍّ، حيث يرى المؤلِّف (الباحث أو المجتهد) شيئًا ثم يرجع عنه، ثمَّ يرى شيئًا ثم يرجع عنه.

هنا ربما سألت: هل هناك رأي آخر يحدِّد موضوع السُّورَة غير رأي البِقَاعِي رحمه الله؟

تعال بنا إلى:

(١) ينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٧/ ٣٤٧).

الرأي الثاني: رأي صاحب الظِّلال ﷺ: سورة الأعراف تعرض مسيرة العقيدة من خلال التَّاريخ البشري:

نحن الآن بين يدي سيد قطب ﷺ، وإنك لتقرأ كلماته فتشعر بأنه هُدِيَ إلى صراط مستقيم في كلِّ كلمة يقولها:

يرى سيد قطب ﷺ أن موضوع السُّورَة مُتَّحِدٌ مع موضوع (سورة الأنعام)، إلا أن هناك اختلافًا في طريقة معالجة السُّورتين للموضوع.

إذا الـموضوع واحد! فما هذا الـموضوع؟ إنه الإيمان!

ولكن كيف اختلفت سورتان في معالجة موضوع الإيمان؟

لننظر ماذا يقول صاحب الظلال ﷺ...إنه يرى اتحاد موضوع السُّورتين (الأنعام والأعراف) واختلاف طريقة معالجتهما له، وقد حاول ﷺ بيان السِّمة الـمميِّزة لكلٍّ منهما، فـ(سورة الأنعام) تعرض العقيدة -يعني الإيمان-، وتعالج تصورات الجاهليَّة، و(سورة الأعراف) تعرض مسيرة العقيدة من خلال التَّاريخ البشري الذي أتاه موكب الأنبياء والـمصلحين، وهو يقول في عباراته الـمنيرة الـمشرقة: "هذه سورة مكِّيَّة – كـ(سورة الأنعام)- موضوعها الأساسي هو موضوع القرآن الـمكِّيِّ..."العقيدة"... ولكن ما أشدَّ اختلاف الـمجالين اللذين تتحرك فيهما السُّورتان في معالجة هذا الـموضوع الواحد، وهذه القضية الكبيرة!!!

إنَّ كلَّ سورة من سُوَر القرآن ذات شخصية متفرِّدة، وذات ملامح متميِّزة، وذات منهج خاصٍّ، وذات أسلوب معيَّنٍ، وذات مجال متخصِّصٍ في معالجة موضوع ما، تكرَّر وروده في أكثر من سورة.

إن الشأن في سور القرآن -من هذه الوجهة- كالشأن في نماذج البشر التي جعلها اللّه ﷻ متميزة، كلُّهم إنسان! وكلُّهم له خصائص الإنسانيَّة! وكلُّهم له التكوين العضوي والوظيفي الإنساني! ولكنهم بعد ذلك نماذج مُنَوَّعة أشد التَّنويع، نماذج فيها الأشباه القريبة الـملامح، وفيها الأغيار التي لا تجمعها إلا الخصائص الإنسانيَّة العامَّة!

هكذا عدت أتصور سور القرآن! وهكذا عدت أحسها! وهكذا عدت أتعامل معها بعد طول الصحبة، وطول الألفة، وطول التعامل مع كل منها وفق طباعه واتجاهاته، وملامحه وسماته. وأنا أجد في سور القرآن -تبعًا لهذا- وفرةً بسبب تنوع النماذج، وأُنسًا بسبب التعامل الشخصي الوثيق، ومتاعًا بسبب اختلاف الـملامح والطباع، والاتجاهات والـمطالع!

إنها أصدقاء...كلها صديق...وكلها أليف...وكلها حبيب...وكلها ممتع...وكلها يجد القلب عنده ألوانًا من الاهتمامات طريفةً! وألوانًا من الـمتاع جديدةً! وألوانًا من الإيقاعات! وألوانًا من الـمؤثرات! تجعل لها مذاقًا خاصًا وجوًا متفردًا.

مصاحبة السُّورة من أوَّلها إلى آخرها رحلة في عوالـم ومشاهد، ورؤىً وحقائق، وتقريرات مُوْحِيات، وغوص في أعماق النُّفُوس، واستجلاء لمشاهد الوجود...ولكنَّها كذلك رحلة متميزة الـمعالـم في كلِّ سورة ومع كلِّ سورة.

إن موضوع سورة الأنعام هو العقيدة، وموضوع سورة الأعراف هو العقيدة، ولكن بينما (سورة الأنعام) تعالج العقيدة في ذاتها، وتعرض موضوع العقيدة وحقيقتها، وتواجه الجاهليَّة العربية في حينها -وكلُّ جاهلية أخرى كذلك- مواجهة صاحب الحقِّ الذي يصدع بالحقِّ، وتستصحب معها في هذه الـمواجهة تلك الـمؤثرات العميقة العنيفة الكثيرة الـموفورة... نجد

(سورة الأعراف) -وهي تعالج موضوع العقيدة كذلك-...تعرضه في مجال التَّاريخ البشري، في مجال رحلة البشريَّة كلها مبتدئة بالجنة والـملأ الأعلى وعائدة إلى النقطة التي انطلقت منها.

وفي هذا الـمدى الـمتطاول تعرض موكب الإيمان من لدن آدم عليه السلام إلى محمَّد صلى الله عليه وسلم، تعرض هذا الـموكب الكريم يحمل هذه العقيدة، ويمضي بها على مدار التَّاريخ، يواجه بها البشريَّة جيلًا بعد جيل، وقبيلًا بعد قبيل، لقد انطلقت هذه البشريَّة من نقطة البدء ممثلة في شخصين اثنين: آدم وزوجه أبوي البشر عليهما السلام، وانطلق معهما الشَّيطان مأذونًا من اللّه عز وجل في غوايتهما وغواية ذراريهما، ومأخوذًا عليهما عهد اللّه سبحانه وتعالى وعلى ذراريهما كذلك.

ومبتلي كلاهما وذراريهما معهما بقدر من الاختيار ليأخذوا عهد اللّه سبحانه وتعالى بقوة، أو ليركنوا إلى الشَّيطان عدوهم وعدو أبويهم الذي أخرجهما من الجنة، وليسمعوا الآيات التي يحملها إليهم ذلك الرهط الكريم من الرسل عليهم السلام على مدار التَّاريخ، أو يسمعوا غواية الشَّيطان الذي لا يني يجلب عليهم بخيله ورجله، ويأتيهم عن أيمانهم وعن شمائلهم! انطلقت البشريَّة من هناك، من عند ربها سبحانه وتعالى سبحانه، انطلقت إلى الأرض تعمل وتسعى، وتكد وتشقى، وتصلح وتفسد، وتعمر وتخرب، وتتنافس وتتقاتل، وتكدح الكدح الذي لا ينجو منه شقي ولا سعيد، ثم ها هي ذي تؤوب! ها هي ذي راجعة إلى ربِّها عز وجل الذي أطلقها في هذا الـمجال، ها هي ذي تحمل ما كسبت طوال الرحلة الـمرسومة، من ورد وشوك، ومن غال ورخيص، ومن ثمين وزهيد، ومن خير وشر، ومن حسنات وسيئات، ها هي ذي تعود في أصيل اليوم، فقد انطلقت في مطلعه!

إنَّ السُّورة لا تعرض قِصَّة هذه العقيدة في التَّاريخ البشري، ولا تعرض رحلة البشريَّة منذ نشأتها الأولى إلى عودتها الأخيرة مجرد عرض في أسلوب قصصيٍّ، إنما هي تعرضها في صورة معركة مع الجاهليَّة.

ثم استعرض رحمه الله مقاطع السُّورَة الـمختلفة ابتداء من أولها ووصولًا إلى خاتمتها(١).

ربما تسألني عن رأيي فيما توصَّل له سيد رحمه الله حول الموضوع الكلِّيِّ لسورة الأعراف؟

وإليك الجواب:

يرى سيد قطب رحمه الله أن سورة الأعراف تعرض مسيرة العقيدة من خلال التَّاريخ البشري، وهو موضوع قويٌّ جدًّا يستحقُّ أن يشاد به خاصَّة عند المقارنة مع سورة الأنعام، لكنك تستشكل أن يمثِّل شخصية السُّورة عندما تقارنها بسورة هود عليه السلام، وسورة الشعراء، فكلٌّ منهما يحثُّك على أن تجعل هذا الموضوع عمودًا لهما أيضًا.

ربما تسأل: فماذا عن مفخرة علماء التَّفسير المعاصرين: الإمام المقاصديُّ الطاهر بن عاشور رحمه الله، فماذا يقول في الموضوع الكلِّيِّ لسورة الأعراف؟

تعال بنا لنتعلَّم في رحابه:

الرأي الثالث: ابن عاشور رحمه الله: سورة الأعراف تدور حول مجموعة مقاصد:

أما ابن عاشور رحمه الله فلا يذكر للسُّورة موضوعًا كلِّيًّا جامعًا، بل يذكر أهدافها الـمتعدِّدة، ويخلط بينها وبين محاورها العامَّة ابتداء من أوَّلها، فيقول مثلًا: "تدور مقاصد هذه السُّورَة على مِحْوَرِ مَقَاصِدٍ منها: النهي عن اتخاذ الشُّركاء من دون الله سبحانه وتعالى، وإنذار الـمشركين عن

(١) ينظر: في ظلال القرآن (٣/ ١٢٤٣-١٢٤٥).

سوء عاقبة الشِّرك في الدُّنيا والآخرة، ووصف ما حل بالـمشركين والذين كذبوا الرسل من سوء العذاب في الدُّنيا، وما سيحل بهم في الآخرة، وتذكير النَّاس بنعمة خلق الأرض، وتمكين النوع الإنساني من خيرات الأرض، وبنعمة الله ﷻ على هذا النوع بخلق أصله وتفضيله، وما نشأ من عداوة جنس الشَّيطان لنوع الإنسان، وتحذير النَّاس من التلبس ببقايا مكر الشَّيطان من تسويله إيَّاهم حرمان أنفسهم الطيبات، ومن الوقوع فيما يزج بهم في العذاب في الآخرة، ووصف أهوال يوم الجزاء للمجرمين وكراماته للمتقين، والتذكير بالبعث وتقريب دليله، والنهي عن الفساد في الأرض التي أصلحها الله ﷻ لفائدة الإنسان، والتذكير ببديع ما أوجده الله ﷻ لإصلاحها وإحيائها، والتذكير بما أودع الله ﷻ في فطرة الإنسان من وقت تكوين أصله أن يقبلوا دعوة رسل الله ﷻ إلى التقوى والإصلاح.

وأفاض في أحوال الرسل عليهم السلام مع أقوامهم الـمشركين، وما لاقوه من عنادهم وأذاهم، وأنذر بعدم الاغترار بإمهال الله ﷻ النَّاس قبل أن ينزل بهم العذاب، إعذارًا لهم أن يقلعوا عن كفرهم وعنادهم، فإن العذاب يأتيهم بغتة بعد ذلك الإمهال.

وأطال القول في قِصَّة موسى عليه السلام مع فرعون، وفي تصرفات بني إسرائيل مع موسى عليه السلام، وتخلل قصته بشارة الله ﷻ ببعثة محمَّد ﷺ، وصفة أمته وفضل دينه.

ثم تخلص إلى موعظة الـمشركين كيف بدَّلوا الحنيفية وتقلَّدوا الشِّرك، وضرب لهم مثلًا بمن آتاه الله ﷻ الآيات فوسوس له الشَّيطان فانسلخ عن الهدى.

ووصف حال أهل الضَّلالة، ووصف تكذيبهم بما جاء به الرسول، ووصف آلهتهم بما ينافي الإلهيَّة، وأن لله الصفات الحسنى صفات الكمال.

ثم أمر الله ﷻ رسوله ﷺ والـمسلمين بسعة الصدر والـمداومة على الدعوة وحذرهم من مداخل الشَّيطان بمراقبة الله ﷻ بذكره سرا وجهرا والإقبال على عبادته"(١).

وقد تسأل: فما رأيك فيما ذكره ابن عاشور ﷺ؟ وهل يفيد هذا في تحديد الموضوع الكلِّيِّ للسُّورَة؟

أجيبك: طريقة ابن عاشور ذكر مواضيع السُّورَة الـمبثوثة مرتبة على آياتها في السُّورَة، ولا يذكر موضوعًا محددًا ذهبت إليه السُّورَة، فطريقته لا تعينك على النَّظر في موضوع كلِّيٍّ جامع بينها ينبئك بالصُّورة الـمتكاملة لها، ويغذي عقلك بالرباط الكُلِّي الـمحكم الذي يربط بين آياتها، وإن كنت ربما وجدته أثناء تفسيره التحليلي يشير إلى الهدف الكُلِّي للسُّورة فيقول في الآية (٢٦): "لأن الغرض من السُّورَة إبطال ما كان عليه مشركو العرب من الشِّرك وتوابعه من أحوال دينهم الجاهلي"(٢).

طريقة ابن عاشور ﷺ ذِكْرُ الـمواضيع الـمتعدِّدة كما عبَّرت عنها السُّورة في ترتيبها، وليس الوصول من هذه الـمواضيع إلى موضوعٍ كلِّيٍّ يجمع بينها بعكسِ الذي رأيناه عند سيد قطب ﷺ.

هنا قد تتذكر المحاولات العظيمة لسعيد حوى ﷺ وتتساءل عن رأيه في موضوع سورة الأعراف الكلِّيِّ؟ تعال بنا إليه:

---

(١) التحرير والتنوير (٨ب/ ٨، ٩).

(٢) التحرير والتنوير (٨ب/ ٧٢).

الرأي الرابع: سعيد حوى رحمه الله: محور سورة الأعراف هو اتِّباع الهدى النازل من الله ﷻ:

يرى الشيخ سعيد حوى رحمه الله أن محور (سورة الأعراف) هو اتِّباع الهدى النازل من الله ﷻ، وقد مضى رحمه الله فيما قعَّده في أوَّل الكتاب من جعل السُّوَر التالية لـ(سورة البقرة) تفصيلًا لها، فقرر أن (سورة آل عمران) فَصَّلت العشرين آية الأُوَل من سورة البقرة، وأن سور (النِّسَاء، والمائدة، والأنعام) فَصَّلت فيما بعد ذلك إلى نهاية الآية (٢٩) من (سورة البقرة)، وفَصَّلت كلُّ واحدة منها في محور خاص بها مع كونها ثلاثتها تخدم ذلك المقطع بالتكامل، ووجد أن آخر آية في (سورة الأنعام) هي قول الله ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَـٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٦٥]، وهي تلفت النظر إلى الآية الثَّانية في محورها من (سورة البقرة) ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩]، مع الآية التي بعدها ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، إذن فـ(سورة الأنعام) أوصلتنا إلى مقطع جديد في (سورة البقرة)، وهو الذي فيه الحديث عن قِصَّة آدم عليه السلام، ولقد استقرَّت قِصَّة آدم عليه السلام في (سورة البقرة) على قوله ﷻ: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٣٨ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٨-٣٩]، وتأتي بعد (سورة الأنعام) (سورة الأعراف): ﴿الٓمٓصٓ ۝١ كِتَـٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١-٣]، لاحظ قوله ﷻ في (سورة البقرة): ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨]، وقوله ﷻ في الآية الثَّالثة في (سورة الأعراف): ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

يرى الشيخ سعيد حوى رحمه الله أنَّ محور (سورة الأعراف) هو اتِّباع الهدى النازل من الله عز وجل، وقد مضى رحمه الله فيما قعَّده في أوَّل الكتاب من جعل السُّوَر التالية لـ(سورة البقرة) تفصيلًا لها.

والنَّاظر إلى (سورة الأعراف) يرى أنها تتألَّف من مُقَدِّمَة، ثم قِصَّة آدم عليه السلام، وبناء عليها، ثم قصص قوم نوح عليه السلام، وعاد، وثمود، وقوم لوط عليه السلام، وقوم شعيب عليه السلام، ثمُّ بناء عليها، ثم قِصَّة موسى عليه السلام مع فرعون، ثم قِصَّة بني إسرائيل بعد الخروج من مصر، ثم مواجهة مع بني إسرائيل، ومن تأمل هذه المعاني يجد باختصار أنها نماذج من الهدى الذي أنزله الله سبحانه وتعالى خلال العصور على أمم سابقة؛ وموقف هذه الأمم من هذا الهدى، وما عوقبت به.

وكلُّ ذلك بمثابة درس لهذه الأمة، فالسُّورَة تفصيل لمحور خاصٍّ هو قوله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًاۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ٣٨ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٨ ٣٩].

وفي هذا السِّياق يتوجَّه الخطاب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقول: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وأعقب سعيد حوى رحمه الله بأنَّ هذا التعقيب يماثل ابتداء (سورة البقرة) بالخطاب للناس جميعًا، حين قال الله سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١].

ثم يقرِّر رحمه الله بأن محور (سورة الأعراف) من (سورة البقرة)، هو قوله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًاۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ٣٨ وَٱلَّذِينَ

كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٨- ٣٩][1].

فماذا ترى في كلام هذا العالم المخبت ؟

هذا العمود الذي جعله محورًا لسورة الأعراف وهو اتِّباع الهدى النازل من الله ، هو ذاته ما قرَّره البِقَاعِي من قبل مع اختلاف يسير في العبارة بينهما.

الرأي الخامس: محور سورة الأعراف في موسوعة التَّفسير الموضوعيِّ: عقيدة التوحيد عبر رحلة البشريَّة منذ وجودها الأوَّل ومسيرها الطَّويل إلى نهاية عودتها ورجوعها إلى الدار الآخرة:

تكلَّم المحرِّر -وفَّقه الله- أن موضوع السُّورَة هو الذي رآه سيد قطب ، وأن السُّورَة تدور حول عقيدة التوحيد عبر رحلة البشريَّة منذ وجودها الأوَّل ومسيرها الطويل، إلى نهاية عودتها ورجوعها إلى الدار الآخرة[2].

والذي أراه في الحقيقة هو ما قاله سيد قطب .

وهكذا نكون قد أخذنا إلمامة وإلماحة ونظرة عامة حول (سورة الأعراف).

الموضوع الكلِّيُّ لسورة الأعراف في نظري:

بعد أن تتأمل في الأسس السِّتة، وتجد أن البِقَاعِي قرر أن السُّورَة تدور حول إنْذار مَن أعْرَضَ عَمّا دَعا إلَيْهِ الكِتابُ في السُّورَةِ الماضِيَةِ مِنَ التَّوْحِيدِ والِاجْتِماعِ عَلى الخَيْرِ، وهو ما رآه سعيد حوى تقريبًا، وترى سيد قطب طوَّر رأي البِقَاعِي بعبارة جميلة فرأى أن سورة الأعراف تعرض مسيرة العقيدة من خلال التَّاريخ البشريِّ.

(١) الأساس في التفسير (٤/ ١٨٣٥).

(٢) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم (٣/ ٨).

وبعد أن تستعرض تفسير السُّورَة من أوَّلها إلى آخرها يمكنك أن تقرِّر باطمئنان أن الموضوع الكلِّيَّ للسُّورَة يدور حول:

"القُرْآنُ بَيْنَ الاتِّباعِ والتَّذْكِيرِ والإِنْذَارِ، وتَعْرِيفُهُ بِتَاريخِ البَشَرِيَّةِ مِنَ النَّشْأَةِ إِلَى دَارِ القَرَارِ، وبِخَطَرِ دَارِ الفَاسِقِينَ، وبِابْتِلَاءاتِ السُّنَنِ بَيْنَ الاسْتِضْعَافِ والاسْتِخْلَافِ".

الأساس السادس

الخريطة الكُلِّيَّة التي تظهر المحاور العامة المتتابعة لسورة الأعراف

أ.د. عبد السلام مقبل المجيدي

الخريطة الكلية لسورة الأعراف

المقدمة:
6 القرآن كتاب الإنذار العالمي من الأخطار الواقعة والمتوقعة {الأعراف: ١-٩}

المحور الأول:
7 البداية والنهاية للرحلة الإنسانية الكبرى في مسيرة الحياة {الأعراف: ١٠-٥٣}.

المحور الثاني:
8 المعالم العامة التي تعرِّف بالله عز وجل {الأعراف: ٥٤-٥٨}.

المحور الثالث:
9 أهم العهود التاريخية الفاصلة التي عاشتها الإنسانية قبل العهد الإسرائيلي {الأعراف: ٥٩-٩٣}.

المحور الرابع:
10 السنن الاجتماعية العامة التي تجري في تاريخ ذرية آدم {الأعراف: ٩٤-١٠٢}.

المحور الخامس:
10 العهد السادس من عهود الذرية الآدمية، ويمثل التاريخ الوسيط: العهد الإسرائيلي {١٠٣-١٧١} إلى ثلاثة فصول كبرى:

- فصل [1]: ظهور موسى عليه السلام، وعودة الإيمان بالله، وبداية الانبعاث الإسرائيلي {الأعراف: ١٠٣-١٣٦}.
- فصل [2]: عهد المواجهة ونهاية التاريخ الفرعوني {الأعراف: ١٣٧-١٢٧}.
- فصل [3]: عهد التحرُّر الإسرائيلي: إفسادهم في الأرض بتأسيس الأنقاض الكبرى للميثاق الإلهي {الأعراف: ١٣٨-١٧١}.

المحور السادس:
10 العهدُ الإنسانيُّ الحديثُ والأخيرُ، ويُظهِر الله عز وجل فيه آيات القرآن التي جاء بها النَّبيُّ الخاتم ﷺ لتمثِّل للعالم مفاتح فَهْمِ الحياة، وتقدِّم للبشرية دوافع الاهتداء {الأعراف: ١٧٢-١٩٨}

الخاتمة:
10 آداب التَّعامل مع الكتاب الذي يحمي الإنسانيَّة من الأخطار الظاهرة والخفيَّة {الأعراف: ١٩٨-٢٠٦}

﴿مفصل سورة الأعراف (1)﴾

ظهرت الخريطة الكُلِّيَّة لسورة الأعراف على الصُّورة الآتية:

الـمُقَدِّمَة: القرآن كتاب الإنذار العالـميِّ من الأخطار الواقعة والمُتَوَقَّعة، فهو كتاب الإنقاذ ودرع الحماية للإنسانيَّة [الأعراف:١-٩].

الـمحور الأول: البداية والنهاية للرحلة الإنسانيَّة الكبرى في مسيرة الحياة [الأعراف:١٠-٥٣].

الـمحور الثاني: الـمعالـم العامة التي تعرِّف بالله ﷻ [الأعراف: ٥٤-٥٨].

الـمحور الثالث: أهمُّ العهود التَّاريخيّة الفاصلة التي عاشتها الإنسانيَّة قبل العهد الإسرائيلي [الأعراف: ٥٩-٩٣].

الـمحور الرابع: السُّنَن الاجتماعية العامَّة التي تجري في تاريخ ذرِّيَّة آدم [الأعراف: ٩٤-١٠٢].

المحور الخامس: العهد السادس من عهود الذُّرِّيَّة الآدميّة، ويمثِّل التَّاريخ الوسيط: العهد الإسرائيلي [١٠٣-١٧١].

وانقسم هذا المحور إلى ثلاثة فصول كبرى:

الفصل الأول: عودة التوحيد الإلهي، وبداية الانبعاث الإسرائيلي وتغيير التَّاريخ [الأعراف: ١٠٣-١٢٦].

الفصل الثاني: عهد الـمواجهة ونهاية التَّاريخ الفرعونيِّ [الأعراف:١٢٧-١٣٧].

الفصل الثالث: انتقال الإسرائيليين من العبودية والاستضعاف إلى التحرُّر والاستخلاف [الأعراف: ١٣٨-١٧١].

الـمحور السادس: العهدُ الإنسانيُّ الحديثُ والأخيرُ، ويُظهِر الله ﷻ فيه آيات القرآن التي جاء بها النَّبيُّ الخاتم ﷺ؛ لتمثِّل للعالـم مفاتح فَهْمِ الحياة، وتقدِّم للبشرية دوافع الاهتداء [الأعراف:١٧٢-١٩٨].

الخاتمة: آداب التَّعامل مع الكتاب الذي يحمي الإنسانيَّة من الأخطار الظاهرة والخفيَّة [الأعراف: ١٩٩-٢٠٦].

الـمُقدِّمة

القرآن كتاب الإنذار العالـميِّ من الأخطار الواقعة والمُتَوَقَّعة، فهو كتاب الإنقاذ ودرع الحماية للإنسانيَّة [الأعراف:١-٩]

كيف توصلنا إلى أن الـمُقَدِّمَة تحدثنا عن هذا الـموضوع: القرآن كتاب الإنذار العالـمي من الأخطار الواقعة والمُتَوَقَّعة؟

الجواب: وجدنا في الـمُقَدِّمَة كلامًا عن:

القرآن:

﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ٢﴾ [الأعراف: ٢].

وعن القرى وهلاكها:

﴿وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا بَيَٰتًا أَوۡ هُمۡ قَآئِلُونَ ٤﴾ [الأعراف: ٤].

وعن سؤال الرسل وعن سؤال الـمرسل إليهم:

﴿فَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٦﴾ [الأعراف: ٦].

وعن الـميزان يوم القيامة، وعن نتائجه:

﴿وَٱلۡوَزۡنُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّۚ فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٨﴾ [الأعراف: ٨].

فهذه مجموعة موضوعات في الـمُقَدِّمَة، ويمكنك أن تجعل أيَّ واحد من هذه الموضوعات موضوعًا عامًّا للمُقَدِّمَة، وهذا من العجائب الباهرة للقرآن الكريم، ولكنَّ الـموضوع الذي يجمعها كلَّها هو هذا العنوان الذي اخترته بعد فحص وتدبُّر: القرآن كتاب الإنذار العالـمي من الأخطار الواقعة والمُتَوَقَّعة:

جاءت مُقَدِّمَة السُّورة عظيمة، قويَّة، قويمة، تُظهر الحاجة البشريَّة العظيمة للقرآن المجيد، فذكر الله ﷻ فيها الخصائص العظيمة؛ ليكون القرآنُ الكتابَ الذي يحمي العالـم من الأخطار الواقعة والمُتَوَقَّعة في الدُّنيا والآخرة.

وامتدَّت بين الآيات [١-٩]، وتنقَّلت في أساليبها لتقنعك بالموضوع الذي تدور حوله، وبأساليب آسرة، جذَّابة، متنوعة، أبرزت لك خصائص مميزة للقرآن تصلح أن تكون مُقَدِّمَة للموضوع الكبير الذي تدور حوله السُّورَة. هذه الخصائص أظهرت لك وظيفته العامَّة للعالـم والخاصَّة للمؤمنين، وحاجة العالـم لتطبيقه.

جاء القرآن يحمي البشر من أن يكونوا عبيدًا لبعضهم أو لغيرهم، ويرتفع بهم ليكونوا من الشَّاكرين لربِّهم ﷻ.

وعلى الرغم من أن الـمُقَدِّمَة تدور حول القرآن فإنها طافت بك إلى الحضارات والأمم الغافلة، وكيف جاءها الدَّمار بسبب ظلمها.

ثم انتقلت إلى الآخرة حيث مشهد الموازين الثَّقيلة للمفلحين، والموازين الخفيفة للظالـمين الخاسرين الذين حاربوا هدى القرآن.

فلاحظ كيف بدأ القرآن ينذر العالـم من الأخطار الدُّنيويَّة عندما تهلك الحضارات: ﴿وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَـٰهَا..﴾ [الأعراف: ٤]، ثم أنذرهم الأخطار الأُخرويَّة عندما يوضع الميزان.

وبعد الـمُقَدِّمَة جاء بترتيب منطقيٍّ واضح:

المحور الأول

البداية والنهاية للرحلة الإنسانيَّة الكبرى في مسيرة الحياة [الأعراف:١٠-٥٣]

ويمتدُّ هذا المحور بين الآيات [الأعراف:١٠-٥٣]، وتُبَصِّرنا فيه المعرفة القُرآنيَّة بالقِصَّة الكاملة للبشرية، حيث بدأ بالكلام على بداية الحياة الإنسانيَّة: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ⑩﴾ [الأعراف: ١٠]

فصوَّر لك واقعك أيها الإنسان: حيث مكن الله ﷻ لك العيش في الأرض، وجعل ما حولك مسخَّرًا لك.

وتصوَّرِ الحياة: لو لم يكن البحر مذلَّلًا لك، وقرَّر الهجوم عليك.. تصوَّرْ لو قرَّرتِ الصُّخور المسخَّرة لك أن ترمي نفسها فوقك.. تصوَّرْ لو قرَّر فخذك، وعظمك ويدك أن يكلموك، لكن الله ﷻ مكَّن لك في الأرض، فكلُّ ذلك مسخَّر لك الآن.. انتبه لما سيحدث من تغير يوم القيامة.. حيث ستتغير كلُّ هذه المخلوقات.

وما أبدع ما سطَّره يراع الشاعر إبراهيم بديوي، حينما قال:

واســألْ بطونَ النَّحلِ كيف تَقَاطرتْ ... شَــهْدًا وقل للشَّـهْـدِ من حَلَّاكـا
بل ســائلِ اللَّبنَ المُصَـفَّى كان بَين ... دمٍ وفَـرْثٍ مـن الـذي صَــفَّـاكـا
وإذا رأيتَ الحيَّ يخرجُ من حَنَايا ميتٍ ... فـاســألـه مَنْ يـا حَيُّ قـد أَحْـيَـاكـا
قل لـلـنَّـبـاتِ يَـجِـفُّ بـعـد تَـعَـهُّـدٍ ... ورعـايـةٍ مَـنْ بـالـجـفـافِ رمـاكـا
وإذا رأيـتَ الـنَّـبْـتَ في الصــحـراء ... يَرْبُو وحيـدا فـاســألـه مَنْ أربـاكـا
وإذا رأيـت الـبـدر يَـســري نـاشــرًا ... أنـوارَه فـاســألـه مـن أســراكـا
واســأل شــعـاعَ الشــمس يدنو وهي ... أبعدُ كـلّ شـيء مـا الـذي أدنـاكـا
قـل لـلـمـريـر مـن الـثِّـمـار مَـنِ الـذي ... بـالـمُـرِّ مـن دون الـثـمـار غـذَّاكـا

وإذا رأيت النَّخل مشقوقَ النَّوى فاسأله من يا نخل شَقَّ نَوَاكا
وإذا رأيت النَّار شَبَّ لهيبها فاسأل لهيب النار من أَوْراكا
وإذا ترى الجبل الأشمَّ مناطحًا قممَ السَّحاب فسله من أرساكا
وإذا ترى صخرًا تَفَجَّر بالمياهِ فَسَلْه من بالماء شقَّ صفاكا
وإذا رأيت النَّهر بالعذب الزُّلالِ سرى فَسَلْه من الذي أجراكا
وإذا رأيت البحر بالماء الأُجاج طغى فَسَلْه من الذي أطغاكا
وإذا رأيت اللَّيل يُغشي داجيًا فاسأله من يا ليل حاك دُجَاكا
وإذا رأيت الصُّبح يُسفر ضاحكًا فاسأله من يا صبح صاغ ضُحَاكا
ستجيب ما في الكون من آياتِه عجبٌ عجابٌ لو ترى عيناكا [(١)]

وبعد أن ذكر الله ﷻ في هذا المحور تمكين البشر، حدَّثنا عن تفاصيل المعركة الأولى لها ضدَّ أسوأ أعداء البشريَّة، فقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ﴾ [الأعراف: ١١].

وبعد تفصيل حافل حول المعركة الكبرى في الحياة الإنسانيَّة، وجَّه ربُّنا -جلَّ مَجْدُه- الوصايا الإلهيَّة للذُّرِّيَّة الآدميَّة، ليتمكَّنوا من الاستمتاع بزينة الله ﷻ التي أخرج لعباده، دون أن يتمكَّن الشَّيطان من أن يوقعهم في فخِّ إبداء السَّوءات، وفعل السَّيِّئات، واتِّباع الشهوات، فيُحْرَمون من العيش في بحبوحة الطاعات، ونعيم القربات، وتبدأ بقوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ

(١) تعظيم الله جل جلاله تأملات وقصائد (ص: ٢٤٦).

لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ﴾ [الأعراف: ٢٦- ٢٧].

بصيرة: الغرض من الوصايا الإلهيّة للذُّرِّيّة الآدميّة، التَّمكين من الاستمتاع بزينة الله ﷻ التي أخرج لعباده، دون أن يوقعهم الشَّيطان في فخِّ إبداء السَّوءات، وفعل السِّيئات.

وينبئك هذا المحور عن الوصية الكبيرة التي ترسم لك الحياة في قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف: ٣٥].

وبناء على القرار الذي سيتخذه الإنسان عندما يسمع بالرسل تأتي النتيجة في ختام حياته، وهنا يُظهر الله ﷻ لنا مشاهد تفصيلية للحظات الأخيرة لكل آدمي في الدُّنيا، فقال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓاْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ٣٧].

وتكشف لك السُّورَة عن مشاهد مذهلة تصور لك الحقائق الهائلة التي ستحدث للمكذبين المستكبرين عندما يلقون في النار: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ [الأعراف: ٣٨].

وفي مقابل ذلك تعرفك سورة الأعراف بالمصير العظيم الذي يصل له الصالحون المهتدون، الذين ينالون إرثًا خالدًا ومتاعًا دائمًا: ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣].

ويصوِّر لنا هذا المحور مشاهد للحوار بين أصحاب الجنة وأصحاب النار، حيث ينادي أصحاب الجنة أصحاب النار، وأصحاب النار أصحاب الجنة.

ثم تكشف السُّورَة عن مشهد لم يرد في أي سورة أخرى: إنه مشهد أصحاب الأعراف الذين يعرفون كلًّا من الفريقين، ويشاهدون كل فردٍ منهم، وهو يوضع في مثواه الحقيقي الأخير.

ويصوِّر لنا هذا المحور النداء الموجع الذي يوجهه أهل النار لأهل الجنة، يستجدونهم فيه قطرات ماء أو أي شيء: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ﴾ [الأعراف: ٥٠]، فيأتيهم الردُّ العادل الموجع: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: ٥٠].

إنه الجواب المتوقَّع على جعل النِّظام الذي أرسل الله ﷻ به الأنبياء عليهم السلام لهوًا ولعبًا، والاغترار بالحياة الدُّنيا، وترك الإعداد لموقف الحساب القادم: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ﴾ [الأعراف: ٥١].

ويختم لنا هذا المحور بالتذكير بالأهميَّة العظمى لكتاب العلم المفصَّل، الذي يضمن الهدى والرَّحمَة لمن آمن: ﴿وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم بِكِتَٰبٖ فَصَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٥٢]، وكيف يتوجَّع المكذِّبون المستكبرون عندما يرون بأعينهم أنباء القرآن الغيبية وقد تحولت إلى حقائق، فيسقطون في أودية النَّدم المحرقة، بسبب حياة الافتراء التي عاشوها في الدُّنيا: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشۡفَعُواْ لَنَآ أَوۡ نُرَدُّ فَنَعۡمَلَ غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ قَدۡ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٣].

وبعد أن عرَّفك الله ﷻ بقِصَّة البداية والنهاية للبشرية في المحور الأول، ستشعر بقوة الفضول المعرفي: ماذا سيكون المحور الثاني في المعرفة التي تقدِّمها لنا سورة الأعراف؟

وهنا يأتيك الجواب:

المحور الثاني

المعالم العامة التي تعرِّف بالله ﷻ، وتقتضي ضرورة اتِّباع المنزَل من ربِّ العالمين

[الأعراف: ٥٤-٥٨]

هذا المحور يمثِّل جسر المناسبة والاتصال، وقنطرة العبور والانتقال إلى القسم الثاني من السُّورَة، وهو القسم التَّاريخيّ الذي يشكِّل المحاور القادمة.

وفي هذا المحور كبقية المحاور ترى سورة الأعراف متماسكة متراصة متناسبة في موضوعاتها، فإذا كانت المُقَدِّمَة بيَّنت أنَّ القرآن كتاب الإنذار العالميِّ من الأخطار الواقعة والمُتَوَقَّعة في الآيات [الأعراف:١-٩]، فإن أوَّل ما يجب أن تعرفه البشريَّة كيف بدأ تاريخها، وكيف ينتهي، فجاء المحور الأول يفصِّل ذلك وسار بنا إلى المعرفة القُرآنيَّة التي تبصِّرك بالبداية والنهاية للرحلة الإنسانيَّة الكبرى في مسيرة الحياة، ويتضمَّن الإنباء بتفاصيل المعركة الأولى لها ضدَّ أسوأ أعدائها، وذلك في الآيات [الأعراف١٠-٥٣]، وختم الله ﷻ المحور الأول بما بدأ به المُقَدِّمَة من ذكر مكانة القرآن المجيد، وحق البشريَّة في معرفته، واتِّباعه.

وما سبق كله يلخص الحقائق الكبرى للكون: كيف بدأ؟ وإلى أين يصير؟

والإيمان بهذه الحقائق الكبرى للكون لا يمكن أن يكون إلا إذا عرفت الإنسانيَّة خالق الكون، ومنزل القرآن الذي يجب أن يعبده الإنسان ويتبع قرآنه، فذكر الله ﷻ هنا آلاءه وآياته في الكون المادي: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤].

وهنا تتساءل: لماذا يعرِّفنا الله ﷻ في هذا المحور بنفسه عن طريق صفاته العظمى، وأفعاله الكبرى، وآياته الظاهرة، ونِعَمِه العَمِيمَةِ؟

الجواب: ليشكِّل هذا الدافع الثاني العظيم الذي يُظهره الله ﷻ لعباده، ليُذعِن الخلق لكلامه، وليبحثوا عن تشريعاته المبثوثة في كتابه، وذلك بعد الدافع الذي وجدوه في المحور الأول، وهو أن الله ﷻ كرَّم الإنسانيَّة بأن خلقها، وكرَّمها بأن أعدَّ لها دار الخلود والنَّعيم في الآخرة.

شعر الطاهر بن عاشور رحمه الله بهذا النِّظام المتماسك لسورة الأعراف، فقال: "فَلِذَلِكَ اسْتُؤْنِفَ بِجُمْلَةِ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ...﴾ [الأعراف: ٥٤] اسْتِئْنافًا ابْتِدائِيًّا، عادَ بِهِ التَّذْكِيرُ إلى صَدْرِ السُّورَةِ في قَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَۗ﴾ [الأعراف: ٣].

فقد يقول قائل: لماذا نتَّبع ما أنزل الله تعالى ولا نتبع ما نجده عند الآخرين؟

الجواب: جاء هذا المحور المهيب ليعرِّفنا بصفات الله ﷻ العظمى، وأفعاله الحسنى، التي لا يمكن لأحد من الأنداد المزعومين أن يشاركه فيها.

فَكانَ ما في صَدْرِ السُّورَةِ بِمَنزِلَةِ المطْلُوبِ المنطِقِيِّ، وكانَ ما بَعْدَهُ بِمَنزِلَةِ البُرْهانِ، وكانَ قَوْلُهُ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ...﴾ [الأعراف: ٥٤] بِمَنزِلَةِ النَّتِيجَةِ لِلْبُرْهانِ، والنَّتِيجَةُ مُساوِيَةٌ لِلْمَطْلُوبِ إلّا أنَّها تُؤْخَذُ أوْضَحَ وأشَدَّ تَفْصِيلًا"(١).

وأما الرازي رحمه الله فيبين هذا الوجه في علم الاتصال القرآني بأسلوبه المميَّز، فيقرِّر أَنَّ مَدَارَ أَمْرِ الْقُرْآنِ عَلَى إيضاح المقاصد الكُلِّيَّة الْأَرْبَع التي يدور حولها القرآن وَهِيَ: التَّوْحِيدُ، وَالنُّبُوَّة، وَالمعَادُ، وَالْقَضَاءُ وَالْقَدَرُ، ولا يمكن الإيمان بالمعَادِ إلا عَلَى إِثْبَاتِ التَّوْحِيدِ، وَالْقُدْرَةِ، وَالْعِلْمِ، فَلَمَّا بَالَغَ الله تَعَالَى فِي تَقْرِيرِ أَمْرِ المعَادِ في المحور الأول، عَادَ إِلَى ذِكْرِ الدَّلَائِلِ الدَّالَّةِ عَلَى التَّوْحِيدِ، وَكَمَالِ الْقُدْرَةِ، وَالْعِلْمِ؛ لِتَصِيرَ تِلْكَ الدَّلَائِلُ مُقَرِّرَةً لِأُصُولِ التَّوْحِيدِ، وَمُقَرِّرَةً أَيْضًا لِإِثْبَاتِ المعَادِ(٢).

(١) التحرير والتنوير (٨ب/ ١٥٩).

(٢) تفسير الرازي (١٤/ ٢٥٥).

هنا ينقلك الله ﷻ إلى رحلة في الأبعاد الـمشاهدة وغير الـمشاهدة من السَّمَوات والأرض لتتعرَّف طرفًا من مجد ربِّك، وجلاله، وعظمته.

ينقل الله ﷻ البصائر والأبصار لتتطلَّع إلى ما يحويه الكون من مخلوقات وأسرار، وتتحرَّك مسرعَة بصورة مشوِّقة إلى السماوات والأرض، وإلى الليل الذي يطلب النهار في ذلك الفلك الدَّوَّار.

تنقلك آيات الله ﷻ إلى الرِّياح التي تتناسق حركتها مع السُّحُب التي تسير بأمر الله ﷻ مسخَّرة إلى الأرض الـميتة لتعيد لها الحياة، وتنبت لها الثمرات.

في أثناء ذلك يخبرك الله ﷻ عن نفسه أيضًا لتدعوه تضرعًا وخفية، وخوفًا وطمعًا، ويُشعرك بأنه يريد لك الخير واليسر والصلاح عندما تعلم أنه ينهاك عن أن تفسد في الأرض التي خلقها لك صالحة: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ۝٥٥ وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [الأعراف ٥٥- ٥٦].

فهذا الـمحور يحوي معالـم تعريفيَّة بالله جلَّ شأنه، وقد تتساءل: لماذا جعلت الـمحور الثاني: معالـم تعريفيَّة بالله ﷻ، ولم تجعلها أدلَّة وبراهين تثبت وجود الله ﷻ؟

الجواب:

لأنك عندما تنظر في هذه الآيات تجد الله ﷻ ذكر تعريفًا بنفسه، وببعض صفاته، وببعض براهين ألوهيته وملكه، وبعضها غيب لا نراه مثل الأيام الستة، ومثل العرش، ومثل الاستواء على العرش، فإن ذلك كله غيب لا نراه، فآيات هذا الـمحور ليست خالصة في ذكر براهين ألوهية ربنا ﷻ فقط، ولذلك قلنا: إن هذا الـمحور يحدثنا عن الـمعالـم التعريفيَّة بالله ﷻ.

وقد تتساءل: بِمَ ختم الله ﷻ هذا المحور؟

الجواب: يختم الـمحور بآية مثيرة من آيات الله ﷻ: البلدة الطَّيِّبة يظهر فيها النبات الطيب بإذن الله ﷻ، أما البلد الخبيث فهو نكد الحياة: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًاۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ۝٥٨﴾ [الأعراف: ٥٨]، **هذا ختام مثير جدًا، وممهد لما بعده.. كيف؟**

الجواب: ختم الله ﷻ الـمحور بالتعريف به سبحانه من خلال اختلاف خروج النباتات مع وحدة الـماء النازل عليها، بحسب قابلية الأرض، وطبيعتها.. إنها آية من آيات الله ﷻ، ولكنها في الوقت ذاته تجعلك تختار، وقد جاءك أطيب الكلام في كتاب الإنذار: هل تكون مثل البلد الطيب أم مثل الخبيث؟

وهذا الـمَعْلَم يعرِّفنا بالعدل الإلهي؛ إذ أنزل الكتاب الذي فصَّله على علم، وجعله هدى ورحمة، لكن الـمؤمنين انتفعوا به، وصد عنه الذي أغلق سمعه وقلبه، وغطى الحقَّ بعناده وكفره.

وهكذا مهَّد لك الطريق لتعرف سبب إيمان بعض النَّاس، وسبب كفران بعضهم.. السبب هُم أنفسهم، وليست الرسالات التي جاءتهم: منهم من اختار أن يكون كالبلد الطيب، ومنهم من اختار أن يكون كالبلد الخبيث.

فاستبانت لنا الصِّلة بين هذا الـمحور والذي بعده، فهل هناك مَعْلَم آخر للصِّلة بين هذا الـمحور والذي قبله؟

الجواب: مما يبين لك شِدَّة الصِّلة بين هذا الـمحور والذي قبله:

أنك تجد في آخر آيات هذا الـمحور الإشارة إلى الشُّكر، هذه الإشارة تمدك بمعرفة النَّفسيات التي يمكنها أن تعمل على نمو الأرض والإفادة من التمكين فيها، إن كانت شاكرة، وتشعر بالصِّلة القويَّة بين الـمحور الأول والثاني هنا، حيث بدأ الـمحور الأول بذلك بعد

الـمُقدِّمة، فقال الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٠]، **ويختم هذا الـمحور الفكريَّ النَّظريَّ التَّأسيسيَّ بقوله:** ﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٨].

بعد أن أظهر الله ﷻ الأسس الفكرية التي تجعل الأرض مستقرًّا حقيقيًّا للبشرية، ومعبرًا آمنًا نحو الدَّار الآخرة في الـمحورين الأول والثاني ستتساءل: ماذا سيكون الـمحور الثالث في السُّورَة؟

وإليك الجواب:

المحور الثالث

أهمُّ العهود التَّاريخيّة الفاصلة التي عاشتها الإنسانيَّة قبل العهد الإسرائيلي [الأعراف: ٥٩-٩٣]

ويمتدُّ الكلام عنه بين الآيات [الأعراف: ٥٩-٩٣] ليلخِّص لنا خمسة عهود فاصلة في التَّاريخ البشري القديم، وتظهر فيه السنن الاجتماعية العامة التي تجري في تاريخ ذرِّيَّة آدم عليه السلام .. إنها السُّنَن التي تجري على الأفراد والأمم والدول والحضارات، ويصف الله عز وجل ما يحدث لها تجاه دعوات الإصلاح النَّبويَّة، وأيضًا تجد في هذا المحور ما قدَّره الله عز وجل على هؤلاء البشر، ويمتدُّ هذا المحور في الآيات [الأعراف:٩٤-١٠٢]، كما يظهر في هذا المحور أهم الجرائم البشريَّة التي يحاول الشَّيطان وقبيله أن يوقعوا فيها ذرِّيَّة آدم عليه السلام، وترى هذا المحور في موضعه المدهش، فارجع البصر كرتين لينقلب إليك بصرك ممتلئًا بجوانب الاتصال، فمنها:

أولًا: أخبرنا الله جل جلاله في مُقَدِّمَة السُّورَة كيف دمَّر الحضارات الكبرى والصغرى التي أبت إلا سلوك طريق الظلم والاستكبار والغفلة، فقال تعالى مجده: ﴿وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا﴾ [الأعراف: ٤]، وفي هذا المحور تفصيل لهذه القرى الظالمة، وكيف أهلكها الله عز وجل ببغيها وظلمها وإفسادها.

ثانيًا: في المحور الأول بصَّرتْنا الآيات القُرآنيَّة بأن إبليس أقسم على إغواء العباد ليمنعهم من الشكر: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ١٦﴾ [الأعراف: ١٦]، وذكر لنا في المحور الأول كيف نجح إبليس في إغواء آدم وزوجه عليهما السلام، قبل أن يتمكن آدم عليه السلام من النجاح مجددًا، وفي هذا المحور يفصل الله جل جلاله كيف أغوى إبليس بني آدم عليه السلام، ويخبرنا من خلال هذه القصص بالبصائر اللازمة التي نحتاجها في مواجهة إغواء إبليس، إنها الهدايات التي أمد الله سبحانه وتعالى بها ذرية آدم عليه السلام لتنجح في هذه المعركة.

ثالثًا: في الـمحور الأول ذكر الله ﷻ الـمساعدين الأساسيين لإبليس ليغوي بهم الإنسانيَّة، فقال: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴿٢٧﴾﴾ [الأعراف: ٢٧].

وفي هذا الـمحور يخبرنا الله ﷻ عن الـملأ، والقوى الـمستكبرة الذين أخذوا دورهم ليكونوا من قبيل إبليس.

رابعًا: في الـمحور الثاني شوَّقنا الله ﷻ إلى أن نعرفه أكثر من خلال أفعاله العظمى في خلق الكون، وهنا يعرفنا بنفسه من خلال دعوة القيادات النَّبويَّة الـمفلحة إليه -جلَّ مَجْدُه-، حيث قاموا بجذب البشر إلى ولاية الله ﷻ، وحاولوا إنقاذ الذُّرِّيَّة الآدميَّة من الوقوع في ولاية قَبيل إبليس.

خامسًا: في الـمحور الثاني نهانا الله ﷻ عن أن نفسد في الأرض بعد إصلاحها، فقال: ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

وفي هذا الـمحور يبيِّن الله ﷻ كيف قامت القيادات النَّبويَّة الـمصلحة بإيقاظ البشر؛ لئلا يفسدوا في الأرض بعد إصلاحها.

سادسًا: في الـمحور الأول نادى الله ﷻ بني آدم فقال جلَّ ذِكرُه: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي﴾ [الأعراف: ٣٥].

وفي هذا الـمحور يخبرنا بالجانب التَّطبيقيِّ لذلك، فأرسل الله ﷻ القيادات النَّبويَّة لتقصَّ على بني آدم ﷺ ما أنزله ربُّها ﷻ، وانقسمت الذُّرِّيَّة الآدميَّة إلى فريقين: فريق التقوى والادِّكار، وفريق التَّكذيب والاستكبار، فأهلكها الله ﷻ في الأجل الـمسمَّى عنده، تطبيقًا لما

قرَّره في الـمحور الأول في قوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَأۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤].

سابعًا: ذكر الله ﷻ في الـمحور الثاني القانون العامَّ في استجابة البشر للدعوة الإلهية، وأخبر أن البلد الطِّيب يخرج نباته بإذن ربِّه طيبًا، والخبيث يخرج نكدًا، وكما تستجيب الأرض الطَّيِّبة للماء النافع، ولا تستجيب الأرض الخبيثة له، ويفصِّل الله ﷻ في هذا الـمحور ظهور الأصناف الطَّيِّبة الـمبتهجة بنور الوحي الإلهيِّ من الخبيثة النَّكِدة في تاريخ بني آدم ﵇، وهذه مناسبة جميلة تبين لك الإحكام في السُّورَة القُرآنيَّة.

هنا ستسأل: ما الفكرة العامَّة من هذا الـمحور الكبير في سورة الأعراف؟

الفكرة العامَّة لهذا الـمحور:

هذا المحور يبدأ بِقصَّة نوح ﵇، ويمر على عهد هود، ثم على عهد صالح، ثم على عهد لوط، ويختم بعهد شعيب عليهم الصَّلاة والسَّلام.

ويقدِّم هذا الـمحور التَّفسير الصحيح لواقع الإنسان ولتاريخه:

وقد تتساءل: وكيف ذلك؟

الجواب: حيث يتفاعل الإنسان –وَفق هذا التَّفسير الصحيح– مع طرفين: هداية الرسل ﵈، وإغواء إبليس، وفي هذا التفاعل له حُرِّيَّة الاختيار، وسيجد عواقب ذلك، هذا هو التَّفسير الصحيح لواقع الإنسان وتاريخه.

فهناك من فسَّر التَّاريخ الإنساني تفسيرًا (اقتصاديًّا)، فزعم أن وجود الإنسان ليس إلا صراعًا بين طبقتي البروليتاريا والبرجوازيا (العُمَّال والأغنياء).

وهناك من فسَّر تاريخ الإنسان (سياسيًّا) فزعم أن التَّاريخ صراع بين اليمين واليسار.

وهناك من فسر التَّاريخ (بيولوجيًّا)، فزعم أن بني الإنسان لا معنى لوجودهم إلا العبث الجنسي، وهو ما ذهب إليه المختلُّ عاطفيًّا (فرويد) الذي حاول الانتحار عِدَّة مرَّات.

وهناك من فسَّر التَّاريخ (روحيًّا)، و(نفسيًّا).

فهم لا يستطيعون النظر إلا بعين واحدة من زاوية واحدة، ويُصِرُّون على أنهم فيها على حقٍّ مبين.

عهود الإصلاح في تاريخ البشريَّة:

في هذا المحور ذكر الله ﷻ العهد الأول الفاصل الأول للذُّرِّيَّة الآدميَّة حيث واجه نوح عليه السلام الإفساد الفكري، والوَثنيَّة المنتشرة، حيث أقيمت الأصنام، وامتد ذلك في الآيات [الأعراف:٥٩-٦٤].

ثم انتقل إلى العهد الثاني حيث واجه هود عليه السلام عهد غرور القوة المبسوطة لقومه [الأعراف:٦٥-٧٢]، ثم مضى بنا السِّياق إلى العهد الثالث حيث واجه صالح عليه السلام الحضارة المستكبرة في أمة ثمود [الأعراف: ٧٣-٧٩].

ثم انتقل بنا سياق الآيات الكريمة نَقْلة كبيرة إلى العهد الرابع وفيه نرى مواجهة لوط عليه السلام الإفسادَ الخُلُقِي العابث الذي يدمِّر الحياة الإنسانيَّة في الأرض [الأعراف: ٨٠- ٨٤].

> عهد قوم لوط عليه السلام عهدٌ لا يكاد يصدَّق وجوده، حيث استطاع إبليس أن يخترق الحاجز الأخلاقي بصورة فِجَّة، وأن يجعل أبشع أنواع الفواحش الخُلُقية نظامًا مقنَّنًا.

فلم يكتف إبليس بكشف السوءات حتى انتقل إلى جعل البشر يستخدمون هذه السوءات في تدمير فطرتهم التي خلقهم الله ﷻ عليها، وفي تدمير وجودهم من بعد، فإذا اكتفى الرجال

بالرجال والنِّساء بالنِّسَاء فلا يمكن للبشرية أن تستمر.. فحقيقة الأمر جرائم ضد الإنسانيَّة، ولكن كيف يمكنك أن تخبر بذلك من هم في سكرتهم يعمهون؟

ويقترن بعهد لوط عليه السلام عهد قريب منه تاريخيًّا، وقريب منه في الواقع الجغرافي، وقريب منه في فظاعة الفواحش التي صارت نظامًا يعيش به أفراده في الحياة: إنه عهد مدين، حيث تقصُّ علينا قِصَّة العهد الخامس الفاصل من عهود الإنسانيَّة، ومثلَّت هذا الإفساد في الأرض: حضارة مدين، وتصوِّر لك السُّورَة مجيء شعيب عليه السلام إلى قومه من أهل مدين، وذلك في الآيات [الأعراف: ٨٥- ٩٣].

لماذا تحدِّثك بصائر هذا المحور عن تتابع الرسل عليهم السلام؟ بما أن الأمر عند جميع الأقوام مشترك، ويتمثل في عبادة الله عز وجل، وإصلاح الأرض، فما الداعي لكثرة القصص؟

الجواب: لأن الله عز وجل يريد أن يحمي الذُّرِّيَّة الآدميَّة.. يريد أن يثبت في ذاكرتها عهودَ الإصلاح العظيمة التي قامت بها أعظم قيادات البشر في التَّاريخ القديم: نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب عليهم السلام، فتنقلنا البصائر من الإصلاح الأخلاقيِّ إلى الإصلاح الاقتصاديِّ والإداريِّ.

جاء شعيب نبيًّا يحاول إصلاح الأرض بعد الإفساد الذي أججته قوى الشر من أهل مدين، وجعلته نظامًا عامًّا، فدعاهم إلى أهم قضية يحدث بها الصلاح، وهي قوله: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ﴾ [الأعراف: ٨٥].

> قضية تأليه الله عز وجل، وتوحيده في هذه الألوهية أهمُّ القضايا الثابتة المشتركة بين جميع بني آدم عليه السلام، وهي القضية التي تستطيع البشريَّة من خلالها إصلاح الأرض، وإيقاف الفاسدين من الاستجابة للقبيل الشَّيطاني.

وربما سألت: فما أهمُّ قضايا الفساد التي ركز عليها شعيب عليه السلام؟ وكيف وازن بين حقوق المشتري والبائع؟

الجواب: ركَّز شعيب عليه السلام على أهمِّ جوانب الفساد في المجتمع، وهو الفساد الاقتصادي: ﴿فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ [الأعراف: ٨٥]، أي: أتمُّوا للناس حقوقهم بالكيل الذي تكيلون به، وبالوزن الذي تزنون به، ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ [الأعراف: ٨٥]، فذكر هذين المَعْلَمين الإصلاحيين الكبيرين بداية للنهضة الاقتصادية والتنموية الشاملة، فالجمع بينهما جمع بين الإصلاح الاقتصادي في قوله: ﴿فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ﴾، والإصلاح الحقوقي في قوله: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾، كما ترى هنا أن شعيبًا عليه السلام وازن بين حفظ حقوق المشتري وحقوق البائع.

الإصلاح الاقتصادي في قوله: ﴿فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ﴾، والإصلاح الحقوقي في قوله: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾، هذان المَعْلَمان أهمُّ التَّشريعات التي تزرع الثِّقة والاستقرار الاقتصاديَّ في المجتمع، كما تزرع الثِّقة في الأسواق العالميَّة، وتؤدِّي إلى العدالة في التَّعامل مع الدُّول الأخرى.

ماذا يعني ذلك؟

أجيبك: إنه يعني التعاون العظيم بين دول العالم، لتحقيق التنمية والرفاهِيَة لكل منهم؛ إذ تُرَوَّجُ المنتجات، ويتمُّ تبادل السِّلع والأفكار، فتربو الأرض، وتفيد من ذلك كلِّه جميع الفئات.

ومضى شعيب عليه السلام في محاولته للإصلاح الفكري والاقتصادي والاجتماعي بصورة بديعة، وتخلَّل قِصَّته الإخبار عن تطبيقات حيَّة للسُّنَن التي تجتاح البشريَّة، وكان من القضايا

الـمركزية في دعوته تذكير قوى الإفساد بضرورة الحفاظ على أمن الأرض وحماية البيئة، وذلك يعني إصلاح الأوضاع في الأرض إنسانًا ومكانًا وأنظمة، ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَاۚ﴾ [الأعراف: ٨٥].

إنها القضية التي رأيناها في الـمحور الثالث؛ إذ يجدِّد شعيب عليه السلام الدعوة الإلهيَّة لإصلاح الأرض بالتوجيه الإلهيِّ للذُّرِّيَّة الآدميَّة حين قال الله عز وجل من قبل: ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَاۚ﴾ [الأعراف: ٨٥]، وقدَّم لهم مشروعه العظيم لحفظ العلاقات الدولية، وحراسة الطرق العالـمية، فنهاهم عن القرصنة العالـمية التي يمارسونها على النَّاس وعلى الـمؤمنين خاصة، ويُبَصِّرنا بذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقۡعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٖ تُوعِدُونَ﴾ [الأعراف: ٨٦].

يُبَصِّرنا قوله تعالى: ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَاۚ﴾ [الأعراف: ٨٥]، بالتوجيه الإلهي للذُّرِّية الآدميَّة لإصلاح الأرض، وحفظ العلاقات الدَّوليَّة، ويُبَصِّرنا قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقۡعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٖ تُوعِدُونَ﴾ [الأعراف: ٨٦] بالنهي عن القرصنة العالـمية التي تُمَارس على النَّاس، ووجوب حراسة الطُّرق العالـمية

وتجري السُّنَن الكونية عليه وعلى حضارة مدين، ثم ينجيه الله عز وجل والقوى الـمؤمنة، ويصف الله عز وجل شعيبًا ونظرته الـمعتدلة مع الإنسانيَّة التي تصرُّ على اتِّباع الشَّيطان، فيقول: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡۖ فَكَيۡفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: ٩٣].

وهنا ربما قلت: فهمنا أن الآيات من [٥٩-٩٣] تُبَصِّرنا بالتَّاريخ القديم لبني آدم، فما الـمحور الرابع؟

الجواب: هنا يأتي المحور الرابع يلخِّص لنا السُّنَن الاجتماعيَّة العامَّة.

المحور الرابع

السُّنَن الاجتماعية العامَّة التي تجري في تاريخ ذرِّيَّة آدم عليه السلام [الأعراف:٩٤-١٠٢]

إنها السُّنَن التي تجري على الأفراد والأمم والدُّول والحضارات، ويصف الله عز وجل ما يحدث لها تجاه دعوات الإصلاح النَّبويَّة، وأيضًا تجد في هذا الـمحور خطوات القدر التي تتعامل مع حركة البشر، ويمتد هذا الـمحور في الآيات من [٩٤-١٠٢] من سورة الأعراف.

بدأ هذا الـمحور من قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ ٩٤﴾ [الأعراف: ٩٤] إلى قوله: ﴿وَمَا وَجَدۡنَا لِأَكۡثَرِهِم مِّنۡ عَهۡدٖۖ وَإِن وَجَدۡنَآ أَكۡثَرَهُمۡ لَفَٰسِقِينَ ١٠٢﴾ [الأعراف: ١٠٢].

وبعد هذا الـمحور جاءت قِصَّة طويلة تحدثنا عن عهد بني إسرائيل، وهنا ستسأل قائلا: لماذا جيء بهذا المحور فاصلًا بين قصتي شعيب وموسى عليهما السلام؟

الجواب: بعد أن فصَّل الله عز وجل العهود الخمسة في التَّاريخ القديم في الـمحور السابق، اختصر الله عز وجل تاريخ البشريَّة وحال الحضارات والأمم في هذا الـمحور؛ لأن مشاهد الرَّحْمَة الإلهيَّة تتكرَّر بإرسال الرسل عليهم السلام، وتتكرَّر معها مشاهد الإجرام من قوى الاستكبار، وتتكرَّر مشاهد الصَّراع بين قبيل إبليس وقادة الهدى.

> الـمحور الرابع من محاور سورة الأعراف لخَّص السُّنَن الـمسْتَمِرَّة والعادات الـمسْتَقِرَّة التي تبين أحوال الحضارات والصِّراع بين دعاة الخير الدَّاعين إلى النُّور وقوى الـملأ الـمستكبرة الذين ينصرون قبيل إبليس، وذكر الله عز وجل واقع هذه الحضارات وتلك الأمم بصورةٍ مجملة، فصاغها على هيئة قواعد عامَّة تَحْدُثُ لبني الإنسان.

هذا الـمحور في غاية الأهميَّة؛ لأنه يجيب عن هذا السؤال الـمتكرر:

لعلك تسأل: ما الحكمة من عدم ذِكْرِ الله ﷻ أقوامًا مثل: اليابانيين، والهنود، والصِّينيين، والأفارقة، وحضارة الـمايا.. وأمثالهم؟ مع أنهم من بني آدم عليه السلام الذين لهم شأن في التَّاريخ الإنسانيِّ؟

والجواب: جاء هذا الـمحور ليجيب عن ذلك، فحقَّق لنا أهدافًا منها:

الهدف الأول:

أن القرآن ليس كتاب حكايات فقط يستوعب تاريخ الذُّرِّيَّة الآدميَّة للمتعة الفارغة، والتَّفكُّهِ الـمجرَّد، بل ذكر أبرز القصص الـمعروفة لاستلهام العبرة.

وبعد ذلك ماذا تتوقع أن يتحدث عنه القرآن؟

أجيبك: لقد بصَّرنا بالسُّنَن التي تحكم تاريخ الذُّرِّيَّة الآدميَّة، فلعلَّ ذلك يكون سببًا في إصلاح الحاضر والـمستقبل.

الهدف الثاني:

أن يبيِّنَ الله ﷻ أنَّ ما سبق كان أمثلة لأبرز الحضارات العالـمية التي مرَّت بها الذُّرِّيَّة الآدميَّة، وأن هناك حضاراتٍ أخرى لا داعي لذكرها؛ لأن جواهر الأحداث فيها متشابهة مع الأمم التي ذكرها الله ﷻ، فكأنه يقول: اسمعوا السُّنَن العامَّة التي تمرُّ بها كلُّ الحضارات مع رسالات ربها، وبما أن الآيات عطفت هذا الـمحور على ما قبلها فإنها تمنحنا بيانًا قويًّا عظيمًا يوجز لنا أهمَّ القوانين العامَّة التي تحكم التَّاريخ البشريَّ كلَّه.

فمختصر قصص البشر:

قوم كانوا يعبدون الأصنام، مثل قوم نوح عليه السلام، فجاءهم رسول مثل نوح عليه السلام، ودارت أحداث مشابهة.

وقوم كان عندهم فساد القوة الجسدية، مثل عاد، فجاءهم رسول مثل هود عليه السلام.

وقوم كان عندهم فساد الحضارة العمرانية، مثل ثمود، فجاءهم رسول مثل صالح عليه السلام.

وقوم كان عندهم فساد أخلاقيٌّ وانحلال، مثل قوم لوط، فجاءهم رسول مثل لوط عليه السلام.

وقوم كان عندهم فساد اقتصاديٌّ وإداريٌّ، مثل قوم شعيب، فجاءهم رسول مثل شعيب عليه السلام. هذا مختصر تاريخ بني آدم.

الهدف الثالث:

أن يكون هذا المحور الرابع قنطرةً وجسرًا للانتقال بين العهدين الكبيرين: عهد التَّاريخ القديم للذُّرِّيَّة الآدميَّة، حيث وجدت العهود الخمسة، وعهد التَّاريخ الوسيط الذي هو عهد الحضارة الإسرائيليَّة، وفي هذا المحور ذكر الله ﷻ أهمَّ السُّنَن الإلهيَّة التي تلخص ما يحدث بين المرسلين وأممهم.

الهدف الرابع:

أن يلفت نظر المخاطب بالقرآن للعودة إلى نفسه وواقعه وحاضره، ويفكر في مستقبله، فلا يتوهم أن ما سبق من ذكر عهود الصراع بين الحق والباطل مجرد أحداث غابرة، وقصص عابرة، بل هي إسقاطات على واقعه المُعاش، فاستبصر -يا ابن آدم- بـ ﴿تِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآئِهَاۚ﴾ لتكون سبيلًا يعينك على فَهْم حاضرك، فتبني حضارتك على هدى وسداد، بعيدًا عن أسباب انهيار الحضارات، ودمار الدول بالإفساد والشَّهوات.

ستسأل: ما أبرز السُّنَن التي ذكرها الله ﷻ في هذا العهد؟

الجواب: من أبرز هذه السنن:

سُنَّة العذاب غير المستأصل، فالعذاب الذي يصيب الحضارات المتمرِّدة عذاب متقطع غير مستأصل، فيُمِدُّ الله ﷻ لتلك الحضارات، فلا يعاقبها على استكبارها، بل يداول حياتها

بين الأزمات (الضَّراء) وبين الرَّاحة (السَّرَّاء)، ويُبَصِّرنا بذلك قوله: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ﴾ [الأعراف: ٩٥].

وعندما تزداد أوقات الرخاء على الغافلين والـمستكبرين يَصِلون إلى مرحلة (العفو)، وهي مرحلة تعني طمسهم للنُّصح الصَّادق، وضعف شعورهم بالألـم عند اقتراف السيئة، والتَّكاثر التَّنموي في الـمراحل الدُّنيويَّة.

ومن أبرز هذه السُّنَن:

سُنَّة: (اغْتِرَار صُنَّاع القَرَار)، حيث يصل صُنَّاع القرار في تلك الحضارات إلى حالة التَّفسير الخاطئ للأحداث، فبدلًا من التَّضرُّع حال الشِّدَّة، والشُّكر حال الرَّخاء يظنون أن هذه القوانين في دول الأيام تعمل بنفسها، فيزدادون سوءًا، ويفسِّرون تحوُّل الأيام تفسيرًا خاطئًا، ويُبَصِّرنا بذلك قوله: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ﴾ [الأعراف: ٩٥].

والشكل الآتي فيه بيان عقاب الله ﷻ الذي يحلُّ بالحضارات المتمرِّدة:

أ.د. عبد السلام مقبل المجيدي

الحضارات المتمردة

تُعَاقَب بـ:

1 العذاب غير المستأصل وتناوب الأزمات

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾

2 ازدياد أوقات الرخاء على الغافلين

﴿ثُمَّ بَدَّلۡنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلۡحَسَنَةَ﴾

3 الوصول إلى مرحلة (العفو) ﴿حَتَّىٰ عَفَواْ﴾ المتمثلة في:

- طمس النصح الصادق
- ضعف الشعور بالألم عند اقتراف السيئة
- التكاثر التنموي في المراحل الدنيوية

4 القرارت والتفسيرات الخاطئة

﴿وَقَالُواْ قَدۡ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ﴾

5 النتيجة:

الاستئصال والهلاك المفاجئ

﴿فَأَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾

﴿مفصل سورة الأعراف (1)﴾

وهنا لعلك تسأل: هل قولهم ﴿قَدۡ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ﴾ [الأعراف: ٩٥] ناشئٌ عن يقظةٍ واتِّعَاظٍ أم عن غفلةٍ وامتعاضٍ؟

أجيبك: إنك إن أتممت الآية اتَّضح لك فحوى ذلك فقد قال –جلَّ شانُه- ﴿فَأَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةً وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٥]، وفيه دليل على صدور قولهم عن غفلة كما ذكر الطَّبَري رحمه الله: "أنهم قالوا إذ فُعل ذلك بهم: هذه أحوال قد أصابتْ مَنْ قبلنا من آبائنا، ونالت أسلافَنا، ونحن لا نعدُو أن نكون أمثالَهم يصيبنا ما أصابهم، من الشِّدَّة في المعايش، والرَّخاء فيها وهي "السَّرَّاء"، لأنها تَسرُّ أهلها، وجهل المساكين شكرَ نعمة الله عز وجل، وأغفلوا من جهلهم استدامة فضلهِ بالإنابة إلى طاعته، والمسارعة إلى الإقلاع عما يكرهه بالتوبة، حتى أتاهم أمره وهم لا يشعرون"(١).

ومن هذه السُّنَن:

سُنَّة نسيان التَّاريخ، حيث تميل الأمم إلى نسيان التَّاريخ، وتُصِرُّ على تطبيع عاداتها على إغفال أحداثه، ويُبَصِّرنا بذلك قوله:

﴿تِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآئِهَاۚ وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبۡلُۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٠١].

يُذَكِّر الله عز وجل البشريَّة بأن خيانة العهد الذي بين الإنسان وربِّه عز وجل يعني الوقوع في أَسْرِ إبليس وقَبيله: ﴿وَمَا وَجَدۡنَا لِأَكۡثَرِهِم مِّنۡ عَهۡدٖۖ وَإِن وَجَدۡنَآ أَكۡثَرَهُمۡ لَفَٰسِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٢]، وهذه سُنَّةٌ بيانيَّة وصفيَّة لأحوال الأمم تفيد في ترشيد نفسيات المصلحين، أي أخبرنا الذُّرِّيَّة الآدميَّة بالعهد الذي بين الله عز وجل وبينها، لكن الأكثر أبوا إلا نكث العهد ونقضه، بل وجدنا أكثرهم

(١) تفسير الطَّبَري (١٢/ ٥٧٦).

فاسقين، وكأنه يقول: فلا تحزنوا أيها الـمصلحون، وضَعُوا خُطط إصلاح الأرض في ضمن هذه الرؤية التي لا تستسلم للأحلام.

ستسأل: فما الـمحور الجديد الذي تنقلنا إليه الآيات بعد انتهاء الـمحور الرابع؟

الجواب: بعد هذا الاستعراض الـمثير للسُّنَن العامَّة التي تخضع لها البشريَّة في تقلباتها التَّاريخيّة بعد أن يأتيها الحقُّ ينقلنا الله ﷻ إلى عهد كبير جديد من عهود الذُّرِّيَّة الآدميَّة:

المحور الخامس

العهد السَّادس من عهود الذُّرِّيَّة الآدميَّة، ويمثِّل التَّاريخ الوسيط: العهد الإسرائيلي

[الأعراف: ١٠٣-١٧١]

فنقلتنا السُّورَة من التَّاريخ القديم إلى التَّاريخ الوسيط، وهو العهد الإسرائيليُّ، وستقول: لماذا هذا الاهتمام بالعهد الإسرائيليِّ؟

الجواب: وذلك لما يأتي:

أولًا: العهد الإسرائيليُّ يمثِّل أحد العهود الفاصلة في التَّاريخ البشري، وسيستمرُّ أثره على البشريَّة إلى قرب قيام السَّاعة، فبنو إسرائيل يمثِّلون أمَّة من أكثر الأمم تأثيرًا في الواقع العالمي على الرغم من قِلَّة عددهم مقارنة بغيرهم من الأمم، وهناك التَّشابه الكبير بين نبيِّنا محمَّد ﷺ وبين كليم الله ﷻ موسى عليه السلام: نبوةً وأمَّةً وكتابًا، وذلك يعني البحث عن السُّنَن التي جَرَت على أمَّة موسى عليه السلام.

ثانيًا: لأن موسى عليه السلام تعامل مع فرعون ومؤسَّساته الباطشة، وقد اجتمع فيهم أعظم أركان الطُّغيان، وكذلك يتكرَّر الطُّغاة على مرِّ الزمان.

وربما تسأل: المحور الخامس كبير امتدَّت آياته من [١٠٣-١٧١]، فهل انقسم إلى فصول كبرى؟

الجواب: نعم! انقسم هذا العهد إلى ثلاثة فصول كبرى:

الفصل الأول: عودة التوحيد الإلهي، وبداية الانبعاث الإسرائيليِّ وتغيير التَّاريخ، وامتدَّ هذا المحور في الآيات [الأعراف: ١٠٣-١٢٦].

الفصل الثاني: يحدِّثنا عن تطوُّر جديد في العهد الإسرائيليِّ: إنه عهد المواجهة ونهاية التَّاريخ الفرعوني [الأعراف:١٢٧-١٣٧].

الفصل الثالث: عهد التحرُّر الإسرائيلي: إفسادهم في الأرض بتأسيس الأنقاض الكبرى للميثاق الإلهيِّ [الأعراف: ١٣٨-١٧١].

الفصل الأول

يُفصِّل الله ﷻ لنا فيه: عودة التوحيد الإلهي، وبداية الانبعاث الإسرائيليِّ وتغيير التَّاريخ، وامتدَّ هذا المحور في الآيات [١٠٣-١٢٦] من سورة الأعراف.

وتوضِّح الآية الأولى أهمِّية هذا العهد والمناسبة والاتِّصال بينه وبين ما قبله وما بعده بصورة لافتة؛ إذ يقول الله ﷻ فيها: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُواْ بِهَاۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٣]

فما الذي يُبَصِّرنا به حرف العطف ﴿ثم﴾؟

الجواب: كلمة ﴿ثم﴾ تُبَصِّرنا بأمرين:

الأول: الامتداد الزمانيُّ بين شعيب وموسى عليهما السلام.

الثاني: وكذلك تُبَصِّرنا بتميز هذا العهد عما قبله؛ إذ جاء العطف بـ(ثم)، بينما كان يقال في الأنبياء السابقين: وإلى...

ونشهد في هذا الفصل: المواجهة الأولى بين موسى عليه السلام وفرعون وملئه، وفيه تظهر لنا الحكمة العالية العظيمة التي تعامل بها موسى عليه السلام مع فرعون حتى جعل فرعون ينفذ له ما يريد دون شعور، فابتدأ ذلك بإعلان موسى عليه السلام الأهدافَ الساميةَ للدَّعوة إلى الله ﷻ: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٠٤ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ١٠٥﴾ [الأعراف: ١٠٤-١٠٥].

ثم ينتقل بنا المشهد إلى بروز الآيات المادية المعجزة التي جاء بها موسى عليه السلام: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ١٠٧﴾ [الأعراف: ١٠٧].

ونطَّلع فيه على فعاليات معركة آيات الرَّحمن في مواجهة سحر الطغيان: ﴿قَالَ أَلْقُواْۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ١١٦﴾ [الأعراف: ١١٦].

فماذا كانت نتائج هذه المعركة وهذا التحدِّي الكبير؟

الجواب: نتائج هذه المواجهة كانت مفاجئة للطَّرف المعاند.. لقد انهارت جميع أحلامه، وأظهر السَّحرةُ البيان الإعلاميَّ رَقْم واحد عن انتصار موسى عليه السلام، فأعلنوا انتصار الإيمان على سحر الطُّغيان، فقال الله في نتيجة هذا البيان: ﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١١٨]، وبدت الهزيمة الماحقة بالجهود والمؤسَّسات الفرعونيَّة الإعلاميَّة والثقافيَّة والمخابراتيَّة والأمنيَّة، ويصوِّر لنا ذلك قوله تعالى: ﴿فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ﴾ [الأعراف: ١١٩]، وأشرقت شمس الحقيقة في قلوب أبعد صنف يُتصور فيه أن يؤمن: السحرة، يصوِّر لنا ذلك قوله تعالى: ﴿وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأعراف: ١٢٠- ١٢٢].

مضت البيِّنات تنقذ البشريَّة من أَسْرِ قبيل إبليس، ونطقت الحكمة على ألسنة من كان أشدَّ النَّاس محاربة لأنوار القرآن المجيد، ومن كانوا يرقبون الفرصة للفتك برسول الحقِّ ورسالة السماء، حتى أسفر فجر الإيمان صبحًا بين حنايا صدورهم المذهولة من وهج جمال الحقيقة، ورونق بهاء الدين الصادق: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٥- ١٢٦].

ربما تقاطع متشوقًا: فما كان الفصل الثاني من محور العهد الإسرائيلي؟

أجيبك: بناء على هذه النتائج جاء الفصل الثاني: يحدِّثنا عن تطوُّرٍ جديد في العهد الإسرائيلي: إنه عهد المواجهة ونهاية التَّاريخ الفرعوني [الأعراف:١٢٧-١٣٧].

الفصل الثاني

عهد الـمواجهة ونهاية التَّاريخ الفرعوني [الأعراف:١٢٧-١٣٧].

أ.د. عبد السلام مقبل المجيدي

الفصل الثاني:

عهد المواجهة ونهاية التاريخ الفرعوني [الأعراف: ١٢٧-١٣٧]

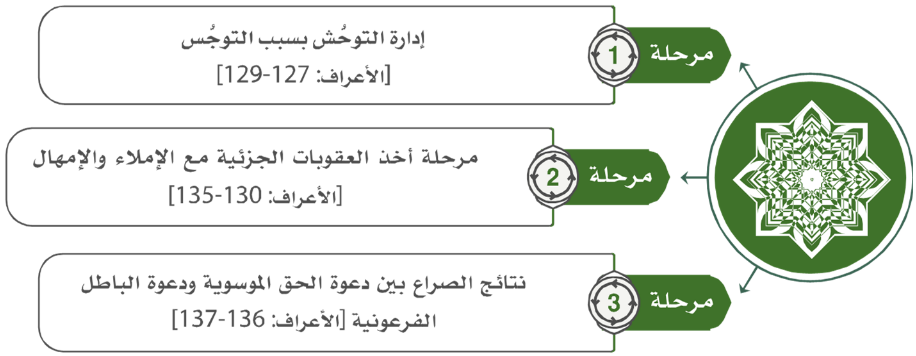

﴿مفصل سورة الأعراف (1)﴾

انقسم هذا الفصل إلى ثلاث مراحل:

الـمرحلة الأولى: إدارة التَّوحُّش الفرعونيِّ على المستضعفين:

نرى في هذه المرحلة سُنَّة سيطرة التَّوحُّش الفرعونيِّ على الـمستضعفين بسبب توجُّس الـمستكبرين وأصحاب الـمصالح الـمقرَّبين من فرعون، وامتدَّت هذه الـمرحلة في الآيات [١٢٧ -١٢٩] من سورة الأعراف.

فقد حَدَثَ اتِّباعٌ خافت لموسى ، فآمن له ذرِّيَّة من قومه وهم مجموعة من بني إسرائيل، وقِلَّة قليلة من الـمصريين، وعدد الـمؤمنين لا يكافئ البيِّنات العظمى التي جاء بها، وترتَّب على هزيمة فرعون وملئه في معركة البيِّنة والسِّحر أنْ تنقلنا آيات الله ﷻ في سورة

الأعراف إلى المشهد التآمريِّ لمجلس الأمن الفرعونيِّ: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوۡمَهُۥ لِيُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَنَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡ وَإِنَّا فَوۡقَهُمۡ قَٰهِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٧].

تصف السُّورَة الدور الخبيث لقوى الـملأ الـمجرمة ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ﴾ في البحث عما يريده الطاغية، فهو لا يريد أن يُقِرَّ لموسى عليه السلام بأنه رسول، ولا يريد أن ينفِّذ طلب موسى عليه السلام في أن يرسل معه بني إسرائيل، وتسابق الـملأ إلى تقديم اقتراحات يظهرون منها حرصهم على النِّظام العامِّ.. إنهم الـملأ الذين يملؤون العين.. لماذا يملؤون العين؟

الملأ يملؤون العين بسبب تميُّزٍ عندهم في الفصاحة الـمؤثِّرة، أو في الجاذبية اللَّافتة (الكاريزما)، أو في التَّفوُّق الاستثماريِّ، أو في القُوَّة الجسديَّة، أو في الإبداع التَّرفيهيِّ، وبذا تراهم ينتمون لمختلف مجالات الحياة.

وكلُّ هؤلاء يعملون لإرضاء الطاغية، وسياسة تقتيل الأبناء، واستحياء النِّسَاء كانت موجودة سابقًا.. لكن الـمقصود هنا زيادتها، ونشرها بصورة مفزعة.

نشاهد في هذه الـمرحلة اشتداد الـمعاناة الإسرائيليَّة من هذه القرارات الفرعونية الظالـمة، وكيف عالجها موسى عليه السلام بتقوية العلاقة بالله عز وجل والصبر: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصۡبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ١٢٨ قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٨- ١٢٩].

في هذه الـمرحلة نجد موسى عليه السلام يتنبأ بثلاث مآلات مستقبلية للإسرائيليين:

الـمآل الأول: هلاك عدوِّ الإسرائيليين (فرعون ومؤسَّساته): ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ﴾.

والمآل الثاني: أن يأتي عهد الاستخلاف الإسرائيلي: ﴿وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾.

المآل الثالث: أن تظهر للبشرية حقيقة العهد الإسرائيلي، ويُبَصِّرنا بذلك قول الله -جلَّ ذِكرُه-: ﴿فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ﴾، فأخبرهم أنه سيأتي يوم يكونون فيه في محلِّ فرعون من حيث التمكُّن والتلاعب بالقرارات الدولية، فماذا سيفعلون؟

هل ينشرون الحقَّ والعدل أم سيمارسون الإجرام الذي مارسه من قبلهم؟

والجواب نجده في ثنايا المرحلة الثَّانية.

المرحلة الثَّانية: مرحلة أخذ العقوبات الجزئية الإملاء والإمهال: [الأعراف:١٣٠-١٣٥]:

تستمر مرحلة إدارة التَّوحُّش مصاحبة للمرحلة الثَّانية، وهي المرحلة التي ترى فيها سُنَّة الإملاء والإمهال، وفي هذه المرحلة يستمرُّ الاضطهاد لبني إسرائيل وللمؤمنين عمومًا من آل فرعون، فقد أسلمت زوجة فرعون، وورد في الحديث أن فرعون اضطهدها وعذَّبها حتى الموت(١).

وفي هذا المرحلة أيضًا يداول الله ﷻ السيئة والحسنة على آل فرعون، ولا يبقى الزمان واقفًا على حالة واحدة؛ كأنه لا يدور ولا يتغير: ﴿وَلَقَدۡ أَخَذۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٠].

ها هنا يُبَصِّرنا الله ﷻ ببصيرةٍ سُنَنِيَّةٍ جديدةٍ في أحوال المعاندين:

(١) روى الحاكم في المستدرك (٣٩٢٩) عن عبد الله بن مسعود ﵁، في قوله ﷻ: ﴿ذِي ٱلۡأَوۡتَادِ ۝١٠ ٱلَّذِينَ طَغَوۡاْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾ [الفجر: ١٠، ١١] قال: «وَتَدَ فِرْعَوْنَ لِامْرَأَتِهِ أَرْبَعَةَ أَوْتَادٍ، ثُمَّ جَعَلَ عَلَى ظَهْرِهَا رَحًى عَظِيمًا حَتَّى مَاتَتْ» هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه "، ووافقه الذهبي، قال الألباني: "وهو كما قالا". الصحيحة (٢٥٠٨).

بصيرة: الـمجرمون يغفلون أو يتغافلون عن الحقيقة الواضحة، وهي أن الـمصائب الجزئية التي تَحْدُث لهم إنذارٌ من الله ﷻ.

ويُصِرُّون على أنهم لا يستحقُّون إلا الخير في الحياة مهما أجرموا أو أذنبوا، ويصور لنا ذلك قوله: ﴿فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ﴾ أي: نستحق ذلك، وليست الـمسألة عائدة إلى عدل إلهي، ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ﴾ بدلًا من أن يقولوا: هذا بسبب ذنوبنا وأعمالنا ﴿يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٣١].

وفي هذه الـمرحلة تُبَصِّرنا الآيات بمشهد تطبيع الحياة مع الإلحاد والفسوق، فجعل الـمجرمون كلَّ آية تظهر خلافًا للواقع الطبيعي جُزءًا من واقعهم، بمعنى أنه يعتقدون أنه لا توجد عقوبة للظالـمين في هذا الكون، ويزين لهم الشَّيطان عدم الاعتبار، وهذا الـمشهد نجده في قول الله ﷻ: ﴿وَقَالُواْ مَهۡمَا تَأۡتِنَا بِهِۦ مِنۡ ءَايَةٖ لِّتَسۡحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٢].

وفي هذه الـمرحلة ترى مشهدًا عجيبًا، حيث تتداول على فرعون وقومه أنواعٌ مختلفة من البأساء والضراء ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلۡجَرَادَ وَٱلۡقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٖ مُّفَصَّلَٰتٖ﴾ [الأعراف: ١٣٣].

فماذا فعلوا؟ هل اعتبروا؟ هل تابوا؟

أجيبك: للأسف! ﴿فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٣].

وكلما وقع عليهم نوع من العذاب انبعثت صيحاتهم يزعمون أنهم سيتوبون إلى ربِّهم:

﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيۡهِمُ ٱلرِّجۡزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَۖ لَئِن كَشَفۡتَ عَنَّا ٱلرِّجۡزَ لَنُؤۡمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرۡسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ١٣٤﴾ [الأعراف: ١٣٤].

فماذا يحدث عندما يذهب عنهم الرجز، ويزول عنهم العذاب؟

والجواب:

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ١٣٥﴾ [الأعراف: ١٣٥]، ولاحظ الإملاء والإمهال في قوله: ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ﴾.

ولعلك تتساءل: كيف لا يؤمنون وقد جاءتهم كلُّ آية خارقة للعادة؟

وجوابك في المرحلة الثَّالثة من مراحل عهد المواجهة ونهاية التَّاريخ الفرعوني.

المرحلة الثَّالثة: نتائج الصراع بين دعوة الحقِّ الموسوية ودعوة الباطل الفرعونية:

في هذه المرحلة بدأ عهد التحرُّر الإسرائيلي، وامتدَّت في الآيتين [١٣٦-١٣٧]:

حيث صوَّر الله ﷻ ذلك، فقال: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾، أي في الوقت الذي حدَّده الله ﷻ، وليس الذي استعجله المؤمنون رغبةً، والمجرمون استهزاءً: ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٦]، وهنا تحقَّق وعد موسى عليه السلام الأول، وهو هلاك عدو بني إسرائيل، ثم تحقَّق الوعد الثاني، وهو استخلافهم: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ١٣٧﴾ [الأعراف: ١٣٧].

وهنا لعلك تهتف: فقد انتهى العهد الفرعوني، وانتهى معه عهد استضعاف بني إسرائيل، وأصبحوا الوارثين للأرض، فماذا حدث بعد ذلك؟

الجواب: هنا تنقلنا البصائر القُرآنيَّة إلى الفصل الثالث:

الفصل الثالث: عهد التحرُّر الإسرائيلي: إفسادهم في الأرض بتأسيس الأنقاض الكبرى للميثاق الإلهي [الأعراف: ١٣٨-١٧١]

أ.د. عبد السلام مقبل المجيدي

الفصل الثالث:

عهد التحرُّر الإسرائيلي: إفسادهم في الأرض بتأسيس الأنقاض الكبرى للميثاق الإلهي [[الأعراف: ١٣٨-١٧١]

النقض الأول: "العقلية الشِّرْكيّة الإسرائيليّة":

وذلك بمطالبة بني إسرائيل بتأسيس الشرك والجهل والباطل في الأرض: [الأعراف: ١٣٨-١٤١].

النقض الثاني: العقلية الفِسْقية الإسرائيلية":

وذلك بتأسيس بني إسرائيل دار الفاسقين الذين خرجوا عن الاصطفاء الإلهي لموسى عليه السلام، وأَخْذِ كتابه بقوة: [الأعراف:١٤٢-١٤٧]

النَّقْض الثالث: "العقلية العِجْليّة الإسرائيليّة":

النَّقْض العِجْلي: حيث أَسّس الظالمون دار الفِسق الإسرائيلية، فافتتحوها بعقلية العِجْل الإسرائيلي: [الأعراف: ١٤٨-١٥٣]

النقض الرابع: "العَقلية السَفَهيّة الإسرائيليّة":

وهو نقض مستقبلي، ويتعلق بنقض الإيمان بالنبي الخاتم ﷺ: [الأعراف: ١٥٤-١٥٨]

النَّقْض الخامس: "العقلية التَّبْديليّة الإسرائيليّة":

نقض الأخذ بأحسن الكتاب، وذلك بتحريف التبديل: [الأعراف: ١٥٩-١٦٢]

النَّقْض السادس: العقلية التلاعبية الحوتية:

العقلية التلاعبية الحوتية: وتتعلق بتحريف التأويل:[الأعراف: ١٦٣- ١٦٧]

النَّقْض السابع: "العقلية الجبَلِية الإسرائيليّة":

نقض أخذ الكتاب بقوة بتشريع التلاعب في تطبيقه، وتمني المغفرة عند تجاوز حدوده "العقلية الجَبَلِية": [الأعراف: ١٦٨-١٧١]

﴿مفصل سورة الأعراف (1)﴾

في هذا الفصل:

نجد الاستخلاف الإسرائيلي وتأسيس متمردي بني إسرائيل لنقض الـميثاق الإلهي.

ويُبَصِّرنا هذا الفصل: كيف أسَّست مجموعة من بني إسرائيل لنقض الـميثاق الإلهي، والإفساد في الأرض؟

وامتدَّ هذا الفصل في الآيات [١٣٨-١٧١] من سورة الأعراف، وانقسم إلى سبعة أقسام، تمثِّل سبعة أنواع من النَّقْض، وهي:

النَّقْض الأكبر الأول: "العَقْليَّة الشِّرْكيَّة الإسرائيليَّة": وذلك بمطالبة بني إسرائيل بتأسيس الشِّرك والجهل والباطل في الأرض: [الأعراف: ١٣٨-١٤١].

النَّقْض الأكبر الثاني: "العَقْليَّة الفِسْقيَّة الإسرائيليَّة": وذلك بتأسيس بني إسرائيل دار الفاسقين الذين خرجوا عن الاصطفاء الإلهي لموسى عليه السلام، وأَخْذِ كتابه بقوة: [الأعراف:١٤٢-١٤٧].

النَّقْض الأكبر الثالث: "العَقْليَّة العِجْليَّة الإسرائيليَّة": حيث أَسَّس الظَّالمون دار الفِسق الإسرائيليَّة، فافتتحوها بعقلية العِجْل الإسرائيلي، وتدور حول الإلحاد الصريح، واستضعاف المصلحين [الأعراف: ١٤٨-١٥٣].

النَّقْض الأكبر الرابع: "العَقْليَّة السَّفَهيَّة الإسرائيليَّة": وهو نقض مستقبلي، ويتعلَّق بنقض الإيمان بالنَّبيِّ الخاتم ﷺ [الأعراف: ١٥٤-١٥٨].

النَّقْض الأكبر الخامس: "العَقْليَّة التَّبْديليَّة الإسرائيليَّة": نقض الأخذ بأحسن الكتاب، وذلك بتحريف التبديل، وامتدَّ هذا النَّقْض في الآيات [الأعراف: ١٥٩-١٦٢].

النَّقْض الأكبر السادس: "العَقْليَّة التلاعبية الحُوتِيَّةُ": وتتعلَّق بتحريف التأويل، وقيام ما يمكن أن نطلق عليه العقلية الإسرائيليَّة الحُوتِيَّة، وامتدَّ هذا النَّقْض في الآيات [الأعراف: ١٦٣-١٦٧].

النَّقْض الأكبر السابع: "العَقْليَّة الجَبَلِيَّة الإسرائيليَّة": نقض أخذ الكتاب بقوَّة بتشريع التلاعب في تطبيقه، وتمنِّي المغفرة عند تجاوز حدوده: [الأعراف: ١٦٨-١٧١].

النَّقْض الأكبر الأول: "العَقْليَّة الشِّرْكيَّة الإسرائيليَّة": وذلك بمطالبة بني إسرائيل بتأسيس الشِّرك والجهل والباطل في الأرض [الأعراف: ١٣٨-١٤١].

ذكر الله ﷻ هنا النَّقْض الأكبر الأول لعهد الله ﷻ، حيث أسَّس الفكر الإسرائيلي للشرك والجهل والباطل في الأرض، وذلك في الآيات [الأعراف: ١٣٨-١٤١].

ستقول: هذه مصيبة كبيرة! ما أبشعها! فماذا حدث حتى نقضوا، وقد نجَّاهم الله ﷻ؟

الجواب: ما إن نصرهم الله ﷻ وأغرق فرعون وهم ينظرون حتى رأوا أقوامًا يعبدون أصنامًا، فبدلًا من أن ينكروا هذه العبادة المقرفة التي تستحقر عقل الإنسان، وتنكر فضل الرَّحمَن: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌۚ﴾ [الأعراف: ١٣٨]، وبذل موسى عليه السلام جهدًا كبيرًا مضاعفًا لأجل أن يذكِّرهم بالإيمان بالله ﷻ وتوحيده.

فهذا ما فصَّلته لنا هذه الآيات، فما الذي بصَّرتْنا به الآيات التي بعدها؟

وإليك الجواب في النَّقْض الثاني:

النَّقْض الأكبر الثاني: "العَقْليَّة الفِسْقيَّة الإسرائيليَّة": وذلك بتأسيس بني إسرائيل دار الفاسقين الذين خرجوا عن الاصطفاء الإلهي لموسى عليه السلام، وأَخْذِ كتابه بقوة: [الأعراف:١٤٢-١٤٧].

حيث واعده الله سبحانه وتعالى أربعين ليلة، وقال الله ﷻ عن هذا الشَّرف الكبير: ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةًۚ﴾ [الأعراف: ١٤٢].

في هذا الـميعاد لا يكاد الإنسان يصدق مقدار الشَّرف الكبير الذي حصَّله عبد الله موسى ﷺ، ولذلك فإن موسى ﷺ نفسه لما تجاوزه النَّبيُّ ﷺ في الـمعراج تَعَجَّب كيف يمكن أن يوجد من يتجاوزه بعد الشَّرف الذي أكرمه الله ﷻ به[1]، وهنا تعرف كرامة هذَيْنِ النَّبيَّيْنِ العظِيمَيْنِ، ومنزلة سيدنا محمَّد ﷺ.

وفي هذا اللِّقاء العظيم منح الله ﷻ موسى ﷺ كتابًا مكتوبًا في الألواح؛ ليصير دستورًا للناس، ومحور ارتكاز يوجِّه الإسرائيليين إلى إقامة الرُّشد في العالـم: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا﴾.

وهذا الكتاب سيحميهم إن اتبعوه من أن يكونوا أسرى للشيطان وقبيله، فيبنوا في العالـم دار الفاسقين التي يجب أن يتَّقوها في الدُّنيا والآخرة: ﴿سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٥].

لكن الـمتكبِّرين لن يكون لهم حظٌّ في اتِّباع الكتاب: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَـٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾.

الـمتكبرون يبحثون عن سبيل هلاك البشريَّة ليسوقوها إليه: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ [الأعراف: ١٤٦].

فهذا القِسْم يتعلق بتعظيم موسى ﷺ، وبيان منزلة كتابه الذي أرسله الله ﷻ به، فما الذي بصَّرتْنا به الآيات التي بعدها؟

وتجد الجواب بعد ذلك في النَّقْض الثالث .

(١) ينظر: البخاري (٣٨٨٧).

النَّقْض الأكبر الثالث: "العَقْليَّة العِجْليَّة الإسرائيليَّة": حيث أَسَّس الظَّالمون دار الفِسق الإسرائيليَّة، فافتتحوها بعقلية العِجْل الإسرائيلي، وتدور حول الإلحاد الصريح، واستضعاف المصلحين: [الأعراف: ١٤٨-١٥٣].

حيث فصَّل الله ﷻ النَّقْض الأكبر الثالث في الحياة الإسرائيليَّة، فأصرَّ فسَّاق الإسرائيليين على تأسيس عقلية العجل الوَثنيَّة، واستضعاف المصلحين في مجتمعهم حتى لو كانوا أنبياء؟ وامتدَّ هذا النَّقْض في الآيات [١٤٨-١٥٣] من سورة الأعراف.

يُبَصِّرنا هذا النَّقْض بأن فُسَّاق بني إسرائيل بذلوا جهودًا ليدخلوا العالم في الشِّرك بالله ﷻ، حيث جعلوا مبدأ الشِّرك مُؤَسَّسًا على الأساطير والسِّحر والاحتيال، وأخبر الله ﷻ عنهم ذلك، ففي المحاولة الأولى أرادوا أن يَحْرفوا نبيهم عليه السلام، فطلبوا من موسى عليه السلام أن يجعل لهم إلهًا، فبكتهم موسى عليه السلام، ولكنه ما إن غاب عنهم حتى قاموا بذلك بأنفسهم، فقال الله ﷻ: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌۚ أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمۡ وَلَا يَهۡدِيهِمۡ سَبِيلًاۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٨].

يُبَصِّرنا هذا النَّقْض بأن المصلحين وفي مقدمتهم هارون عليه السلام يحاولون أن يحموا البشريَّة من الشِّرك، لكن الفاسقين يضطهدونهم ويخيِّرونهم بين أمرين: القتل أو التزام الصَّمت، كما فعل فرعون مع بني إسرائيل من قبل، حتى قال هارون معتذرًا لموسى عليهما السلام: ﴿ٱبۡنَ أُمَّ إِنَّ ٱلۡقَوۡمَ ٱسۡتَضۡعَفُونِي وَكَادُواْ يَقۡتُلُونَنِي فَلَا تُشۡمِتۡ بِيَ ٱلۡأَعۡدَآءَ وَلَا تَجۡعَلۡنِي مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٥٠﴾ [الأعراف: ١٥٠].

وبقي الأمر على ذلك حتى عاد موسى عليه السلام، وحاول إصلاح الأوضاع التي خرجت عن السيطرة.. خرجت عن الصراط المستقيم.

وهنا يعلن موسى عليه السلام أن عقلية العجل الوَثنيَّة تفتري على الله جل جلاله وتخادع النَّاس بصناعة آلهة مزيَّفة لا هدف وراءها سوى ابتزاز أموال الضعفاء وتدمير عقولهم، ولذلك فإن غضب

الله ﷻ عليهم أمر مؤكَّد معلوم، وذلَّتهم قرار موثَّق محتوم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ سَيَنَالُهُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَذِلَّةٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُفۡتَرِينَ ١٥٢﴾ [الأعراف: ١٥٢].

فهذا ما فصَّلته لنا هذه الآيات، فما الذي بصَّرتْنا به الآيات التي بعدها؟

هنا يأتي النَّقْض الرابع مفاجئًا جميع من يقرأ هذه السُّورَة أو يسمعها:

النَّقض الأكبر الرابع: "العَقْليَّة السَّفهيَّة الإسرائيليَّة": وهو نقض مستقبلي، ويتعلَّق بنقض الإيمان بالنَّبيِّ الخاتم ﷺ [الأعراف: ١٥٤-١٥٨].

تفاجئ هذه السُّورَة الوَثنيِّين في مكة، والعالـم من بعدهم؛ إذ تبيِّن لهم صدق سيدنا محمَّد ﷺ في أمر النُّبوَّة، وأنه رسول للعالـمين، حيث تأتي الآيات محذِّرة الإسرائيليين ومن سار معهم في بعض الجزئيات مثل النَّصارى من النَّقْض الـمستقبلي الخطير، وامتدَّ هذا النَّقْض في الآيات [١٥٤-١٥٨] من سورة الأعراف.

فبعد أن ذكر الله ﷻ أن بني إسرائيل أسَّسوا نقضين عظيمين للعهد الإلهي، فطلبوا الوَثنيَّة عندما نجَّاهم الله ﷻ من فرعون، ثم اتَّخذوا العجل، ووسَّط بينهما بذكر الأهميَّة الدُّستوريَّة لِمَا كتب الله ﷻ لموسى عليه السلام في الألواح، انتقل إلى التحذير من النَّقْض الـمستقبلي الأكبر.. إنه النَّقْض الـمتعلِّق باتباع الرسول النَّبيِّ ﷺ الأمِّيِّ الـمكتوب في التَّوراة والإنجيل، وحدث ربط واضح قويٌّ في هذا النَّقْض بين التوبة عن عبادة العجل الإسرائيلي وبين اتِّباع الرسول الأُمِّيِّ ﷺ، وابتدأ هذا النَّقْض بالتذكير بعظمة ما كتب الله ﷻ لموسى عليه السلام في الألواح فقال: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلۡغَضَبُ أَخَذَ ٱلۡأَلۡوَاحَۖ وَفِي نُسۡخَتِهَا هُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلَّذِينَ هُمۡ لِرَبِّهِمۡ يَرۡهَبُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٤].

وابتهل موسى عليه السلام وأعلن توبة أتباعه، وقال: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَاۖ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡغَٰفِرِينَ ١٥٥ ۞وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ﴾ [الأعراف: ١٥٥- ١٥٦].

فإن سألت: ما الشرط الذي شرطه الله ﷻ على أتباع موسى ﵇ حتى ينالوا رحمته؟

الجواب: هنا يُبَصِّرنا الله ﷻ أنه سيرحم أتباع موسى ﵇ وسيقبل توبتهم، ولكن ذلك مشروط بأهمِّ الشروط التي يخفيها مجرمو بني إسرائيل إلى الآن: اتباع الرسول النَّبيِّ الأُمِّيِّ ﷺ: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ١٥٦ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٥٧﴾ [الأعراف: ١٥٦، ١٥٧].

الإعلان كان واضحًا: رحمة الله وسعت كلَّ شيء لكنها لا تكتب إلا للقوى الصَّالِحَة المؤمنة بآياته، وعلامة إيمانهم اتِّباع الرسول الأمِّيِّ ﷺ.

لاحظنا أن الآيات تكلَّمت عن موسى ﵇ وقومه إلى الآية (١٥٦)، ثم عاد الكلام عنهم مجدَّدًا في الآية (١٥٩)، فما الحكمة من توسيط الكلام عنهم بذكر الرسول النَّبيِّ الأمِّيِّ ﷺ؟

الجواب: لأنه يترتَّب على الإيمان بالرسول الأمِّيِّ ﷺ صلاح الإنسانيَّة ونشر النُّور العالميِّ في أرجاء الأرض التي ملئت بالجور والظلم والظُّلُمات، وذكر الله ﷻ ذلك هنا ليخبرنا بأن المواثيق العظيمة أخذت على بني إسرائيل أن يؤمنوا به، وفي هذا الكلام إشارة إلى أنهم سينقضون هذا العهد، فموسى ﵇ ينقل لقومه أكبر المخاطر المُتَوَقَّعة في المستقبل.

وكيف عرفنا أن الله ﷻ يخاطب الإسرائيليين –والعالم من بعدهم– ليؤمنوا بالرسول الأمي ﷺ؟

الجواب: من خلال السِّياق حيث استمرَّ الكلام عن قوم موسى ﵇.

قد يقال: هذا الخطاب خاصٌّ ببني إسرائيل، وربما بالعرب، فما الدليل على أن يعم العالـم؟

الجواب: هنا يبين الله ﷻ الرسالة العالـمية للنبي الأمي: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝١٥٨ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ۝١٥٩﴾ [الأعراف: ١٥٨ - ١٥٩].

فيذكِّر الله ﷻ العالـم بخطورة هذا النَّقْض، ووجوب الإيمان والاتباع اللذين يفضيان إلى الهداية المقصودة والحياة السعيدة المنشودة، وتنقلنا البصائر القُرآنيَّة جميعًا: تنقل الـمسلمين، والقوى الوَثنيَّة القرشية، والقوى الإسرائيليَّة والعالـم إلى النَّقْض الخامس من هذا الفصل.

النَّقض الأكبر الخامس: "العَقْليَّة التَّبْديليَّة الإسرائيليَّة": نَقَض الأخذ بأحسن الكتاب، وذلك بتحريف التَّبديل [الأعراف: ١٥٩-١٦٢]:

ذكر الله ﷻ هنا النَّقْض الإسرائيلي الأكبر الخامس، وقد تمثَّل في تحريف التَّبديل، وامتدَّ هذا النَّقْض في الآيات: [١٥٩-١٦٢] من سورة الأعراف، وابتدأه بالإشارة إلى دور الصالحين من بني إسرائيل: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٩].

فما الحكمة من ذكر الصَّالحين من قوم موسى عليه السلام؟

ينبثق لك الجواب صبحًا مشرقًا من خلال هذه البصيرة:

بصيرة: يذكِّر الله ﷻ الصَّالحين من قوم موسى عليه السلام لنهتم بالتعرُّف إليهم، والتَّعاون معهم، فهم ينكرون فساد الطَّرف الـمجرم من بني إسرائيل.

وفي هذا النَّقْض: ذكر الله ﷻ نعمًا كبرى أعطاها بني إسرائيل: ﴿وَقَطَّعْنَـٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾، **وأنبع لهم الماء بوجهٍ خارق للعادة:** ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾، **وأنعم عليهم بالظِّل والطَّعام:** ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَـٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ﴾.

ونرى هنا بصيرة عظيمة حيث:

> **يُرَبِّي الله ﷻ عباده على المسؤولية الفردية، فمن عاند نظام ربِّه ﷻ، فإنما يظلم نفسه:** ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝١٦٠﴾ [الأعراف: ١٦٠].

والظُّلم هنا يعني أن الإنسان يُنقص من حظِّ نفسه الذي منحه الله ﷻ إياه في الدُّنيا والآخرة.

ثم يُبَصِّرنا الله ﷻ بنوع مهمٍّ من المسؤولية التي حمَّلها بني إسرائيل: أن يسكنوا الأرض المقدَّسة، ويقيموا فيها النظام الإلهي: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٔـٰتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝١٦١﴾ [الأعراف: ١٦١].

وهنا تأتي البصيرة الختامية لهذا النَّقْض لتخبرنا بأن فُسَّاق بني إسرائيل يُصِرُّون على عقلية النَّقْض الدائمة على طريقة إبليس، حيث خالفوا في أوضح الأوامر، ويُبَصِّرنا الله ﷻ بذلك فيقول: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٢].

وهنا ستسأل: هل انتهى الكلام عن العهد الإسرائيلي في السُّورَة بذلك؟

الجواب: بل تمدُّك البصائر القُرآنيَّة بـ:

النَّقض الأكبر السادس: "العَقليَّة التلاعبية الحُوتِيَّة": وتتعلَّق بتحريف التأويل، وقيام ما يمكن أن نطلق عليه العقلية الإسرائيليَّة الحُوتِيَّة [الأعراف١٦٣- ١٦٧]:

هذا النَّقْض السادس أسَّس به الكافرون من بني إسرائيل عدم اتباع ما أنزل إليهم من ربهم، واتباع الأولياء من دون الله ﷻ، وتعلَّق بتحريف التأويل، وقيام ما يمكن أن نطلق عليه العقلية الإِسرائيليَّة الحوتية، وامتدَّ هذا النَّقْض في الآيات [١٦٣- ١٦٧] من سورة الأعراف.

ستندهش الآن، وربما تقول: ما الذي يحدث؟ في البداية (العقليَّة العِجلية لبني إسرائيل، والآن العقلية الحُوتيَّة) فما قِصَّة هؤلاء النَّاس مع الحيوانات؟

العقلية الحُوتيَّة الإسرائيليَّة تبيِّن تفكيرًا جديدًا في نقض الكتاب، وهكذا يكون تفكير الوثنيين: بدلًا من أن يستسلموا لرب العالـمين يتَّجهون نحو مخلوقات حولهم، ويصوِّرون منهم آلهة.

والعجيب أنك تجد هذا منتشرًا إلى الآن، وتُرَوِّجُهُ وسائل الإعلام، وربما تقول: كيف ذلك؟

أجيبك: تَلَفَّتْ حولك لترى كثيرًا من أفلام الكارتون (الأنيمشن) التي تحدِّثك عن (تشاكرا)، وهم يعنون استمداد القوة، وتبدأ قضية استمداد القوة فيها من ترديد أسماء الحيوانات، فيحرِّك الواحد منهم يده على هيئة عبادية معينة تظهر حتى في أفلام (الكونج فو)، ثم يردِّد أسماء الحيوانات، ثم يَصْدُر شعاع القوَّة من جسده.. افتراء من أعظم الافتراءات الـمستمرَّة.

وهنا تحدِّثنا الـمعرفة القُرآنيَّة في سورة الأعراف عن قِصَّة قرية متدينة من العهد الإسرائيلي آثرت طائفة قوية فيها أن يتحايلوا على ما أنزل إليهم من ربهم ﷻ.. لماذا يريدون التحايل؟

حتى يجدوا الازدهار الاقتصادي في مجال الثروة السمكية (ثمن قليل)، ويُبَصِّرنا الله ﷻ بهم، فيقول: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٣].

ما الذي حدث؟

هم لمْ يقولوا: نترك الشريعة، لم يختاروا ترك الكتاب.. هكذا بصورة مباشرة، بل آمنوا بأن الله ﷻ يحرِّم عليهم الصَّيد يوم السبت، ولكنهم احتالوا على إيمانهم كما يحتال من يبيح الرِّبا والزِّنا بأسماء مختلفة.

فقامت القوى الفاسقة باحتيال غريب يوهمهم أنهم محافظون على العهد الإلهي، ولكن حقيقته التلاعب الكامل، والالتفاف حول النصوص الصَّريحة، أسسوا بذلك وأَسَّسوا بذلك منهاجًا للتحايل على الدين.

وملخَّص الاحتيال: أن يضعوا الشِّبَاك يوم الجمعة على هيئة معينة بحيث تقع فيها الحيتان يوم السبت، ويلتقطونها يوم الأحد[1].. هكذا يخادعون الله ﷻ وما يخادعون إلا أنفسهم.

وتأتي هنا بصيرة قرآنية تذكرك بعدل الله ﷻ ورحمته، حيث يقول الله ﷻ: ﴿كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٣]، فكلمة ﴿نَبْلُوهُم﴾ أي: نختبرهم، وتُبَصِّرنا هذه الآية بأن الله ﷻ يقيم الاختبار لعباده، لتظهر الحجة عليهم في تصرفاتهم، ولا يقضي الله ﷻ فيهم بعلمه.

وتُبَصِّرنا آيات هذا النَّقْض بأن السُّنَّة جارية أن تنهض الأمَّة التي تهدي بالحقِّ، وبه تعدل، فتقوم بوعظ الفُسَّاق لزيادة إقامة الحجَّة عليهم قيامًا بأمر الله ﷻ، ولعلهم ينقذون أنفسهم من أَسْرِ قبيل إبليس الذي يدفعهم إلى الفسق.

---

(١) ينظر: الكشاف (٢/ ١٧٢).

ولكن بصائر القرآن العظيم واقعية، فتبصِّرك أيضًا أنه يوجد فئة لا تحب الفسق، لكنها تُصِر على عدم الإنكار، وتبحث عن الأعذار في سكوتها عن جرائم غيرها، ويُبَصِّرنا الله ﷻ بالفريقين: بالأمة الـمُنْكِرة، والأمة الساكتة، فيقول: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًاۖ﴾

فردوا عليهم بأنهم بذلك يحقِّقون هدفين:

الأول: القيام بأمر الله ﷻ: ﴿قَالُواْ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾.

والثاني: محاولة إنقاذ هؤلاء الفساق من سجن قبيل إبليس الذي يدفعهم إلى الفسق: ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ١٦٤﴾ [الأعراف: ١٦٤].

وتُبَصِّرنا الآيات بأن الفئة الفاسقة تُصِرُّ على العتوِّ، ولا تبالي بصيحات الـمنقذين، بل تحاول الاعتداء على الـمصلحين: ﴿فَلَمَّا عَتَوْاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ﴾.

هنا تأتي العقوبة الغليظة في وقتها الـمسمى عند الله ﷻ، حيث قال الله ﷻ: ﴿قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ [الأعراف: ١٦٦]، والخطير في هذه العقوبة أنها قد تعمُّ الجميع، ولا ينجو منها إلا الـمصلحون الحذرون، أي قد تعمُّ الساكتين؛ لأن الله ﷻ لم يخبرنا عنهم بشيء.

فهذه ستة أنقاض لهذا الفصل الطويل من الفصول الثلاثة التي رأيناها في السُّورَة لبني إسرائيل.

وهنا ستتساءل: كيف كانت نهاية هذا التفصيل الطويل الـمثير عن العهد الإسرائيلي؟

والجواب: جاء النَّقْض السابع من أنقاض هذه الفصل بناء على قيام بني إسرائيل بالاحتيال والتلاعب بنصوص الكتاب ليكون خاتمة التفصيل للعهد الإسرائيلي.

النَّقض الأكبر السابع: "العقلية الجَبَلِية الإسرائيليَّة": نقض أخذ الكتاب بقوة بتشريع التلاعب في تطبيقه، وتمنِّي المغفرة عند تجاوز حدوده: [الأعراف: ١٦٨-١٧١]:

حدَّثنا الله ﷻ هنا عن النَّقْض الإجمالي المتكرِّر لميثاق الكتاب، وامتدَّ هذا النَّقْض في الآيات: [١٦٨-١٧١] من سورة الأعراف.

فيخبرنا الله ﷻ بأن النَّقْض سيستمر، وأن الله ﷻ -فيما سبق- ضرب لنا أمثلة فقط عن نقض بني إسرائيل للكتاب.

بدأ هذا النَّقْض الأخير ببصيرة تنبئنا بمستقبل بني إسرائيل بصورة مجملة، فحدَّثنا أنهم سينقسمون إلى أمم، وقدَّم بذكر الصالحين منهم فقال: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ﴾، فـ (دون ذلك) أي: غير ذلك، فمنهم من ليسوا بصالحين، ومنهم فاسدون، ومنهم فاسقون، ومنهم مفسدون، ومنهم كافرون، ومنهم ملحدون.

وأخبرنا أن أحوال الدُّنيا ستأتي عليهم كما تأتي على غيرهم: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٨].

ثم جاءت بصيرة دقيقة تخبرنا عن حيلة جديدة من حيل الأجيال المستقبليَّة الفاسقة منهم ينقضون بها ميثاق الكتاب دون أن يتخلوا عنه بالكُلِّيَّة؛ وهذا غريب جدًّا.

وربما تسأل: كيف ينقضون ميثاق الكتاب، ولا يتخلَّون عنه بالكُلِّيَّة؟

الجواب: تُبَصِّرنا الآية بهذه الظاهرة الخطيرة، والمعضلة الكبيرة، وتنبئنا بالمراحل التي تمرُّ بها الأمم في طريق التخلي عن اتباع كتاب الله ﷻ والسَّير وراء شهوات النَّفس الظَّالمة، ورغباتها الآثمة، ولذائذها الرخيصة، ونزواتها البخيسة، مع الاستهانة بالعاقبة، والاغترار بالمحاسبة، رغم وراثتهم الكتاب، وإكرام رب الأرباب:

أ.د. عبد السلام مقبل المجيدي

المراحل التي تمر بها الأمم في طريق التخلي عن اتباع كتاب الله عزوجل

1

مرحلة وراثة الكتاب ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ [الأعراف: 169]

2

مرحلة الجرأة الآثمة ﴿يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ﴾، **فيأخذون المتاع الدنيوي المرتبط بالإثم، ولكنهم عندما يأخذونه يربطونه بالتأويل الخاطئ** ﴿وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا﴾ [الأعراف: 169]

3

مرحلة ترسيم الإثم، حيث يجعلون العصيان والعدوان نظامًا رسميًا: ﴿وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ﴾ [الأعراف: 169]

﴿مفصل سورة الأعراف (1)﴾

المراحل التي تمرُّ بها الأمم في طريق التخلِّي عن اتباع كتاب الله ﷻ:

المرحلة الأولى: مرحلة وراثة الكتاب، حيث يقول الله ﷻ: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾:

ومعنى الوراثة أنهم يُنسَبُونَ إلى الكتاب وهو التَّورَاة ومثلها الإنجيل والقرآن بالنسبة لأهلهما، فهم الذين ورثوه من الأنبياء عليهم السلام؛ لأن الأنبياء لم يُوَرِّثوا دينارًا ولا درهمًا.

وهنا تأتي مرحلة: الجرأة الآثمة ﴿يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ﴾، فيأخذون الـمتاع الدُّنيوي الـمرتبط بالإثم، ويخالفون الكتاب:

ولكنهم عندما يأخذونه يربطونه بالتأويل الخاطئ ﴿وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا﴾، أي: يعصون، ولا يراقبون الله ﷻ، ويقولون قبل الـمعصية: سيغفر لنا.. هكذا بالجزم، دون تردد، ولا خوف، ولا قلق، ولا خجل من وقوعهم في هذه الـمعصية.

تأتي الـمرحلة الثَّالثة بعد ذلك، وهي مرحلة: ترسيم الإثم، حيث يجعلون العصيان والعدوان نظامًا رسميًّا: ﴿وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ﴾:

فهي ليست معصية وقعت مرة، ولا مرتين، ولا ثلاثًا. بل هو نظام، فكلما أرادوا شيئًا من الـمعصية أخذوه دون تردُّد أو قلق.

ما الذي تلاحظه؟

أبقوا حياة التدين قائمة إجمالًا، ولكنهم أدخلوا عليها تعديلات تضمن لهم شرعية الانحراف، فالكتاب موجود برسمه، وحياتهم مخالفه لهديه.

هنا تأتي بصيرة موقظة: نسوا أخذ الكتاب بقوة، واجترأوا على الافتراء على الله ﷻ؛ لأنهم قالوا: سيغفر لنا، والله ﷻ يرد عليهم ويقول: ﴿أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ ...﴾ [الأعراف: ١٦٩].

ويُبَصِّرنا هذا النَّقْض بمكانة الـمصلحين في الأرض.. لكن من هم الـمصلحون؟

أجيبك: إنهم من يطلب من العالـم أن يتمسَّكوا بالكتاب من قوم موسى ﵇ ومن غيرهم، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٠]، ولاحظ كيف ربط بين الـمصلحين هنا، وما ذكره الله ﷻ قبل عن الـمصلحين في بني إسرائيل، فقد حاول هارون ﵇ أن يصلح لكنهم استضعفوه، وكادوا يقتلونه، وكذلك حاولت الأمة الـمصلحة في القرية البحرية أن توقف الـمنتهكين لحكم الله ﷻ في تحريم الصَّيد عليهم يوم السَّبت، لكنهم لم يستطيعوا، فختم الله ﷻ هذه الآيات بالإشادة بالـمصلحين، ولكنه عَرَّفَ بدقة من هم الـمصلحون، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٠]

> الـمصلحون ليسوا من يَدْعُون إلى الشيوعية، وليسوا من يَدْعُون إلى الفوضى، وليسوا من يَدْعُون إلى عبادة الـمخلوقين.. الـمصلحون في الأرض هم مَنْ يطالب النَّاس أن يتمسَّكوا بكتاب الله ﷻ، ويقيموا الصَّلاة، فالصَّلاة مفتاح سكينة الـمجتمعات، ورُقِيِّهم في الأخلاق.

وخُتِم هذا النَّقْض بتبصيرنا أن الله ﷻ أخذ الـميثاق على بني إسرائيل بعد أن خوَّفهم بتدميرهم بجبل اقتلعه من الأرض، فقال: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ﴾.

وقد تتساءل: لماذا خوَّفهم؟

الجواب: لأمرين:

الأول: ليتمسَّكوا بالوحي الإلهي الـموجود في الكتاب: ﴿خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾.

والثاني: ليطبِّقوه وينشروه: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٧١].

وهذا الـميثاق الإسرائيلي الذي خانوه ينبئ الأمَّة الـمسلمة بواجبها في تطبيق الأمرين بالنسبة للقرآن العظيم.

وهكذا تمَّ آخر فصل من الفصول التي حدثتنا عن العهد الإسرائيلي.

هنا يجيء الـمحور السادس: فبعد هذه الرِّحلة الطويلة في تفصيل العهد الإسرائيلي يرجع الكلام إلى مخاطبة العالـم.. إلى الحوار مع بني آدم الذين خاطبهم في أوَّل السُّورَة، وأراد الله ﷻ أن يذكِّرهم بأهمِّ ما يحتاجون إليه في معركتهم الكبرى مع إبليس، وحول مركزية القرآن الـمجيد ليكون الكتاب الذي ينذر البشريَّة من الـمخاطر الواقعة والـمُتَوَقَّعة، فجاء هنا:

أ.د. عبد السلام مقبل المجيدي

المحور السادس

العهدُ الإنسانيُّ الحديثُ والأخيرُ، ويُظهِر الله عز وجل فيه آيات القرآن التي جاء بها النَّبيُّ الخاتم ﷺ لتمثّل للعالم مفاتح فَهْمِ الحياة، وتقدّم للبشرية دوافع الاهتداء [الأعراف:١٧٢-١٩٨]

الدَّافع الإيمانيُّ [١]

الميثاق الإلهيُّ الأوّل الذي أخذه الله عز وجل على بني آدم قبل أن يخلقهم يدفعهم لاتّباع الكتاب، والجمع بين البداية والنهاية [الأعراف:١٧٢-١٧٤].

الدَّافع الإيمانيُّ [٢]

الحذر من "الانسلاخ المَرعب"، ويمتدُّ الحديث عن ذلك في الآيات [الأعراف:١٧٥-١٧٧].

الدَّافع الإيمانيُّ [٣]

ثلاثية الاهتداء: لنحصل على الهداية الإيمانيّة يجب أن نرجع إلى مصدرها الحقيقيّ، وهو الله عزوجل ونَعمِل أدوات المعرفة، وهي القلب والبصر والسَّمع، وندعو الله عز وجل بأسمائه الحسنى [الأعراف: ١٧٨-١٨٠].

الدَّافع الإيمانيُّ [٤]

مصاحبة الذين يهدون بالحقّ وبه يعدلون، وترك مصاحبة المكذّبين، بالآيات مهما ظهرت علامات الغنى، والقوّة، والنُّفوذ عندهم، لأنَّ الله عزوجل يستدرجهم [الأعراف: ١٨١-١٨٣].

الدَّافع الإيمانيُّ [٥]

رباعيَّة التفكُّر، والنَّظر، والأجل، والخوف من عدم اتخاذ القرار الصَّحيح تدفعهم إلى اتّباع الكتاب الذي جاء به النَّبيُّ ﷺ [الأعراف: ١٨٤-١٨٦].

الدَّافع الإيمانيُّ [٦]

الحذر من قيام السَّاعة قبل أن يهتدي الإنسان [الأعراف: ١٨٧].

الدَّافع الإيمانيُّ [٧]

الاقتداء بالنَّجم الأعظم، والمثال البشريّ الأكبريّ في العبادة الصَّادقة، وهو خاتم الرُّسل ﷺ [الأعراف: ١٨٨].

الدَّافع الإيمانيُّ [٨]

الله عز وجل هو الذي خلق الإنسانيَّة، وخلق نَسْلها، وهذا يدفع للإيمان به، ونبذ الشّرك [الأعراف: ١٨٩-١٩٠].

الدَّافع الإيمانيُّ [٩]

التَّحذير من أعظم الأخطار التي تهدّد الحياة البشريَّة: الشّرك باتخاذ أولياء، يجعلونهم شركاء لله عز وجل في إلهيته وحاكميته، وتبشيع اختيار الشّرك [الأعراف:١٩١-١٩٨].

المحور السادس

العهدُ الإنسانيُّ الحديثُ والأخيرُ، ويُظهِر الله ﷻ فيه آيات القرآن التي جاء بها النَّبيُّ الخاتم ﷺ لتمثِّل للعالم مفاتح فَهْمِ الحياة، وتقدِّم للبشرية دوافع الاهتداء [الأعراف:١٧٢-١٩٨]

تلاحظ تكرُّر كلمة الآيات في سورة الأعراف نحوًا من (٢٢) مرَّة، وكان من المناسب أن يكون المحور الأخير في هذه السُّورَة دائرًا حول مبادئ عامة تتعلَّق بالآيات، فتنقلنا آيات هذا المحور من العهد الإسرائيليِّ الذي يمثِّل العهد الوسيط في التاريخ إلى عهد التاريخ الإنساني الحديث "عهد الكتاب الخاتم"، حيث تفصِّل آياتُه أقوى دوافع اتِّباع الكتاب، والإيمان، وانقسم هذا المحور إلى تسعة دوافع، وهي:

الدَّافع الإيمانيُّ [١]: الميثاق الإلهيُّ الأوَّل الذي أخذه الله ﷻ على بني آدم قبل أن يخلقهم يدفعهم لاتِّباع الكتاب، والجمع بين البداية والنهاية [الأعراف:١٧٢-١٧٤].

الدَّافع الإيمانيُّ [٢]: الحذر من "الانسلاخ المُرعب"، ويمتدُّ الحديث عن ذلك في الآيات [الأعراف:١٧٥-١٧٧].

الدَّافع الإيمانيُّ [٣]: ثلاثية الاهتداء: لنحصل على الهداية الإيمانيَّة يجب أن نرجع إلى مصدرها الحقيقيِّ، وهو الله ﷻ ونُعمِل أدوات المعرفة، وهي القلب والبصر والسَّمع، وندعو الله ﷻ بأسمائه الحسنى [الأعراف: ١٧٨-١٨٠].

الدَّافع الإيمانيُّ [٤]: مصاحبة الذين يهدون بالحقِّ وبه يعدلون، وترك مصاحبة المكذِّبين، بالآيات مهما ظهرت علامات الغنى، والقوَّة، والنُّفوذ عندهم، لأنَّ الله ﷻ يستدرجهم [الأعراف: ١٨١-١٨٣].

الدَّافع الإيمانيُّ [٥]: رباعيَّة التفكُّر، والنَّظر، والأجل، والخوف من عدم اتخاذ القرار الصَّحيح تدفعهم إلى اتِّباع الكتاب الذي جاء به النَّبيُّ ﷺ [الأعراف: ١٨٤-١٨٦].

الدَّافع الإيمانيُّ [٦]: الحذر من قيام السَّاعة قبل أن يهتدي الإنسان [الأعراف: ١٨٧].

الدَّافع الإيمانيُّ [٧]: الاقتداء بالنَّجم الأعظم، والمثال البشريِّ الأكبريِّ في العبادة الصَّادقة، وهو خاتم الرُّسل ﷺ [الأعراف: ١٨٨].

الدَّافع الإيمانيُّ [٨]: الله ﷻ هو الذي خلق الإنسانيَّة، وخلق نَسْلها، وهذا يدفع للإيمان به، ونبذ الشِّرك [الأعراف: ١٨٩-١٩٠].

الدَّافع الإيمانيُّ [٩]: التَّحذير من أعظم الأخطار التي تهدِّد الحياة البشريَّة: الشِّرك باتخاذ أولياء، يجعلونهم شركاء لله ﷻ في إلهيته وحاكميته، وتبشيع اختيار الشِّرك [الأعراف:١٩١-١٩٨].

الدَّافع الإيمانيُّ [١]: الميثاق الإلهيُّ الأوَّل الذي أخذه الله ﷻ على بني آدم قبل أن يخلقهم يدفعهم لاتِّباع الكتاب، والجمع بين البداية والنهاية [الأعراف:١٧٢-١٧٤].

بدأ هذا المحور بذكر الميثاق الأوَّل المأخوذ على بني آدم؛ ليُبَصِّرنا بأهمِّ المواثيق التي أخذها الله ﷻ على بني آدم، قبل أن يُخلقوا في الأرض.. إنه ميثاق الفطرة الذي يجده كلُّ إنسان يترك العناد جانبًا.

فيُبَصِّرنا الله ﷻ بالحَدَثِ الغَيْبِيِّ الذي لا يمكن أن يعلمه البشر من عند أنفسهم، وفي هذا الحدث الغَيْبِيِّ أخذ الله ﷻ من ظهر آدم ؈ ذُرِّيَّتَه، أو من ظهور بَنِيهِ ذُرِّيَّتَهم التي انتشرت بعد ذلك: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾.

لماذا أخذ الذُّرِّيَّة من ظهور آدم ؈ أو بنيه؟

الجواب: ليأخذ عليهم ميثاق ربوبيته وتوحيده، وجعل الشاهد عليهم أنفسهم: ﴿وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآۚ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

هذا أقوى شاهد، فكفى بنفس الإنسان عليه شهيدًا، لكن الملحدين يقولون: لا نعترف بذلك، ولا يوجد في نفوسنا شيء يدل على الإيمان بربنا.

هذه من الأكاذيب الكبرى التي سببها العناد.

وتتعجب لماذا ينكر الإنسان شهادته على نفسه؟

ينكر ربَّه ﷻ، وهو يؤمن به في قرارة قلبه.

ويُبَصِّرنا الله ﷻ بأن المنكرين لهذا الميثاق سيعتذرون أمام ربِّهم ﷻ بعدد من الأعذار سيرددونها يوم القيامة حين الحساب، فيسألهم الله ﷻ عن سبب إنكارهم لهذا الميثاق الذي يظهر حقيقة وجودهم في الأرض.

فيكون العذر الأول أن يقولوا: ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، وهل الغفلة عذر؟

الغفلة ليست عذرًا؛ فإن الله ﷻ لما أهلك فرعون وجنوده قال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٦]؛ لأنَّ الغفلة إحدى أَرْدَأِ الصِّفات الإنسانيَّة، فهي تدلُّ على عدم الاهتمام، وذهابِ المبالاة، وانصرافِ التركيز، ويقرِّر ابن فارس رحمه الله أن (غَفَلَ) كلمة تدُلُّ عَلَى تَرْكِ الشَّيْءِ سَهْوًا، وَرُبَّمَا كَانَ عَنْ عَمْدٍ[1]، بينما يرى الرَّاغب رحمه الله أن الغَفْلَة: سهو يعتري الإنسان من قلَّة التَّحفُّظ والتَّيقُّظ[2]، وهذا تعريف أدقُّ، وهذا يعني أن الغفلة تعني عدم الاهتمام، وفقدان المبالاة، وخلوَّ الإنسان من التركيز؛ فهو الذي سببها لنفسه، لأنه لا يرى أهمِّية لذلك، كما في قوله: ﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ﴾ [النِّساء: ١٠٢]، فالغفلة ليست عذرًا.

(١) مقاييس اللغة (٤/ ٣٨٦).

(٢) المفردات في غريب القرآن (ص: ٦٠٩).

الغفلة إحدى أَرْدَأ الصِّفات الإنسانيَّة، فهي تدلُّ على عدم الاهتمام، وذهاب المبالاة، وانصراف التَّركيز؛ فالعبد هو الذي سببها لنفسه؛ لأنه لا يرى أهمِّية لذلك.

وتبيِّن الآيات القرآنية الكريمة زيف العذر الثاني الذي احتجوا به، وهو الاحتجاج بتقليد السابقين في الشِّرك: ﴿أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴿١٧٣﴾﴾ [الأعراف: ١٧٣].

تصوَّرْ أن آيات القرآن تُصَوِّرُ لك الميثاق المأخوذ على البشريَّة قبل أن تخلق، وهم في ظهور آبائهم الأوائل، وكذلك يُظْهِرُ لك القرآن الأعذار التي سيحتجون بها في بداية الدار الآخرة.

ما الحكمة في ذكر هذا الأمر في البداية عندما أخذ الميثاق، والنهاية عندما يحاسبون على هذا الميثاق، فيأتون بالأعذار؟

الجواب: الحديث عن ذلك يوجب القلق والخشية من المسؤولية يوم القيامة، وتكون أشدَّ محافظة على إيمانك إن كان عندك فكرٌ مستنير، وعقل راجح يعرف ما حقّه التقديم، وما حقّه التأخير: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴿١٧٤﴾﴾ [الأعراف: ١٧٤].

أي: يرجعون للميثاق الذي نسوه.

ثم يأتي الدَّافع الثَّاني من هذا المحور:

الدَّافع الإيمانيُّ [٢]: الحذر من "الانسلاخ المُرعب"، ويمتدُّ الحديث عن ذلك في الآيات [الأعراف:١٧٥-١٧٧].

فيجب الاهتداء بالآيات التي آتاها الله ﷻ كلَّ عالِم بها، سواء أكانت كلماتِ وَحْيِه، أم آياتِه المبثوثةَ في الكون.

وبصَّرتْنا الآيات بالأصناف القياديَّة التي عَرَفَتِ الكتاب، وانسلخت منه.. وحدَّثتْنا عن ركن الهدم الأخطر لما يبنيه الكتاب.. عن الحجاب السَّاتر (المستور) لأنوار الآيات التي ينزلها الله ﷻ على الذُّرِّيَّة الآدميَّة..

فتفاجئك البصيرة الأولى بالانسلاخ الشَّيطاني: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا﴾ [الأعراف: ١٧٥]، وهذه صورة رهيبة تجعلك تفكِّر مرارًا قبل أن تخالف الآيات.

ويدخل في الذي يؤتيه الله ﷻ الآيات كلُّ من عرف الإسلام، والكتاب الحقَّ، ثم أعرض عن ذلك واتَّبع هواه.

وتُبَصِّرنا الآيات بأن سبب الانسلاخ قبول الزَّعامة الشَّيطانيَّة ﴿فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٥].

ولكن لماذا قَبِلَ بالزَّعامة الشَّيطانيَّة، وصار من أتباعها؟

الجواب: تُبَصِّرنا الآيات بأنه استعجل التَّمتُّع بالشهوات المحرَّمة واغترَّ بالحياة على الأرض، فأصيب بمرضين: الإخلاد إلى الأرض، واتِّباع الهوى: ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ﴾ [الأعراف: ١٧٦].

وتُبَصِّرنا الآيات بتردِّي الإنسانيَّة عند هذا المنسلِخ، حيث يصوِّره الله ﷻ بأبشع الأمثلة، فيقول: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ﴾ [الأعراف: ١٧٦].

فهذا الصِّنف المنسلخ مكذِّب للآيات مع أن الله ﷻ آتاه إيَّاها في البداية ﴿ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ١٧٦﴾ [الأعراف: ١٧٦]

تُبَصِّرنا الآيات بأن هذا الصِّنف الذي بحث عن مُتَع الأرض سَيُفَاجَأُ بأنه ظلم نفسه، فأَذْهَبَ حظَّها من المُتَع الدَّائمة الخالدة القادمة في الآخرة: ﴿سَآءَ مَثَلًا ٱلۡقَوۡمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمۡ كَانُواْ يَظۡلِمُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٧].

ويُبَصِّرنا الله ﷻ في ختام هذا القِسم بأن المهتدي الحقيقي هو من هداه الله ﷻ: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِىۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٨].

فهل هذه الآية تعني بأن الإنسان مجبور على الاهتداء أو الضَّلال؟

الجواب: لا! بل أعطى الله ﷻ للإنسان الاختيار ليختار الهدى أو الضَّلال.

وقد تسأل: وأين يمكن للإنسان أن يَجِدَ عونَ الله ﷻ له ليهتدي؟ ما وسائل ذلك؟

أجيبك: يمكنه أن يجدها في الآيات التي يضلُّ من ينسلخ منها، فإذا انسلخ الإنسان من الآيات يعاقبه الله ﷻ بأن يبعده عن رحمته، فيزدادَ ضلالًا. هنا يبدأ:

الدَّافع الإيمانيُّ [٣]: ثلاثية الاهتداء: لنحصل على الهداية الإيمانيَّة يجب أن نرجع إلى مصدرها الحقيقيِّ، وهو الله ﷻ ونُعمِل أدوات المعرفة، وهي القلب والبصر والسَّمع، وندعو الله ﷻ بأسمائه الحسنى [الأعراف: ١٧٨-١٨٠].

في القِسم السَّابق تحدَّثت الآيات عن الدَّافع الإيمانيِّ الثاني: وهو الاهتداء بالآيات التي آتاها الله ﷻ كلَّ عالم بها، سواء أكانت كلماتِ وَحْيِهِ أم آياتِه المبثوثةَ في الكون.

ولمَّا قال جلَّ مجده: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَـٰهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٧٦] ربَّما تساءل السَّامع: فكيف يمكننا أن نتَّبع الآيات، ولا ننسلخ منها، فيرفعنا الله ﷻ بها دون أن تبعدنا عن ذلك مشيئته؟

هنا جاء الجواب مبينًا الدَّافع الإيماني الثالث ببيان ثلاثية الاهتداء:

وسيلة [١]: الرُّجوع إلى مصدر الهداية الحقيقيَّة، وهو الله ﷻ ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِىۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٨].

وتبصِّرنا الآية بالقَدَر الإلهيِّ، كما قال النَّبيُّ ﷺ: "إن الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ، فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ، فَلَا هَادِيَ لَهُ"(١).

---

(١) أبو داود (٢١١٨)، وصحَّحه الأرناؤوط، والوادعي في الجامع الصحيح (٣٩٢)".

والقَدَر الإلهيُّ لا يسلب حقَّ الناس في الاختيار، فمن هداه الله ﷻ هداية إبانة، ينبغي أن يجاهد هواه، ولا يخلد إلى الأرض؛ ليجد نعيم هداية التَّوفيق والإعانة، حيث يقول الله ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [العنكبوت ٦٩].

فهل هذه الآية تعني بأن الإنسان مجبور على الاهتداء أو الضلال؟

الجواب: لا، وهنا تأتي الوسيلة الثانية؛ لتبيِّن كيف يحصل المرء على الاهتداء:

وسيلة [٢]: الإفادة من أدوات المعرفة الأساسيَّة، وهي: القلب، والبصر، والسَّمع؛ لتحصيل الاهتداء باتِّباع آيات الكتاب، ومحاربة الغفلة: ﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

وهي الأدوات التي تكتشف الآيات القُرآنيَّة والآيات الكونية، وتقود إلى تحصيل التوفيق الإلهي، فيجب عليك أن تُفَعِّلَها لا أن تُعَطِّلَها، ولا أن تَحرِفها لتكون أدوات هدم.

وربما تشتاق وتتساءل: ما هذه الأدوات؟

الجواب: هي أهمُّ أدوات المعرفة، وهي السمع، والبصر، والفؤاد، فيجب تفعيلها، فإذا عطَّلتها عن البحث عن الحقِّ كانت العاقبة وخيمة: ﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

وقد تسأل: إذا عطَّل المرء: قلبَه، وبصرَه، وسمعَه.. كيف سيكون حاله؟

الجواب: كأنَّه ميت مُلقًى أمام آخرين، والآخرون سيقودون هذا الميت إلى حيث يتخلَّصون منه، وهو لا يملك أن يقاوم قيادتهم، ولا يدري أين يذهبون به؟ وحتى يتخلَّص من هذه الحالة لا بد أن يُفَعِّلَ الفؤاد، والبصر، والسمع، فهذه أدوات المعرفة.

وإذا عطّلتها أو حَرَفْتها ستقع في فخِّ الغفلة: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

فبصَّرَنا الله ﷻ بالغافلين هنا، فهم من عطَّلوا أدوات الـمعرفة (السمع، والبصر، والقلب) أو حَرَفوها لتعمل بالـمعاصي، وتعيش حياة الفسق.

وحتى يرتبط الكلام عندك ينبغي أن تسأل: ما الحكمة من تعريف الغافلين هنا؟

الجواب: لأن الذين تركوا العهد الإلهيَّ الأوَّل سيعتذرون يوم القيامة بأنهم كانوا عنه غافلين، فقد حدَّثنا الله ﷷ عن ذلك فقال: ﴿أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

عُدِ الآن إلى تعريف الغافلين:

ذكر الله ﷻ أولًا أنهم استحقُّوا جهنم، فقال: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ لماذا؟

الجواب: لأنهم لم يُفَعِّلوا أدوات الـمعرفة: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾.

وقد تسأل: أين وصل إهمالهم في استعمال أدوات الـمعرفة؟

الجواب: إلى مستويين:

فبعضهم وصل إلى مستوى الأنعام: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ﴾ فذكر الله ﷷ الأنعام (الإبل والبقر والغنم)؛ لأن أصحابها يقودونها إلى حيث لا تقاوم على الرَّغم من كبر حجم بعضها، وكذلك الذي لا يستعمل فؤاده، ولا بصره، ولا سمعه، يقوده هواه، أو يقوده شيخه، أو زعيمه، أو مَرْجِعِيَّتُه، فمثله كمثل هذه الأنعام.

وبعضهم وصل إلى مستوى أسوأ من الأنعام: ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾.

فالآيات تقدِّم لك ذلك بأوضح أسلوب: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

فإذا جاء يوم القيامة واعتذر هؤلاء بأنهم كانوا غافلين، ردَّ الله ﷻ عليهم بأنه أعطاهم الفؤاد، والبصر، والسَّمع.

وسيلة [٣]: دعاء الله ﷻ بأسمائه الحسنى لطلب الهداية:

ويُبَصِّرنا الله ﷻ بذلك فيقول: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠]؛ فإنك محتاجٌ في كلِّ حين إلى معونة ربِّك المعين، ولا غناء لك عنه طرفة عين، فإن احتجت هداية هتفت: يا هادي اهدني، وإن أردت الرزق ناديت: يا رزَّاق ارزقني، ووسِّع لي في رزقي، وإن احتجت الشِّفاء ناجيته: يا شافي اشفني من كلِّ داء، مسَّني الضر وأنت أرحم الراحمين، وإن نزلت بك الكروب وادْلَهَمَّتْ من حولك الخُطُوب دعوت دعوةَ المضطر المغلوب: يا مجيب النداء، يا سميع الدعاء، يا كاشف البلاء، نَفِّسْ كُرْبتي، وفَرِّج هَمِّي واكشِفْ غَمِّي برحمتك يا رحيم، وإن أغواك الشَّيطان، وأَرْدَاكَ في شَرَكِ العصيان، رَفَعْتَ كَفَّيْكَ: يا حليمُ، يا سَتِيرُ، يا غافر الحوب الكبير، اعْفُ عن زَلَلِي، وسامحني وامسح بفضلك ذنوبي ولا تَرُدَّني خائبًا، وتجد في أسمائه ﷻ مُتَنَفَّسَ الجَنَان، ومهربَ الروح، وشِفَاءَ الكُلُوم وبَلْسَمَ الجُروح، فلا تَحْرِمْ نفسك تَعَلُّمَ معانيها والتَّرَوُّحَ في مَغَانيها، والدعاء والرجاء والالتجاء بها في كلِّ حين، عسى أن تكون من المفلحين.

اللهم وفقنا لأن ندعوك بها يا أرحم الراحمين.

وربما تقول: ما الحكمة من وَصْفِ الله ﷻ نَفْسَه في أوَّل الآية بأنَّ له الأسماءَ الحسنى؟

الجواب: لأن الله ﷻ عندما ذَكَرَ القلوبَ التي تَفْقَهُ الحَقَّ والحقيقة، والأَعْيُنَ التي تبصر الحقَّ والحقيقة، والآذانَ التي تسمع الحقَّ والحقيقة، يبصِّرك هذا بأن تبحث عن الإله الحقِّ، والإله الحقُّ هو الذي له الأسماء الحسنى الكاملة، ومعانيها الجليلة العظيمة، التي لا يمكن لأحد من الخلق أن يدعي أن الأسماء الحسنى التي لها الكمال المطلق تنطبق عليه، أو على

أصنامه، أو على مرجعيته، فلا تنطبق إلا على الله ﷻ، ومما تحويه الآية من لطائف أن الله ﷻ يقول: ولله الأسماء الحسنى، فهو المستحق لأنْ يدعى، فادعوه بها، وهنا يجب أن تدعوه بها:

وإنِّي لَأَدْعَو اللهَ حَتَّى كَأَنَّني ... أَرَى بجميلِ الظَّنِّ ما اللهُ فَاعِلُهْ
أَمُدُّ يَدَي في غَيْرِ يَأْسٍ لَعَلَّهُ ... يَجُودُ عَلَى عَاصٍ كَمثلي يُواصِلُهْ
وأَقْرَعُ أَبْوابَ السَّمَوات راجيًا ... عَطَاءَ كريمٍ قطُّ ما خَابَ سَائِلُهْ
ومَنْ لي سِوى الرَّحمَن ربًّا وسيِّدًا !؟ ... ومَنْ غَيرُهُ أُبديه ما الغيرُ جاهِلُهْ !؟
وهل لانكسارِ العبدِ إلاّ وليُّهُ !؟ ... وقدْ وَارَبَ الأحزانَ والهمُّ قاتِلُهْ
إذا سُدَّتِ الأبوابُ أَلْقَيْتُ حاجتي ... إلى قاضيَ الحاجات غُرٌّ نوائِلُهْ
وإن جَارَتِ الأحوالُ آوتْ مطيَّتي ... إلى رُكْنِه فاستبْدَرتْها شمائِلُهْ
له الخيرُ منه الخيرُ والخيرُ كُلُّه ... إليه.. بين يديه تزهو خمائلُهْ

الدَّافع الإيمانيُّ [٤]: مصاحبة الذين يهدون بالحقِّ وبه يعدلون، وترك مصاحبة المكذِّبين بالآيات مهما ظهرت علامات الغنى، والقوَّة، والنُّفوذ عندهم، لأنَّ الله عزوجل يستدرجهم:

آيات هذا الدَّافع: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾ [الأعراف: ١٨١-١٨٣].

لئن كان الدَّافع الثالث لاتِّباع آيات الكتاب ثلاثيَّة الاهتداء، فاطلبوا الهداية من الله ﷻ، وفعِّلوا أدوات المعرفة لتحصيلها، ومن ذلك أن تدعوا الله بأسمائه الحسنى ما ينفعكم، وتذروا الذين يلحدون في أسمائه، وستجدون من الخلق الذين خلقناهم بقدرتنا صنفين من الناس أمام اتِّباع الآيات، فذكر الله ﷻ الصِّنفين بصفاتهم:

صنف [١]: المتَّبع الحقَّ، ووصفهم الله ﷻ بثلاث صفات:

صفة [١]: ﴿أُمَّةٌ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ﴾ أي: يهتدون به، كما يقرِّر الطَّبريُّ رحمه الله[(١)]، وكلمة ﴿أُمَّةٌ﴾ تعني: جماعة يؤمُّ بعضها بعضًا تكاتفًا، وتعاضدًا، وتناصرًا، ويؤمُّها غيرها، أي: يقصدها اهتداء، أو قصدًا للإضلال والاعتداء.

صفة [٢]: ﴿يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ﴾ أي: يهدون غيرهم حال كون هذه الهداية ملابسة للحقِّ لا يخلطونها بباطل، فهم يدلون غيرهم إلى الأهداف الصَّحيحة في الدُّنيا والآخرة.

صفة [٣]: ﴿وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ ١٨١﴾ أي: وبالحقِّ يقضُون، ويُنصفون النَّاس.

ولكنك قد تتساءل: ما الحكمة من مجيء الصِّيَاغة بهذه الهيئة؟ لماذا لم يقل الله ﷻ مثلًا: لتحصلوا على الهداية اصحبوا المهتدين؟

الجواب: ليجعل هذه الآية متعدِّدة المعاني والأهداف، وخذ مثالًا على ذلك، فمن أهدافها: أن تظهر لك شِدَّة الارتباط بين هذه الآية وكلِّ ما قبلها: فقد ذكر الله ﷻ الذي انسلخ من الآيات لينبِّهك في مقابله من استقاموا على الآيات، ثم قال الله ﷻ: ﴿مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِيۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٨]، وهنا يذكر الذين يعينون على الوصول إلى هدى الله ﷻ: ﴿وَمِمَّنۡ خَلَقۡنَآ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨١]، وحتى لا تتوهَّم أنَّ الله ﷻ لمَّا قال: ﴿مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِيۖ﴾ [الأعراف: ١٧٨]، أن المهتدي لا ينال الهداية إلا إذا أجبره الله تعالى على ذلك، فهنا قال: ﴿يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٨١]، فمن البشر مَن يهدون.. ابحث عنهم لتكون في صحبتهم، وتفيد من هدايتهم.

وقد ذكر الله ﷻ مصير الذين يعطِّلون أدوات المعرفة الأساسية، وهي: الفؤاد، والسمع، والبصر: ﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا

(١) تفسير الطبري (١٣/ ٢٨٥).

يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف: ١٧٩].

وهنا يذكر الذين يُفَعِّلون القلب والسمع والبصر في الاهتداء بالحقِّ، والعدل به.

وذكر الله ﷻ أن له الأسماء الحسنى، وأمر أن يُدعى بها فقال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾**، وهنا يخبرك بأن هناك من يفعل ذلك: إنَّهم الذين يهدون بالحق وبه يعدلون.**

ونهى الله ﷻ عن مصاحبة الذين يلحدون في أسمائه، فيسمُّون البشر، أو الأصنام بأسماء الله ﷻ، أو يدعونهم كما يدعون الله ﷻ فقال: ﴿وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِيٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

وهنا أخبرك بأنك ستجد الذين تصحبهم ممن لا يلحدون في أسماء الله ﷻ.

ولنتطارح سؤالًا آخر يبين لك قوَّة الاتصال بين هذه الآية والسُّورَة كلها:

هذه الآية ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨١] **بماذا تذكرك؟**

إنها تذكرك بآية سابقة في هذه السُّورَة هي قول الله ﷻ: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [الأعراف: ١٥٩].

الآية فيها الألفاظ ذاتها لتخبرك بأهمِّية البحث عن الصُّحبة الصَّالِحَة التي أهمُّ صفاتها هاتان الصِّفتان: يهدون بالحق، وبه يعدلون، فنبحث عنهم بغضِّ النظر عن جنسهم، وجنسيتهم، وقبيلتهم، وبلدانهم.

> **بصيرة: أهمُّ صفات الصُّحبة الصَّالِحَة: يهدون بالحق، وبه يعدلون، بغضِّ النَّظر عن جِنسهم، وجنسيَّتِهم، وقَبْيلتهم، وبلدانهم.**

صنف [٢]: المتَّبع أولياء من دون الله ﷻ:

وصفهم الله ﷻ بصفة واحدة، وهي التَّكذيب بالآيات: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ [الأعراف: ١٨٢]، وكشف حقيقة واقعهم من خلال حقيقتين:

حقيقة [١]: بالاستدراج المدمِّر ﴿سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الأعرَاف: ١٨٢]:

أي: سنجعلهم يغترُّون بتمكُّنِهم، ونعطيهم الاختيار ليهبطوا درجة درجة في تكذيبهم، وتركهم للكتاب من حيث لا يعلمون أن الله ﷻ يَعُدُّ لهم جرائمهم، ونقرِّبهم قليلًا قليلًا، كما يُقرَّب الإنسان إلى مكانٍ محدَّد بإنزاله درجة درجة.

قال الطَّبريُّ رحمه الله: «وأصل "الاستدراج": اغترارُ المستدرَج بلطفِ مَنِ استدرجه، حيث يرى المستدرَج أن المستدرِج إليه محسنٌ، حتى يورِّطه مكروهًا»(١).

حقيقة [٢]: الإملاء لهم: ﴿وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٣]:

أي: وسأملي لهم، فأعطيهم فرصتهم في الحياة، فلا أعاقبهم من فورهم، و(الإملاء): الْإِمْهَالُ، وَ(الْمَلِيُّ): زَمَانٌ طَوِيلٌ، ليبلغوا بجرائمهم المقدارَ الذي قد كتبه لهم من العقاب والعذاب، ثم يقبضهم إليه.

ولذا قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ اللهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ، حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ» قَالَ: ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢](٢).

والمكذِّبون ربما جذبوا النَّاس إليهم بقوَّاتهم وطاقاتهم وثرواتهم؛ لأنَّ ربَّنا -جلَّ مَجْدُه- ذكر أنه سيستدرجهم، والاستدراج إنما يكون بالنِّعم، وأخبرنا أنه يملي لهم، وهذا يدلُّ على

---

(١) تفسير الطبري (١٣/ ٢٨٦).

(٢) البخاري (٤٦٨٦).

تطاول الزمن الذي يعيشون فيه وهم في عزِّ القوَّة والثَّروة، فلا يغترُّ الإنسان بما يراه عليهم من القوَّة، والتمكُّن، والتمكين، وينسبون إلى عليٍّ رضي الله عنه قوله في ترك الصُّحبة السَّيِّئة:

فَلا تَصْحَبْ أَخَا الجهلِ ... وإِيَّاكَ وإِيَّاه
فكم من جاهلٍ أردى ... حليمًا حين آخاه
يُقاسُ المرءُ بالمرءِ ... إذا ما المرءُ مَاشَاه
وللقلبِ على القلبِ ... دليلٌ حينَ يلقاه
وللشَّيءِ من الشِّيءِ ... مقاييسٌ وأَشْباه(١)

الدَّافع الإيمانيُّ [٥]: رباعيَّة التفكُّر، والنَّظر، والأجل، والخوف من عدم اتخاذ القرار الصَّحيح تدفعهم إلى اتِّباع الكتاب الذي جاء به النَّبيُّ ﷺ [الأعراف: ١٨٤-١٨٦].

تحاصر هذه الآيات عقول المخاطبين برباعيَّة جديدة ليتخذوا القرار الصَّحيح في حياتهم بالدُّخول في سلك المؤمنين، واتِّباع المنزل إليهم من ربِّ العالمين.

فإن قلت: ما الأعمدة التي تكوَّن منها هذا الدَّافع؟

الجواب: تكوَّن هذا الدَّافع من أربعة أعمدة:

عمود [١]: الفِكْر يوصل إلى الحقيقة: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٤].

فالنَّبيُّ ﷺ باب الهداية، عن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنهما قال: «جَاءَتْ مَلَائِكَةٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ نَائِمٌ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّهُ نَائِمٌ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّ الْعَيْنَ نَائِمَةٌ، وَالْقَلْبَ يَقْظَانُ، فَقَالُوا: إِنَّ لِصَاحِبِكُمْ هَذَا مَثَلًا، فَاضْرِبُوا لَهُ مَثَلًا، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّهُ نَائِمٌ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّ الْعَيْنَ نَائِمَةٌ، وَالْقَلْبَ يَقْظَانُ، فَقَالُوا مَثَلُهُ كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى دَارًا، وَجَعَلَ فِيهَا مَأْدُبَةً، وَبَعَثَ دَاعِيًا، فَمَنْ أَجَابَ

(١) ديوان أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب، جمع وترتيب: عبد العزيز الكرم، ط١، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م (ص: ٢٠٥).

الدَّاعِيَ دَخَلَ الدَّارَ، وَأَكَلَ مِنَ المأْدُبَةِ، وَمَنْ لَمْ يُجِبِ الدَّاعِيَ لَمْ يَدْخُلِ الدَّارَ، وَلَمْ يَأْكُلْ مِنَ المأْدُبَةِ، فَقَالُوا: أَوِّلُوهَا لَهُ يَفْقَهْهَا، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّهُ نَائِمٌ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّ الْعَيْنَ نَائِمَةٌ، وَالْقَلْبَ يَقْظَانُ، فَقَالُوا: فَالدَّارُ الْجَنَّةُ، وَالدَّاعِي محمَّد ﷺ، فَمَنْ أَطَاعَ محمَّدًا ﷺ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ، وَمَنْ عَصَى محمَّدًا ﷺ فَقَدْ عَصَى اللهَ، وَمحمَّد ﷺ فَرْقٌ بَيْنَ النَّاس»(١).

إذن باب الهداية مفتوح لمن اهتدى بسيد الهداة محمَّد ﷺ.

وهنا ترى أن الله ﷻ ذكر المكذبين الذين ينبغي لطالب الهداية ألا يصحبهم فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ۝١٨٢ وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٢-١٨٣].

وقد تتساءل: لماذا يكذِّبون مع أن الأدلَّة الواقعيَّة تدحض تكذيبهم؟

يأتي الجواب: التعصُّب يمنعهم من طلب الاهتداء بالآيات، ويمنعهم من التَّفكُّر، وإلا لو تفكَّروا سيجدون أنَّ واقع الرسول ﷺ يكفي للشعور بأنه نذير حقيقيٌّ: ﴿أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٤].

لاحظ أنَّ الله ﷻ يدعو النَّاس إلى التَّفكُّر في عظمة محمَّد ﷺ، والتَّمسُّك برسالته، وكأنَّ الله ﷻ يخبرنا أنه سيأتي من يُهَوِّن من محبة النَّبيِّ ﷺ، ويحاول النَّيْلَ منه. وقديمًا شَعَرَ ابن الوزير رحمه الله بأن بعض النَّاس يتحاذق فَيَلُوم من يُحِبُّ النَّبيَّ ﷺ، فقال:

قُلْ للعَذُولِ: أَفِقْ فلسْتَ بِمُنْتَهٍ ... عَنْ حُبِّ أكمَلِ مَنْ تحلَّى فابْعَدِ
لو لُمْتَنِي في الغَوْرِ لَمْ أشتقْ إلى ... شَطَّيْهِ أو في نَجْدِهِمْ لَم أُنجِدِ
أَوْ كان لَوْمُكَ في التَّصَابِي مَا صَبا ... قلبي، ولا غلبَ الغَرَامَ تجلُّدِي
أو لُمْتَنِي في اللَّهوِ لَم أطرب إلى ... نَغَمِ الغِناءِ مِن الغَرِيضِ ومَعْبَدِ

(١) البخاري (٧٢٨١).

أوْ لُمْتَنِي في الـــمال لَم يَسْــتَهْوني
نظَرُ اللُّجَيْنِ ولاَ نُضَــارُ العَسْــجَدِ

أوْ لُـمْـتـنِـي فِـي غَـيْـرِ حُـبِّ مـحـمَّـدٍ
لَحَسِـبْتُ أنكَ بالنَّصِـيحَة مُرْشِـدِي

أو لَـو أريـت مَـحَـبـة مـثـلًا لَـهُ
لِلمُهتدِي والــمرْتَجي والــمجْتدي

يـهْـديـه أوْ يُـجْـديـه أو يُـغـنِـيـه عَـنْ
نُور الرَّسُـولِ الصَّـادعِ الــمُتَوَقِّدِ

هَـيـهـات مـا ابْـتـهـج الـوُجـودُ بِـمـثـلِـهِ
فَدعِ اللَّجَاجَ فَمِثلُه لمْ يُوجَدِ[١]

عمود [٢]: النَّظر في ملكوت السَّمَوات والأرض، وفي كلِّ شيء خلقه الله ﷻ ﴿أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ﴾ [الأعراف: ١٨٥].

بعد تفعيل أدوات المعرفة، والدُّعاء بها، والصُّحبة الصَّالحة، والتَّفكُّر في النُّبوَّات ينبغي تفعيل النَّظر في ملكوت السَّموات والأرض وما خلق الله من شيء.

والمعنى: أو لم يحرِّكوا أعينهم، فيقلبوها ناظرين في ملكوت السَّمَوات والأرض، وما خلق الله من شيء، ليجدوا كلَّ ذرَّة منهنَّ تحمل توقيعًا، يدلُّ على أنَّ الله ﷻ حقٌّ، وأنه أرسل رسولًا بكتابٍ ليتَّبع الناس أوامر ربِّهم ﷻ فيه، كما تتَّبع كلُّ أجزاء ملكوت السَّموات والأرض أوامرَ ربِّهم ﷻ فيه، كما قيل:

الشَّــمْسُ وَالبَـدْرُ مِنْ أَنْوَارِ حِكْمَتِهِ
وَالبَرُّ وَالبَحْرُ فَيْضٌ مِنْ عَطَايَاهُ

فَـالـطَّـيْـرُ سَــبَّـحَـهُ وَالـزَّرْعُ قَـدَّسَــهُ
وَالــموْجُ كَبَّرَهُ وَالحُوتُ نَاجَاهُ

وَالنَّمْلُ تَحْتَ الصُّـخُورِ الصُّـمِّ مَجَّدَهُ
وَالنَّحْلُ يَهْتِفُ حَمْدًا في خلايَاهُ

رَبُّ السَّـمَاءِ وَرَبُّ الأَرْضِ قَدْ خَضَعَتْ
إِنْسٌ وَجِنٌّ وَأَمْلَاكٌ لِعَلْيَاهُ

والنَّاس يَعْصُـونَهُ جَهْرًا فَيَسْـتُرُهُمْ
والعَبْدُ يَنْسَـى وَرَبِّي لَيْس يَنْسَاهُ

(١) العواصم من القواصم (١/ ٣٣).

الآيات الـمنظورة تنبئ بعدد لا حصر له من الأدلَّة يحمل كلُّ ذرة منهنَّ توقيعًا يدلُّ على أنَّ الله ﷻ حقٌّ، وأنه لن يترك الخلق سُدًى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٨٥].

عمود [٣]: التَّفكُّر في الـموت القادم يدفع الإنسان إلى الإيمان والاتِّباع ﴿وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾ [الأعراف: ١٨٥].

فالواو في قوله: ﴿وَأَنْ عَسَىٰٓ﴾ حرف عطف على ما سبق، والتقدير: أولم ينظروا في أن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم.

النِّهاية الفرديَّة أو الجماعيَّة اقتربت.. أفلا يعقلون فيخافون ممَّا بعدها ﴿وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾، فكلُّ الدُّوافع السَّابقة العظيمة تدفع النَّاس إلى الهداية وإعلان الإيمان، ولذا يأتي السؤال الإنكاري التوبيخي ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٥]، فيَلُومهم الله ﷻ على عدم إيمانهم، مع أن وسائل الهداية منتشرة بينهم.

و(الحديث): المقصود به القرآن العظيم الذي هو «أَكْمَلُ كُتُبِ اللهِ بَيَانًا، وَأَقْوَاهَا بُرْهَانًا، وَأَقْهَرُهَا سُلْطَانًا، فَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِهِ فَلَا مَطْمَعَ فِي إِيمَانِهِ بِغَيْرِهِ، وَمَنْ لَمْ يَرْوِ ظَمَأَهُ الْمَاءُ النُّقَاخُ الْمُبَرَّدُ فَأَيُّ شَيْءٍ يَرْوِيهِ؟! وَمَنْ لَمْ يُبْصِرْ فِي نُورِ النَّهَارِ فَفِي أَيِّ نُورٍ يُبْصِرُ؟!»(١).

عمود [٤]: القرار الخاطئ يؤدِّي إلى العقوبة العادلة:

فالذي لم يطلب من ربِّه ﷻ الاهتداء، ولم يُفعِّل أدوات الهداية التي منحه الله ﷻ إيَّاها سيصاب بعقوبتين:

الأولى: يمنعه الله ﷻ الهداية.

(١) تفسير المنار (٩/ ٣٨٤).

الثانية: يتركه في الطُّغيان العَمِه: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٦].

هنا يأتي سؤال: إذا كان الله ﷻ سيمنعهم من الهداية، فما ذنبهم إذا لم يهتدوا؟

الجواب: الآية واضحة، فمنعُ اللهِ ﷻ لهم من الهداية ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ۚ﴾ **سببه إصرارهم على الطُّغيان** ﴿وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

ويظهر أن الطَّبريَّ رحمه الله **لم يدقِّق العبارة حين رأى أنَّ إضلال الله ﷻ لهم سببٌ لإعراضهم؛ إذ يقول: «إن إعراض هؤلاء الذين كذَّبوا بآياتنا...لإضلال الله ﷻ إيَّاهم»**[١]**، فمعنى الآية: ضَلَالُ الإنسان بِمُقْتَضَى سُنَنِ اللهِ ﷻ قائم على ترك وسائل الاهتداء، وحينها يعاقب هذا التَّارك بأن يضلَّه الله ﷻ.**

الدَّافع الإيمانيُّ [٦]: الحذر من قيام السَّاعة قبل أن يهتدي الإنسان [الأعراف: ١٨٧].

ويُبَصِّرنا بذلك قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [الأعراف: ١٨٧].

فإن كنتم لا تبحثون عن تطبيق الميثاق الإلهي الذي أُخذ عليكم وأنتم في ظهور آبائكم لأنكم لا تعترفون به، وإن كنتم لا تُفَعِّلون وسائل الهداية السبع السَّابقة فاحذروا من قيام السَّاعة، ولكن السؤال: إذا كانت هذه الآية تحذرنا من قيام السَّاعة قبل أن نهتدي لماذا لم تكن الصِّيَاغة: اهتدوا قبل قيام السَّاعة؟

وعندما يحذِّرهم النَّبيُّ ﷺ من قيام السَّاعة.. عندما يحذِّر ناصح البشر من قيام السَّاعة قبل أن يهتدي، فما رِدَّة الفعل المُتَوَقَّعة التي سيسمعها النَّاصح من غيره؟

---

(١) تفسير الطبري (١٣/ ٢٩١).

أجيبك: أن الـمتوقَّع أن يسألك متعجبًا، أو متلهفًا مهتمًا، أو مستهزئًا، عن الوقت الذي ستقوم فيه السَّاعة، وهنا تعلم لماذا بدأت هذه الآية بهذا السؤال مع أنها في سياق الحثِّ على الهداية: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۝١٨٧﴾.

وقد تسأل: فلماذا سمِّي بداية اليوم الآخر بالسَّاعة؟

الجواب: تسمية بداية اليوم الآخر بالسَّاعة تسمية خطيرة مثيرة تجعلك تندفع نحو الهداية، لأن اسم السَّاعة يجعلك تشعر أن الحياة ليست شيئًا، فالسَّاعة قادمة، ولأن هذه التَّسمية تجعلك تشعر بأن قيام القيامة سيكون في أيِّ ساعة قادمة، أي: في أيِّ لحظة قادمة[1].

لاحظ التَّعبير الدَّقيق الـمدهش بالرُّسُوِّ.. كأنَّ السَّاعة سفينة تَمْخُرُ عُبَابَ البحر يوشك أن ترسل مرساتها لتستقرَّ في مكانها.

وهنا يأتي الجواب: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٨٧﴾ [الأعراف: ١٨٧].

عِلْمُ قيام الساعة علمٌ خاصٌّ بالله تعالى ذكره، لأنه يتعلَّق بالـمُلك والحكمة، فلا يُتاح للمخلوقين، ومهمَّة الـمخلوق أن يستعدَّ لقيامها، لا أن يجادل في قيامها.

(١) قال الراغب ﵀: "السَّاعَةُ: جزء من أجزاء الزّمان، ويعبَّر به عن القيامة، قال: اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ". المفردات (ص: ٤٣٤).

الدَّافع الإيمانيُّ [٧]: الاقتداء بالنَّجم الأعظم، والمثال البشريِّ الأكبريِّ في العبادة الصَّادقة، وهو خاتم الرُّسل ﷺ، حيث يأمره الله ﷻ أن يظهر هذه العبوديَّة العظمى أمام العالم، فيقول: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

ولو كانت نبوَّة النَّبيِّ ﷺ غير صحيحة لما أظهر نفسه بهذا المظهر الذي يدلُّ على منتهى العبوديَّة لله ربِّ العالمين.

وهذه الآية تؤكِّد أن يحذر الإنسان من قيام السَّاعة وهو لَمَّا يهتدِ بالآيات بَعْدُ؛ فإذا كان النَّبيُّ ﷺ يقول عن نفسه: ﴿لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ١٨٨﴾ [الأعراف: ١٨٨].

إذا كان ﷺ لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا، فكيف غيره؟

فبيَّن الله ﷻ لنا في هذه الآية جملة من صفات النَّبيِّ ﷺ تدفع السَّامع لأنْ يؤمن بالله العلي العظيم، وهي:

صفة [١]: ﴿الله﴾ -جلَّ مجدُه- هو مصدر العلم النَّبويِّ، فالله ﷻ يعلِّم نبيَّه ﷺ ما الذي يقوله أمام العالم، وتُظهِر لنا ذلك بوضوح كلمة ﴿قُل﴾، فالنَّبيُّ ﷺ مبلِّغ عن الله ﷻ وليس مخترعًا للدِّين.

صفة [٢]: عدم ملك النَّفع والضُّر للنَّفس فضلًا عن الغير، فهما بيد الله ﷻ دون غيره، ﴿لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ ١٨٨﴾.

صفة [٣]: عدم العلم بالغيب ﴿وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ ١٨٨﴾.

أي: لحققْتُ أعظم الأرباح لنفسي، فبحثتُ عن الخير بناء على معرفة الغيب، وعلمتُ السُّوء فابتعدت عنه، وعرفتُ كيف أدفعه، قال الطَّبريُّ رحمه الله: " لأَعْدَدْتُ للسَّنَة المجدبة من المخصبة، ولعرفتُ الغلاء من الرُّخْص، واستعددت له في الرُّخص"(١).

صفة [٤]: حقيقة النَّبيِّ ﷺ أنه جمع الحرص على مصالح الخلق من خلال إنذاره للجميع، وتبشيره لمن يؤمن: ﴿إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ١٨٨﴾

هنا تشعر بالتَّعظيم لكلام العليم الحكيم، وتدفعك هذه العبوديَّة الصَّادقة من النَّبيِّ ﷺ لأنْ تتَّبع آيات الكتاب، كما قال الحارث المحاسبي رحمه الله: "إذا عظُم في صدرك تعظيم المتكلِّم بالقرآن لم يكن عندك شيء أرفع، ولا أشرف، ولا أنفع، ولا أحلى من استماع كلام الله جلَّ وعزَّ، وفَهْمِ معاني قوله تعظيمًا وحبًّا له، إذْ كان سبحانه قائله، فحبُّ القول على قدر حبِّ قائله"(٢).

وتشعر لماذا تعمل آيات القرآن فيك كلَّ هذا العمل، وتحسُّ بصدق ابن باديس رحمه الله، حين قال: "فوالله الذي لا إله إلا هو ما رأيت وأنا ذو النَّفس الملأى بالعيوب والذُّنوب أعظم إلانةً للقلب واستدرارًا للدَّمع، وإحضارًا للخشية، وأبعث على التَّوبة من تلاوة القرآن وسماع القرآن"(٣).

الدَّافع الإيمانيُّ [٨]: الله سبحانه وتعالى هو الذي خلق الإنسانيَّة، وخلق نَسْلها، وهذا يدفع للإيمان به، ونبذ الشِّرك [الأعراف: ١٨٩-١٩٠].

من أعظم دوافع الهداية: عبادة الخالق الذي خلق الإنسانيَّة، والتَّقزُّز من الشِّرك به، وكراهته كراهة تستفظع فعله، وفي هذه الآيات بناء النَّفس التي تكره الشِّرك.

وقد أقام الله عز وجل براهين ضخمة على وجوب الإيمان، واتِّباع الهدى ونبذ الشِّرك.

---

(١) تفسير الطبري (١٣/ ٣٠٢).

(٢) فهم القرآن (ص: ٣٠٢).

(٣) تفسير ابن باديس (ص: ٣٩).

البراهين على وَحْدانيَّة الله تعالى:

البراهين على وَحْدانيَّة الله تعالى

أ.د. عبد السلام مقبل المجيدي

البرهان الأول: هو الخالق للنفس الإنسانيّة التي انبثق عنها كلُّ البشر

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [الأعراف: 189]

البرهان الثاني: خلق الله عزوجل زوجًا من العدم من جنس النَّفس

﴿وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَا﴾[الأعراف: 189]

البرهان الثالث: جعل الله عز وجل الغاية من خلق زوج الإنسان من نفسه أن يسكن إليها

﴿لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَاۖ﴾[الأعراف: 189]

البرهان الرابع: تيسير الاتِّصال بين الذَّكر والأنثى على نحو يحقِّق السّكينة النَّفسيّة والجسديّة

﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾ [الأعراف: 189]

البرهان الخامس: بدء التَّكاثر بمرحلة الحمل الخفيف

﴿حَمَلَتۡ حَمۡلًا خَفِيفًا فَمَرَّتۡ بِهِۦ﴾ [الأعراف: 189]

البرهان السادس: مرحلة الحمل الثَّقيل

﴿فَلَمَّآ أَثۡقَلَت﴾ [الأعراف: 190]

البرهان السابع: إظهار الزَّوجين الحاجة قبل الولادة بدعاء الرَّحمن، والوعد بالشُّكران

﴿فَلَمَّآ أَثۡقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنۡ ءَاتَيۡتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: 189]

البرهان الثامن: مرحلة الولادة الصَّالحة

﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا﴾ [الأعراف: 190]

البرهان التاسع: مرحلة النُّكران للشُّكران، ونسيان الرَّحمن

﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [الأعراف: 190]

﴿مفصل سورة الأعراف (1)﴾

وقد تسأل: ما البراهين الدَّالَّة على وجوب الإيمان، التي تضمَّنها هذا الدَّافع؟

الجواب: تضمَّن هذا الدَّافع تسعة براهين، وهي:

البرهان الأول: هو الخالق للنفس الإنسانيَّة التي انبثق عنها كلُّ البشر، فكيف يشرك البشر معه غيره في عبادته؟

ويُبَصِّرنا بذلك قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٍ وَٰحِدَةٍ ﴿١٨٩﴾﴾ [الأعراف: ١٨٩]، فهذا في حقيقته برهانان: أنه الخالق، وأنه خالق البشريَّة جميعًا من نفس واحدة.

انظر كيف تقيم الآياتُ القُرآنيَّة الحُجَّة على الإنسان بأن يبتعد عن أخطر الـمضار في الدُّنيا والآخرة: الشِّرك، والشَّيطان، وهذا الإقناع اتخذ سبيل العقل والعاطفة في الوقت ذاته.

فهو خالق أوَّلِ نواة خرجت منها البشريَّة، والـمفاجأة أن هذه النَّواة ليست وحيدة الخلية، كما يدَّعي الكاذبون والأفَّاكون، بل نفس إنسانية كاملة هي نفس آدم عليه السلام: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٍ وَٰحِدَةٍ ﴿١٨٩﴾﴾، وهذا أدلُّ على القدرة، فلا شك أنَّ القدرة على خلق إنسان كامل أقوى في العظمة من أن يخلق جزءًا جزءًا، خليةً خليةً، كما هو حال بقية الإنسانيَّة، فخلق الله عز وجل آدم عليه السلام كاملًا، لكنه بعد ذلك جعل خَلْقَ ذرِّيَّتِه وَفْقَ قوانين متدرِّجة، فأولًا: النُّطفة مع بويضة الـمرأة، ليتكون الـمشيج (الزيجوت)، ثم النُّطفة تتكاثر خلاياها لتصبح علقة[1].

فمن الذي يستطيع أن يخلق إنسانًا كاملًا في وقت واحد؟

ليس إلا الله عز وجل، فهو الذي يستحقُّ التوحيد في الإيمان بألوهيته.

(١) ينظر: الموسوعة العلمية في الإعجاز العلمي (ص: ٦٥).

البرهان الثاني: خلق الله ﷻ زوجًا من العدم من جنس النَّفس، دون احتياج إلى مئات الـملايين من السِّنين للتَّطوُّر:

لمَّا خلق الله ﷻ هذه النَّفس لم يتركها وحدها، بل آنسها بزوج لها يسكن إليها: ﴿وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩].

وهذا التَّقرير الكبير: جعل الله ﷻ الأنثى من جنس الرجل أو من بعضه يُظهِرُ تفوُّق الإسلام في تكريم المرأة، وتعظيم شأنها، في الوقت الذي كانت فيه الملل المحرَّفة تنظر للمرأة باعتبارها أصل الخطيئة، والانحراف الإنساني، فما للمسلمين لا يرون الضَّالين والحائرين هذه الرؤية القرآنيَّة العظيمة المتفوِّقة.

البرهان الثالث: جعل الله ﷻ الغاية من خلق زوج الإنسان من نفسه أن يسكن إليها ﴿لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَاۖ ١٨٩﴾:

فاللام للتعليل، وكلمة ﴿يَسۡكُنَ﴾ تصوِّر أعلى درجات الاستقرار والاطمئنان، فهي من سكن، أي: هدأ، واطمأنَّ، واستقرَّ، وشعر بالرَّاحة، وذهب عنه القلق، والاضطراب، والانزعاج.

البرهان الرابع: تيسير الاتِّصال بين الذَّكر والأنثى على نحو يحقِّق السَّكينة النَّفسيَّة والجسديَّة ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾.

فكلمة ﴿تَغَشَّىٰهَا﴾ تصوِّر جمال الاتِّصال الجسديِّ بين الزَّوجين، أي: تغشَّى هو زوجه الأنثى، فاتَّصل بها على هيئة الذي يغطِّيها تغطية متمكِّنة، فالتَّكلُّف هنا للتَّمكُّن، والرَّغبة، وليس لعدم الرَّغبة.

البرهان الخامس: بدء التَّكاثر بمرحلة الحمل الخفيف ﴿حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ﴾

بدأت عملية التكاثر الإنساني بين هذين الزوجين، وبين كلِّ زوجين خُلِقا من هذين الزوجين، وتبدأ عملية التكاثر بالحمل الخفيف عند التقاء الزوجين، فحملت بوليدها حملًا خفيفًا في أشهره الأولى والوسطى: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾ [الأعراف: ١٨٩].

البرهان السادس: مرحلة الحمل الثَّقيل ﴿فَلَمَّآ أَثْقَلَت﴾:

ثم انتقلت الزوج (الأنثى) إلى الـمرحلة الثَّانية، وهي مرحلة الحمل الثَّقيل: ﴿فَلَمَّآ أَثْقَلَت﴾ [الأعراف: ١٨٩]، فيُتعِب الحَملُ بدنَها، ويُثقِل حركتَها، فالثِّقَل: امتلاء الشيء، بحيث يظهر جِرْمه، ويزيد وزنه، فيترتَّب عليه انجذاب إلى الأرض، وصعوبة في القيام بالمعتادات.

البرهان السابع: إظهار الزَّوجين الحاجة قبل الولادة بدعاء الرَّحمن، والوعد بالشُّكران ﴿فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٨٩﴾:

خاف الأبوان من أن تحدث مفاجآت غير متوقَّعة في الولادة، كأن يموت الجنين، أو يخرج مشوَّهًا، فألحَّا بالدُّعاء طالبين الله ﷻ.

والذي يدعو هنا كلُّ زوجين يعترفان بوجود الله ﷻ، ويشعران بالفائدة العظيمة التي تعود عليهما من الدُّعاء.

البرهان الثامن: مرحلة الولادة الصَّالحة: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا ١٩٠﴾.

فكلمة ﴿صَٰلِحًا﴾ صفة لموصوف محذوف، أي: ولدًا صالحًا، ذكرًا كان أو أنثى، وهي صفة تدلُّ على شمول صلاحه لكلِّ شيء مما يرغب فيه الآباء حال الولادة، وذلك يعني: سلامته من الموت، والمرض، والتَّشوُّه.

البرهان التاسع: مرحلة النُّكران للشُّكران، ونسيان الرَّحمن: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ١٩٠﴾ [الأعراف: ١٩٠].

ينسى بعض الآباء ما التزموا به من شكر الله ﷻ، فيشركون معه غيره، بأن لا يعبدوه، ولا يوحِّدوه في شكره.

وهذا برهان يدفع إلى الإيمان من جهة الضِّدِّ، فشرك المشركين غير متوقَّع ممن عنده عقل، فكيف يكفرون بالذي أعطاهم كلَّ شيء، ويشكرون الذي لم يعطهم شيئًا؟!

الدَّافع الإيمانيُّ [٩]: التَّحذير من أعظم الأخطار التي تهدِّد الحياة البشريَّة: الشِّرك باتخاذ أولياء، يجعلونهم شركاء لله ﷻ في إلهيته وحاكميته، وتبشيع اختيار الشِّرك [الأعراف:١٩١-١٩٨].

تحاور هذه الآيات المباركات كلَّ من يعبد وثنًا من الأوثان، مثل من يعبد بشرًا، أو حجرًا أو شمسًا وقمرًا، وتوقظ الآيات عقول السَّامعين وقلوبهم؛ ليكتشفوا بشاعة الشِّرك وقباحته، ويستيقظوا من الغفلة التي جعلتهم ينظرون إليه باعتباره مجرَّد اختيار عقليٍّ، وذلك من خلال ثلاثة عشر برهانًا، تفصليها فيما يأتي:

البرهان الأول: الله ﷻ هو الخالق، والشَّريك لا يقدر على خلق أدنى شيء من العدم ﴿أَيُشۡرِكُونَ مَا لَا يَخۡلُقُ شَيۡـٔٗا﴾ [الأعراف: ١٩١].

يصوِّرُ الفعل المضارع ﴿يُشۡرِكُونَ﴾ تجدُّدَ شركهم، وتتابُعَه، ونفى الخالقية عنهم بالفعل المضارع أيضًا ﴿مَا لَا يَخۡلُقُ شَيۡـٔٗا﴾؛ ليجدِّدَ استمرار عدم قدرتهم على الخلق في كلِّ لحظة.

البرهان الثاني: الأوثان وعابدوهم يُخْلَقون ﴿وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ﴾ [الأعراف: ١٩١]:

والمعنى: كيف يجعلون هذه المخلوقات شركاء لله ﷻ في العبادة، وهم أنفسهم يُخلَقون، ويرون أولادهم يخلقون أمامهم، ولا علاقة لأيٍّ من آلهتهم بعملية خلقهم.

وهذه الآية تردُّ على أفكار فاسدة استند إليها بعض الناس لإثبات إلهيَّة بعض المخلوقات، فربما قال بعضهم: رأينا أن البقرة تقدِّم الحليب، والشَّمس تقدِّم الضَّوء... فلماذا لا تُعبد؟!

الجواب: لا تعبد؛ لأنها لا تَخلق شيئًا، بل هي مخلوقة.

البرهان الثالث: عدم قدرة الأوثان على نصر أتباعهم: إن قالوا: صحيحٌ هم لا يقدرون على أن يخلقوا شيئًا، لكنهم يقدرون على أن ينصروا من يعبدهم، فهنا يقول الله ﷻ لهم: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا﴾ [الأعراف: ١٩٢].

فهؤلاء الذين جعلتموهم شركاء لله ﷻ، لا يستطيعون أن يحقِّقوا أدنى نصر لعابديهم.

البرهان الرابع: عدم قدرة الأوثان على نصر أنفسهم: ﴿وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٢]، فكيف ينصرون غيرهم؟

وقدَّم الله ﷻ كلمة ﴿أَنفُسَهُمْ﴾، وهي مفعولٌ به على فعلها ﴿يَنصُرُونَ﴾؛ ليصوِّرَ مقدار عجزهم، فلو جمعوا كلَّ طاقاتهم ليركِّزوا -فقط- على أن ينصروا أنفسهم لا غيرهم، لما صنعوا شيئًا.

وقد تسأل ما الحكمة من ذكر النَّصر دون غيره مثل الرِّزق؟

الجواب: لأن الذي يُعتدى عليه لا يريد شيئًا أكثر من النَّصر، وهو مفتاح لبقيَّة الأمور كالرِّزق والعِزِّ، وغيرهما.

وكان غاوي بن عبد العُزَّى يخدم صنمًا لبني سُلَيم، فرأى يومًا ثعلبين يبولان عليه، فقال:

أَرَبٌّ يَبُولُ الثَّعْلَبَانِ[1] بِرَأْسِهِ! ... لقد ذَلَّ مَنْ بَالَتْ عليه الثَّعَالِبُ

ثم شدَّ عليه فكسره، ثُمَّ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ له: «ما اسمك»؟ قال:

(١) ذكر ابن المكرَّم أنه ضبط بفتح الثاء تثنية الثعلب، والمعروف أنه بضم الثاء، وهو ذَكَرُ الثعلب، وعلى ذلك أورد علماء اللغة هذا البيت، وفي أول البيت همزة استفهام. ينظر: مختصر تاريخ دمشق (٥/ ٦٣)، لسان العرب (١/ ٢٣٧).

غاوي بن عبد العُزَّى. قال: «أنت راشد بن عبد ربِّه»[1].

البرهان الخامس: عدم استجابة الآلهة المفتراة لأيِّ صوت يدعوهم إلى الهدى: ﴿وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمۡۚ﴾ [الأعراف: ١٩٣].

ربما قالوا: صحيح هذه الآلهة لا يخلقون شيئًا وهم يُخلَقون، ولا يستطيعون لنا نصرًا ولا أنفسهم يَنصرون، لكنها يمكن أن تهدي غيرها إلى القرارات الصَّحيحة، فقد اعتقد عُبَّاد الأوثان ذلك، فكانوا يستشيرون الأوثان في قرارات حياتهم: الخروج، والدُّخول، والنِّكاح، والسَّفر، وغيرها، هنا يقول الله ﷻ لهم: ﴿وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمۡۚ﴾.

البرهان السَّادس: بل أكثر من ذلك، فهم لا يجيبون مطلقًا: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡ أَدَعَوۡتُمُوهُمۡ أَمۡ أَنتُمۡ صَٰمِتُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٣]:

﴿سَوَآءٌ﴾ كلمةٌ تدُلُّ عَلَى تساوٍ بين شيئين، فالأمران متماثلان: إنْ تدعوهم أو تتركوا دعوتهم، فتصمتون، لا فرق بينهما.

ويظهر جمال كلمة ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾ لأنها تعني: سَوَاءٌ عِنْدَهُمْ أدعوتموهم أم أنتم صامتون عن دعوتهم؛ أو سواء عليكم التزمتم لهم بالكلام أو الصَّمت، فهم لا يبالون، أو لا يميِّزون.

البرهان السَّابع: عندها ربَّما يقولون: صحيح: هم لا يَخلُقون شيئًا، وهم يُخلقون، ولا يستطيعون لعُبَّادهم نصرًا، ولا أنفسهم ينصرون، وإن دُعُوا إلى الهدى لا يتَّبعوا، لكن لهم مكانة خاصَّة أكبر من بقية الخلق، فهنا يذكر الله ﷻ أنَّ المدعوِّين والدَّاعين عباد الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ﴾ [الأعراف: ١٩٤].

والمعنى: إن تدعوا أوثانكم ليست لهم القدرة على النَّفع والضُّر، فهم عبادٌ أمثالكم؛ فإن كانوا أصنامًا، فهم مجرَّد تماثيل كجدران البيوت، وإن كانوا معبودات بشريَّة، فهم مذلَّلون

(١) الطبقات الكبرى (١/ ٢٣٤).

مسخَّرون مثلكم لقدرة الله ﷻ القويِّ القاهر فوق عباده، فكيف تلجؤون إليهم لينفعوكم، أو ينصروكم، أو يدفعوا الضُّر عنكم؟!

البرهان الثَّامن: عدم قدرة هؤلاء الأوثان أن يستجيبوا لمن يطلبون منهم حاجاتهم ﴿فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ١٩٤﴾ [الأعراف: ١٩٤]، أي: ادعوا الأوثان، فهل يردُّون ولو بكلمة واحدة؟!

البرهان التاسع: عدم الاستقلال: فكلُّ جزء من أجزاء الأوثان خلقها الله ﷻ، ولم يخلقوا شيئًا من عند أنفسهم ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٩٥].

هل الأرجل الـموجودة عند الأصنام خلقوها لأنفسهم أم أنتم صنعتموها؟

فإن قالوا: هم يعبدون بشرًا، والبشر عندهم أرجل، نقول: من خلق الأرجل؟ هل البشر أم هناك خالق خلقها لهم؟

البرهان العاشر: تحدِّي الأوثان وعابديها في عدم قدرتهم القضاء على الإسلام مهما كان كيدهم: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ﴾ [الأعراف: ١٩٥].

أي: ادعوا الذين جعلتموهم لله شركاء في العبادة ليأتوا معكم، وتكونوا صفًّا واحدًا، واستعينوا بهم في عَدَاوتي لتكيدوني، أي: لتجتمعوا على تدبير ضرٍّ لي.

ولا تنظروني في ذلك، أي: لا تتأخَّروا حتى نرى هل ستعينكم هذه المعبودات؟ ولا تؤخِّروني بالكيد والمكر، ولكن عجِّلوا بذلك.

وقد كان لعمرو بن الجموح رضي الله عنه صنم يُقَالُ لَهُ: مَناةُ، فَلَمَّا أَسْلَمَ فِتْيَانُ بَنِي سَلِمة: معاذُ بْنُ جَبَلٍ، وَابْنُهُ مُعاذ بْنُ عَمْرِو بْنِ الجَموح رضي الله عنهما كَانُوا يُدْلِجُونَ بِاللَّيْلِ عَلَى صَنَمِ عَمرو رضي الله عنه ذَلِكَ، فيحملونه فَيَطْرَحُونَهُ فِي بَعْضِ حُفر بَنِي سَلِمَةَ، مُنكَّسًا عَلَى رَأْسِهِ، فَإِذَا أَصْبَحَ عَمْرٌو رضي الله عنه ،

قَالَ: وَيْلَكُمْ! مَنْ عَدَا عَلَى آلِهَتِنَا هَذِهِ اللَّيْلَةَ؟ قَالَ: ثُمَّ يَغْدُو يَلْتَمِسُهُ، حَتَّى إِذَا وَجَدَهُ غسله وَطَهَّرَهُ وَطَيَّبَهُ، ثُمَّ قَالَ: أَمَا وَاللهِ لَوْ أَعْلَمُ مَنْ فَعَلَ هَذَا بِكَ لأخْزِيَنَّه، فَإِذَا أَمْسَى وَنَامَ عمرو رضي الله عنه، عَدَوا عَلَيْهِ، فَفَعَلُوا بِهِ مِثْلَ ذَلِكَ، فَيَغْدُو فَيَجِدُهُ فِي مِثْلِ مَا كَانَ فِيهِ مِنْ الْأَذَى، فيغْسله وَيُطَهِّرُهُ ويطيبه، ثم يعدون عليه، إذ أَمْسَى، فَيَفْعَلُونَ بِهِ مِثْلَ ذَلِكَ، فَلَمَّا أَكْثَرُوا عَلَيْهِ، اسْتَخْرَجَهُ مِنْ حَيْثُ أَلْقَوْه يَوْمًا، فَغَسَلَهُ وَطَهَّرَهُ وَطَيَّبَهُ، ثُمَّ جَاءَ بِسَيْفِهِ فَعَلَّقَهُ عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: إِنِّي وَاللهِ مَا أَعْلَمُ مَنْ يَصْنَعُ بِكَ مَا تَرَى، فَإِنْ كَانَ فِيكَ خَيْرٌ فَامْتَنِعْ، فَهَذَا السَّيْفُ مَعَكَ، فَلَمَّا أَمْسَى وَنَامَ عَمْرٌو رضي الله عنه، عَدَوا عَلَيْهِ، فَأَخَذُوا السَّيْفَ مِنْ عُنُقِهِ، ثُمَّ أَخَذُوا كَلْبًا مَيِّتًا فَقَرَنُوهُ بِهِ بِحَبْلٍ، ثُمَّ أَلْقَوْه فِي بِئْرٍ مِنْ آبَارِ بَنِي سَلَمة، فِيهَا عِذَر مِنْ عِذر النَّاس، ثم عدا عَمرو بْنُ الجَموح رضي الله عنه فَلَمْ يَجِدْهُ فِي مَكَانِهِ الذي كان به، فَخَرَجَ يَتْبَعُهُ حَتَّى وَجَدَهُ فِي تِلْكَ الْبِئْرِ منكَّسًا مَقْرُونًا بِكَلْبٍ مَيِّتٍ، فَلَمَّا رَآهُ وَأَبْصَرَ شأنه، وكلمه من أسلم من قَوْمِهِ، فَأَسْلَمَ بِرَحْمَةِ اللهِ، وحسُنَ إِسْلَامُهُ، فَقَالَ -حِينَ أَسْلَمَ وعرف مِنَ اللهِ عز وجل مَا عرف، وَهُوَ يَذْكُرُ صَنَمَهُ ذَلِكَ، وَمَا أَبْصَرَ مِنْ أَمْرِهِ، وَيَشْكُرُ اللهَ تَعَالَى الَّذِي أَنْقَذَهُ مِمَّا كَانَ فِيهِ مِنْ العَمَى وَالضَّلالةِ-:

والله لَوْ كنتَ إِلَهًا لَمْ تكنْ ... أنتَ وَكَلْبٌ وسْطَ بِئْرٍ فِي قَرَنْ
أُفٍّ لِمَلْقَاك إِلَهًا مُسْتَدَنْ ... الآنَ فَتَّشْنَاكَ عَنْ سُوءِ الغَبَنْ
الحمدُ للهِ العليِّ ذي المِنَنْ ... الواهبِ الرَّزاقِ دَيَّانِ الدِّيَنْ
هُوَ الَّذِي أَنْقَذَنِي من بعد أَنْ ... أكونَ فِي ظُلمةِ قَبْرٍ مُرْتَهَنْ
بأحمدَ المهديِّ النَّبيِّ المُؤتَمن ... . (١)

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ٧١).

البرهان الحادي عشر: سبب التَّحدِّي الخطير: الاعتزاز بولاية الله العليِّ الكبير، فهو الذي نزَّل الكتاب، ولا يمكن طمس أنواره: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ١٩٦﴾ [الأعراف: ١٩٦]

﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ١٩٦﴾ [الأعراف: ١٩٦]، فلم يقل: إن وليي الله ربُّ العالـمين، لكنه علَّمنا هنا أن نتولَّى الله ﷻ الذي من صفاته العظمى أنه نزَّل الكتاب.

فقد أنزل الله ﷻ الكتاب الإلهيَّ ليعصم من الـمخاطر، والصالح يتَّبع هذا الكتاب ليجد ولاية الله ﷻ.

البرهان الثاني عشر: الشُّعور العميق بأنَّ ولاية منزل الكتاب تحقِّق الانتصارات: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَكُمۡ وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٧].

فربما قال قائل: فهمنا أن الأصنام لا تنصر غيرها، ولا تنصر نفسها، ولكن ماذا نقول في فرعون القديم وفراعنة العصر الحديث، فلو عبدهم أحد، فإنه سيعبدهم لأنهم ينصرونه بمالهم، وقوَّتهم، ونفوذهم، فكيف تنطبق هذه الآية عليهم؟

الجواب: كما انطبقت على فرعون القديم تنطبق على الفراعنة الـمعاصرين، ففرعون القديم لم يستطع أن يدفع الـماء في الوقت الذي أراده الله ﷻ، وكذلك تجري السُّنَن على غيره.

يرى الواحديُّ والرَّازيُّ رحمهما الله أنَّ هذه الآية ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَكُمۡ وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٧] لتقريع الوثنيين، وأنَّ هذه الآية ﴿وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ لَهُمۡ نَصۡرٗا وَلَآ

أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٢] تبيِّنُ الفرق بين صفة من تجوز له العبادة ومن لا تجوز، كأنه قيل: الْإِلَهُ الْمَعْبُودُ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ، وَهَذِهِ الْأَصْنَامُ لَيْسَتْ كَذَلِكَ، فَلَا تكن صَالِحَةً لِلْإِلَهِيَّةِ[1].

البرهان الثالث عشر: الأوثان وعابدوها لا يستخدمون أدوات المعرفة الحقيقيَّة (السَّمع، والبصر، والفؤاد) فكيف يخاف الصَّالحون من كيدهم؟ ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٨]

وبعد أن استوعبت السُّورة تاريخ البشريَّة إجمالًا، وأهمَّ عهود تاريخها تفصيلًا، وتَعَرَّفْنا في أثناء ذلك على قدرة الله ﷻ الذي له الخلق والأمر فكيف ستكون خاتمة هذه السُّورَة المباركة؟

الجواب: كما بدأ السورة بمقدِّمة تتعلَّق بالقرآن كذلك ختمها به، متضمِّنة آداب التَّعامل مع الكتاب الذي يحمي البشريَّة من الأخطار الظَّاهرة والخفيَّة.

(١) ينظر: التفسير البسيط (٩/ ٥٣٦)، تفسير الرازي (١٥/ ٤٣٤).

الخاتمة

آداب التَّعامل مع الكتاب الذي يحمي الإنسانيَّة من الأخطار الظاهرة والخفيَّة [الأعراف: ١٩٨-٢٠٦]

أ.د. عبد السلام مقبل المجيدي

الخاتمة

آداب التَّعامل مع الكتاب الذي يحمي الإنسانيّة من الأخطار الظاهرة والخفيَّة (الأعراف: ١٩٨-٢٠٦)

الأدب الأوّل: ثلاثيّة التَّعامل مع الغافلين من الإنس

﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: 199].

الأدب الثاني: التَّعوُّذ الحافظ

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: 200].

الأدب الثالث: اليقظة التّائبة

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: 201].

الأدب الرّابع: الحذر الدّافع

﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ [الأعراف: 202].

الأدب الخامس: عِش حياة البصائر، وليس المطالبة بالمعجزات

﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ۚ ...﴾ [الأعراف: 202].

الأدب السّادس: التّعظيم الدائم بالاستماع والإنصات عند قراءة القرآن

﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: 204].

الأدب السّابع: الذّكرُ المتنوع

﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ ... ﴾ [الأعراف: 205].

الأدب الثامن: التّواصل المسبّح مع أعظم العابدين

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾ [الأعراف: 206].

﴿مفصل سورة الأعراف (1)﴾

ربما تسأل: ما الآداب التي يجب الاستقامة عليها لننتفع بالكتاب الذي يحمي من المخاطر الواقعة والمُتَوَقَّعة؟

الجواب: بما أن السُّورَة تحدِّثنا عن الكتاب الذي يحمي العالم من المخاطر الواقعة والمُتَوَقَّعة فناسب أن يكون الختم متعلِّقًا بالآداب التي ينبغي أن نلتزم بها مع هذا الكتاب، وقد تضمَّنت ثمانية آداب، وهي:

الأدب الأوَّل: ثلاثيَّة التَّعامل مع الغافلين من الإنس ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]:

فقد أقام الله ﷻ الحجَّة بهذه المعرفة الضَّخمة التي قدَّمتها سورة الأعراف، فإن أصرَّ الغافلون على الإعراض عن القرآن، فتعامل معهم بهذه القواعد الثَّلاث العظيمة:

القاعدة الأولى: العفو الجاذب: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]:

فالـمتَّبع للكتاب يعيش العفو صفحًا عن الآخرين، وقبولًا لما وجده من أخلاقهم الطَّيِّبة، فالعفو يجذب النَّاس إلى هدايات القرآن.

القاعدة الثانية: العُرْف الـمصلح: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ [الأعراف: ١٩٩]:

فاستعمالك للعفو وقبولك به لا يعني أن تترك النَّاس يدمِّرهم الواقع السَّيء، بل يجب أن تأمرهم بالشيء الصَّالح الـمتعارف على حسنه.

القاعدة الثالثة: الإعراض الـمتسامي: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ١٩٩﴾ [الأعراف: ١٩٩].

> إذا تلوت القرآن على من تريد هدايته أو زيادة هداه، فأخطأ في حقِّك، فأعرض عن جهله إعراضًا يجعلك تتسامى في محبَّة الله ﷻ لدرجة أن تصبر على أذى الجاهلين رغبة في الخير لهم.

الأدب الثاني: التَّعوُّذ الحافظ: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾ [الأعراف: ٢٠٠]:

عند قراءة القرآن، وفي جميع الأمور، وخاصة عند الشُّعور بأنَّ نفسك خرجت عن السَّيطرة (النَّزغ)، وهو: وخزٌ، أو غرزٌ حسِّيٌّ بيدٍ، أو رمح، أو كلمة تؤدِّي إلى الفساد، ﴿فَٱسْتَعِذْ﴾، أي قل: أعوذ بالله من الشَّيطان الرجيم.

الأدب الثَّالث: اليقظة التَّائبة:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾ [الأعراف: ٢٠١].

فأنت يا تالي القرآن لست ملكًا، فقد تقع في الخطأ، وقد يعبث بك الشَّيطان، وعندما يحدث ذلك تذكَّر واستيقظ من غفلتك.

الأدب الرَّابع: الحذر الدَّافع:

فتَحْذَر من إخوان الشَّيطان الذين توقعهم شياطينهم في الغيِّ، فيستلذُّون ذلك الغيَّ: ﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾﴾ [الأعراف: ٢٠٢].

الأدب الخامس: عِش حياة البصائر، وليس الـمطالبة بالـمعجزات:

﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى ۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾ [الأعراف: ٢٠٣].

ولاحظ كيف كان أحد أهمِّ أعمدة السُّورَة السَّارية فيها: (الـموقف من القرآن الـمجيد، ومن الآيات التي يظهرها الله ﷻ لعباده).

قصَّ الله ﷻ علينا قصصًا متعدِّدة تبيِّن موقف الأمم الـمختلفة من الآيات التي يأتي بها الأنبياء عليهم السلام، فَهُمْ مثل البلد الطِّيب، وآخرون كالذي خَبُثَ، يأتي الحياة لكلٍّ منهما، لكن تعامل كلٍّ منهما يختلف في قبوله وانتفاعه.

والحكمة تقتضي أن يذكر الله ﷻ: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ۝٥٨﴾ [الأعراف: ٥٨].

يلفت البِقَاعِيُّ رحمه الله[1] النظر إلى هذا الاتِّصال الواضح في السُّورَة، فقد ذكر الله ﷻ أنه يجعل آياته واضحة أمام أنظار العالم، فقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ۝٩٤﴾ [الأعراف: ٩٤].

ولكن آيات الحياة، والآيات المادِّيَّة لم تغن شيئًا عن النُّفُوس التي خَبُثت، فها هو فرعون وملؤه تأتيهم الآيات، فتكون ردَّة فعلهم المعاندة: ﴿وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ۝١٣٢﴾ [الأعراف: ١٣٢].

وها هم بنو إسرائيل يرون الآيات العظمى المذهلة، ثم يكفرون بذلك كله، ويطلبون إلهًا يصنعونه بأيديهم، حيث قال الله ﷻ عنهم: ﴿وَجَـٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف ١٣٨].

ولذلك ختم الله ﷻ السُّورَة بقوله: ﴿ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا ۚ﴾ [الأعراف: ١٧٦]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

الأدب السَّادس: التَّعظيم الدائم بالاستماع والإنصات عند قراءة القرآن:

﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝٢٠٤﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

والأمر بالاستماع والإنصات عامٌّ في كلِّ وقتٍ، فلا يخصَّص به وقتٌ أو حال؛ فالآية نزلت في المرحلة المكيَّة.

---

(١) ينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٣/ ١٨٠).

وهذه الآية تحثُّ بصورة غير مباشرة على أن نُسمِع العالم صوت القرآن، ونحن نرى كم نخسر حين لا نستمع لهذا القرآن.. كم تخسر البشريَّة حين لا تسمع لهذا النُّور، وذلك التِّبيان.

الأدب السَّابع: الذِّكْرُ المتنوع:

فلا يُقتَصر على قراءة القرآن، بل يُنَوَّع بالأذكار الموقظة: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ٢٠٥﴾ [الأعراف: ٢٠٥].

الأدب الثامن: التَّواصل المسبِّح مع أعظم العابدين، فتشعر عند الذكر بلقائك بالملائكة المسبِّحين السَّاجدين:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ۩٢٠٦﴾ [الأعراف: ٢٠٦].

وهذه الآية الأخيرة في السُّورَة تخبر البشريَّة أنَّ الكتاب والذِّكْر لمصلحتكم، فالله ﷻ غنيٌّ عنكم، ولو أراد لجعل الخلق أجمعين مثل الذين عنده.

نظرة أعمق لمحاور سورة الأعراف

لزيادة التَّبصُّر في سورة الأعراف، ولأجل أن نتعمَّق أكثر في استكشاف تفسيرها الكُلِّيِّ فلننظر إلى محاورها من زاويتين أخريين:

الزَّاوية الأولى: العهود الكبرى للبشريَّة في رؤية سورة الأعراف:

أ.د.عبدالسلام مقبل المجيدي

ذكرت السُّورَة مشاهدَ تاريخيَّةً في العهود الخمسة الفاصلة، وبذلك ترى أن المعرفة القُرآنيَّة قسَّمت تاريخ الذُّرِّيَّة الآدميَّة إلى خمسة عهود كبرى حسب سورة الأعراف:

العهد الأول: عهد بزوغ الحضارة الإنسانيَّة:

حيث ذكر الله ﷻ تهيئة الأرض لتتمكَّن فيها الذُّرِّيَّة الآدميَّة، وذَكَر بداية الوجود الإنسانيِّ بخلق آدم عليه السلام، والمعركة الأولى بين الشَّيطان وبين الذُّرِّيَّة الآدميَّة.

العهد الثاني: العهد القديم للذُّرِّيَّة الآدميَّة:

وفيه ذكر الله ﷻ أبرز خمس حضارات وجدت فيه، وهي: حضارة قوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم لوط، وقوم شعيب عليهم السلام.

العهد الثالث: عهد بقية الأمم:

والتي جاءت إما موازية للحضارات الخمس الكبرى، أو جاءت بعدها، وقد ذكرها الله ﷻ هنا ذكرًا إجماليًّا.

العهد الرابع: العهد الأوسط:

وفيه ذكر الله ﷻ التَّاريخ الإسرائيلي، والنهضة الإِسرائيليَّة، وكيف أسَّسها موسى عليه السلام.

العهد الخامس الأخير: العهد الجديد:

وهنا تذكر المعرفة القُرآنيَّة عهد خاتم الأنبياء ﷺ، ووراثة الصالحين.

الزَّاوية الثَّانية: المواضيع الكبرى للمحاور التي كوَّنت السُّورَة:

أ.د. عبد السلام مقبل المجيدي

المواضيع الكبرى للمحاور التي كونت السورة

1 **الأول:** يضم المحورين الأولين

وهما يدوران حول الأسس الفكرية النظرية الضرورية التي تحتاجها البشرية للحياة المستقرة في الأرض.

2 **الثاني:** يضم المحور الثالث والرابع

ويظهر فيهما أهم عهود التاريخ القديم لذرية آدم عليه السلام، ثم وصف إجمالي لحال الأمم مع الرسل الذين يأتونهم.

3 **الثالث:** يضم المحور الخامس بفصوله الثلاثة الكبرى

وفيهما تفصيل الكلام عن العهد الإسرائيلي بمراحله المتعددة: عهد الاستضعاف ووصول الرسالة، وعهد الاضطهاد، ثم التمكين، وعهد التأثير الإسرائيلي لتغيير المعتقدات الدينية الكبرى في العالم.

4 **الرابع:** يضم المحور السادس

حيث ترى فيه العودة إلى العهد النبوي، وتجد فيه النبي ﷺ وهو يبلغ ما أنزل إليه من ربه عز وجل، وتلقى فيه أهم الأعمدة التي تتعلق بتبليغ الكتاب.

5 **الخاتمة:** وتظهر فيها آداب التعامل مع الكتاب

الذي أنزله الله عز وجل ليكون بصائر للناس.

﴿مفصل سورة الأعراف (1)﴾

تلاحظ أن سورة الأعراف انقسمت إلى أربعة أقسام كبرى:

القِسم الأول: يضم الـمِحْوَرَيْنِ الأَوَّلَيْنِ، وهما يدوران حول الأسس الفكرية النَّظريَّة الضرورية التي تحتاجها البشريَّة للحياة الـمستقرة في الأرض، ماذا ترى في الترابط بين الـمِحْوَرَيْنِ السابقَين: إنك ترى أنَّ الـمحور الأول يتضمَّن معرفة الدَّافع الأول لاتِّباع القرآن، وهو الدَّافع الذي يتعلَّق بماضيك وحاضرك ومستقبلك لتنتصر على القبيل الإبليسي، وترى الـمحور الثاني يخبرك بالدَّافع الثاني، وهو ولاية من له الخلق والأمر.

القِسم الثاني: ويضمُّ الـمحور الثالث والرابع، ويظهر فيهما أهمُّ عهود التَّاريخ القديم لذرِّيَّة آدم عليه السلام، ثم وصفٌ إجماليٌّ لحال الأمم مع الرسل الذين أرسلوا إليهم.

القِسم الثالث: ويضمُّ المحور الخامس بفُصُوله الثلاثة، وفيه تفصيل الكلام عن العهد الإسرائيلي بمراحله المتعدِّد: عهد الاستضعاف ووصول الرسالة، وعهد الاضطهاد ثم التمكين، وعهد التأثير الإسرائيلي لتغيير المعتقدات الدينية الكبرى في العالم.

القِسم الرابع: ويضمُّ المحور السادس: حيث ترى فيه العودة إلى العهد النبوي، وتجد فيه النَّبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم وهو يبلِّغ ما أنزل إليه من ربِّه عز وجل، وتلقى فيه أهمَّ الأعمدة التي تتعلَّق بتبليغ الكتاب.

ثم تأتي الخاتمة التي تظهر لنا جانبًا من آداب التعامل مع الكتاب الذي أنزله الله عز وجل ليكون بصائر للناس.

لمحة من التَّناسب الدَّائريِّ (الـمناسبة بين أول السُّورَة وخاتمتها):

هنا لا بد أن تتساءل عن مدى الاتِّصال بين أول (سورة الأعراف) وآخرها، وهو ما ندعوه بالتَّرابط أو الاتِّصال الدَّائريِّ؟

وتصوُّرُ مصطلحِ (الاتِّصال الدَّائري) يعتمد على معرفة الاتِّصال الخطِّيِّ، فما معنى الاتِّصال الخطِّيِّ؟!

الجواب: (الاتِّصال الخطِّيُّ): يعني "تعانق الآيات"، فالآية الأولى تؤدِّي إلى الآية الثَّانية، والآية الثَّانية تؤدي إلى الآية الثَّالثة، والآية الثَّالثة تؤدِّي إلى الآية الرَّابعة، إلى آخر السُّورَة.

وسيجد المتدبِّر وجوهًا عظيمة من الإحكام الذي يوثِّق علاقة الآية بالآية، والقِسم بالقِسم، والمحور بالمحور، عرفه من عرفه، وجهله من جهله.

وبعد أن عرفنا الاتِّصال الخطِّيَّ يتَّضح لنا الاتِّصال الدَّائريُّ: فهو عكس الاتِّصال الخطِّيِّ، بأن تأتي إلى آخر آية في السُّورَة وترجع إلى أوَّل آية منها فتجد الارتباط بينهما يلوح، والجمال بين ورودهما يفوح، فتستروح في بحبوحته الرُّوح، وتغدو في بساتينه وتروح.

وأنشدنا محمَّد المثيل -غفر الله له-:

رَوِّحْ على الرُّوحِ بالآياتِ مغتذيًا ... مذاقَ طيبٍ جناها رائقًا عسلًا

واعلَمْ بأنَّ لها سُورًا ... خَطًّا يدورُ بكلِّ حروفها اتَّصلا

وليس يدريه إلا من تَدَبَّرَهُ ... ولا يفوزُ به من يُؤْثِرُ الكَسَلا

ويظهر هذا الاتِّصال المحكم المبهج من ناحية دائريَّة في (سورة الأعراف) بصورة رائعة، كيف؟!

الجواب: خذ هذه الإشارات وحسبك بها:

أولًا: بدأ الله ﷻ (سورة الأعراف) بتعظيم مكانة القرآن المجيد، وبيان أهدافه، وضرورة اتباعه فقال ﷻ: ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٣﴾ [الأعراف: ٢-٣]، وختمها بالأمر ذاته؛ ولكن من أوجه أخرى، وذلك ببيان جوانب ختامية تظهر عظمة القرآن المجيد، فقال في نهاية السُّورَة: ﴿وَإِذَا لَمۡ تَأۡتِهِم بِـَٔايَةٖ قَالُواْ لَوۡلَا ٱجۡتَبَيۡتَهَاۚ قُلۡ

إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّيۚ﴾ [الأعراف: ٢٠٣]، **وترى الاتِّصال واضحًا.. ولكن ستجد عند التَّفصيل أعظم من ذلك:**

ففي آخرها يأمر الله ﷻ نبيَّه ﵇ أن يكون أوَّل الممتثلين ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّيۚ﴾ [الأعراف ٢٠٣].

وفي أولها يقول ربنا: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٣﴾ [الأعراف: ٣].

بدأت سورة الأعراف بتعظيم مكانة القرآن المجيد، وبيان أهدافه، وضرورة اتِّباعه، وخُتمت بالأمر ذاته؛ ولكن من أوجه أخرى، وبهذا يظهر الاتِّصال المُحْكَم المُبْهِج من ناحية دائريَّة بصورة رائعة.

ثانيًا: في آخرها تذكِّر الآيات الكريمة بفضل على القرآن الكريم، وتبيِّن ضرورة الاستماع له: ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ۝٢٠٣ وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٣- ٢٠٤].

وفي أوَّلها كنا قد سمعنا الثناء على القرآن وبيان خصائصه بما يجعل آخرها متعلقًا بأولها، حيث يقول الله ﷻ: ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢﴾ [الأعراف: ٢].

فابتدأت السُّورَة بتعظيم الكتاب وخُتمت بتعظيم الكتاب، ولكن من أوجه مختلفة.

ثالثًا: في آخرها حذَّرت السُّورة من الشَّيطان في صِيَغ مختلفة، فخُتمت السُّورَة بذكر حالة بشرية تشبه الحالة الإبليسية أيضًا في كونها لم تتبع الآيات، فقال: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٥]، **ثم قال في آخر**

السُّورَة محذِّرًا من أن نكون أتباعًا للشيطان بدلًا من أن نتبع ما أنزل الرَّحمَن فقال ﷻ: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٌ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[الأعراف: ٢٠٠]، وفي أول السُّورَة: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ﴾ [الأعراف: ٣]، وبيَّن أن إبليس لم يتبع، بل خالف ما أمر به: ﴿ثُمَّ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ لَمۡ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الأعراف: ١١]، وبيَّن الله ﷻ لنا في أول السُّورَة أن آدم عليه السلام نزغه الشَّيطان فوسوس له ولزوجه ليبدي لهما ما وُري من سوءاتهما، فقال: ﴿فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ لِيُبۡدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنۡهُمَا مِن سَوۡءَٰتِهِمَا﴾ [الأعراف: ٢٠]، ولكن لا يعني ذلك فوز إبليس في الـمعركة، فقد ذكر الله ﷻ توبة آدم وزوجه عليهما السلام، وبيَّن في آخر السُّورَة أن الأتقياء ليسوا بمعصومين من أن ينزغهم الشَّيطان، لكنهم يغفلون، ثم يبصرون، فقال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

هذه لمحة تظهر أوجهًا بديعة من الإحكام يشعر الإنسان فيها بترابط السُّورَة؛ وأنها كتلة واحدة وكيان متصل، إلا أن هذا التَّدبُّر تدبُّرٌ أوَّليٌّ، ولم يكن بإعمال نظر كبير، وفكر كثير، ولو اتسع الزمان لفتحت لنا آفاق أوسع من ذلك في البنية التي تُكَوِّنها لنا آيات الكتاب الكريم!

رابعًا: بين نجاة آدم عليه السلام في أول السُّورَة ووقوع بعض ذريته في القبضة الإبليسية في آخر السُّورَة:

ترى الإحكام الـمدهش في هذه السُّورَة، حيث يستبين الـمنهج الدائريَّ واضحًا في ترابط هذه السُّورَة، وخذ هذا الـمثال ليزيدك شعورًا بقوَّة هذا الترابط:

قصَّ الله ﷻ قِصَّة آدم وزوجه عليهما السلام في أول سورة الأعراف.. بيَّن كيف وقع في الفخِّ الإبليسيِّ الـمحكم، ثم نهض من كبوته، وعاد إلى ربِّه ﷻ...وختم السُّورَة بذكر رجل آتاه الله ﷻ آياته فأبى إلا الـمضيَّ في الانسلاخ منها، وحكى الله ﷻ في ختام السُّورَة قِصَّة كلِّ رجل

وامرأة توسّلا إلى ربهما ﷻ أن يهب لهما ذرِّيَّة مستقيمة، فلما منحهما ذلك أشركا بالله ﷻ، ولم يكونا من الشاكرين، فقال ربنا ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [الأعراف ١٨٩- ١٩١].

بين نجاة آدم عليه السلام في أوَّل السُّورَة، ووقوع بعض ذريته في القبضة الإبليسية في آخرها: ترى الإحكام الـمدهش، حيث يستبين الـمنهج الدَّائريّ واضحًا في ترابط هذه السُّورَة.

وبعد هذا العرض الإجماليِّ لمحاور سورة الأعراف، إليك تفصيل هذه المحاور:

تفصيل محاور سورة الأعراف

الـمُقدِّمَة

القُرْآنُ كِتَابُ الإِنْذَارِ العَالَمِيِّ مِنَ الأَخْطَارِ الوَاقِعَةِ وَالمُتَوَقَّعَةِ، فَهُوَ كِتَابُ الإِنْقَاذِ وَدِرْعُ الحِمَايَةِ لِلْإِنْسَانِيَّة [الأعراف:١-٩]

بما أننا قرَّرنا أن السُّورَة وحدة كاملة لها شخصيتها الـمستقلَّة الـمتميزة عن غيرها، فإن مقدِّمتها تحبوك بصورة موجزة مكثفة عن أهمِّ ما جاء في السُّورَة، وعمَّا يتعلَّق بعمودها الأساسيِّ (الموضوع الكلِّيِّ)، هذه المُقَدِّمَة تمنحك الخطوة الأولى لمعرفة الـموضوع الأساسيِّ الذي تدور حوله هذه السُّورَة.

والآن هلمَّ بنا إلى السُّورَة نفسها لنرتشف من معينها، وقد تعودنا أن آيات السُّورَة تتكوَّن من مُقَدِّمَة، ومجموعة محاور، وخاتمة.

ويظهر لي أن مُقَدِّمَة سورة الأعراف تمتدُّ في الآيات [١-٩].. فماذا تلحظ في عدد الآيات؟

الجواب: الـمُقَدِّمَة طويلة نسبيًّا لكنَّ ذلك يكون طبيعيًّا عندما ترى أن السُّورَة في ذاتها طويلة، فهي رابع السُّوَر القُرآنيَّة من حيث حجمها، لا من حيث عدد آياتها، فالأولى سورة البقرة، والثَّانية سورة النِّسَاء، والثَّالثة سورة آل عمران، والرَّابعة سورة الأعراف، وهذا ترتيبها من حيث طول الآيات لا من حيث التَّرتيب الـمصحفيِّ، فإنها السَّابعة، ولا من حيث عدد الآيات فإنها الثَّالثة (٢٠٦) آيات، فالأولى سورة البقرة (٢٨٦) آية، والثَّانية سورة الشُّعراء (٢٢٧) آية.

علامَ يدلُّك هذا التَّرتيب في حجم السُّورَة من حيث طولُ الآيات مع اختلافه عن ترتيب هذه السُّوَر في الـمصحف؟

أجيبك بأنه: يدلُّنا هذا على أن التَّرتيب الـمصحفيَّ لابد أن يكون توقيفيًّا أي علَّمه النَّبيُّ ﷺ أصحابَه ﷺ، ولم يجتهدوا فيه، فلو كان اجتهاديًّا لاختار الصَّحابة ﷺ معيارًا للترتيب مثل التَّرتيب التَّاريخيِّ، أو التَّرتيب حسب الطُّول.

عد بنا إلى مُقَدِّمَة سورة الأعراف: لا بد أن نتساءل: ما الذي تدور حوله هذه الـمُقَدِّمَة؟

تدور الـمُقَدِّمَة حول موضوعٍ واضح يمكن تلخيصه في هذا العنوان:

(القُرْآنُ كِتَابُ الإِنْذَارِ العَالَـمِيِّ مِنَ الأَخْطَارِ الوَاقِعَةِ وَالمُتَوَقَّعَةِ).

عندما نقول: القرآن كتاب الإنقاذ العالـميِّ، فهذا يعني أنه ليس إنذارًا شخصيًّا، وليس إنذارًا لقوم بعينهم، فليس إنذارًا للعرب، أو للفرس، أو للروم، أو لليهود، بل هو كتاب ينذر العالـم كلَّه.

إن الإنقاذ يتلخَّص في إنذار هذا العالم المتنوع المتنافس الذي تصيبه الغفلة عن الانتباه للمخاطر التي تحيط به أو تحاك ضده من قبل شياطين الجن والإنس وأساطين الفساد والرِّجس، فهو كالطَّفل الذي يفتقر إلى رعاية أمِّه الشَّفيقة الحانية عليه، وليس بخافٍ عنك ما ترى هذه الأيام من مخاطر ومهالك تتعرَّض لها الإنسانيَّة، تارة تتعلَّق بوجودها من حيث النَّسلُ والجنسُ البشريُّ كدعاوى المِثلية والفحش والزِّنا وضياع الأنساب والنَّسل، وتارة تتعلَّق بصحَّتها من حيث الأوبئة والفيروسات، وتارة بمناخها وصلاحية الأرض للحياة، وليس لها من درع حماية، ولا حصن رعاية، ولا حرز عناية إلا باتباع منهج الله اللطيف الخبير جلَّ مَجْدُه وتَعالى جَدُّهُ: ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ﴾ [الأعراف: ٢].

كيف توصَّلنا إلى أن الـمُقَدِّمَة تحدَّثنا عن هذا الـموضوع: القُرْآنُ كِتَابُ الإِنْذَارِ العَالَـمِيِّ مِنَ الأَخْطَارِ الوَاقِعَةِ وَالمُتَوَقَّعَةِ؟

الجواب: وجدنا في الـمُقَدِّمَة كلامًا عن:

القرآن:

﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ٢﴾ [الأعراف: ٢].

وعن القرى وهلاكها:

﴿وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا بَيَٰتًا أَوۡ هُمۡ قَآئِلُونَ ٤﴾ [الأعراف: ٤]

وعن سؤال الرُّسل، وعن سؤال المرسل إليهم:

﴿فَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٦﴾ [الأعراف: ٦].

وعن الميزان يوم القيامة، وعن نتائجه:

﴿وَٱلۡوَزۡنُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّۚ فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٨﴾ [الأعراف: ٨].

فهذه مجموعة مواضيع في المُقَدِّمَة، ويمكنك أن تجعل أيَّ واحد من هذه المواضيع موضوعًا عامًّا للمُقَدِّمَة.

> إمكانية تعدُّد المواضيع للسُّورة أو لمجموعة الآيات من العجائب المبهرة للقرآن الكريم، إلا أننا يمكن أن نقرِّر أن الموضوع الذي يجمعها كلَّها هو العنوان الذي اخترته بعد فحص وتدبُّر: (القُرْآنُ كِتَابُ الإِنْذَارِ العَالَمِيِّ مِنَ الأَخْطَارِ الوَاقِعَةِ وَالمُتَوَقَّعَةِ).

فترى مُقَدِّمَة السُّورَة عظيمة قويَّة قويمة، تظهر الحاجة البشريَّة العظيمة للقرآن المجيد، حيث ذكر الله ﷻ فيها الخصائص العظيمة؛ ليكون القرآن الكتاب الذي يحمي العالم من المخاطر الواقعة والمُتَوَقَّعة في الدُّنيا والآخرة، وامتدَّت هذه المُقَدِّمَة بين الآيات [١-٩]، وتنقَّلت في أساليبها لتقنعك بالموضوع الذي تدور حوله.

تجد هذه الأساليب المتنوعة آسرة جذابة، تبرز لك خصائص مميزة للقرآن العظيم، وتصلح أن تكون مُقَدِّمَة للموضوع الكبير الذي تدور حوله السُّورَة.

وهذه الخصائص تُظْهِر وظيفة القرآن العامة للعالـم والخاصة للمؤمنين، وتبيِّن في الوقت ذاته حاجة العالـم لتطبيقه، لقد جاء القرآن يحمي البشر من أن يكونوا عبيدًا لبعضهم أو لغيرهم، ويرتفع بهم ليكونوا من الشَّاكرين لربِّهم ﷻ.

وعلى الرغم من أن الـمُقَدِّمَة تدور حول القرآن فإنها طافت بك إلى الحضارات والأمم الغافلة، وكيف جاءهم الدَّمار بسبب ظلمهم، ثم انتقلت إلى الآخرة حيث مشهد الـموازين الثَّقيلة للمفلحين، والـموازين الخفيفة للظالـمين الخاسرين الذين حاربوا هدى القرآن.

فلاحظ كيف بدأ القرآن ينذر العالـم من الـمخاطر الدُّنيويَّة عندما تهلك الحضارات: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ..﴾ [الأعراف: ٤]، ثم أنذرهم الـمخاطر الأُخرويَّة عندما يوضع الـميزان.

هنا ستتساءل: لماذا ينذر القرآن العالم؟

الجواب: ينذرهم ليحميهم من الـمخاطر، والـمصائب، والـمشاكل، والـمحن الواقعة في الأرض، فهناك مصائب هائلة أفسدت النَّاس والأرض والحياة بسبب الأفعال الخاطئة للبشرية، ولكن الإنذار لا يقتصر على أن يكون من الـمخاطر الواقعة، بل يشمل الإنذار من شيء آخر.. هل تعلم ما هو؟

الجواب: إنه الإنذار من الـمخاطر الْمُتَوَقَّعة في الـمستقبل القريب والبعيد.. الـمخاطر التي قد تحدث في شباب الإنسان وشيبته، وفي التحولات الزَّمانيَّة والـمكانيَّة التي تحدث في حياته.. الـمخاطر التي قد تحدث في الدُّنيا وفي الآخرة.

يعرِّفك الله سبحانه وتعالى في مُقَدِّمَة هذه السُّورَة الـمباركة بالقرآن وقيمته، وعظمته في حماية البشريَّة، ولذا تبدأ الـمُقَدِّمَة بذكر الخصائص الـمميزة له ليقوم بهذه الوظيفة العظيمة..

فتلخِّصها في أوجز بيان، وأَجْزَلِ تبيان، فَأَرْهِفْ لها سَمْعَ قلبِك، وأَرْسِلْ لها طَرْفَ عَقْلِك يا إنسان.

فما تلك الوظيفة التي تحدِّثنا عنها السُّورَة؟

الجواب: أن ينذر العالم من المخاطر الواقعة والمُتَوَقَّعة، ويحمي الإنسانيَّة من الانحدار والانهيار، لتعيش حياة سليمة سويَّة تتفق مع فطرتها التي فطرها الله ﷻ عليها، وتواكب تطلُّعاتها وطموحاتها، وتقود نموها ونماءها وازدهارها.

فتعال ننظر كيف لخَّصت لنا المُقَدِّمَة ببراعة عظيمة وبلاغة تامَّة الصفات والخصائص المميِّزة لكتاب الله جلَّ في علاه ليقوم بهذه الوظيفة؛ كون الكتاب الخاتم -القرآن الكريم- هو الكتاب الأوَّل الذي ينذر العالم من المخاطر الواقعة والمُتَوَقَّعة.

وربما تسأل: فما الخصائص الإجماليَّة للقرآن العظيم التي أبرزتها المُقَدِّمَة، وبها استحقَّ أن يكون القرآن الكتاب الأوَّل الذي ينذر العالم من المخاطر الواقعة والمُتَوَقَّعة؟

وأجيبك: بأن الله -تعالى مجده- يعرِّفنا في مُقَدِّمَة هذه السُّورَة المباركة بأهمِّ خواصِّ القرآن المجيد التي يحفظ بها الأمم من المخاطر الواقعة والمُتَوَقَّعة:

خواص القرآن المجيد التي يحفظ بها الأمم من المخاطر الواقعة والمتوقعة

1 الخاصية الأولى: القرآن كتاب المعرفة الواضحة ﴿الٓمٓصٓ﴾

2 الخاصية الثانية: هو دستور مكتوب ﴿كِتَٰبٌ﴾

3 الخاصية الثالثة: أنه منزل من عند الله عز وجل، وليس مؤلفًا من قبل المخلوقين ﴿أُنزِلَ﴾ [الأعراف:2].

4 الخاصية الرابعة: نزول هذا القرآن على خاتم النبيين ﷺ، فهو خاتم البيانات الإلهية ﴿أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ [الأعراف:2].

5 الخاصية الخامسة: كماله اللفظي والعلمي والعملي، فلا يمكن للحرج أن يستقر في صدر من يحمل أمانته للعالم: ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ﴾ [الأعراف:2].

6 الخاصية السادسة: هدف إنزال الكتاب: إنقاذ العالم من المخاطر الواقعة والمتوقعة بالإنذار للجميع والتذكير للمؤمنين: ﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأعراف:2].

7 الخاصية السابعة: تعريف العالم بضرورة اتباع ما أنزل الله عز وجل، ونبذ كلّ ولي دونه: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ﴾ [الأعراف:3].

8 الخاصية الثامنة: القرآن حقٌّ حتى لو قلّ التذكر به وقلّ اتباعه: ﴿قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف:3].

9 الخاصية التاسعة: التفصيل الحافظ: حيث يفصل الله عز وجل لنا الدمار الذي يصيب الأمم والحضارات؛ وتبصرنا بهذه الخاصية الآيات من سورة (الأعراف:4-9).

أ.د. عبد السلام مقبل المجيدي
﴿مفصل سورة الأعراف (1)﴾

خواصُّ القرآن الـمجيد التي يحفظ بها الأمم من الـمخاطر الواقعة والمُتَوَقَّعة

الخاصِّيَّة الأولى:

القرآن كتاب الـمعرفة الواضحة، فهو يتألف من الحروف التي تعرفها البشريَّة عند العرب، لكنه يتحدى العرب والعجم أن يأتوا بمثله في تركيبه اللفظي، ومعانيه التشريعية والتربوية والعلمية العظيمة، ويُبَصِّرنا بذلك قوله: ﴿الٓمٓصٓ﴾ [الأعراف: ١].

الخاصِّيَّة الثَّانية:

هو دستور مكتوب، ويُبَصِّرنا بذلك قوله جلَّ ذِكرُه: ﴿كِتَٰبٌ﴾ [الأعراف: ٢].

الخاصِّيَّة الثَّالثة:

مزية هذا الـمكتوب أنه منزل من عند الله ﷻ، وليس مؤلَّفًا من قِبَل الـمخلوقين، ويُبَصِّرنا بإنزاله قوله تَعَالى جَدُّهُ: ﴿أُنزِلَ﴾ [الأعراف: ٢].

الخاصِّيَّة الرَّابعة:

نزول هذا القرآن على خاتم النَّبيِّين ﷺ، فهو خاتم البيانات الإلهيَّة، ويُبَصِّرنا بذلك كلمة: ﴿إِلَيۡكَ﴾ في قوله تعالى: ﴿أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ [الأعراف: ٢].

الخاصِّيَّة الخامسة:

كماله اللفظي والعلمي والعملي، فلا يمكن للحرج أن يستقر في صدر من يحمل أمانته للعالـم، ويُبَصِّرنا بذلك قوله تَعَالى جَدُّهُ: ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ﴾ [الأعراف: ٢].

الخاصِّيَّة السَّادسة:

هدف إنزال الكتاب: إنقاذ العالـم من الـمخاطر الواقعة والمُتَوَقَّعة بالإنذار للجميع والتذكير للمؤمنين، ويُبَصِّرنا بذلك قوله تَعَالى جَدُّهُ: ﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٢].

الخاصِّيَّة السَّابعة:

تعريف العالم بضرورة اتِّباع ما أنزل الله ﷻ، ونَبْذِ كلِّ وليٍّ دونه، ويُبَصِّرنا بذلك قوله جلَّ مَجْدُه: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ﴾ [الأعراف: ٣].

الخاصِّيَّة الثَّامنة:

القرآن حقٌّ حتى لو قلَّ التَّذكُّر به وقلَّ اتباعه، ويجب أن يحترس المؤمنون به من الغفلة عنه، ويُبَصِّرنا بذلك قوله عزَّ شَأْنُهُ: ﴿قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٣].

الخاصِّيَّة التَّاسعة:

التفصيل الحافظ: حيث يفصل الله ﷻ لنا الدَّمار الذي يصيب الأمم والحضارات؛ ليحذر العالم من أن يحلَّ به مثل ذلك، وتتحقق الحماية من المخاطر الدُّنيويَّة والأُخرويَّة بصورة مباشرة، وتُبَصِّرنا بهذه الخاصِّيَّة الآيات من سورة [الأعراف:٤-٩].

الخاصِّيَّة الأولى: القرآن كتاب المعرفة الواضحة، فهو يتألَّف من الحروف التي تعرفها البشريَّة عند العرب، لكنه يتحدَّى العرب والعجم أن يأتوا بمثله في تركيبه اللَّفظيِّ، ومعانيه التَّشريعيَّة والتَّربويَّة والعلميَّة العظيمة.

ويُبَصِّرنا بذلك قوله: ﴿الٓمٓصٓ﴾ [الأعراف: ١].

ستقول: من أين عرفنا أن هذه الأحرف تعني أن القرآن كتاب المعرفة الواضحة؟

الجواب: لأنه يتألف من هذه الحروف التي تعرفونها، فأنتم تعرفون أن الحروف الهجائية هي هذه: تعرفون ألف تعرفون لآم تعرفون ميم تعرفون صاد وهكذا بقية الأحرف، ولعلَّ من حِكَم ذِكْر الأحرف بداية السُّوَر بيان أن القران يتألف من هذه الحروف التي تعرفونها لفظًا، وتعرفونها كتابة.

دعنا ننظر في صلب المسألة، فإنك لا بُدَّ أن تتساءل: ما الحكمة من ابتداء هذه السُّورَة العظيمة بهذه الأحرف المُقَطَّعة؟ وما أبرز المعاني التي تنبِّئنا بها هذه الأحرف المُقَطَّعة؟

الجواب: هذا السؤال مشروع واضح؛ لأن بعض النَّاس يطعنون في القرآن خاصَّة المتأخِّرين الذين لا يعرفون العربية، ثم يُوهِمون النَّاس بأنهم يعرفون العربية، ويجادلون شباب المسلمين بقولهم: انظروا ﴿الٓمٓصٓ﴾ لا معنى له، ولقيت واحدًا منهم يقول لي: ما معنى ﴿كٓهيعٓصٓ﴾؟ ونطقها كلمة واحدة لا حروفًا مقطَّعة.. ما يعرف أنها تنطق كاف ها يا عين صاد!

دعنا ننظر إلى هذه الآيات لا بحكم الهوى، بل بحكم المعرفة للألفاظ العربية، فقد ذكر الرَّازي رحمه الله واحدًا وعشرين قولًا في معنى هذه الحروف[1]، ولنأخذ أبرز المعاني التي تنبئنا عنها هذه الأحرف المقطعة:

---

(١) ينظر: تفسير الرازي (٢/ ٦-٨).

الجواهر المُرَصَّعة في معاني الحروف المُقَطَّعة:

المعنى الأول: القرآن يتألف من الحروف الهجائية ذاتها التي تتكون منها الكلمات العربية لكنه يحوي كنوزًا مدهشة في المجالات التشريعية والتربوية والعلمية، ويتحداكم أن تأتوا بمثلها، ولذا قال مباشرة بعدها في هذه السُّورَة: ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ [الأعراف: ٢]، كأنه يقول لك: ﴿الٓمٓصٓ ١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ مكونًا من هذه الحروف التي تتكلمون بها.

فإن أنتم قلتم: هذا كلام الله ﷻ، فكيف لبشر أن يفهم لفظه؟ كيف لمخلوق أن يستوعب حروفه؟ وإذا لم يستوعب لفظه وحروفه فلن يستوعب معانيَه؟

فيأتي الجواب مباشرًا: ﴿الٓمٓصٓ ١ كِتَٰبٌ﴾ أي: تكوَّن من هذه الأحرف التي تتكلمون بها، لكنه امتاز بما لا تستطيعون أن تأتوا بمثله.

ولذا ذكر الله ﷻ في كلِّ سورةٍ وردت فيها هذه الأحرف المُقَطَّعة الْكِتَاب المجيد بعدها إلَّا في أربع سور:

١) سُورَة مَرْيَم، فلم يذكر الكتاب عقب الأحرف المُقَطَّعة ﴿كٓهيعٓصٓ﴾، لكنه ختم السُّورَة بذكر الكتاب: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلۡمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوۡمٗا لُّدّٗا ٩٧﴾ [مريم: ٩٧].

٢) وسُورَة العنكبوت ولكن الله ﷻ ذكر في خواتيمها الكتاب بصورة لا تجدها في بقية القرآن، حيث قال: ﴿وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ٤٨ بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ٤٩ وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَٰتٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ٥٠ أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحۡمَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٥١﴾

[العنكبوت ٤٨ – ٥١].

فيا لله ما أُحَيْلَى هذه المعاني! وما أروع هذه المباني! وكم بين حروفها من ضياءات؟! وكم في كلماتها من إشراقات؟!

ولعمري ما عاش الحياة، من فاتته أنوار هذه الآيات، فلهي المعين الدَّفَّاق، والنَّهر الرَّقراق، في صدور من أقبل عليها مسترشدًا، ومن سارع إليها يطلب الهدى مستنجدًا:

سبحان من جعل القلوبَ مشاعلًا ... للخير تُذكِي نورَها الآياتُ

وَقَّادَةً كالكوكبِ الدُّرِّيِّ في ... أرجائها فيضُ السَّنا وحَياةُ

نُورٌ على نُورٍ وآيةُ نُورِها ... هي أنها بَيْنَ الوَرَى مشكاةُ

٣) ، ٤) وفي سورتي الرُّوم، والقلم، ولكنك تجد ذكرًا للقرآن في السُّورتين، قريبًا من أوَّلهما، أو في أثنائهما، أو في الأخير.

فهذا التَّفسير لهذه الحروف المُقَطَّعة يبيِّن لك أن معنى الأحرف المُقَطَّعة واضح، ومنسجم مع السِّياق.

بذلك تستطيع أن تردَّ بهذا التَّفسير على المحبين للقرآن الذين يريدون معرفة معنى هذه الأحرف، وكذلك تردّ بهذا التَّفسير على الجهلاء الذين يفضحون أنفسهم بجهلهم، ويقولون: في القرآن كلماتٍ لا معنى لها مثل: المص، كهيعص، ويكفي أن تقول لهم: سمع ذلك أكابر المشركين الطَّاعنين في القرآن، فلم يروا أن هذه الحروف لا معنى لها، فهل أنتم أقوى عربيَّة من أبي جهل، وأُميَّة بن خلف، وعبد الله بن أُبيِّ بن سلول، وكعب بن زهير، وكلِّ العرب الفصحاء الذين شهدوا نزول القرآن الكريم وسمعوا آياته تتلى عليهم؟ فإن كانوا لم يفهموا هذه الأحرف فَلِمَ لَمْ يعترضوا عليها؟

لقد وجدناهم يذعنون لعربيته، فلا يعترضون عليها، بل لخوفهم من إبانته قاموا يقولون: ﴿لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦]، ولا يمكن للناس أن يتأثروا بالقرآن إلا إذا كانت معانيه واضحة مفهومة عندهم.

والـمعنى الواضح هنا أن القران كتاب الـمعرفة الواضحة، والحقيقة الصادحة، والحياة الصَّالِحَة..

إذًا هذا هو الـمعنى الأول الذي أفدناه من وجود هذه الأحرف الـمُقَطَّعة.

لقد أدركنا هذا الـمعنى الأول الكبير، فما الـمعنى الثاني؟

الجواب:

الـمعنى الثاني: هذه الحروف تدلُّ على أن القرآن موحى به من الله ﷻ، وليس تأليفًا من النَّبيِّ الأمِّيِّ ﷺ، فقوله: ﴿الٓمٓ﴾ مثلًا تُنْطَقُ وَفْقَ أسمائها وألقابها لا وَفْقَ أصواتها، فالـميم اسم الحرف الهجائي، أما صوته فهو الجزء الأول قبل هاء السَّكت في قولك: مَه، مُه، مِه:

الـمدهش أن الذي أوحي إليه بها لينطقها بأسمائها هو محمَّد ﷺ، وهو أُمِّيٌّ لم يكن يقرأ ويكتب قبل نزول القرآن الكريم، لكنه تلقَّى ذلك، ونطق بأسماء الحروف على الرغم من أُمِّيَّته.. إلى أين يوصلك ذلك؟ إلى أنه نبيٌّ موحىً إليه وليس عبقريًّا تعلَّم القراءة والكتابة..

بل إنك تندهش عندما تسمع النَّبيَّ ﷺ ينطق: ﴿الٓمٓ﴾ حروفًا مقطَّعة في أوَّل البقرة، وآل عمران، والعنكبوت، والروم، ولقمان، والسجدة، بينما تجده ينطقها في أوَّل الشَّرح ﴿أَلَمۡ﴾ بأصوات الحروف لا بأسمائها.. ذلك ليُعلمك أن النَّبيَّ ﷺ يتلقَّى القرآن ولا يخترعه: ﴿فَإِذَا قَرَأۡنَٰهُ فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٨].

هنا ستنبهر بهذا التَّرتيب الـمحكم والنظام الـمعظَّم للقرآن الـمكرَّم، فهذه الأحرف الـمُقَطَّعة تنطق بأسمائها لا بأصواتها.. كيف؟

الجواب: صوت الحرف هو أول جزء منه، فنقول في (عين) صوته (عَ)، أو كما كان يفعل سيبويه رحمه الله يقول: عه، والقاف: قه لماذا يأتي بالهاء؟ لأن الهاء هذه سكت بمعنى أن ما قبله هو الصوت، والهاء للقطع بالسكت.

فالـميم مثلًا تقول فيها: (مَ) إذا أردتُ أن أنطق صوت الحرف، لكنَّ اسمه أو لقبه: ميم.

وقد تسأل: ماذا يفيدنا فَهْمُ ذلك؟ وبما أنها تُنْطَقُ بأسمائها.. أفلم يكن يتوجَّب أن تُكْتَبَ كذلك، لكنهم كتبوها على هيئة حروف التَّهجِّي ولَمْ يَرْسُمُوها بِما تُقْرَأُ بِهِ أَسْماؤُها، فمثلًا: لم يكتبو كلمة (أَلِفْ) ألف بعدها لام بعدها فا على الهيئة التي تُنْطَقُ بها أسماء حروف التَّهجِّي، بل كتبوها على هيئة الحرف نفسه، ولكن بنطق اسمه لا بنطق صوته فلماذا؟

الجواب: يقرِّر ابن عاشور رحمه الله في الجواب عن هذا السُّؤال بأنَّهم لَوْ رَسَمُوها بِالحُرُوفِ الَّتِي تُنْطَقُ بِها عِنْدَ ذِكْرِ أسْمائِها لألتبس مَجْمُوعُ حُرُوفِ الأسْماءِ بِكَلِماتٍ مِثْلَ ياسين، لَوْ رُسِمَتْ بِأسْماءِ حُرُوفِها ربَّما تَلْتَبِسَ بِنِداءِ مَنِ اسْمُهُ سِينٌ[1]، يعني لو كان عندنا واحد اسمه سين، وكتبنا حرف سين كما هو، سيلتبس هذا بنداء من يسمَّى سين من الرِّجال، فعندما يقول ياسين، ونحن نكتب كلمة ياسين، ربما قال قائل: هذا الياء يا نداء، وسين عبارة عن اسم شخص، فأراد الله سبحانه وتعالى أن يبيِّن أنَّ هذا حرف (ياء) من حروف الهجاء، وهذا حرف سين، وهذا حرف طاء، وهذا حرف هاء في قوله: ﴿طه﴾، وليس الـمعنى أن طاء اسم لشيء أو لشخص، وهاء اسم لشيء أو لشخص.

هذا ما ذهب إليه ابن عاشور رحمه الله في الإجابة، وظهر لي حِكَمٌ أخرى في كتابة الرَّسم الـمصحفيِّ.

---

(١) التحرير والتنوير (٨ب/ ١٠).

من المعلوم أنَّ الرَّسم الـمصحفيَّ ضابطٌ، وأن الرِّواية حاكمة، فرسمُ الـمصحف سُنَّة سَنَّها كُتَّاب الـمصحف الذين كتبوه في عهد النَّبيِّ ﷺ، ثم نسخوه في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه، ونلتزم بها، ولكن العمدة ليس في الـمكتوب، وإنما في الرِّواية.

فإذا رأينا هذه الكلمة الـمرسومة في الـمصحف ﴿الـم﴾ فإنك تنطقها مرَّة ألف لام ميم، ومرَّة ﴿الـم﴾ بمعنى: السؤال عن شيء، ومرَّة بمعنى ﴿الألـم﴾ الذي يقرب من الوجع، وكلُّها مكتوبة بالحروف ذاتها، ولكنَّنا نتَّبع فيها ما قرأناه على أيدي شيوخنا عن شيوخهم عن شيوخهم إلى أصحاب النَّبيِّ رضي الله عنهم إلى النَّبيِّ ﷺ إلى جبريل عليه السلام، فهذه الحكمة من الحِكَم العظيمة، وهي ألا تغترَّ بالـمكتوب، فلا بدَّ أن تتبع الرِّواية، فالرَّسم الـمصحفيُّ ضابطٌ، والرِّواية حاكمة.

فإذا وصلت إلى سورة البقرة فإنك ستقرأ هذه الكلمة في أوَّل آية ﴿الٓمٓ ۝١﴾ [البقرة: ١] ألف لام ميم، ولكنك ستقرأها على صيغة الاستفهام عند قوله تعالى: ﴿أَلَـمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾ [البقرة: ١٠٧]، وهنا تتجلَّى لك بلاغة القرآن، وإعجاز حروفه ومعانيه.

عد بنا الآن إلى الأحرف الـمُقَطَّعة لنطرح السؤال الآتي:

من الذي أقرأنا كلمة ﴿الـم﴾ في موضع حروفًا هجائيَّة مُقطَّعة، وفي موضع كلمة واحدة تعبِّر عن سؤال؟

والجواب: إنه نبيٌّ أمِّيٌّ لا يعرف القراءة والكتابة ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ۝٤٠﴾ [الحاقة: ٤٠].

فكيف فرَّق بين الـموضعين، وهو لا يعرف القراءة ولا الكتابة؟

لأنه رسولٌ مُبَلِّغٌ عن الله ﷻ ما أمره الله ﷻ أن يبلِّغَه للبشر، ولذا ورد وَصْفُه هنا بأنه رسول، فالقرآن قول منسوب لرسول بلَّغه عمن أنشأ هذا القول، وهو الله العلي الأعلى جلَّ مَجْدُه.

هذا النَّبيُّ ﷺ كان أمِّيًّا، ولكنه فرق بين سورة أول آية في سورة البقرة، وبين الآية (١٠٧) لتعلم البشريَّة أن القرآن ليس من عنده.

أما وقد استقرَّ المعنى الثاني الذي حَبَتْنا به الأحرف المُقَطَّعة، فربما سألت ما المعنى الثالث؟

فإليك المعنى الثالث: تَنْبِيهُ السَّامِعِ إِلَى مَا سَيُلْقَى إِلَيْهِ بَعْدَ هَذه الحروفِ ذاتِ الأصواتِ اللافتةِ للنَّظَرِ المُنَبِّهَةِ للعقل:

وهذا الأسلوب موجود عند العرب، مثل ما قاله أبو هريرة رضي الله عنه: «بَخْ بَخْ أَبُو هُرَيْرَةَ يَتَمَخَّطُ فِي الْكَتَّانِ...» (١)، وقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «قُومُوا إِلَى جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوات وَالأَرْضُ». قَالَ: عُمَيْرُ بْنُ الْحُمَامِ الأَنْصَارِيُّ رضي الله عنه: يَا رَسُولَ اللهِ جَنَّةٌ عَرْضُهَا السَّمَوات وَالأَرْضُ؟ قَالَ «نَعَمْ». قَالَ: بَخٍ بَخٍ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا يَحْمِلُكَ عَلَى قَوْلِكَ بَخٍ بَخٍ»، أي أن قوله: بخ بخ مجرَّد تنبيه لشيء يريد أن ينبِّه عليه المتكلِّم.

قَالَ: لاَ وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ إِلاَّ رَجَاءَةَ أَنْ أَكُونَ مِنْ أَهْلِهَا قَالَ: «فَإِنَّكَ مِنْ أَهْلِهَا» (٢).

فإن قلت: ماذا تعني بخٍ بخٍ؟

الجواب: كلمة تعجُّب ولَفْتِ نظر، "تقال للشيء إذا ارتُضي، وقيل: إذا عَظُم"(٣).

مثلًا: بخٍ بخٍ لقد قلت قولًا حقيقيًّا، أو تقول: هيه زدنا من كذا يعني: هيا.

فهذه الأحرف المُقَطَّعة أيضًا تشبه أَدوات الِافْتِتَاحِ والتَّنبيه مثل: "أَلَا" وَ"هَاءِ"، وترى هذا النُّور من السُّوَر مبثوثًا في سُوَرٍ من السَّبع الطِّوال، وَالمئِينَ مثلًا في سورة هود، وسورة يوسف،

---

(١) البخاري (٧٣٢٤).

(٢) مسلم (١٩٠١).

(٣) فتح الباري (١/ ٨٥).

والـمثَانِي مثلًا (طسم)، وَالـمفَصَّلِ مثلًا (ن، ق)، هكذا تجد هذه النَّماذج للحروف التَّنبيهية اللَّافتة في الأقسام الأربعة لتكون منبِّهةً للعقل والإنسان بصورة غير معتادة لينظر ماذا قال الله ﷻ بعدها.

وهذا المعنى يقتضي أن هذه الأحرف المقطعة من مبتكرات القرآن للتنبيه لما يأتي بعدها، ويرى السيد محمَّد رشيد رضا ؒ أن هذا المعنى صحيح، فيقول: "وقد جعلت العرب منه هاءَ التنبيه وأداةَ الاستفتاح، فأيُّ غرابة في أن يزيد عليها القرآن الذي بلغ حدَّ الإعجاز في البلاغة وحسن البيان ويجب أن يكون فيها الإمام المُقتدى، كما أنه هو الإمام في الإصلاح والهدى؟ ومنه ما يقع في أثناء الخطاب من رفع الصَّوت وتكْيِيفِهِ بما تقتضيه الحال من صيحة التَّخويف والزَّجر، أو غُنَّةِ الاسترحام والعطف، أو رَنَّة النَّعي، وإثارة الحزن، أو نغمة التَّشويق والشَّجو، أو هَيْعَةِ الاستصراخ عند الفَزَع، أو صَخَبِ التَّهْوِيشِ وقت الجدل. ومنه الاستعانة بالإشارات، وتصوير المعاني بالحركات، ومنه كتابة بعض الكلمات أو الجمل بحروف كبيرة، أو وَضْع خطٍّ فوقها أو تحتها"[(١)].

وهذا المعنى هو الذي حكاه الرازي ؒ عن ابنِ رَوْقٍ، وَقُطْرُبٍ رحمهما الله: أَنَّ الْكُفَّارَ لَمَّا قَالُوا: ﴿لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦]، وَتَوَاصَوْا بِالْإِعْرَاضِ عَنْهُ أَرَادَ اللهُ تَعَالَى -لِمَا أَحَبَّ مِنْ صَلَاحِهِم ونَفْعِهِم- أَنْ يُورِدَ عَلَيْهِم مَا لا يعرفونه لِيَكُونَ سَبَبًا لإسكاتهم واستماعهم لِمَا يَرِد عليهم من القرآن، فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ عَلَيْهِم هَذِهِ الْحُرُوفَ، فَكَانُوا إِذَا سَمِعُوهَا تعجَّبوا، واضطرَّهم ذلك إلى الاستماع والـمتابعة[(٢)].

وَفِي شَرْحِ الْإِحْيَاءِ بَعْدَ ذِكْرِ الْقَوْلِ: إِنَّ هَذِهِ الْحُرُوفَ تَنْبِيهَاتٌ أشاد به، ونقل عن غيره:

---

(١) تفسير المنار (٨/ ٢٦٤، ٢٦٥).

(٢) ينظر: تفسير الرازي (٢/ ٢٥٣).

الْقَوْلُ بِأَنَّهَا تَنْبِيهَاتٌ جَيِّدٌ؛ لِأَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامٌ عَزِيزٌ، وَفَوَائِدُهُ عَزِيزَةٌ، فَيَنْبَغِي أَنْ يَرِدَ عَلَى سَمْعٍ مُنْتَبِهٍ[1].

وإذا كان هذا الـمعنى قد تجلَّى بحمد الله ﷻ، فهل من معنى بارزٍ آخر؟

إليك الـمعنى الرابع: لهذه الأحرف مكانة متميِّزة في السور التي وردت فيها:

وهذا معنى قلَّ من يلتفت إليه، ويفتح آفاقًا واسعة؛ إذ يمكن وضع بحوث تتعلَّق بهذه الأحرف في سُوَرها، فمعنى هذا أنك حينما تتبَّع تجد لهذه الأحرف مكانة مميَّزة في إيرادها في هذه السُّورَة:

ويضرب الشيخ الشَّعراوي رحمه الله مثلًا لذلك عزاه إلى بعض الـمشتغلين بالحاسوب بالحرف (ق)، فإذا عددت مرَّات تكرُّرِ هذا الحرف في السُّورتين اللَّتين ورد فيهما حرفًا مُقَطَّعًا، وهما سورتا (الشُّورى) الـمفتتحة بـ(حم عسق) و(ق) الـمفتتحة بـ(ق):

حيث تجد (القاف) يتكرَّر في سورة (ق) (٥٧) مرَّة بجعل الحرف الـمشدَّد حرفًا واحدًا بناء على الكتابة، وتجد (القاف) يتكرَّر في سورة (الشُّورى) (٥٧) مرَّة، والـمجموع (١١٤)، وهو عدد سُوَر القرآن الكريم، فهل هذا لأنَّ (ق) رمزٌ للقرآن الكريم، خاصَّة وأنت تجد سورة (ق) تبدأ بذكر القرآن: ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ١﴾ [ق: ١]، وفي ختامها: ﴿فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥]...[2] يظلُّ هذا محتملًا، ويلفت نظر الباحث –بناء على كلام الشيخ الشَّعراوي رحمه الله– أنك تجد سورة (ق) هي الوحيدة التي جاء فيها وصف قوم لوط عليه السلام بأنهم إخوان لوط، في قوله تعالى: ﴿وَعَادٌ وَفِرۡعَوۡنُ وَإِخۡوَٰنُ لُوطٍ﴾[ق: ١٣]، مع أن قوم لوط وصفوا بذلك في (١٢)

---

(١) تفسير المنار (٨/ ٢٦٨).

(٢) كلام الشعراوي موجود في هذا الرابط:

https: / /www.youtube.com /watch?v=OmKrdQ٩X٦es

مرة في غير هذا الـموضع، وعند ذلك تصبح القافات (٥٨) في السُّورَة فيختلّ الجمع الـمذكور، على أن مثل هذه الأبحاث ينبغي أن تكون مُحَكَّمة من قبل الراسخين؛ لأن التَّهور فيها يأتي بنتائج عكسية.

وفي سورة الأعراف في إحصائية أولية: تكرَّرت الألف (٢٦٥١)، وتكرَّرت اللَّام (١٥٢٧)، وتكرَّرت الـميم (١١٦١)، وتكرَّرت الصَّاد (٩٧) هكذا مرتبة.

وربما نفترض القول: إن هذه الأحرف بلغت أعلى نسبة في تكرارها مقارنة بعدد حروف السُّورَة، وخذ الصَّاد لتجدها تكرَّرت (٩٧) مرَّة هنا، ولا توجد سورة فاقتها في ذلك إلا سورة البقرة، حيث تكرَّرت الصَّاد (١٥٥) مرَّة، ولكنها أقلُّ في نسبتها مقارنة بعدد حروفها، أما في آل عمران مثلًا فقد تكرَّرت الصَّاد نحو: (٨٨) مرَّة، وفي سورة النِّسَاء تكرَّرت نحو: (١٢٢) مرَّة مع أن النِّسَاء أطول من الأعراف، وعدد حروف سورة البقرة (٤٧٩٧٢)، وعدد حروف سورة النِّسَاء (٢٩٦٢٢)، وعدد حروف سورة الأعراف (٢٦٣٣٧)، فمن حيث الطُّول تأتي البقرة، ثم النِّسَاء، ثم الأعراف[(١)]، فمسألة ورود هذه الأحرف بهذا التَّرتيب ليست مصادفة، وإنما من لدن حكيم خبير.

والفكرة الجاهلة التي يردِّدها الـملحدون من أن النَّبيَّ ﷺ ألَّف القرآن تنكشف هاهنا، فالنَّبيُّ ﷺ كان أميًّا، ولو كان متعلِّمًا فلم يكن عنده حاسوب، وفريق عمل يراجع أعداد الحروف، فكيف وهو الذي نزل عليه القرآن في ثلاث وعشرين عامًا.. هذا التَّرتيب الدَّقيق لا

---

(١) ذكر الداني ﵀ في البيان في عد آي القرآن (ص: ١٤٠، ١٤٦، ١٥٥)، وكذا في بصائر ذوي التمييز للفيزآبادي (١/ ١٣٣، ١٦٩، ٢٠٣): عدد حروف سورة البقرة (٢٥٥٠٠)، وعدد حروف سورة النِّسَاء (١٦٠٣٠)، وعدد حروف سورة الأعراف (١٤٣١٠).

وفي برنامج (سورة) التابع لمركز تفسير أن عدد حروف سورة البقرة (٢٥٨٨٦)، وعدد حروف سورة النِّسَاء (١٦٠٧٥)، عدد حروف سورة الأعراف (١٤٢١٧)، والخلاف يسير، يرجع إلى المنهجية فيما يعد وما لا يعد.

يمكن أن يعرفه إلا العليم الذي أحاط بكلِّ شيء علمًا، وأحصى كلَّ شيء عددًا، يعلم كلَّ شيء قبل حدوثه، والذي يحصي بأسرع وأدقَّ من كلِّ العقول الإلكترونية.. الله ﷻ الذي أحاط بكلِّ شيء علمًا، ونحن لم نحط بها بِدِقَّة إلا الآن بعد اختراع الحواسيب مصداقًا لقوله جلَّ ذِكرُه: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣]، وما هذه الأفكار إلا بداية تفتح الآفاق كما يقول الدكتور/ مصطفى محمود رحمه الله.

ولكننا لا بد أن نتساءل:

هل هناك معانٍ أخرى لهذه الأحرف غير هذه الـمعاني الأربعة الـمدهشة؟

والجواب: إن هذه الـمعاني الواضحة التي ذكرها أهل العلم لا يعني عدم وجود معانٍ أخرى ربما يصل إلى معرفتها البشر يومًا من الدهر، بل إن الله –جلَّ مَجْدُه- يختص من يشاء بفتح الكلام الإلهي الـمعجز لمعاني جديدة، وإن كان الـمعنى واضحًا.. نعم ذاك كلام الله ﷻ.. فهمه من فهمه، وجهله من جهله إلا أن الجميع يتعبَّد به.

وقد نُقِل عن بعض المفسِّرين محاولة لإدراك معانيَ أخرى غير هذا الـمعنى، مثل ما نقل عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما: "﴿الٓمٓصٓ﴾ [الأعراف: ١] أنا الله أعلم وأَفْصِل، وذكر السُّدِّيُّ رحمه الله بأنها هجاء حروف اسم الله تبارك وتعالى الذي هو "الـمصوِّر"، وهذان القولان يفتقران إلى الدليل على صحتهما، ونقل الرازي عن القاضي عبد الجبار رحمه الله كلامًا سديدًا في تفنيد هذا القول حيث قال: "ليس هذا اللَّفظ على قولنا: أنا الله أفصل أولى من حَمْله على قوله: أنا الله أصلح، أنا الله أمتحن، أنا الله الـملِكُ؛ لأنه إن كانت العبرة بحرف الصَّاد فهو موجود في قولنا: أنا الله أصلح، وإن كانت العبرة بحرف الميم فكما أنه موجود في العِلم فهو أيضًا موجود في الملك والامتحان فكان حَمْلُ قولنا: ﴿الٓمٓصٓ﴾ على ذلك المعنى بعينه محضَ التحكُّم وأيضا فإن جاء تفسير الألفاظ بناء على ما فيها من الحروف من غير أن تكون تلك اللفظة موضوعة في اللغة لذلك

المعنى، انفتحت طريقة الباطنيَّة في تفسير سائر ألفاظ القرآن بما يُشاكِلُ هَذا الطَّرِيقَ. وأما قول بعضهم: إنه من أسماء الله تعالى فأَبْعد؛ لأنه ليس جَعْلُهُ اسمًا لله تعالى أولى من جَعْلِهِ اسمًا لبعض رسله من الملائكة أو الأنبياء؛ لأن الاسم إنما يصير اسمًا لِلْمُسَمَّى بواسطة الوضع والاصطلاح"(١).

وقال أبو حيان رحمه الله معلِّقًا على مثل هذه الأقوال:" وهذه الأَقوَالُ فِي الحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ لولا أَنَّ المفسِّرين شَحَنُوا بِهَا كُتُبَهُم خَلَفًا عن سَلَفٍ لَضَرَبنَا عن ذِكْرِهَا صفحًا، فَإِنَّ ذِكْرَهَا يَدُلُّ على ما لا يَنْبَغِي ذِكْرُهُ مِنْ تَأْوِيلاتِ الْبَاطِنِيَّةِ وَأَصْحَابِ الْأَلْغَازِ وَالرُّمُوزِ"(٢).

وورد عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما قوله: ﴿الٓمٓصٓ﴾، قَسَم أقسمه الله عز وجل، وهو من أسماء الله عز وجل، وورد عن قتادة رحمه الله: ﴿الٓمٓصٓ﴾ قال: اسم من أسماء القرآن. وبعضهم قال: هي من حساب الجُمَّل، وبعضهم زعم أنها حروف اسم الله الأعظم(٣)، وأشار بعض المفسِّرين إلى احتمال أن تكون هذه الأحرف لها تعلُّقٌ باللُّغات القريبة من العربية، فورد في: «طه» يعني: يا رجل، وهو بالسُّريانية (٤)، ولكن هذا التَّفسير بعيدٌ كلَّ البعد عن الصِحَّة؛ لما استفاض في القرآن من كونه بلسان عربي مبين.

وبعض هذه الأقوال تظلُّ محتملة، ولكن ينقصها الدليل أيضًا، وقد تسأل: لماذا تظلُّ محتملة؟

---

(١) تفسير الرازي (١٤/ ١٩٤).

(٢) البحر المحيط في التفسير (٥/ ٨).

(٣) ينظر: تفسير الطَّبَري (١٢/ ٢٩٤)، المحرر الوجيز (١/ ٨٢)، البحر المحيط (١/ ٥٨، ٥٩).

(٤) تفسير مقاتل بن سليمان (٣/ ٢٠).

والجواب: لأننا لو قلنا بأن هذه الحروف الـمُقَطَّعة من أسماء الله ﷻ الأعلام التي لا يعرف معناها، لصحَّ أن توجد أسماء لا معاني ظاهرة لها كما في كلِّ اللُّغات.

ومن الأقوال القريبة من ذلك مع استحقاقها مزيدًا من النَّظر والتأمُّل ما ذهب إليه سعيد حوى رحمه الله، حيث يرى أن سورة الأعراف تبدأ بالأحرف ﴿الٓمٓصٓ﴾، فهي تبدأ بالأحرف نفسها التي ابْتُدِئَتْ بها سورتا البقرة وآل عمران، مع زيادة (ص)، ومن معانيها عنده أنها تعتبر مفتاح من مفاتيح فَهْمِ الوحدة القُرآنيَّة، والحرف (ص) إذا وجد في سورة يكون علامة على شيء له صلة بهذا الـموضوع، فمجيء الأحرف الثلاثة التي بُدئت بها سورة البقرة مع زيادة الحرف (ص) في قِسم واحد يشير إلى انطلاقة جديدة بعد جولات:

لنتذكر أن سورة البقرة بدأت بقوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١-٢]، ثم سارت حتى وصلت إلى قِصَّة آدم التي انتهت بقوله تعالى: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ﴾ [البقرة: ٣٨]، والصِّلة واضحة بين الآيتين هناك، فإذ تأتي سورة الأعراف مبدوءة بنفس الأحرف مع زيادة حرف الصاد، فكأنها تشير إلى ذلك الربط للانطلاق منه إلى تفصيل جديد، وتفصل آية فيها حرف الصَّاد: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الأعراف: ٣٦][1].

ولكن الـمعنى الذي يشير إليه سعيد حوى رحمه الله غير جارٍ على الأصول العلمية، إذ لا يشهد لهذا القول لغة ولا يتفق مع أصول التفسير، فما الدليل على أن صاد يعني صلة؟

(١) الأساس في التفسير (٤/ ١٨٣٧).

الدستور المكتوب ودلالات التنكير

الخاصِّيَّة الثَّانية: هو دستور مكتوب، ويُبَصِّرنا بذلك قوله جلَّ ذِكرُه ﴿ كِتَـٰبٌ ﴾:

هذه الكلمة ﴿كِتَـٰبٌ﴾ إما أن تكون خبرًا لما قبلها، والتقدير: ﴿الٓمٓصٓ﴾ كتاب تكَّون من هذه الحروف، وإما أن تكون خبرًا لمبتدأ محذوف تقديره: هذا كتاب، وإما أن تكون مبتدأ خبره ما بعده، والمعنى: كتاب أُنزل إليك[1].

وستقول: كيف تكون كلمة ﴿كِتَـٰبٌ﴾ مبتدأ، وهي نكرة؟

الجواب: لأنها أفادت بذاتها إفادة نفهمها من السِّياق، فيتحقَّق فيها قول ابن مالك رحمه الله[2]:

ولا يَجُوزُ الابْتِدَا بِالنَّكِرَة مَا لَم تُفِدْ كَـ (عِندَ زَيْدٍ نَمِرَة)

فإن سألت: لماذا جاء تركيب الجملة بهذه الصُّورة؟ وما الفائدة الكبرى لكلمة ﴿كِتَـٰبٌ﴾ ولمجيئها نكرة؟

والجواب: لتحقيق ثلاثة أهداف:

الأول: لأن هذه الكلمة ﴿كِتَـٰبٌ﴾ تنبئك بأن القرآن بهذه الفخامة العظيمة مجموع في كتاب محدَّد، موثَّق بحيث لا تخاف أن يسقط منه حرف، فلا يزاد عليه، ولا ينقص منه، وكلمة ﴿كِتَـٰبٌ﴾ مأخوذة من كتب، وكتب تأتي بمعنى جمع، فالقرآن مجموع خطًّا، والكتابة تقتضي الجمع الخطِّيَّ بذاتها كما أن القراءة تقتضي الجمع الصَّوتي، فظهر توثيقان عظيمان للقرآن، فتكرَّر وصفه بذلك حثًّا للمسلمين على جمعه في كتاب، ولبيان شِدَّة التَّوثيق الذي صاحب نزوله، وللردِّ على من يشكِّك في جمعه.

(١) ينظر: تفسير القرطبي (٧/ ١٦٠)، فتح القدير للشوكاني (٢/ ٢١٣).

(٢) ألفية ابن مالك (ص: ١٧).

وبعد أن أدركنا أن كلمة ﴿كِتَٰبٌ﴾ باعتبارها نكرة ردَّت على منكري الوحي، دعنا نرجع إلى الآية لنسمعها حيث يقول الله ﷻ فيها: ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٢]، **هنا يأتينا السؤال التدبري: هل لتنكير كلمة ﴿كِتَٰبٌ﴾ فائدة أخرى؟ ما الحكمة من قول ربِّنا مثلًا:** ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ﴾ **فيضيفه ليصبح معرفة، أو يقول كما في سورة البقرة:** ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ [البقرة: ٢]؟

الجواب: هنا يأتي الهدف الثاني من التَّنكير: هو تعظيم الكتاب، فالتَّنكير إما أن يدل على التعظيم، وإما أن يدلَّ على التَّحقير، والسِّياق ينبئك عن سبب التنكير؛ هل للتعظيم أو للتحقير؟ والسِّياق هنا يُعلِمنا أن هذه الكلمة جاءت نكرة لا معرفة ليعظم الله ﷻ الكتاب، أي: هو كتابٌ عظيمٌ أوضح الطريق المستقيم فلم يَدَعْ بها لبسًا، ولم يذر خيرًا إلا أمر به، ولا شرًّا إلا نهى عنه، فإنزاله من عظيم رحمته، والتنكير أفاد وصف التعظيم.

ومنه قول الشَّنفَرَى، أو ابن أخت (تأبط شرًّا)، أو خلف الأحمر:

خَبَرٌ مَا نَابَنَا مُصْمَئِلٌّ ... جَلَّ حَتَّى دَقَّ فِيهِ الأَجَلُّ[1]

أي: خبر عظيم الوقع، مُصْمَئِلٌّ أي: مشتدٌّ ينفخ المرء غضبًا.

وكذلك هنا: كتاب جمع جوانب العظمة أنزل إليك، فمهما تصورتم عظمته لن تقدروا تلك العظمة حقَّ قدرها.

---

(١) ديوان الشَّنْفَرَى (عمرو بن مالك)، تحقيق: د. إميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٢، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م، (ص: ٨٥)، والأبيات منسوبة إلى تأبط شرًا في ديوانه، ولكن المحقق ذكرها في قسم المختلط النسبة، مما ليس من شعره ونسب إليه، فترجح أن قائلها الشَّنْفَرَى. ينظر: ديوان تأبط شرًّا وأخباره (ص: ٢٤٦)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

وتنكير كلمة ﴿كِتَٰبٌ﴾ هنا يشبه تنكير كلمة ﴿خصمان﴾ في قَوْلَهُ تَعالى: ﴿قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ خَصۡمَانِ بَغَىٰ بَعۡضُنَا عَلَىٰ بَعۡضٍ﴾ [ص ٢٢]، أي: نحن خصمان محددان، فالتَّنْكِيرُ يفيد وجود نوْعِيَّةٍ محددة، وتعظيم في الوقت ذاته.

الهدف الثالث: هذه الكلمة تردُّ على منكري الوحي القرآني من الوَثنيِّين والكتابيين القدماء والمعاصرين، فإنهم ينكرون أن يكون القرآن وحيًا منزلًا من الله رب العالمين.

تأتي هذه الكلمة ﴿كِتَٰبٌ﴾ لِتَرُدَّ على ثلاث فرق:

الفرقة الأولى: فرقة الملحدين الذين ينكرون النُّبوَّة أصلًا.

الفرقة الثَّانية: فرقة الكتابيين الذين ينكرون نبوة محمَّد ﷺ خاصة.

الفرقة الثَّالثة: فرقة الزَّنادقة الذين يزعمون أن القرآن غير محفوظ، وأن عندهم مصحفًا آخر ينسبونه لبعض البشر مثل مصحف فاطمة رضي الله عنها، وهم يفترون عليها الكذب، كما افترت فرقة من الكفَّار على الله عز وجل الكذب، وزعموا أنه له ابنًا.

ستقول: كيف كان هذا الردُّ على الفريقين من خلال هذه الكلمة؟

الجواب: أما الملحدون؛ فإنه لا يُعلم كتابٌ تمَّ حفظه مكتوبًا موثَّقًا لم يتغير خلال ألف وأربعمائة سنة إلا القرآن، وحسبك بهذا أن توقن أن القرآن كتاب إلهي.

هنا يردُّ عليك الملحد، فيقول: يوجد كتب كثيرة قديمة موثَّقة، فنجيبه، ونقول: لكن لا يوجد كتاب أمر بكتابته أميٌّ مثل القرآن الكريم.

وأما أهل الكتاب الذين ينكرون نبوَّة محمَّد ﷺ فكلمة: ﴿كِتَٰبٌ﴾ تخبرهم أن القرآن مِن نَوْعِ الكُتُبِ التي نزلت عَلى الأنْبياءِ من قبل، فَكَما نَزَلَتْ صُحُفُ إبْراهِيمَ عليه السلام، وكِتابُ مُوسى

ﷺ، كَذَلِكَ نَزَلَ هَذا القُرْآنُ [(١)]، فلماذا ينكرون أن يكون القرآن من عند الله، وقد مضى مثله عند الأنبياء السابقين عليهم السلام ؟

وأما الردُّ على الزَّنادقة الذين ادَّعوا أن المصحف محرَّف، وأن عندهم قرآنًا آخر مخفيًّا، فإن الله ﷻ يقول: ﴿كِتَٰبٌ﴾، وهل يوجد أحقُّ من القرآن أن يكون الكتاب الأعظم؟ فكيف يدَّعون أنهم مسلمون ثم يزعمون أنَّ كتاب الله ﷻ الذي أنزله على محمَّد ﷺ محرَّف، وأنَّ الكتب الأخرى التي أصابها التَّحريف قطعًا غير محرَّفة؟!

فجعل كلمة: ﴿كِتَٰبٌ﴾ نكرة لبيان نوع القرآن، وأنه من جنس أنواع الكتاب المنزلة، فلماذا يستبعدون أن يكون وحيًا من الله ﷻ؟

هنا يحقُّ لك أن تسأل: ما الحكمة من وصف الله ﷻ القرآن بأنه كتاب، وهو لم يكتمل بعد، ولا صار كتابًا مجموعًا؟

الجواب: هذا ممَّا يؤكِّد عظمة القرآن، فإن كلمة: ﴿كِتَٰبٌ﴾ تنبِّئنا بضرورة كَتْبِه عند نزوله، وتخبرنا بأنه سيجمع في كتاب واحد عند نهاية تنزله، وذلك لم يَحْدُث إلا بوفاة النَّبيِّ ﷺ، فبمجرد نزوله ينبغي أن يقوم الصَّحَابة رضي الله عنهم بكتابته، وعند اكتماله سيكون مكتوبًا بصورة شاملة لكلِّ حرف نزل.

ويرى الزمخشري رحمه الله أن المراد بالكتاب هنا السُّورَة [(٢)]، ولا أميل إلى ذلك، بل الذي أميل إليه أن المراد بالكتاب القرآن المجيد، حتى لو لم يكن قد نزل كله حين نزول هذه الآية؛ إذ المراد هذا القرآن المكتوب أنزل إليك بصورة متفرقة الزمان حتى يكتمل، وكلمة ﴿كِتَٰبٌ﴾

---

(١) التحرير والتنوير (٨ب/ ١١).

(٢) الكشاف (٢/ ٨٥).

تنبئك بصورة واضحة بأن الله ﷻ سيجعله مكتوبًا بصورة متكاملة مجموعة عند البشر، وكان معظم ما يكتب به الصَّحَابة ﷺ القرآن عند نزوله في الصحف.

كما أنه كتاب مكتوب كلُّه في اللوح المحفوظ، كما قال الله ﷻ ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ۝٧٧ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ﴾ [الواقعة ٧٧- ٧٨].

"المصحف" المنشأ والدلالة:

ستسأل: هذه الآية وآيات كثيرة تصف القرآن بأنه كتاب، فهل سُمِّي هذا الكتاب باسم خاصٍّ؟

الجواب: نعم، سمي بالمصحف، ويُبَصِّرنا ذلك بالجهد العظيم الذي بذله الصَّحَابة ﷺ في كتابة القرآن، فهذا الجهد كان يصاحب نزوله، فكان الصَّحَابة ﷺ يجمعونه على هيئة كتاب، وإن كان نزوله لم يكتمل، وترتيب سُوَرِه لم يستقرَّ، والآية تردُّ بصورةٍ واضحة على الذين يظنون أن القرآن لم يكن مكتوبًا في صحف مطهرة محفوظة عند الصَّحَابة ﷺ.. كيف يقولون ذلك مع هذه الآيات؟ لكن بعضهم يصرُّ على ضرورة وجود أحاديث تدلُّ على ذلك.

سنجيبهم: ألم يكف أن تخبرنا الآيات بذلك؟ لا بأس! قد وجدنا في السُّنَّة النَّبويَّة وحياة الصَّحَابة ﷺ شيئًا كثيرًا طيبًا من ذلك، وحسبنا أن نأخذ أنموذجًا لذلك بالحديث الذي رواه زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: «فَقُمْتُ، فَتَتَبَّعْتُ الْقُرْآنَ، أَجْمَعُهُ مِنَ الرِّقَاعِ، وَالأَكْتَافِ، وَالْعُسُبِ، وَصُدُورِ الرِّجَالِ»(١)، فبدأ بالرقاع؛ لأنها الأصل إذا كانت موجودة، فالرقاع جمع رُقعة، وهي القطعة من الورق، أو الجلد يكتب عليها، وإذا جُمِعت يمكن أن تؤلف كتابًا، لكن الصَّحَابة ﷺ لم يجمعوه في كتاب واحد أيام النَّبيِّ ﷺ؛ لأنهم لم يستطيعوا أن يتأكَّدوا من أن القرآن قد اكتمل نزوله إلا بوفاة النَّبيِّ ﷺ، ومما ينبِّئك عن ذلك بوضوح الحديث الذي رواه ابن

---

(١) البخاري (٤٦٧٩).

عمر رضي الله عنهما قال: «سمعت رسول الله ﷺ يَنْهَى أن يُسافرَ بالـمصحف إلى أرض العدوِّ»[1]، والحديث يدلُّ على أن تسمية الـمصحف استقرَّت منذ عهد النَّبيِّ ﷺ.

هنا ربما تسأل: وجدنا أن بعضهم يزعم أن كلمة (الـمصحف) مأخوذة من لغة حَبَشيَّة، فقد قال الزَّركشيُّ رحمه الله: "ذكر الـمظفري رحمه الله (ت ٦٤٢هـ) في تاريخه: لَمَّا جمعَ أبو بكر رضي الله عنه القرآنَ قال: سَمُّوهُ. فقال بعضُهم: سَمُّوهُ إِنْجيلًا. فَكرهوه. وقال بعضُهم: سَمُّوهُ السِّفْرَ. فكرهوه مِن يهود، فقال ابنُ مَسعودٍ رضي الله عنه: "رأيتُ للحَبَشَةِ كِتَابًا يدعونهُ الـمصْحَفَ، فسمُّوهُ بِهِ"[2]؟

الجواب: هذه الرواية مقطوعة لا تصحُّ فلا يعتمد عليها في شيء، وظاهرها التَّناقض، فإن أهل الحبشة نصارى، فكيف أَنِفَ الصَّحَابة رضي الله عنهم أن يسمُّوه بالإنجيل، ثم سمَّوه باسم عند النصارى أيضًا؟!

> كلمة (مصحف) كلمة عربية صميمة مشتقَّة من الصحيفة: وهي الورقة الَّتِي يُكْتَبُ فِيهَا كما قال تعالى مجده: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾﴾ [الأعلى: ١٨]؛ يَعْنِي الْكُتُبَ الـمُنَزَّلَةَ عَلَيْهِمَا.

ولم يذكر عالـم معتبر أن كلمة "مصحف" من الكلمات الـمُعرَبة، وكلمة صحيفة منتشرة في كلام العرب قبل الإسلام، مثل ما اشتهر في قولهم: صحيفة الـمُتَلَمِّس[3]، والـمصْحَفُ هو

(١) أحمد (٥٤٦٥)، وصححه الأرناؤوط، والحديث عند البخاري (٢٩٩٠)، ومسلم (١٨٦٩).

(٢) البرهان في علوم القرآن (١/ ٢٨١، ٢٨٢)، ولم ترد هذه الرواية مسندة في كتب السنة.

(٣)والعرب تضرب المثل في الشؤم بصحيفة المتلمّس، وذلك أن المتلمّس وطَرَفة بن العبد هَجَوا ملك الحيرة عمرو بن هند، ثم أتياه فمدحاه، فكتب لهما كتابين إلى عامله بالبحرين يأمره بقتلهما، وقال لهما: قد كتبت لكما بجائزتكما إليه، فمضيا إليه، فقال المتلمس لطَرَفة: لا آمن مكر الملك، فلعلنا أن نستقرئ كتابيه، فقال طرفة: حاشا الملك من هذا، فأعطى

الجامعُ للصُّحُفِ الـمكتوبةِ بين الدَّفَّتَيْن، وقال الخليل بن أحمد ؒ: "سُمِّيَ الـمصْحَفُ مُصْحَفًا؛ لأنَّه أُصْحِفَ، أي: جُعِلَ جامعًا للصُّحُف الـمكتوبة بين الدَّفَّتَيْن"[1]، وقال الصَّاغانيُّ ؒ: "والـمُصْحَفُ والـمَصْحَفُ والـمِصْحَفُ -بالحركات الثلاث- عن ثعلب ؒ قال: والفتح لغة صحيحة فصيحة"[2].

ويظهر لي أن الكلمة كانت معروفة في عهد النَّبيِّ ﷺ[3]، ولكنها لم تنتشر لعدم وضوح اكتمال القرآن إلا بوفاة النَّبيِّ ﷺ، فقد تأخَّرت تسمية القرآن بها إلى عهد أبي بكر ﷺ، فاستعملها الصَّحَابة ﷺ في الوقت الـمناسب بعد اكتمال الوحي، واستقراره، ولم يفعلوا ذلك عند موت النَّبيِّ ﷺ؛ فورًا لانشغالهم بالأخطار الدَّاهمة الـمُحْدِقة بالـمسلمين عندما اجتمع عليهم الـمرتدون والـمجرمون والـمعتدون.

لماذا كان القرآن مكتوبًا في اللَّوح الـمحفوظ، وفي السماء الدُّنيا، ثم صار الصَّحَابة ﷺ يكتبونه بمجرَّد نزول سورة كاملة أو بعض آياتها؟

الجواب: ليتمَّ توثيقه بالكتابة في السُّطور فيتآزر في توثيقه مع الحفظ في الصُّدور..

فلماذا يتكرر وصفه بأنه كتاب؟

والجواب: لتقرأه الأجيال وتحفظه، وتطمئن إلى توثيقه، وتهديه مكتوبًا إلى العالـم ليقرأه:

اقرأْ فأمَّتُنا تعيشُ على الرِّبا ... تنسى عقابَ الخالقِ الـمعبودِ

المتلمِّس صحيفته غلامًا بالحيرة فقرأها، فإذا فيها: إذا أتاك المتلمِّس فاقطع يديه ورجليه وادفنه حيًّا فتبع المتلمِّس طَرَفة ليُعلمه فلم يلحقه، فألقى المتلمِّس صحيفته في نهر الحيرة، ووصل طَرَفة إلى عامل البحرين فقتله. شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم (٩/ ٦١١٧، ٦١١٨).

(١) العين (٣/ ١٢٠).

(٢) العباب الزاخر (١/ ٤٥١).

(٣) يراجع كتابي: تلقي النبي ﷺ ألفاظ القرآن الكريم: دراسة تأصيلية (ص: ٣١٦، ٣١٧).

اقرأْ لينجليَ الظَّلامُ عن الرُّبا وليسمعِ الغافي زواجرَ هودِ
اقرأْ لينجليَ القتامُ عن الذّي أمسى أسيرَ تخاذُلٍ وخُضُودِ (١)

وهذا الحديث يدلُّ على أنهم كانوا يحاولون جمع القرآن الكريم في كتاب قدر طاقتهم نظرًا لعدم اكتمال النُّزول بعد، وكان عدد كبير من الصَّحَابة ﷺ يكتبون القرآن، فقد ذكر ابن حديدة (ت ٧٨٣هـ) رحمه الله أن عدد كتاب الوحي (٤٤) كاتبًا، أعظمهم زيد بن ثابت رضي الله عنه (٢)، وكان الصَّحَابة ﷺ يجمعونه في الرقاع والرّق على قدر جهدهم بما يتوفر لديهم من وسائل لكتابته، وكانت الإشارات القُرآنيَّة تنبئنا عن سبيل جمع القرآن، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ﴾ [الطور: ١-٢]، وقوله: ﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ﴾ [عبس: ١٣].

فكيف يُدَّعى أن جمع القرآن في كتاب كان من فعل الصَّحَابة ﷺ ولم تكن بداياته في عهد النَّبيِّ ﷺ؟

وقد بصَّرنا الله ﷻ بأن القرآن مكتوب في أمِّ الكتاب، فقال: ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٣ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ۝٤﴾ [الزخرف: ٢-٤]، وحدَّثنا ابن عبَّاس رضي الله عنهما عن نزوله إلى الأرض، فقال: «فُصِلَ الْقُرْآنُ مِنَ الذِّكْرِ، فَوُضِعَ فِي بَيْتِ الْعِزَّةِ فِي السَّماءِ الدُّنيا، فَجَعَلَ جِبْرِيلُ عليه السلام يَنْزِلُ عَلَى النَّبيِّ ﷺ يُرَتِّلُهُ تَرْتِيلًا». قَالَ سُفْيَانُ: "خَمْسَ آيَاتٍ، وَنَحْوهَا"(٣).

---

(١) الأبيات للشاعر الدكتور: عبد الرَّحمَن العشماوي.

(٢) ينظر: المصباح المضي في كتاب النبي الأمي ورسله إلى ملوك الأرض من عربي وعجمي (١/ ٢٨، ٢٩).

(٣) السنن الكبرى للنسائي (٧٩٣٧)، وروى نحوًا منه ابن أبي شيبة في مصنفه (٣٠٨١٦)، وقال ابن حجر في فتح الباري (٩/ ٤): "وإسناده صحيح".

وهذا يدلُّنا على أن هذا القرآن موثَّق بأعلى درجات التَّوثيق، فهو كان ينزل مفرَّقًا على النَّبيِّ ﷺ إما ليخبر العالم بحكم حدث وقع، وإما لمحض النُّزول لإكمال آياته وسوره، وهذا يدلُّ على أن القرآن لم يتغيَّر ولم يحرَّف، وأن ما في الأرض موافق لما في السماء.

معنى ﴿كِتَٰبٌ﴾ مكتوب عند الله، وينبغي أن تقوموا بكتابته حتى يسمَّى كتابًا، ولو لم يكتبوه لكذَّب النَّاس القرآنَ، وقالوا: أنتم تقولون كتاب وهو غير مكتوب، ولذلك كان النَّبيُّ ﷺ عندما ينزل عليه الآيات فورًا يأتي بأحد الكُتَّاب فيكتب له ﷺ.

ستقول: ألم يظهر من قِصَّة أبي بكر وزيد بن ثابت رضي الله عنهما في جمع القرآن أنه لم يكن مجموعًا؟

أقول لك: تعالَ ننظر في القِصَّة، فقد قال أبو بكر لزيد بن ثابت رضي الله عنهما: «وَإِنَّكَ رَجُلٌ شَابٌّ، عَاقِلٌ، لاَ نَتَّهِمُكَ، قَدْ كُنْتَ تَكْتُبُ الْوَحْيَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ، فَتَتَبَّعِ الْقُرْآنَ فَاجْمَعْهُ»، قَالَ زَيْدٌ رضي الله عنه: «فَوَاللهِ لَوْ كَلَّفَنِي نَقْلَ جَبَلٍ مِنَ الْجِبَالِ، مَا كَانَ بِأَثْقَلَ عَلَيَّ مِمَّا كَلَّفَنِي مِنْ جَمْعِ الْقُرْآنِ»، قُلْتُ: «كَيْفَ تَفْعَلاَنِ شَيْئًا لَمْ يَفْعَلْهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ»، قَالَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه: «هُوَ وَاللهِ خَيْرٌ، فَلَمْ يَزَلْ يَحُثُّ مُرَاجَعَتِي حَتَّى شَرَحَ اللهُ صَدْرِي لِلَّذِي شَرَحَ اللهُ لَهُ صَدْرَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ»(١).

القرآن لم يكن مجموعًا في كتاب واحدٍ بإشراف رسمي من الدولة، لكن الصَّحابة رضي الله عنهم كانوا يكتبون سُوَره وآياتِه في صُحُف، فتكثر الصُّحُف عندهم وتَقِلُّ حسب الأدوات المتوفِّرة، ولأنهم كانوا يتوقَّعون نزولًا جديدًا.. أما وقد توفِّي النَّبيُّ ﷺ، فقد آن الأوان لجمعه كلِّه في كتابٍ واحدٍ.

(١) البخاري (٤٦٧٩).

وذلك الذي تَهَيَّبَ له صَدْرُ زيدٍ رضي الله عنه.. أما الآيات فتشير بصورةٍ واضحة إلى أن القرآن مجموع في كتاب مكتوب، وهذا الذي تلمسه دون تردد عندما تسمع الله ﷻ يقول لك في هذه السُّورَة: ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾.

لقد أدركنا الخاصِّيَّة الثَّانية من خصائص القرآن المجيد، وهي أنه مكتوب موثَّق، فبماذا يُبَصِّرنا قوله جلَّ ذِكرُه: ﴿أنزل﴾؟

إنه يُبَصِّرنا بـ:

الخاصِّيَّة الثَّالثة: مزية هذا المكتوب أنه منزل من عند الله ﷻ، وليس مُؤَلَّفًا من قبل المخلوقين، ويُبَصِّرنا بإنزاله قوله تَعَالَى جَدُّهُ: ﴿أُنْزِلَ﴾:

وأول ما يخطر في بالك السؤال الآتي:

وجدنا أن الله ﷻ ذكر نفسه عند ذكر إنزال القرآن في آيات أخرى مثل: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾ [آل عمران: ٢، ٣]، وقوله: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ﴾ [إبراهيم: ١]، ولكن هنا جاءت صياغته بهذا الشَّكل: ﴿أُنزِل﴾؟

فلماذا صيغ فِعْلُ: ﴿أُنزل﴾ بِصِيغَةِ النَّائِبِ عَنِ الفاعِلِ أي ما لم يُسمَّ فاعله مع أن الفاعل معلوم وهو الله جل جلاله؟

والجواب: ذكر ابن عاشور رحمه الله أن الحكمة من الإتيان بالفعل مبنيًا لما لم يُسمَّ فاعله الاختصار، وذلك للعِلمِ بِفاعِلِ الإنزالِ، لِأنَّ الَّذِي يُنْزِلُ الكُتُبَ عَلى الرُّسُلِ هو اللهُ تَعالى، ولِما في مادَّة الإنزالِ مِنَ الإشعارِ بِأنَّهُ مِنَ الوَحيِ لِمَلائكَةِ العَوالـمِ السَّماوِيَّةِ[1].

وما رأيك أنت بهذا السَّبب؟

---

(١) التحرير والتنوير (٨ب/ ١٢).

الجواب: أن الذي يظهر لي بأنه ليس لهذا السَّبب، فإن الله ﷻ قد ذكر في الآيات الأخرى الكثيرة أنه أنزله صراحة أي بالفعل المبني للمعلوم، فما الحكمة من مجيء الفعل هنا "أُنزِل" وليس "أنزلنا" أو "أنزل الله"؟

والجواب:

يمكنك أن تقول بأن الفعل الذي لم يسمَّ فاعله يدل على تعددٍ في فاعل الإنزال[1]، فالمنزِل هو الله جل جلاله، وقد أَمَرَ المَلَكَ المُوَكَّلَ بالوحي، وهو جبريل عليه السلام بأن ينزل بالكتاب إلى نبيِّه ﷺ، فصار فاعل الإنزال متعددًا بهذا الاعتبار، فبنيَ لما لم يُسمَّ فاعله، فبدلًا من أن يقول: كتاب أنزله الله ﷻ فأوصله إليك جبريل عليه السلام قال: كتاب أنزل، فشملت هذه الصيغة تعدُّد الفاعلين في موضوع الإنزال: القادر جلَّ مَجْدُه، والمبلغ، وهو جبريل عليه السلام.

الفعل الذي لم يُسَمَّ فاعله يدلُّ على تعدُّدٍ في فاعل الإنزال، فالمنزِل هو الله جل جلاله، وقد أمر الملك الموكَّل بالوحي وهو جبريل عليه السلام بأن ينزل بالكتاب إلى نبيِّه ﷺ، فصار فاعل الإنزال متعدِّدًا بهذا الاعتبار.

والسبب الأقوى فيما يظهر لي أنك تجد في سورة الأعراف تركيزًا شديدًا على المنزَل الذي هو القرآن المجيد، فجاء الفعل ﴿أنزل﴾ ليصرف نظرك إلى نائب الفاعل (المنزَل)، وذلك بعد أن استقرَّ لك أن الذي أنزله هو الله الولي الحميد في آيات سابقات.. هنا كان الاهتمام الشديد بذكر المنزَل، ولذلك تجد ذكر القرآن مرَّاتٍ متعدِّدة في هذه السُّورَة بأساليب مختلفة؛ خذ هذه الأمثلة من السُّورَة:

(١) ذكر بعضهم من دلالات الفعل المبني للمجهول تعدد الفاعلين. ينظر: الفعل المبني للمجهول في اللغة العربية (أهميته- مصطلحاته -أغراضه) (ص: ٥٦).

ففي هذه الآية قال الله ﷻ:

﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٢].

ثم قال بعدها: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ [الأعراف: ٣].

ثم تمضي فتجد الله ﷻ يقول: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٢].

ثم تجد ذكر القرآن في قول ربنا بعد: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي﴾ [الأعراف: ٣٥]، **وفي قوله:** ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأعراف: ٤٠].

ثم تعود الإشادة البَاذِخة بذكر المقاصد العظيمة للنزول القرآني: ﴿وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم بِكِتَٰبٖ فَصَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٥٢].

وفي أثناء الكلام عن النبيِّ ﷺ يذكر الله ﷻ القرآن، فيقول: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ١٥٦ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٥٧﴾ [الأعراف: ١٥٦، ١٥٧].

ثم يقول: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

ويحثُّ الله ﷻ على أن يحشد العالم ليتمسَّكوا بالكتاب: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٠].

ثم يذكر الله جل جلاله من آتاه آياته فانسلخ منها: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ١٧٤ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ١٧٥ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ﴾ [الأعراف: ١٧٤ - ١٧٦].

وحدثنا الله عز وجل في خواتم السُّورة عمن كَذَّبَ بالآيات، فقال: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ١٨١ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨١ - ١٨٢].

وتأتي خاتمة السُّورَة ليعلم الله عز وجل عباده أن يعتزوا بالكتاب ومنزله: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦].

ثم يعود الذكر العطر لأهم مقاصد التنزيل القرآني مع التأكيد على الأدب في التعامل معه:

﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى ۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ٢٠٣ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٣ ٢٠٤].

اقْرَأْ لِيَرْجِعَ مِن بَنِي الإِسلامِ مَنْ — أَصْغَى مَسَامِعَهُ إلى التِّلْمُودِ

اقْرَأْ لَعَلَّ الله يُوقِظُ غَافِلًا — مِن قَومِنَا ويُلِينُ قَلْبَ عَنِيدِ

اقْرَأْ لِيَرْجِعَ ظَالِمٌ عَن ظُلْمِهِ — وَيُقِرَّ بالإيمانِ كُلُّ جَحُودِ

اقْرَأْ لِيَهْدَأَ قَلْبُ كُلِّ مُرَوَّعٍ — مِن قَومِنا وفُؤَادُ كُلِّ شَرِيدِ [1]

(١) هذه الأبيات للدكتور عبد الرَّحمَن العشماوي.

تجد في سورة الأعراف تركيزًا شديدًا على الـمُنزَل الذي هو القرآن الـمجيد، فجاء الفعل ﴿أُنزل﴾ ليصرف نظرك إلى نائب الفاعل (المنزَل)، وذلك بعد أن استقرَّ لك أن الذي أنزله هو الله الوليُّ الحميد في آيات سابقات.. هنا كان الاهتمام الشديد بذكر الـمنزَل، ولذلك تجد ذكر القرآن مرَّاتٍ متعدِّدة في هذه السُّورَة بأساليب مختلفة.

الخاصِّيَّة الرَّابعة: نزول هذا القرآن على خاتم النَّبيِّين ﷺ، فهو خاتم البيانات الإلهيَّة، ويُبَصِّرنا بذلك كلمة ﴿إليك﴾ في قوله تعالى: ﴿أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ [الأعراف: ٢]:

ستقول: ما الحكمة من تخصيص الله ﷻ ذكر الإنزال بقوله ﴿إليك﴾؟

الجواب: لعِدَّة أمور:

أولًا: ليُنبِئ النَّبيَّ ﷺ بكمال تشريفه، وجسامة الـمسؤولية الـملقاة على عاتقه حيث أنزل الكتاب إليه لا إلى غيره، وأنت خليلُ الحقِّ، وخَيْرُ الخَلْقِ، و"أَكْرَمُ النَّاس نفسًا، وأَوْسَعُهُمْ صَدْرًا، وأَجْمَلُهُمْ قَلْبًا، وَأَعْرَقُهُمْ أَصَالَةً، وَأَعْرَفُهُمْ بِاسْتِعْطَافِ الـمُبَاعِد، واسْتِجَلابِ الـمُنَافِرِ الـمُبَاغِض، وهذا شيءٌ قد خَصَّكَ به، فَرَفَعَكَ على جميعِ الخَلْقِ دَرَجَاتٍ لا تُحْصَى، ومَرَاتِبَ لا حَدَّ لها فَتُسْتَقْصَى" كما قال البِقَاعِي رحمه الله (١).

ثانيًا: لِيُبَيِّنَ أن هذا الكتابَ منزل على خاتم الأنبياء، فقد أنزل الله ﷻ كتابًا على موسى عليه السلام، ووصفه بذلك فقال: ﴿وَإِذۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡفُرۡقَانَ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾ [البقرة: ٥٣]، وكذلك على عيسى عليه السلام فقال الله ﷻ: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ﴾ [آل عمران ٤٨]، لكنه أراد -جل في علاه- أن يخصص الكتاب هنا بأنه منزل إلى النَّبيِّ ﷺ تشريفًا وتكليفًا، فانظر كيف حبتنا هذه الكلمة ﴿إليك﴾ بخاصية جديدة! إنها كلمات القرآن الـمنزلة.

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٧/ ٣٤٨).

هنا لا بد أن تسأل عن أركان الإنزال في قوله جلَّ ذِكرُه: ﴿أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾؟

فهناك منزِلٌ أعلى هو الله ﷻ، وهناك أمين للوحي المنزل وهو جبريل عليه السلام، وهناك منزَلٌ إليه وهو النَّبيُّ ﷺ، وهناك منزَلٌ به هو القرآن، وهناك منزَلٌ لأجلهم وهم العالم، فكيف يرضى العالـم أن يتلقَّوا كتابًا ممن هو مثلهم، ولا يتلقَّوا الكتاب الذي جاءهم من ربهم الأعلى جلَّ في علاه؟

التعبير بالإنزال يحمل قيمة عظيمة توضِّح أهمِّية القرآن الـمجيد في حياة العالـم.

الخاصِّيَّة الخامسة: كماله اللفظيُّ والعلميُّ والعمليُّ، فلا يمكن للحرج أن يستقرَّ في صدر من يحمل أمانته للعالـم:

ويُبَصِّرنا بذلك قوله تَعَالى جَدُّهُ: ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ﴾ [الأعراف: ٢]، أي: ينبغي أن تحمله دون أن يتكوَّن حرج في صدرك من حمله:

وأول ما يخطر في بالك أن تسأل: ماذا يكون معنى هذه الكلمة: ﴿حَرَجٞ﴾؟

إن رجعتَ إلى الأصل اللُّغويِّ لكلمة: ﴿حَرَجٞ﴾ وجدتَه يدور حول تجمُّع الشيءِ مع ضيقِه والشُّعور بأذاه، وعدم القدرة على تحديد سبيلٍ للخروج، فهي كلمة معبِّرة عن مقدار التَّضحية والجهد الذي يجب أن يبذل ليحدث البلاغ المبين، فقد ذكر ابن فارس رحمه الله أن أصل كلمة (حرج): تجمُّع الشيءِ وضِيقُهُ، فمنه: الْحَرَجُ جَمْعُ حَرَجَةٍ، وهي مجتمع شجر، حيث يعسر الحركة بينها، أو الخروج من خلالها، ويقال في الجمع حرجات، كما قال الشاعر[1]:

أَيَـا حَرَجَـاتِ الْحَيِّ حِينَ تَحَمَّلُوا ... بِـذِي سَــلَـمٍ لَا جَـادَكُـنَّ رَبِـيـعُ

(١) البيت لقيس بن الملوح (مجنون ليلي)، دراسة: يسري عبد الغني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م، (ص: ٨٦) وفيه (حدجات) بدلًا من (حرجات)، ولعله تصحيف.

فكلمة (حرج) يبلغ فيها العسر مبلغه حتى تضيق مجاري النَّفَس، ويضعف التَّنفس الطَّبيعيُّ[١]، ويحدِّد ابن عاشور ﵀ طبيعة الحَرَج في حالَةِ النَّفْسِ عِنْدَ الحُزْنِ والغَضَبِ والأَسَفِ، لِأَنَّهم تَخَيَّلُوا لِلْغاضِبِ والآسِفِ ضِيقًا في صَدْرِهِ لَمَّا وجَدُوهُ يَعْسُرُ مِنهُ التَّنَفُّسُ مِنَ انْقِباضِ أعْصابِ مَجارِي النَّفَسِ[٢].

وبذا نستطيع أن نقرِّر بأن الحرج: شعورٌ بالضيق يثير الانزعاج، فتضيق مجاري النَّفَس، ويورث عدم القدرة على التَّحمُّل والصبر فوق ذلك

وهذا المعنى بنيته استئناسًا بما أورده الطَّبَري ﵀ الذي فسَّر الحرج بالضِّيق[٣]، ولكنه نوعٌ محدَّد من الضيق، كما رأيت.

ستسأل: فما رأيك فيما نقله الطَّبَري ﵀ عن الـمُتَقدِّمين من المفسِّرين من أن الحرج بمعنى الشَّكِّ، ثم قال: "وهذا الذي ذكرته من التأويل عن أهل التأويل، هو معنى ما قلنا في" الحرج"؛ لأن الشَّكَّ فيه لا يكون إلا من ضيق الصَّدر به، وقِلَّة الاتِّساع لتوجيهه وجهته التي هي وجهته الصحيحة، وإنما اخترنا العبارة عنه بمعنى "الضِّيق"، لأن ذلك هو الغالب عليه من معناه في كلام العرب"[٤]؟ وكذلك فسَّر بعضهم الحرج بالإثم، فكيف نجمع بين هذه المعاني؟

وأجيبك بأننا نستطيع الجمع بيُسْرٍ بين معنى الحرج وهذه المعاني الثلاثة: الضِّيق، والشَّكُّ، والإثم، فالحرج: شعورٌ بالضِّيق يثير الانزعاج، ويؤدِّي إلى عسر التَّنفس، ويورث عدم القدرة على التَّحمُّل والصبر.

---

(١) مقاييس اللغة (٢/ ٥٠).

(٢) التحرير والتنوير (٨ب/ ١٤).

(٣) ينظر: تفسير الطَّبَري (١٢/ ٢٩٥).

(٤) تفسير الطَّبَري (١٢/ ٢٩٦).

وقد يكون سبب الحرج وجود شكٍّ أو أذى، وقد لا يكون نابعًا من شكٍّ.

وقد ينتج عن الحرج أن يقع الإنسان في الإثم بعدم تبليغ الواجب خوفًا من أن يُضَيَّقَ عليه في رزقه، أو خوفًا من السُّخرية منه، فالشَّكُّ قد يكون سببًا للحرج، والإثم قد يكون نتيجة.

ولكنني لا بد أن أذكِّرك بأن الشَّكَّ يجوز أن يعتري غير الأنبياء عليهم السلام، ولكنه لا يجوز أن يعتري الأنبياء عليهم السلام، ولذا أبطل السيد محمَّد رشيد رضا رحمه الله تفسير الحرج بأنه الشَّكُّ.

ستقول: فكيف تنفي أن يكون الحرج بمعنى الشك، وقد قال الله عز وجل في سُورَةِ يُونُسَ: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾ [يونس: ٩٤]، فأثبت الشَّكَّ؟

الجواب: ذِكرُ الشَّكِّ هنا اقترن بحرف الشرط ﴿إِن﴾، والذي يقترن بـ(إنْ) قد يكون موجودًا، وقد يكون شيئًا افتراضيًا، ويقرِّر السيد رشيد رضا رحمه الله أن ذكر الشك هنا إنما جاء عَلَى سَبِيلِ فَرْضِ الْمُحَالِ الْمأْلُوفِ فِي أَمْثَالِ هَذِهِ الْمَوَاضِعِ وَالْمَحَالِّ، وَشَرْطُ "إِنْ" لَا يَقْتَضِي الْوُقُوعَ بِحَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ، وَمِثْل هذه الآية قَوْلُهُ تَعَالَى بَعْدَ نَهْيِهِ صلى الله عليه وسلم عَنْ دُعَاءِ غَيْرِ اللهِ عز وجل: ﴿فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٦]، فهو لم يفعل صلى الله عليه وسلم، وكذلك قَوْلُهُ: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ [الزخرف: ٨١]، فليس له ولد -جلَّ مَجْدُه-(١).

فَذِكْرُ الشَّكِّ هنا لا يدلُّ على الإثبات، بل على الافتراض لتنبيه الآخرين ألا يقعوا في الشَّكِّ.

ستقول: إن لم يكن الشَّكُّ سببَ الحرج الذي قد يتسرَّب إلى النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم، فما سبب هذا الحرج إذن؟ لماذا قال الله عز وجل له: ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ [الأعراف: ٢]؟

---

(١) تفسير المنار (٨/ ٢٧٠).

الجواب: سببُ الحَرَجِ شِدَّةُ الأَحْمَالِ، وعَظَمَةُ الأَثْقَالِ التي كان يشعر بها النَّبيُّ ﷺ، فقد كان يواجه العالم بمفرده يدعوهم إلى النجاة، وهم يَصُبُّونَ عليه ألوان الأذى القولي والفعلي:

فالإيذاء القوليُّ الإعلاميُّ الرَّهيب من أَسْبَاب ضِيقِ الصَّدْرِ كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي آخِرِ سُورَةِ الْحِجْرِ: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ [الحجر: ٩٧]، وَقَالَ تَعَالَى فِي أَوَائِلِ سُورَةِ هُودٍ: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [هود: ١٢].

وكذلك فالإيذاء الفعليُّ المتآمر من أسباب الضِّيق، كما قال جلَّ ذِكرُه: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٢٧]، وَمِثْلُهُ فِي سُورَةِ النَّمْلِ[(١)].

من الطَّبيعي أن يتسرَّبَ شيء من الحرج إلى صدر النَّبيِّ ﷺ لا بسبب حمل الكتاب، بل بسبب تبليغه، فالمصلح يلقى أشدَّ الإيذاء وأسوأ المقاومة، فما بالك بأعظم المصلحين؟ فكيف إذا كان هذا المصلح هو خاتم النَّبيِّين ﷺ المبلِّغين عن ربِّ العالمين؟

تصوَّرْ مقدار الضَّغط الخارجي الذي كان يُصبُّ عليه ﷺ؛ يسير في النَّاس، وهم يعرضون عنه، بل يتحدَّثون عنه بسوء مُتَّهِمينه في عقله وقوله وحركته، حتى قال ﷺ: «لَقَدْ أُوذِيتُ فِي اللهِ، وَمَا يُؤْذَى أَحَدٌ، وَأُخِفْتُ فِي اللهِ، وَمَا يُخَافُ أَحَدٌ، وَلَقَدْ أَتَتْ عَلَيَّ ثَلَاثَةٌ مِنْ بَيْنِ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، وَمَا لِي وَبِلَالٍ طَعَامٌ يَأْكُلُهُ ذُو كَبِدٍ، إِلَّا مَا يُوَارِي إِبِطُ بِلَالٍ»[(٢)].

---

(١) تفسير المنار (٨/ ٢٧٠).

(٢) أحمد (١٢٢١٢) وقال الأرناؤوط: "إسناده صحيح على شرط مسلم"، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٣٢٨١).

أي: كنت المؤمن الوحيد الذي يبلِّغ ويتحمَّل الأذى والمسؤولية، ولا يوجد معي من يعينني.

يُرَبِّي الله ﷻ نبيَّه ﷺ على عدم الـمبالاة بالضُّغوطات الخارجية مهما كان حجمها، فيطمئنه بأن الحرج لن يتسرَّب إليه، فليطمئن بتَحَمُّلِ التَّبِعات الـمترتِّبة على إنزال الكتاب إليه.

كأنه يقول له: هذا كتاب عظيم لا يماثله كتاب في عظمته، خصَّك الله ﷻ بأن أنزله إليك، فكيف تجعل للحرج مدخلًا إلى صدرك، وقد فضَّلك الله ﷻ بحمل هذا الكتاب.

الحرج قد يتسرَّب إلى النَّبيِّ ﷺ وإلى كلِّ من يرفع لواء القرآن يثبِّت الله ﷻ حملة القرآن، وينهاهم أن يوجد الحرج في صدورهم، ويشعرهم بعظمة ذلك، فيقول: ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ [الأعراف: ٢].

ستسأل:

قوله تعالى: ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ تعني: فلا يوجد حرج متكوِّنٌ في صدرك، بحيث يكون له كِيان، وبذا يظهر فيه أن كلمة ﴿حرج﴾ فاعل للفعل ﴿يكن﴾؛ لأنها تامة بمعنى يوجد، أي فلا يوجدْ في صدرك كِيان للحرج، فلم يقل الله ﷻ لنبيِّه ﷺ: فلا تتحرج منه، أو فلا يصيبْك الحرج منه، وإنما قال: ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾، فما الحكمة؟

الجواب: هنا يظهر لك سَنَا القرآن، وتلوح لك إشعاعاته، وتشعر بقوة كلماته؛ فقول الله ﷻ: ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ تعبير قرآنيٌّ بلغ من القوَّة أعلاها، يكتنز معاني تُربِّي الإنسان الذي شرَّفه الله ﷻ بحمل رسالة القرآن، سواء أكان يحفظه عن ظهر قلب أم لا، تعال بنا ننظر في هذا التعبير، ونتعلَّم منه التدبُّر والتفكير:

المعنى الأول: النَّهي للنَّبيِّ ﷺ أن يكون لحرجٍ في صدره كِيانٌ:

ويظهر المعنى واضحًا عندما تربطه بما قبله: ﴿أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾؛ لأنك قد شُرِّفتَ وكُلِّفت عندما أنزل الله ﷻ إليك القرآن، فلا ينبغي أن تجعل لحرجٍ مكانًا قائمًا في صدرك بسب الرُّدود الجائرة، والأفعال الظالمة التي يقابلك بها النَّاس.

وهذا خطاب للنبي ﷺ ولورثة الكتاب من بعده، والنهي عن وجود حرج متكونٍ جاء عَلى طريقة قول العرب: (لا أرَيَنَّكَ هاهُنا)، أي لا تَحضُرْ فَأراكَ، وقَولِهم: (لا أعْرِفَنَّكَ تفعل كذا)، أيْ: لا تَفْعَلْهُ فَأعْرِفْكَ بِهِ، نَهْيًا بطريق الكناية، وكذلك: ﴿فلا يكن﴾، أي: فلا يكن الحرج كائنًا في صدرك، أو له كِيان في صدرك.

والنهي هنا للإنسان أن يوجد حرج في صدره جاء بهذا الأسلوب البليغ، كأنه يقول له: لا تجعل الحرج يبني لنفسه كِيانًا، وهنا يأتي المعنى الثاني:

المعنى الثاني: لا تقلق من تسرُّب حرج يصيبك فجأة:

الحَرَجُ الفُجائي الذي قد يأتيك، وهو الذي يبدأ بما سمَّاه الله ﷻ الضِّيق، فيتسرَّب فجأة، ولكنه لا ينبغي أن يستقرَّ في الصَّدر؛ وهذا التَّسرُّب يعكس طبيعة الإنسان، وأخبرنا الله ﷻ بتسرُّب بدايات الحرج إلى النَّبيِّ ﷺ، فقال: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ [الحجر: ٩٧].

فأثبتت هذه الآية أن الضِّيق يأتي النَّبيَّ ﷺ بسبب الإيذاء القولي الذي يمارسه الوثنيون، وأسوأ منه الإيذاء الفعلي، والضِّيق بدايات الحرج.. لا مانع من ذلك، فلم ينهه الله ﷻ أن يأتيه الحرج؛ لأن هذا فوق طاقته بحكم طبيعته البشريَّة، وإنما نهاه إذا جاءه الحرج أن يعشعش في صدره، فيبني الحرج لنفسه كِيانًا، وهذا يقتضي معنى ثالثًا:

المعنى الثالث: عالجْ الحرج فور تَسَرُّبِهِ إلى صدرك، وادْفَعْهُ بما أوحينا إليك، ولا تأذن له أن يستقرَّ ويكون له كِيانًا في صدرك.

وقد بيَّن الله ﷻ لنا أن الحرج لا يمكن أن يكون له مكان في صدر النَّبيِّ ﷺ؛ لأنه شرح صدره فقال: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾ [الشرح:١-٣].

هنا تعلم مكانة شرح الصدر لتكون من أعظم مؤيِّدات النَّبيِّ ﷺ في مواجهة الباطل الذي كان يتربَّص به، وقد روى ابن عبَّاس رضي الله عنهما أن النَّبيَّ ﷺ أوضح مكانة شرح الصدر، فقال ﷺ: «سَأَلْتُ رَبِّي مَسْأَلَةً، وَدِدْتُ أَنِّي لَمْ أَسْأَلْهُ، قُلْتُ: يَا رَبِّ، قَدْ كَانَتْ قَبْلِي رُسُلٌ، مِنْهُمْ مَنْ سَخَّرْتَ لَهُ الرِّيَاحَ، وَمِنْهُمْ مَنْ كَانَ يُحْيِي الْمَوْتَى [وكلمت موسى]، قَالَ: أَلَمْ أَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَيْتُكَ؟ أَلَمْ أَجِدْكَ ضَالًّا فَهَدَيْتُكَ؟ أَلَمْ أَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ؟ وَوَضَعْتُ عَنْكَ وِزْرَكَ؟ قُلْتُ: بَلَى يَا رَبُّ! [فَوَدِدْتُ أَن لمْ أَسْأَلْهُ]»(١).

وهذا يؤكِّد أن النهي للحرج على بابه، وهو حقيقة في هذا المعنى.

فعظمة العبارة القرآنيَّة، وقوَّة المكانة النَّبويَّة تجعلنا نقدِّم ظاهر العبارة، وهو أن الحرج لا وجود له في صدر النَّبيِّ ﷺ عندما تشرَّف بنزول القرآن عليه.

ويوضِّح هذه العظمة للنَّبيِّ ﷺ ما رواه أبو ذَرٍّ الْغِفَارِيُّ رضي الله عنه، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، كَيْفَ عَلِمْتَ أَنَّكَ نَبِيٌّ حَتَّى اسْتَيْقَنْتَ؟ فَقَالَ: «يَا أَبَا ذَرٍّ، أَتَانِي مَلَكَانِ وَأَنَا بِبَعْضِ بَطْحَاءِ مَكَّةَ فَوَقَعَ أَحَدُهُمَا عَلَى الْأَرْضِ، وَكَانَ الْآخَرُ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: أَهُوَ هُوَ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَزِنْهُ بِرَجُلٍ، فَوُزِنْتُ بِهِ فَوَزَنْتُهُ، ثُمَّ قَالَ: فَزِنْهُ بِعَشَرَةٍ، فَوُزِنْتُ بِهِمْ فَرَجَحْتُهُمْ، ثُمَّ قَالَ: زِنْهُ بِمِئَةٍ، فَوُزِنْتُ بِهِمْ فَرَجَحْتُهُمْ، ثُمَّ قَالَ: زِنْهُ بِأَلْفٍ، فَوُزِنْتُ بِهِمْ فَرَجَحْتُهُمْ، كَأَنِّي

(١) المستدرك (٣٩٤٤)، الطبراني في الأوسط (٣٦٥١)، وذكره الألباني في الصحيحة (٢٥٣٨).

أَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَنْتَثِرُونَ عَلَيَّ مِنْ خِفَّةِ الميزَانِ، قَالَ: فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: لَوْ وَزَنْتَهُ بِأُمَّتِهِ لَرَجَحَهَا»(١).

فالمعنى: لا يمكن أن يوجد مكان يستقرُّ فيه الحرج في صدرك حتى يبني له كِيانًا، أي لا يمكن أن يوجد مكان للضِّيق الذي يزعجك، وللتَّقلقل الذي يمنعك من التَّحمُّل والصَّبر، ولا للشَّكِّ مجالٌ أن يتشرَّبه قلبك أو يتسرَّب إلى صدرك، فاطمئن ولا تشك في عظمة ما أنزل الله ﷻ، ولا تشك في مصدره، ولا تخف أو تتثاقل من تبليغه.

وقد تسأل: لماذا حدَّد الصدر، وقدَّمه على الفاعل في قوله: ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ﴾؟

وإليك الجواب: لأنه المكان الذي يوجد فيه القلب، حيث مركز التَّحكُّم بالوعي والشُّعور، ولأهمِّيته قدمه على الفاعل، فالآية تنبئنا بضرورة أن ننتبه لمعالجة الصدر، ونتعاهده بالرِّعاية، تَصَوَّرْ عندما يأتي مرض القلب أحدًا: كيف يطوف الدُّنيا لعلاجه؟ فكذلك مرض الصَّدر عندما يُبعد عن منح القرب من الله تعالى مجده.

كيف صوَّرت لنا الآية ببراعة مذهلة: النَّهي عن وجود الحرج في صدر النَّبيِّ ﷺ مع معرفتنا أن الضِّيق قد يوجد فيه أحيانًا بحكم طبيعته البشريَّة؟

الجواب: تعال بنا ننظر في الصُّورة البلاغية المذهلة التي توجد في هذه البينة: ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ﴾.

(١) الدارمي (١٤)، قال المحقق (الدكتور مرزوق الزهراني) في القطوف الدانية (ص: ١٧): " فيه عروة لم يسمع من أبي ذر ﵁، وأخرجه البزار (كشف الأستار، رقم ٢٣٧١)، وقال: لا نعلمه يروى عن أبي ذر ﵁ إلا من هذا الوجه، واللالكائي (شرح أصول اعتقاد أهل السنة، رقم ١٤٠٥)، وابن حبان (الإحسان ١٤/ ٤٣٤)، والطبراني (المعجم الكبير ١٢/ ٤٣١)، وأخرج طرفًا منه أحمد (٤/ ١٨٤)، وخبر الوزن ثابت عند أحمد، والبزار".

فالنهي الذي توجَّه إلى النَّبيِّ ﷺ ينحصر في أن يكون هناك حرج في صدره، ولكن العبارة تصوِّر لك أن الحرج يتسلَّل إلى صدر النَّبيِّ ﷺ، وكذلك إلى صدور الذين حملوا القرآن من بعده، فهم بشر، ولا بد أن يأتيهم هذا الحرج مُتَسَلِّلًا بسبب الكم الهائل من الإيذاء القولي والفعلي، والحصار، والتَّشريد، والظُّلم المريد، والعربدة التي يتباهى بها المجرمون.. فلا ضير في أن يتسلَّل الحرج لأنكم لا تستطيعون مَنْعَ تَسَلُّلِه.. لكن لا ينبغي أن تجعلوه يستقر في صدوركم ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾، لا تجعل له مكانة، أو كَيْنُونَةً في صدرك، واطرده ليرجع صدرك موقنًا بوعد الله ﷻ، مليئًا بالبشرى بما يأتي به العلي العظيم.

وأنت تلاحظ أن الله ﷻ يربِّي نبيَّه ﷺ والعالم من بعده، على هيئتين لتقوية القلوب، وتثبيت اليقين أمام الشبهات الشَّيطانية:

الهيئة الأولى:

النهي عن الحرج، لأنه يؤدِّي بك إلى أن تكون ضعيف النفس، مهزوم الروح، مهزوز العزم، منكفأ الفكر، منكمش الخاطر، خائفًا من المواجهة، متواريًا خلف أسوار التَّردُّد، وقضبان الرَّهبة.

الهيئة الثاني: أن يكون النهي للحرج، فإن كان الحرج لا مدخل له في صدرك، فليس هناك سبيلٌ ليصيبك الشك أو الضيق أو الألم ولو كثر معارضوك، واشتدت وطأتهم عليك، وهذا المعنى يذكره الله ﷻ في آياتٍ أُخر، مثل قوله تعَالى ذِكْرُهُ: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ﴾ [هود: ١٢].

ويبيِّن الطَّبَريُّ رحمه الله طرفًا من هذا المعنى فيقول: "يقول جلَّ ثناؤه لنبيِّه محمَّد ﷺ: فلا يضق صدرك يا محمَّد من الإنذار به مَنْ أرسلتك لإنذاره به، وإبلاغه مَنْ أمرتك بإبلاغه إيَّاه، ولا

تشك في أنه من عندي، واصبر للمضيِّ لأمر الله ﷻ، واتِّباع طاعته فيما كلفك وحملك من عبء أثقال النُّبوَّة، كما صبر أولو العزم من الرُّسل، فإن الله ﷻ معك"[١].

فظهر لنا أن الآية تُبَصِّرنا بأمرين معًا:

الأمر الأول: أن الحرج لا يمكن أن يطرق صدرك، ويبني له كيانًا حتى يستقر فيه.

الأمر الثاني: أن الحرج في بداياته (الضيق) كان يأتي النَّبيَّ ﷺ؛ إمَّا لشِدَّة ما يلقى، وإمَّا لانزعاجه من عدم إيمان قومه، حتى قيل بأنه لم يؤمن إلى العام الخامس من البعثة إلا أربعون شخصًا، فهذا قليل جدًّا عندما تجعل متوسط من يدخل في الإسلام ثمانية أشخاص في السَّنة.

والآية تصف لك جزءًا مما كان يلقاه خاتم الأنبياء والرسل ﷺ، وهو يبلغ رسالات ربه ﷻ.. ألا تتعجب من نزول هذه الآية عليه، وتبليغه إياها؟ ولكنك ربما تتدبر بصورة عميقة، وتسأل: ما أعظم دلائل هذه الآية؟

وأجيبك: هي بذاتها دليل على أن القرآن كلام الله ﷻ لا تأليف محمَّد ﷺ، فقد بلغها النَّبيُّ ﷺ غير هيَّابٍ ولا وجلٍ ولا عابئٍ بقول النَّاس بعد تبليغه، وتبليغه له يدلُّ على عبوديته لربه ﷻ، وعلى صدق نبوَّته ﷺ، وعلى أن الحرج الذي توقَّع النَّاس أن يحلَّ به غير موجود في حياته.. الله أكبر، وصلى الله على محمَّد.. ﷺ، فهل عرفتَ أصدق من هذا البلاغ البليغ، وأوثق من هذا البيان البديع، فإنه يتغلغل في شرايين الشكِّ يقينًا ثابتًا، وفي أوردة التَّردُّد إكسيرًا شافيًا، وفي عروق الرِّيبة بلسمًا مسعفًا، ليصل إلى خلايا الخوف فيخفيها، وأنسجة الضَّعف فيفتتها، وبقايا القلق فيحرقها، فتغدو به نفوس العالَمين مطمئنَّة، وتنجلي به ما على قلوب الغافلين مِن أكنَّة، وتتسامق به أفئدة العالِمين إلى مراقي السُّعود، ومعارج الوصول.

أُوذِيتَ في الله ما لم يُؤْذَ إنسانُ ... فما بدا منك توبيخٌ وضجرانُ

---

(١) تفسير الطَّبَري (١٢/ ٢٩٥).

صَـبْرَتَ صَـبْرًا تَنُوءُ الرَّاسِـياتُ بِهِ   تضـيـق عـنـه مـحـيطاتٌ وشُـطْآنُ
وقـيـل: أبـتـرُ كـذَّابٌ وذو عَـتَـهٍ   وسـاحـرٌ قـيـل في أَهْـلِـيكَ بُـهـتـانُ
رُميتَ أُدميتَ صَـبَّ المجرمون سَـلًا   على سـجودك أُغري فيك صِـبيـانُ
حُوصِـرتَ طُوردتَ لم يُبقوا مؤامرةً   إلا تـمـادوا بـهـا وازداد كـفـرانُ
فـلـم يـكـن حرجٌ يـا سـيـدي أبـدًا   أن تُـنـقِـذَ الـنَّـاسَ لـمَّـا هـاجَ طـوفـانُ
وسـادَ ظلمٌ وإفسـادٌ فما وَهَـنَـتْ   يـمـنـاك عـن حـربِـه فـانـزاحَ طـغـيـانُ

فإن كان الأمر كذلك في خطاب الله ﷻ لنبيِّه ﷺ، فكيف سيكون في مخاطبة أتباعه؟

الجواب: احترسوا من الحرج الذي يسببه لكم العالم الخارجي؛ لأنكم حملتم هذا الكتاب.. مهما أصابكم من حرج فامضوا في إخبار النَّاس بالخير العظيم الذي يكتنزه القرآن المجيد.

الخاصِّيَّة السَّادسة: هدف إنزال الكتاب: إنقاذ العالم من المخاطر الواقعة والمُتَوَقَّعة بالإنذار للجميع والتذكير للمؤمنين:

ويُبَصِّرنا بذلك قوله تَعالى جَدُّهُ ﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأعراف:٢]، فاللام للتعليل، والإنذار للجميع المؤمن وغير المؤمن، والتَّذكير للمؤمن الذي غفل عما اعتنقه وآمن به.

الاتِّصال وتأثير الاكتمال:

كيف ترى جمال الكلام واستقامته في الآية؟

الجواب: بدأت السُّورَة في تأثيرها الخطابي الآسر بلفت نظرك إلى الأحرف التي تمثِّل الكلام العربي ﴿الٓمٓصٓ﴾ وهي الأحرف التي تَكَوَّن منها القرآن، ثم أخبَرَتْك أن الذي تسمعه ليس مجرد كلام مسموع، بل مكتوب كتابة منظَّمة تعكس نظام الكلام، وتنظيم المعاني فيه ﴿كِتَٰبٌ﴾، ثم أخبرَتْك أن هذا الكتاب منزل من العليِّ الأعلى ﴿إِلَيۡكَ﴾، ولم يصل من بشر

إلى بشر، وفي هذا تفخيم وتعظيم له، وتأكيد على مَصْدريَّتِهِ الإلهيَّة، ثم لم يتركك تنبهر بذلك حتى أخبرك أن الذي أُنزل عليه الكتاب هو خاتم الأنبياء ﴿أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾، فهو آخر كتاب أُنزِل على خاتم نبيٍّ أُرسل، وحين أخبرك عن طبيعة الكتاب، ومَصْدريَّتِهِ، وكيفية وصوله إلى الأرض أخبرك بالتَّضحية العظيمة التي قدَّمها الرَّحْمَة المهداة والنِّعمة المسداة للعالمين وهو يتلقَّى القرآن، ويبلِّغه، ولذا ثبَّته الله ﷻ، فقال: ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ﴾، ثم ها هو يخبرك بأعظم مقاصد التَّنزيل القرآنيِّ فيقول: ﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، وكأنه يقول جلَّ ذِكرُه: كيف يمكن أن يوجد في صدرك حرج منه؟ لا يمكن أن يصيبك الحرج منه.

> وأنت ترى أن أعظم الأهداف التي أُنزل لأجلها هذا الكتاب تحقيق مصلحة البشريَّة، فكونهم يؤذونك لا يعني أن تتركهم؛ لأنك حريص على إنقاذهم من المخاطر الواقعة والمُتوَقَّعة، وحتى تنقذهم لا بد أن تنذرهم.

وعندها سيستجيب لك المؤمن منهم، وينفر المعاند، فلا تبال، وابق على الإنذار ليستمع المعاند، ويتذكر المؤمن فلا تصيبه الغفلة.

وعندما تستوعب ذلك يكون إنذارك أقوى وأقوم؛ إذ تشعر بمدى حاجة النَّاس لهذا الإنذار، ولو آلمتك ردود أفعالهم.

وبهذا البيان الذي يملأ نفس من نزل عليه القرآن ﷺ جمالًا وجلالًا، تمتلئ نفس القارئ والسامع إجلالًا وسعادة وانشراحًا، فترى الكلام متصلًا مكتمل الأركان دون تقديم أو تأخير.

رِدَّتْ بلاغَتُهَـــا دَعوى مُعارِضِهَـــا ... رَدَّ الغَيُورِ يَـــدَ الجـــانِي عَنِ الحُرَمِ
لها مَعَـــانٍ كَموْجِ البحرِ في مَـــدَدٍ ... وفَـــوقَ جَوهَرِهِ في الحُســـنِ والقِيَمِ
فَمَـا تُـــعَدُّ ولا تُحـــصَى عجائِبُهَـــا ... ولا تُسَـامُ على الاِكْثـــارِ بالسَّأَمِ

قَرَّتْ بَهــا عينُ قارِيها فقُلتُ لــــه: لقــد ظَفِــرتَ بحَبْــلِ الله فــاعتَصِمِ
إنْ تَتْلُهـا خِيفَـةً مِنْ حَرِّ نـارِ لَظَى أطْفَأْتَ نارَ لَظَى مِنْ وِرْدِها الشَّــبِمِ[1]

وقد تسأل: فما رأيك بما قرَّره الطَّبَري ﵀ فقال: "يعني بذلك تَعَالى ذِكْرُهُ: هذا كتاب أنـزلناه إليك، يا محمَّد، لتنذر به من أَمَرْتك بإنذاره ﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأعراف:٢]، وهو من الـمؤخَّر الذي معناه التقديم، ومعناه: "كتاب أنـزل إليك لتنذر به"، و"ذكرى للمؤمنين "، فَلا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ"[2]؟

الجواب: الأصل أن نفهم القرآن كما أنزله الله ﷻ، ورتَّبَ كلماته، ولذا فإني لا أميل إلى ادِّعاء التقديم والتأخير؛ لأن الأصل في الكلام حمله على ظاهره، ومن أعظم معالـم إبانته ووضوحه أن تفهمه على ظاهره في كلماته وترتيبه، إلا أن يأتي ما يحملك على غير ذلك، وقد رأيت أن حمله على ذلك أبدى جمالًا واتصالًا وتأثيرًا في سامعه.

والآية على كلِّ تقدير من الاحتباك: إثباته (لتنذر) أولًا، دالٌّ على حذف (لتذكر) ثانيًا، وإثبات الـمؤمنين ثانيًا دال على حذف العالـمين أولًا.

والآن لا بد أن تسأل عن معنى كلمة ﴿لِتُنذِرَ﴾؟

وهذا الجواب: الإِنْذارُ: إخبارٌ وإعلام بتخويف، كما أنَّ التَّبشير: إخبار بسرور، كما قال تعالى: ﴿فَأَنذَرۡتُكُمۡ نَارٗا تَلَظَّىٰ﴾ [الليل: ١٤]، ويقولون: تَناذرَ القومُ كَذَا، أَي: خَوَّف بعضُهم بَعْضًا؛ وَقَالَ النَّابِغَةُ الذُّبيانيُّ يَصِفُ حَيَّة، وَقِيلَ: يَصِفُ أَن النُّعْمَانَ توعَّده فَبَاتَ كأَنه لَدِيغٌ يَتململ عَلَى فِراشه[3]:

(١) الأبيات للبوصيري في ديوانه (ص: ١٩٦، ١٩٧).
(٢) تفسير الطَّبَري (١٢/ ٢٩٧).
(٣) ديوان النابغة الذُّبياني (ص: ٣٣، ٣٤).

فبِتُّ كأَني ساوَرَتْني ضَئِيلَةٌ فبتُّ كأَني ... مِنَ الرُّقْشِ، فِي أَنيابِها السُّمُّ ناقِعُ
تَناذَرَها الرَّاقُون مِنْ سُوءِ سَمِّها ... تُطَلِّقُه طَوْرًا، وطَوْرًا تُراجِعُ

ونَذِيرة الْجَيْشِ: طَلِيعَتُهم الَّذِي يُنْذِرُهم أَمرَ عَدُوِّهم أَي يُعلمهم[(١)].

الإنذار هو الوظيفة النَّبويَّة الأولى، ويعني الإخبار الحريص والتعليم المقترن بقلق وإشفاق من المخاوف والمخاطر التي تنتظر المُنْذَرين مِنْ سُوءِ عَاقِبَةِ المخَالَفَةِ إن هم وقعوا أسارى لعدوِّهم الأول: الشَّيطان الرجيم.

وَالإنذار يَتَعَدَّى إِلَى مَفْعُولَيْنِ: المنْذَرِ، وَالْعِقَابِ الَّذِي يُخَوَّفُ مِنْ وُقُوعِهِ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ: ﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾ [النبأ: ٤٠]، وَقد يذكر المفْعُولَانِ، وقد يحذفان، أو يذكر أحدهما حسب السِّياق، وفي هذه الآية ﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ﴾ حُذِف المفعولان، والتقدير: لِتُنْذِرَ بِهِ العالم حلول العقوبات الطبيعية، أو غير المعتادة عليهم، إن أصروا على غفلتهم، فـ(العالم) مفعول أول، و(حلول) مفعول ثانٍ.

فإن قلت: وجدنا أن الله ﷻ قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ [البقرة: ٦]، فهل يختصُّ الغافلون والمجرمون بالإنذار؟

الجواب: الإنذار يكون للمؤمن والكافر؛ ليخوِّفهم من العواقب المستقبليَّة إن استمرُّوا على غفلتهم، كما قال جلَّ ذِكرُه: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، وَقَدْ يُخَصُّ بالإنذار المجرمون، كما في قوله تَعالَى جَدُّهُ: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾ [مريم: ٩٧]، وقد يُخَصُّ به المؤمنونَ المتَّقونَ؛ لأنهم المنْتَفِعُونَ بِهِ قَطْعًا، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾

(١) مقاييس اللغة (٥/ ٤١٤)، تهذيب اللغة (١٤/ ٣٠٤).

[يس:١١].

بصيرة: **الإنذار يكون للمؤمن والكافر: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾، وَقَدْ يُخَصُّ بالإنذار المجرمون: ﴿وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾، وقد يُخَصُّ به المؤمنون المتَّقون: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَـٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾.**

فهذا معنى الإنذار الذي بصَّرنا به قوله: ﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ﴾، فما معنى الذِّكرى؟

الجواب: الذِّكرى من الذِّكْر: وهو يدور حول قوَّة الشَّيء وصلابة مادَّته، فتارة يقال ويراد به هيئة للنَّفس بها يمكن للإنسان أن يحفظ ما يقتنيه من المعرفة، وهو كالحفظ إلّا أنَّ الحفظ يقال اعتبارًا بإحرازه، والذِّكْرُ يقال اعتبارًا باستحضاره، وتارة يقال الذِّكر لحضور الشَّيء القلب أو القول، ولذلك قيل: الذِّكر ذِكْران: ذِكْر بالقلب، وذِكْر باللِّسان.

فعندما تقول: أريد أن أتذكر أي أريد أن أعود إلى قوتي وصلابتي في استحضار الشيء في ذهني، وكلٌّ واحد منهما ضربان: ذِكْر عن نسيان، وذِكْر لا عن نسيان بل عن إدامة الحفظ، ومن الذِّكر عن النسيان قوله: ﴿فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَـٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾ [الكهف: ٦٣]، ومن الذِّكر بالقلب واللِّسان معًا قوله تعالى: ﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ [البقرة: ٢٠٠].

فالذِّكر يعود إلى حضور الشيء وقوَّته وصلابته بدلًا من ذهابه ونسيانه واضمحلاله (١).

والذِّكْرَى:

كثرة الذِّكر، فهي أبلغ من الذِّكر، قال تعالى: ﴿رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ [ص: ٤٣].

وبذا يكون معنى الذِّكرى: تذكُّر ما يُذْكَرون به، أي تذكُّر شرفهم ومجدهم وقوَّتهم.

---

(١) ينظر: المعجم الاشتقاقي (٢/ ٧١٨، ٧١٩)، المفردات في غريب القرآن (ص: ٣٢٨).

وتذكُّر ما يَذْكُرونه، أي وما يستحضرونه ليقيموا حياتهم وواجباتهم وحقوقهم، حتى لا تترك أو تنسى، وهذا التَّذكُّر يكون مرة بعد أخرى.

ويظهر لي أن المعنى يكون هنا: استحضر الصُّورة القائمة، ليوصلك تذكُّرها إلى فَهْمٍ أعلى وعمل أقوى تفيده من هذا التَّذكُّر، وبذلك يكون الذِّكْرُ: هيئة للنّفس بها يمكن للإنسان أن يستحضر ما يقتنيه من المعرفة، فيضاد الذِّكرَ: النسيان والإهمال والترك.

فما الحكمة في تخصيص الله ﷻ المؤمنين بأن يكون القرآن ذكرى لهم؟

أجيبك بأن الله ﷻ خصَّ الذِّكرى هُنَا بِالمؤْمِنِينَ؛ لِأَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ يَنْتَفِعُونَ به، ولأنهم ينبغي أن يحملوا رسالته، ولا يفتروا في تقديمها للعالم، فينبغي أن تجعلوا القرآن مذكِّرًا لكم، وظاهرًا في حياتكم حتى تُذْكَروا به، وتفتخروا به، وحتى تذكِّروا غيركم به، فهذه جمعتها كلمة ﴿ذِكۡرَىٰ﴾.

وتكون الذِّكرى بِالمواعِظِ، كَمَا قَالَ فِي سورة الذَّارِيَاتِ: ﴿وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الذاريات:٥٥]، وَفِي سورة الأنبياء: ﴿وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٤]، وَالمرَادُ بِالمؤْمِنِينَ هُنَا المؤمنون عند نزول السُّورَة، أو أصحاب الاستعداد لأنْ يؤمنوا، وهذا المعنى أوسع، فيدخل فيه غير المؤمنين لكن عندهم استعدادًا للسماع، ثم الإيمان.

كما أنك تلمس في كلمة (ذكرى) بصيرة أخرى:

بصيرة: يُبَصِّرنا قوله: ﴿وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أن الكتاب يجب أن يكون حاضرًا في عامَّتهم ومُثَقَّفيهم.. يجب أن يكون حاضرًا في حكَّامهم ومحكوميهم.

فهو الذي يتم به تذكير المؤمنين بما آمنوا به، فلا يغيب عنهم أن ينحرفوا عنه.. ماذا يعني ذلك؟

الجواب: إنه يعني إحياء جامعات القرآن ومعاهده ومدارسه، ومدارسته في وسائل الإعلام والتوجيه.. يعني أن:

القرآن أهمُّ ركائز الأمن القوميِّ في أيِّ بلدٍ يدَّعي أنه مسلم.. عند حدوث غير ذلك، فينبغي أن يَتَّهِمَ المؤمنون أنفسهم في إيمانهم، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

فإن قلت: ماذا يلهمنا التفريق بين الإنذار والذكرى في معرفة النفس الإنسانيَّة؟

الجواب: لقد شعر الرازي رحمه الله بالإلهام الكبير هنا، وتشعر أنت به عند التدبُّر في الآية:

إنه يشعرك بأن النُّفُوس البشريَّة تنقسم إلى أقسام:

النُّفُوس التي تحتاج إلى الإنذار، أي: إلى الإعلام بتخويف وإفزاع وإقلاق، وهي النُّفُوس الغافلة عَنْ عالم الغَيْبِ، الغَرِيقَة في طَلَبِ اللَّذّاتِ الجِسْمانِيَّةِ، والشَّهَواتِ الجَسَدانِيَّةِ.

والنُّفُوس التي تحتاج إلى الذِّكرى، أي: التذكير والذِّكر، وهي النُّفُوس الشَرِيفَة المُشْرِقَة بِالأَنْوارِ الإلهيَّة، التي ربَّما أصابها النِّسيان، أو عبث بسيرها المللُ وطول المسير.

ويقرِّر الرَّازي رحمه الله أن بَعْثَةَ الأنْبياءِ والرُّسُلِ في حَقِّ القِسْمِ الأوَّلِ: إنْذارٌ وتَخْويفٌ، فَإنَّهم لَمّا غَرِقُوا في نَوْمِ الغَفْلَةِ ورَقْدَةِ الجَهالَةِ، احْتاجُوا إلى مُوقِظٍ يُوقِظُهم، وإلى مُنَبِّهٍ يُنَبِّهُهم، وأمّا في حَقِّ القِسْمِ الثّانِي فَتَذْكِيرٌ وتَنْبِيهٌ؛ وذَلِكَ لِأنَّ هَذِهِ النُّفُوس بِمُقْتَضى جَواهِرِها الأصْلِيَّةِ مُسْتَعِدَّة لِلانْجِذابِ إلى عالم القُدُسِ والِاتِّصالِ بِالحَضْرَةِ الصَّمَدِيَّةِ، إلّا أنَّهُ رُبَّما غَشِيَها غَواشٍ مِن عالم الجِسْمِ، فَيَعْرِضُ لَها نَوْعُ ذُهُولٍ وغَفْلَةٍ، فَإذا سَمِعَتْ دَعْوَةَ الأنْبِياءِ واتَّصَلَ بِها أنْوارُ أرْواحِ رُسُلِ اللهِ تَعالى، تَذَكَّرَتْ مَرْكَزَها وأبْصَرَتْ مَنشَأها، واشْتاقَتْ إلى ما حَصَلَ هُنالِكَ مِنَ الرُّوحِ والرّاحَةِ والرَّيْحانِ، فطارت نحوهم كلَّ مطار فتمحَّضت لديها تلك الأنوار[1].

---

(١) تفسير الرازي (١٤/ ٢٩٦).

بصيرة: "الإنذار والذِّكْرى" وظيفتان ينشر بهما القرآن الوعي الصحيح، ويحيي بهما العدالة الـمفقودة في البشريَّة، ويحرِّر بهما الإنسانيَّة التي يضعها الشَّيطان في سجونه، ويجرُّها لكشف سوءاتها.

هنا تقع المعركة الدَّائمة بين الشَّيطان وجنوده وقبيله وبين أهل القرآن، فالشَّيطان وأتباعه يُصِرُّون على أن الإسلام مجرد حادث تاريخيٍّ ظهر أيام النَّبيِّ ﷺ وأيام الخلافة الراشدة، ثم مضى التَّاريخ، وتغيَّر الزَّمان، وجاءت أمجاد الشَّيطان الذي استولى على التفكير والواقع في حياة الإنسان!

هذا غير صحيح! فالقرآن يخبرنا في سورة آل عمران عن أعظم سُنَن الحياة في الدُّنيا: إنها سُنَّة التَّداول، وهذا يعني أن الإسلام قد يتمكَّن في زمن، ويضعف حملته في زمن آخر، لكن مواجهة الشَّيطان وقبيله قائمة، وينتصر الخير أحيانًا، فترتقي البشريَّة إلى التقوى والصلاح، ثم تنتكس أخرى فتصبح أسيرة لإبليس، ويصبح كثير من أبنائها جزءًا من أتباعه المحاربين للحقِّ، وهنا تحارب جنود إبليس القرآن بضراوة وشِدَّة، ويعملون بفعالية على أن يجذبوا البشريَّة إلى الارتكاس في ظلام الإجرام، والتَّلذُّذ بأوحال الجاهليَّة، والغيبوبة في ظلمات السَّيِّئات.

الضآلون من بني آدم هنا أسرى عند إبليس فتحيط بهم ظلمات التفكير، وظلمات الشَّهوات، وظلمات الأنانية، وظلمات الحماسة لنصرة الباطل الذي يظنونه حقًّا، وظلمات العبوديَّة والذلِّ.

هنا قد يتسرَّب "الحرج الموجع" إلى قلوب من يحمل القرآن، لكن الله ﷻ يثبتهم ليصبروا على وظيفة الإنذار والذِّكرى!

وهنا "يتذوَّق من يتعرَّض لمثل هذا الحرج، وهو يتحرَّك لاستنقاذ البشريَّة من مستنقع الجاهليَّة، طعم هذا التَّوجيه الإلهي للنَّبيِّ ﷺ: ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢﴾ [الأعراف: ٢]"(١).

اقرأْ لِيسمعَ كُلُّ مَن في سَمْعِهِ   وَقْرٌ مِنَ الأقصى إلى مَدْرِيدِ
اقرأْ لِتفهمَ أُمَّتِي معنى الهدى   معنى بلوغِ مقامِها المحمودِ
اقرأْ لِيَخرجَ جيلُنا الحُرُّ الذي   يبني جوانبَ صَرْحِنا المعهودِ (٢)

الخاصِّيَّة السَّابعة: تعريف العالم بضرورة اتباع ما أنزل الله، ونبذ كل ولي دونه:

ويُبَصِّرنا بذلك قوله جلَّ مَجْدُه: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ﴾ [الأعراف: ٣]:

فكلمة: ﴿ٱتَّبِعُواْ﴾ فعل أمر، والمعنى: أقول لك أيها النَّبيُّ، وأقول للعالم من بعدك مؤمنهم وكافرهم: اتَّبِعوا الأنظمة التي أنزلها لكم ربُّكم ﷻ، ففيها البينات والهدى، ومعنى ﴿ٱتَّبِعُواْ﴾ أي: سيروا متبعين أو تابعين خلف النظام الذي تجدونه في الكتاب.. تتبعونه خطوة خطوة، وقانونًا قانونًا، واحملوا أنفسكم على سلوك ذلك حملًا عظيمًا بقوة ومحبة وجد ونشاط.

ولكنك ستتساءل:

أين كلمة (أقول لك وللعالم) إنما قال الله ﷻ: اتبعوا ما أنزل إليكم.. فلماذا لم يقل: أقول لكم: اتبعوا؟

(١) في ظلال القرآن (٣/ ١٢٥٥).

(٢) الأبيات للدكتور عبد الرَّحمَن العشماوي.

فإليك الجواب: هذا أسلوب القرآن، فهو يظهر لك بعض أفانين تعبيره المدهش المعجز، فعندما قال الله ﷻ: ﴿ٱتَّبِعُواْ﴾ دون أن يقول: أقول اتبعوا، يحقق بهذا التعبير عِدَّة خطابات تتَّجه لعِدَّة جهات:

فمنها خطابه جلَّ ذِكرُه لنبيِّه ﷺ في نفسه، وكأنه يقول له: اتبع يا محمَّد ما أنزل إليك من ربك ﷻ، وهذا مثل قوله: يا أيها النَّبيُّ اتق الله.

ومنها خطابه لنبيِّه ﷺ ليخاطب العالم مؤمنهم وكافرهم بذلك، فكأنه قال: قل لهم أيها النَّبيُّ: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ﴾.

ففهمنا وجود كلمة (أقول لك ولكم) من دلالة الكلام عليه، حيث قال الله ﷻ: ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ﴾، ويثبت الطَّبَريُّ رحمه الله هذا الفهم، فيشير إلى أن قوله: ﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ﴾ الأمر بالإنذار، وفي الأمر بالإنذار، الأمرُ بالقول؛ لأن الإنذار قول، فكأن معنى الكلام: أنذر القومَ وقل لهم: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ﴾، وقرَّر الطَّبَريُّ رحمه الله احتمالًا آخر يؤدِّي إلى ذلك أيضًا؛ إذ يجوز أن يكون المعنى: لتنذر به، وتذكِّر به المؤمنين، فتقول للجميع: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ﴾[(١)].

وهنا تَسْبَحُ مع تدبُّر القرآن العظيم ليقنعك بعظمته، وقد تسأل: ما الأسباب التي ذكرها الله ﷻ هنا ليقنع بها العالم بضرورة اتِّباع القرآن المجيد؟

الجواب: أسلوب القرآن يقوم على الإيجاز المعجز، أو هو كما يصفه السَّابح في فلك التدبُّر القرآني: محمَّد عبد الله دراز رحمه الله: "القصد في اللَّفظ، والوفاء بحقِّ المعنى"[(٢)]، فدعنا نطبق ذلك على هذه الجملة المذهلة: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ﴾.. يقنعك الله ﷻ

---

(١) تفسير الطَّبَري (١٢/ ٢٩٨).

(٢) النبأ العظيم (ص: ١٤٣).

بضرورة اتِّباع ما أنزل إليك من ربِّك ﷻ، ولا يترك لك مجالًا ليكون لك عذرٌ في ترك ذلك، فبيَّن الله ﷷ لك منزلة الكتاب الخاتم، حيث بدأ الله ﷻ بذكره، فقال: ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾، ثم وجَّه الله ﷷ الخطاب للعالـم لاتِّباعه، فكان قد قدَّم على ذلك أسبابًا تدفعك إلى اتِّباعه، وكلٌّ واحد منها كافٍ:

فالسبب الأول: أنه كتاب المعرفة الواضحة.

والثاني: أنه كتابٌ مكتوبٌ موثق.

والثالث: أنه منزل من الله ﷷ، أي منزل من الأعلى إلى الأدنى.

والرابع: أنه منزل من الله ﷻ على النَّبيِّ الخاتم ﷺ لا على غيره ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾.

والخامس: أنه منزل إليكم، فقد وصلكم عن طريق النَّبيِّ ﷺ، فلا تظنوا أنه خاص بالنَّبيِّ ﷺ أو بقومه ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ﴾.

والسَّادس: أنه منزل ﴿مِّن رَّبِّكُمۡ﴾، وهذه الكلمة ﴿رَّبِّكُمۡ﴾ لها إيقاعها العظيم أي، ﴿مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ الذي أوجد أجسادكم، وربَّى أبدانكم.. أفيربِّي أبدانكم، ولا يربِّي أخلاقكم؟! أفيغذِّي أجسامكم ولا يغذِّي أرواحكم؟! أفينظِّم دنياكم ويهمل أخراكم؟!

كما ربَّى أبدانكم إيجادًا من العدم، وتغذية بمختلف النِّعم، وجب أن تتبعوه فيما يقوله من الكلمات والأحكام والحِكَم، وتلتزموا بما شرَّع ونظَّم، وتخضعوا لما حكم، وتنقادوا لما أبرم.

وهذه الكلمات تختصر لك سيلًا من الكلمات الـمقنعة؛ فمنها كأن ربنا يقول: كيف تتبعون من هو دونكم في الخلقة والصنعة والقدرة كالحجر؟ وكيف تتبعون من هو مثلكم في الخلقة كالبشر؟ وكيف لا تتبعون من هو أعلى منكم، بل هو ربكم الذي رباكم إيجادًا وتنشئة؟

في قول ربنا: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ قد تناقش متسائلًا: لكن ما حقيقة الاتِّباع؟ لماذا جاءت هذه الكلمة لتعبِّر عن ضرورة السَّمع والطَّاعة لربِّنا دون غيرها من الكلمات، مثل: امتثلوا؟

الجواب: الِاتِّبَاعُ حَقِيقَتُهُ الـمشْيُ وراءَ ماشٍ، واقتداء اللاحق بإمام سابق، ليكون التابع خلف المتبوع يجري وراءه، ويأتمر بأمره، فالاتباع يَقْتَضِي وجود ذاتَيْنِ:

الذَّات الأولى: التَّابِع، والذات الثَّانية: الـمَتْبُوع، يُقالُ: (اتَّبَعَ) و(تَبِعَ)، مِنْ (تَبِعَ غيره) بمعنى تلاه وقَفَا أثره ولَحِقَ به بلا فَصْلٍ، ومنه قولهم: غُصْن متتابع: إذا كان مستويًا لا أُبَنَ فيه، وهي العُقَد كالتي تكون بينَ الأنابيب، والتي تكون مكانَ الغُصنِ المقطوعِ، والتُّبَّعُ: الظِّل؛ لأنه تَابِعٌ أَبَدًا لِلشَّخْصِ(١).

ويظهر لي أنَّ الزَّمخشريَّ ﵀ قد أصاب كبد الحقيقة عندما فرَّق بين: (أتبع)، و(تبع)، فقال في سورة يونس ﵇: ﴿فَأَتۡبَعَهُمۡ﴾ [يونس: ٩٠] فلحقهم، فيقال: تبعته حتى أتبعته(٢).

فقوله: ﴿ٱتَّبِعُواْ﴾ أي: سيروا وراء ما أنزل إليكم من ربِّكم ﷻ سير التابع للمتبوع لا يفارقه، ولا يخالفه ولا ينأى عنه، ولا يتأخَّر عليه، ولا يتباطأ في اللِّحاق به، ولا يتثاقل في القيام بحقِّه، فلا يكون بينه وبينه فاصل.

تبع: سار وراءَ مَنْ قَبْله، وسيرُه قد يكون بفاصل، فيكون بين المتبوع والتابع ثلاثة أشخاص أو أربعة مثلًا، لكن المطلوب أن يَتْبَعَهُ حتى يتَّبعَه، فيلحقه، ولا يكون بينهما فاصل لشِدَّة المتابعة وعدم الالتفات إلى الآخرين.

---

(١) ينظر: تهذيب اللغة (٢/ ١٦٩)، التحرير والتنوير (٨ب/ ١٥).

(٢) ينظر: تفسير الزمخشري (٢/ ٣٦٧).

فيكون المعنى الإجمالي لقوله: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ أي: سيروا وراء الكلمات الإلهيَّة خطوة خطوة حتى تتبعوها أي تلحقوها فلا يكون بينكم وبينها فاصل.

عرفنا معنى كلمة ﴿ٱتَّبِعُواْ﴾ مفردة فلا بد أن نتعرَّف إلى المعنى التَّركيبيِّ للجملة الثَّانية: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ﴾ [الأعراف: ٣]، فما معنى ﴿أَوۡلِيَآءَ﴾؟

الجواب: الأولياء جمع وليٍّ، وهو ما قَرُب منك حتى اتخذته الرفيق الذي لا يُفارَق، فهو الموالِي، أي الذي وليك أي جاء بعدك، ولكن مجيئه مجيء ارتباط، فهو القريب الملازِمُ، والحليف المعاوِنُ المناصر، ويُطْلَقُ الولي عَلى النَّاصِرِ، والحليف، والصَّاحِبِ الصَّادِقِ المَوَدَّةِ، ويدخل في هذه الكلمة كل ولي اتخذته سواء أكان بشرًا، أم حجرًا، أم نظامًا، أم غير ذلك، وأعظم الأولياء: الله ﷻ، ولذا قال في هذه السُّورَة: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ﴾ [الأعراف: ١٩٦]، اللهم تولنا فيمن توليت.

وكلمة: ﴿دُونِهِۦٓ﴾ تدلُّ على المداناة والمقاربة والمغايرة، يقال: هذا دون ذاك، أي هو أقرب منه، أو أقل منه، وأنزل منه في الرُّتبة، ويقولون: أَمْرٌ دُون، وثَوبٌ دون، أي: من الشيء الدُّون، أي: الهين الحقير الدَّنِي الخَسيسِ، ومنه:

إِذا مَـا عَـلا الـمـرءُ رامَ الـعُـلا ... ويَـقْـنَـع بـالـدُّونِ مَـن كـانَ دُونـا(١)

ويكونُ بمعْنَى غيرٍ، وَمِنْه قوْلُه تعالَى: ﴿وَيَعۡمَلُونَ عَمَلٗا دُونَ ذَٰلِكَۖ﴾ [الأنبياء: ٨٢]، أَي: غير الغَوْص، مثل: البِناءِ، وَكَذَا قوْلُه تعالَى: ﴿ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ﴾ [المائدة: ١١٦]، أَي: غَيْرِ اللهِ ﷻ، وقوْلُه تعالَى: ﴿وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النِّساء: ٤٨]، أَي: مَا سِوَى ذلِكَ، وقيلَ: أَي مَا كانَ أَقَلَّ مِن ذلِكَ، والمعْنَيان مُتَلازِمَان(٢).

---

(١) البيت منسوب لابن جابر في شرح ديوان المتنبي للعكبري (٣/ ٣٤٥).

(٢) مقاييس اللغة (٢/ ٣١٧)، تفسير الرازي (٢/ ٣٥٠)، تاج العروس (٣٥/ ٣٣).

وبذلك فهمنا أن كلمة: ﴿أَوۡلِيَآءَ﴾، تعني: نصراء، وحلفاء، وأقرباء، وأصدقاء، وأصحابًا، وأندادًا يوالونهم، أي: يقاربونهم غير مفارقين لهم، وكلمة (دون) أي غير الله ﷻ، مما لا يمكن أن يقاربه فضلًا عن أن يساويه، ففيها وضع وحطٌّ من قيمة كلِّ وليٍّ يُوَالى مضادًّا لولاية الله ﷻ، فهل تقارنون الأصنام -أو حتى طواغيت الحكام- بربّكم جل جلاله؟

أي: لا تتبعوا حلفاء، أو نصراء، أو أحباء غير الله ﷻ توالونهم، وتنصرونهم وتحبونهم.

ويكون معنى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ﴾ [الأعراف: ٣]، أي: لا تتبعوا من غير الله ﷻ أحدًا توالونه فإنه مهما كان، أو أيًّا كان يكون دُوْنًا صغيرًا أمام الله سبحانه وتعالى؛ فكيف ترضون بالصَّغير وتتركون الكبير؟ وكيف تحبُّون الحقير وتهجرون الأعظم الكبير؟

فلا تتَّبعوا من يليكم من الخلق إذا ضادوا أمر الله جل جلاله، ولا تغتروا بقربهم النَّسَبيِّ، ولا بقربهم الوطنيِّ، ولا بقربهم التَّسَلُّطيِّ بأن يكونوا حكَّامًا أو علماء.

لا تتَّبعوا من دون الله ﷻ مَنْ تطلبون منه أن يُشَرِّعَ لكم، ولا تتَّبعوا من دون الله جل جلاله مَنْ تظنُّون أنه ينفعكم أو يضرُّكم؛ فإن الله سبحانه وتعالى هو النَّافع، والضَّارُّ، وهو العليُّ الكبير..

هو الذي أنعم على الموجودات بالْخَلْقِ وَالتَّقْدِيرِ..

هو من وضع التَّشريعات التي تدير حياة البشريَّة وتنظِّمها بالتَّوجيه وَالتَّدْبِيرِ..

وهذا يدعوك إلى أن تعتزَّ بولايته ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ﴾، لا تتوقَّف، وردِّد ما قاله ملَكٌ لحذيفة بن اليمان رضي الله عنه، فقد أتى حذيفة رضي الله عنه النَّبيَّ ﷺ فقال: «بَيْنَمَا أَنَا أُصَلِّي، إِذْ سَمِعْتُ مُتَكَلِّمًا يَقُولُ: اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ كُلُّهُ، وَلَكَ الْمُلْكُ كُلُّهُ، وَبِيَدِكَ الْخَيْرُ كُلُّهُ، وَإِلَيْكَ يَرْجِعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ، عَلَانِيَتُهُ وَسِرُّهُ، أَهْلٌ أَنْ تُحْمَدَ أَبَدًا، إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي جَمِيعَ مَا مَضَى مِنْ ذُنُوبِي، وَاعْصِمْنِي فِيمَ بَقِيَ مِنْ عُمْرِي، وَارْزُقْنِي عَمَلًا زَاكِيًا تَرْضَى بِهِ

عَنِّي». قَالَ فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ، فَقُلْتُ: بَيْنَمَا أَنَا أُصَلِّي، إِذْ سَمِعْتُ مُتَكَلِّمًا، يَقُولُ هَذَا الْكَلامَ أَجْمَعَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «ذَاكَ مَلَكٌ، أَتَاكَ يُعَلِّمُكَ تَحْمِيدَ رَبِّكَ»(١).

ستقول حينها متسائلًا، وربما منكرًا: كيف ذلك؟ الإنسان يحب أن يتّبع وليّه سواء أكان قريبًا قربًا نسبيًّا، مثل: اتباع الابن لأبيه، أم قربًا وظيفيًّا، مثل: اتِّباع المُوَظَّفين لمديريهم.. فكيف لا نتَّبعهم؟ ستنهار عندها أنظمة الحضارات، ويحدث الهلاك؟

هنا يأتيك الجواب الذي يبيِّن لك جمال قوله: ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾، وتظهر لك بصائر القرآن:

> بصيرة: قال ربُّنا جلَّ مجدُه: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ﴾، ولم يقل: (ولا تتبعوا أولياء)؛ ليَضْبِطَ لك العلاقة بين اتِّباع ما أنزله الله ﷻ، واتِّباع أولياء من دونه، فإذا كان اتِّباع غيره تابعًا لاتِّباع ما أنزله الله ﷻ ومواليًا له، شُرعت هذه الوَلاية ووُثِّقت، وإذا حدث التَّعارض بين اتِّباع ما أنزل الله ﷻ واتِّباع غيره حَرُم هذا الاتِّباع.

لم ينهك الله ﷻ عن اتباع الأولياء مطلقًا، بل قيَّد ذلك بقوله: ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾، ويكون المعنى: إن كانوا نصبوا أنفسهم ليكونوا لكم من دون الله ﷻ، بأن يجعلوا أنفسهم في جهة غير جهة الله ﷻ، فلا تتَّبعوهم، فهم سيضلونكم عن خطط النَّجاح، وأسباب الفلاح، أمَّا إن كان هؤلاء الأولياء يسيرون بكم في سُبُل السَّلام التي تنتمي إلى صراط الله ﷻ المستقيم، ولا يكونون من دون الله، بل يسيرون بكم إلى الله ﷻ، فاتَّبعوهم؛ فإنكم تعينوهم ويعينونكم.. هنا تعلم جمال هذا الاحتراس ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾.

ومن صور اتِّباع الأولياء ممَّا لا تكون الولاية فيه (دون الله)، بل تكون مما أمر الله ﷻ به:

---

(١) أحمد (٢٣٤٠٣)، الدعاء للطبراني (١٧٤٦)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٩٦): "رواه أحمد، وفيه راو لم يُسَمَّ، وبقية رجاله ثقات"، وإن كان فيه ضعيف فلا يخفى جواز روايته هنا.

أولًا: اتِّباع الأرحام، فقد جاء النَّبيُّ ﷺ بصِلة الرَّحِم النَّسَبيَّةِ الخاصَّة والعامَّة، فقَالَ تَعَالى ذِكْرُهُ: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ﴾ [الأنفال: ٧٥]، وجاء بصِلة الرَّحِم الإيمانيَّة فقال: ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ﴾ [التوبة: ٧١]، وجاء بصِلة الرَّحِم الإنسانيَّة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ﴾ [النِّساء: ١].

ثانيًا: اتِّباع الأولياء في الأسباب الدُّنيويَّة التَّجريبيَّة، التي ليس فيها تحليل للحرام، ولا تحريم للحلال، كما قال ﷺ: «إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، إِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دِينِكُمْ، فَخُذُوا بِهِ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ رَأْيِي، فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ»(١).

ثالثًا: في هذه الآية ترى الإثبات والنَّفي، فالإثبات: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ﴾، والنَّفي: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ﴾، وهكذا تكون العلاقة الصَّادقة بالله ﷻ: باتِّباع أمره، وترك ما جافاه وعاداه.

﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ﴾: فاتَّخذوه ربًّا معبودًا، وإلهًا يدبِّر أموركم، ويُفَصِّل لكم تشريعات حياتكم، لتكون له الحاكمية العليا في الكون، فلا تتلقَّوا الشَّرائع والقوانين، والقِيَم والموازين، والعقائد والتَّصورات إلا منه جل جلاله.

﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ﴾: يَرُدُّونكم إلى تشريعات الجاهليَّة وثقافتها وقوانينها، فهناك القوى الملحدة التي تنكر وجود اللّه ﷻ أصلًا، فيتخذون أنفسهم آلهة من دون الله جل جلاله، وهناك القوى الوَثنيَّة التي تشرك مع الله سبحانه وتعالى آلهة من الحَجَر، أو البَشَر، أو الشَّمس، أو القمر، وهناك من عبيد القوَّة، والجنس، والشَّهوات، والمال، يتخذون الأقوياء من البشر بالنِّسبة لهم أولياء من دون ربِّ البشر.

(١) مسلم (٢٣٦٢).

ترى التَّرتيب الـمُحْكَم الـمنطقيَّ واضحًا، فبعد أن بيَّن الله ﷻ الهدف العظيم، والـمقصد الكبير للإنزال القرآنيِّ في الآية الثَّانية فقال: ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٢]، بيَّن هنا الوسيلة النَّاجعة، والطريقة النَّافعة للوصول إلى ذلك الهدف السامي، والمقصد المتنامي، فقال: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ﴾: ثم بيَّن محذِّرًا مما ينحرف بمسار تحقيق الهدف الشَّريف، وينحدر إلى مهاوي الخطر المخيف، فقال: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ﴾.

والهدف يتلخَّص في الإنذار والإذكار بالكتاب، فكان من الطبيعي أن يتوجه بالخطاب إلى العالـم رحمة بهم، ليخبرهم أن عزهم الدُّنيوي، ومجدهم الحضاري، وأن سعادتهم الأُخرويَّة، كلُّ ذلك يجدونه ويبنونه باتباع ما أنزل إليهم من ربهم.

وربما سألت: ما الحكمة من قول الله تعالى: ﴿مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ ولم يقل: اتبعوا هذا الكتاب؟

هنا ترى الأنوار القُرآنيَّة تعرج بك في أفلاكها؛ فعندما قال الله ﷻ: ﴿مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ﴾، فقد حقَّق عِدَّة مقاصد فمنها:

الأول: إنزال الكتاب على النَّبيِّ ﷺ لا يعني أنه لا صِلة لنا به، فذكر الله ﷻ أولًا أن الكتاب أُنزل إلى النَّبيِّ ﷺ فقال: ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ [الأعراف: ٢]، وهنا يخبرنا أن الكتاب أُنزل إلينا أيضًا، ولكن ذلك كان عن طريق البلاغ الذي قام به من أُنزل إليه الكتاب أولًا وهو النَّبيُّ ﷺ، فقال: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ﴾ [الأعراف: ٣].

الثاني: أبان منزلة الكتاب الخاتم بالتَّذكير مرَّة أخرى بأنه منزل من عند الله ﷻ، وأبان عن الحُكْم مع عِلَّتِه، فالحُكْم: وجوب أن يتَّبع الإنسان الكتاب، والعِلَّة: أنه أنزل إليه من ربِّه ﷻ، فلم يأته من بشر إلا على سبيل التَّبليغ.

الثَّالث: أنه وصف نفسه بالربُّوبية: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ﴾، والتَّربية تذكركم بأنه الذي أوجد أجسامكم، وركَّب في أحسن صورة أبدانكم، أفيربِّي أبدانكم ولا يربِّي أخلاقكم، ولا يُوْجِد نظامًا لترتيب حياتكم؟

وكما يربِّي أبدانكم إيجادًا من العدم وتغذية بمختلف النعم، وجب أن تتَّبعوه فيما يقول من الكلمات والحكم. هذه الكلمات تختصر لك سيلًا من الكلمات التي تقنعك بأهمِّيَّة اتباع القرآن الكريم، وكأنَّ الله سبحانه وتعالى يقول: كيف تتَّبعون من هو دونكم في الخِلْقة والصَّنعة والقدرة كالحجر، وكيف تتَّبعون من هو مثلكم في الخِلْقة كالبشر، وكيف لا تتَّبعون ربَّكم الكبير المتعال؟

الرابع: قال الله ﷻ: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ [الأعراف: ٣] ليخاطب بذلك العالـم، كلٌّ بما يناسبه، وليس أُمَّة محمَّد ﷺ فقط، والسُّورَة مكِّيَّة، والخطاب فيها للمسلمين ولغيرهم، فقد ورد في هذه السُّورَة ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، فكأن الله ﷻ يقول: يا أيّها النَّاس اتّبعوا ما أنزل إليكم من ربّكم، والذي أنزل إليكم من ربِّكم هو هذا الكتاب الذي يمثِّل البيان الإلهيَّ الأخير للبشريَّة، ولو كان اليهود والنَّصارى يتَّبعون حقًّا ما أنزل إليهم من ربِّهم، ويتركون تحريفاتهم لآمنوا بهذا الكتاب، وبالرسول الذي جاء به ﷺ كما قال تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَسۡتُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡۗ﴾ [المائدة: ٦٨].

ولو أقاموا حقَّ التَّورَاة والإنجيل لهداهم ذلك إلى اتِّباع القرآن، فلا يمكن لهم أن يقيموا التَّورَاة والإنجيل على الحقيقة إلا إذا اتَّبعوا القرآن.

فليس الخطاب لأتباع هذا الكتاب فقط، وبذا أخالف البِقَاعِيَّ رحمه الله هنا، حيث حصر الخطاب في أتباع الكتاب فقط.. ويحقُّ لك أن تسألني:

لماذا اخترت أن يكون الخطاب للعالـم مسلمهم وكافرهم بدلًا من أن يكون لأتباع القرآن، كما مال إليه كثيرٌ من المفسِّرين؟

الجواب واضح: لأنَّنا يجب أن نُعْمِل لفظ الآية، والله ﷻ يقول فيها: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ [الأعراف: ٣]، وليس اتبعوا القرآن، لاحِظ كان يمكن أن يقول: كتاب أُنزل إليك فاتَّبعوا هذا الكتاب، فما اخترته هو الذي يدلُّ عليه ظاهر السِّياق، والأصل أن يحمل الكلام على الظَّاهر إلا لدليل صريح يدلُّ على خلاف الظَّاهر.

وقد تسأل: أليس دعوة غير الـمسلمين كالنَّصارى واليهود إلى اتِّباع كتابهم بعد نزول القرآن فيه تناقض بما أن القرآن ناسخ لها؟

الجواب: هذا ليس تناقضًا، والدَّليل على ذلك ما ورد في سورة الـمائدة وهي سورة مَدَنيَّة من أواخر ما نزل، وفيها يقول الله تعالى: ﴿وَكَيۡفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوۡرَىٰةُ فِيهَا حُكۡمُ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ٤٣]، وقال: ﴿وَلۡيَحۡكُمۡ أَهۡلُ ٱلۡإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِۚ﴾ [المائدة: ٤٧].

نحن نقول لهم: طبِّقوا ما عندكم من التَّوراة والإنجيل، ولكنهم عندما يطبِّقون ما أنزل إليهم من التَّوراة والإنجيل مخلصين في التَّطبيق سيكتشفون أن هناك تناقضاتٍ تدلُّ على التَّحريف، وعند ذلك سينبذون المحرَّف، وقد اعترف كثير منهم بهذا التَّحريف، ثم سيهديهم ذلك -إن صدقوا- إلى اتِّباع القرآن، أو سيهديهم إلى السَّلام الحقيقيِّ الصَّادق، وليس الـمخادع مع أهل القرآن، وهذا هو الـمطلوب.

والآن تعال ننظر جمال الكلام، واختزاله لأقوى الـمعاني، فالخطاب هنا لأربع فئات تشكِّل العالـم:

الفئة الأولى: الوثنيُّون: فعندما يكون الخطاب للوثنيِّين فإنه يهزُّهم هزًّا؛ إذ يحدِّثهم عن ربِّ العالـمين الذي أنزل كتابًا يجب أن يُتَّبع، ويضعهم في حرجٍ مع أنفسهم عندما يعبدون حجرًا، أو حيوانًا، أو شمسًا، أو قمرًا، لا يملك أن يخاطبهم، فكيف ينزل إليهم كتابًا؟!

الفئة الثَّانية: الملحدون: فعندما توجِّه هذا الخطاب للملحدين ربَّما وجدت من أبقى على شيء من الفكر عنده في منازعة رهيبة مع نفسه العاقلة التي أبقاها بين جنبيه بعيدًا عن الجحود والعناد؛ إذ إنَّ الله ﷻ يخاطبه بوصف الرُّبوبية والتَّربية، ويبيِّن له أنه أنزل إليه كتبًا ليتَّبعها، بينما هو -لضعف عقله- يصرُّ على إنكار ربِّ العالـمين، وهو لا يستطيع أن ينكر وجود ربٍّ صنع أصغر الـمصنوعات.

الفئة الثَّالثة: أهل الكتاب: فعندما توجِّه الخطاب لأهل الكتاب جعلتهم في موقفٍ يجب أن يظهروا فيه صدق دعواهم بأنَّهم أهل كتاب، إذ إنك لا تطالبهم باتِّباع الكتاب الخاتم بالضَّرورة، بل تطلب منهم أن يتَّبعوا ما أنزل إليهم من ربِّهم ﷻ، وذلك يعني أن يتَّبع اليهود التَّورَاة، وأن يتَّبع النَّصارى التَّوراة والإنجيل، فإما أن يستجيبوا، وإما أن يُفصحوا بمخالفتهم لما أنزل إليهم، وكذبهم في انتمائهم، وتغييرهم لمعالـم دينهم.

الفئة الرَّابعة: المسلمون: فعندما يكون الخطاب للمسلمين توقفهم أمام حقيقة ادِّعائهم بأنهم مسلمون.. هل هم كذلك حقًّا، فليُثْبتوا ذلك باتِّباع ما أنزل إليهم من ربِّهم ﷻ.

ألـم تر إلى كلِّ هذه الـمعاني التي توجَّه للعالـم كيف اكتنزها قول ربِّنا -جلَّ مَجْدُه-: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ﴾ [الأعراف: ٣]؟

يحقُّ لك أن تسأل أيضًا:

ما الحكمة من اختيار كلمة: ﴿ٱتَّبِعُواْ﴾، دون: تابعوا، أو نفِّذوا، أو قوموا؟ ما الحكمة من اختيار صيغة الافتعال؟

الجواب: هذا سؤالٌ تدبُّريٌّ رائع، فكلمة ﴿اتَّبع﴾ على وزن افتعل، والافتعال يدلُّ على المجاهدة والتَّعب؛ ليصبح الذي يتذكَّره الإنسان عادة ونظامًا في حياته، وفي حياة المجتمع، ويعني ذلك أنه ينبغي أن تصبروا يا أيُّها المبلِّغون على أن تبلِّغوا النَّاس بأن يتَّبعوا ما أنزل إليهم من ربِّهم ﷻ.

ويعني ذلك أنكم لا بدَّ أن تجاهدوا أنفسكم وأهواءكم عند متابعة توجيهات القرآن، فكأنه ﷻ قال: درِّبوا أنفسكم، وتحكَّموا بها لتتمكَّنوا من متابعة ما أنزل إليكم من ربِّكم ﷻ.

وفي اتِّباعهم ما أنزل إليهم من ربِّهم اكتساب الخيرات، وتحصيل البركات، ودفع البلايا، ومحو الخطايا، وتحقيق السَّعادة، والتَّمكين والسِّيادة، فما من هدف لهم مرغوب، ولا مقصد مطلوب، إلا وسبيله الاتِّباع، وفواته بالصُّدود والامتناع.

ومثل ذلك نهيه عن اتِّباع الأولياء من دونه؛ إذ قال: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ﴾ ليبيِّن أن ترك الأولياء يعني ترك الأهواء، وذلك يحتاج إلى مُجَاهَدَةٍ، وتَدَرُّبٍ وتَمْرِينٍ، حتى تستطيع النَّفس الوصول إلى ترك الأولياء الذين يَحُولُون بين الإنسان وبين متابعة الأنظمة التي أنزلها ربُّه إليه، كما أنَّ التَّعبير بالافتعال يوحي أيضًا أنَّ ما كان على سبيل الهفوة والنِّسيان الطَّارئ فهو في محل العفو؛ إذ لم يصرَّ صاحبه على إلزام نفسه أن يتَّبع الأولياء من دون الله ﷻ.

ننتقل إلى قوله عزَّ شَأْنُهُ: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٣].. ما الخاصِّيَّة الجديدة من خواصِّ القرآن التي يُبَصِّرنا الله ﷻ بها هنا؟

الخاصِّيَّة الثَّامنة: القرآن حقٌّ حتى لو قلَّ التَّذكُّر به وقلَّ اتباعه، ويجب أن يحترس المؤمنون به من الغفلة عنه:

ويُبَصِّرنا بذلك قوله عزَّ شَأْنُهُ: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف:٣]:

عاتب الله ﷻ البشريَّة مسلمين وغير مسلمين ألطف العتاب وأقواه، فقال: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف:٣]، وهذه الجملة في مَوْضِعِ الحالِ من الـمخاطبين السَّابقين، وهم العالـمون، وهي حالٌ سَبَبِيَّةٌ كاشِفَةٌ لواقع صاحِبِها، ويَجُوزُ جَعْلُ الجُمْلَةِ اعْتِراضًا تَذْيِيلِيًّا، والتَّذَكُّرُ مَصْدَرُ الذُّكْرِ -بِضَمِّ الذَّالِ-(١).

وهذه الجملة يتَّضح منها التَّحريك والاستفزاز للإنسان ليتغيَّر حاله من الغفلة إلى التَّذكُّر، وقد تسأل: كيف يحرِّك قوله تعالى: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ حال الإنسان حتى يتغيَّر ويغيِّرَ إلى الأحسن؟

وإليك الجواب: تأمَّل الجمال: فهذه الكلمة تقتضي مراحل:

الأولى: التَّذكُّر بحُضُور الصُّورة في الذِّهْنِ، فلا تُنسى، ولا تُهمَل، ولا تترك، ومنه الذَّكر من الأجناس: ما خَشُن منه وغَلُظ.

فالذِّكر يعود إلى حضور الشيء وقوَّته وصلابته، بدلًا من ذهابه ونسيانه واضمحلاله، وما الذي نستحضره في أذهاننا؟

نستحضر الصَّلاة.. الزَّكاة.. توجيهات القرآن.. توجيهات وأخلاق النَّبيِّ ﷺ.

الثَّانية: إذا حدث استحضار الصُّورة (التَّذكُّر) جاءت مرحلة الذِّكْر، فيَذْكُر الإنسان ما تذكره بلسانه أو بعمله، ويتذكَّر كيف يدير القرآن حياته، فعلى سبيل المثال: تذكَّر فاستحضر صورة أذكار الصَّباح والمساء، أو صلاة الضُّحى، أو برَّ والديه، فذكر عند ذلك؛ إمَّا بلسانه، وإمَّا بعمله.

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير (٨ب/ ١٧).

الثَّالثة: ثم تأتي مرحلة يُذكَر الإنسان بما يَذْكُره، فيشتهر به، ويصبح صيتًا له، وقوَّة في حياته، فمثلًا: تذكَّر صلاة الضُّحى، فذَكَر ذلك بأن صلاها، ثم صار يُذْكَر بذلك، فيقال: فلان لا يترك صلاة الضُّحى.

ما القراءات الواردة في قوله جلَّ ذِكرُه: ﴿تَذَكَّرُونَ﴾؟ وما المشاهد التي تصوِّرها؟

الجواب: في قوله جلَّ ذِكرُه: ﴿تذكرون﴾ ثلاث قراءات[1] توضِّح ثلاثة مشاهد:

المشهد الأول: قرأ ابن عامر ﵀: ﴿يَتَذَكَّرُونَ﴾ بياء قبل التَّاء، وهذه الكلمة مكتوبة في مصاحف أهل الشَّام كذلك مع تخفيف الذَّال، وتصوِّر لنا هذه القراءة أن الله ﷻ يخاطب مَن يبلِّغ الرسالة لإخباره بواقع العالم، الذي يبلِّغ فيه رسالة الله ﷻ، فسيجد قليلًا من العالمين يتذكَّرون توجيهات الكتاب المبين، وسيجد المتذكِّرين منهم يقل حجم ما يتذكرونه، فلا يحزنه ذلك، أو يفتُّ في عضده، بل يواصل الصبر على تبليغ رسالة ربه ﷻ، ومحاولة إنقاذ العالمين.

المشهد الثاني: قرأ حمزة والكسائي وخلف وحفص ﵏: ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ بتاء واحدة من غير ياء قبلها وتخفيف الذَّال، وأصل الكلمة: تتذكرون، وهذه القراءة تصوِّر لك النَّبيَّ ﷺ وكلَّ مبلِّغ للقرآن وهو يعاتب المبلَّغين على قِلَّة المتذكِّرين منهم، وقِلَّة ما يتذكرونه من الكتاب، فيقول لهم: اتِّبعوا ما أنزل إليكم من ربِّكم، ولا تتبعوا من دونه أولياء. ما لكم يا أيها النَّاس قليلًا ما تذكرون؟

المشهد الثالث: قرأ الباقون: ﴿تَذَّكَّرُونَ﴾ بإدغام التَّاء الثَّانية في الذَّال، فتصير مشدَّدة، وأصل كلمة: ﴿تَذَّكَّرُونَ﴾ (تَتَذَكَّرُونَ)، فَأُدْغِمَ تاءُ تَفَعَّلَ في الذَّالِ؛ لِأَنَّ التَّاءَ مَهْمُوسَةٌ، والذَّالَ مَجْهُورَةٌ،

---

(١) ينظر: النشر في القراءات العشر (٢/ ٢٦٧).

والـمجْهُورُ أَزْيَدُ صَوْتًا مِنَ الـمهْمُوسِ، فَحَسُنَ إدْغامُ الأَنْقَصِ في الأَزْيَدِ، وما مَوْصُولَةٌ بِالفِعْلِ وهي مَعَهُ بِمَنزِلَةِ الـمصْدَرِ[1].

وقد تسأل: ما الحكمة لمن قرأ بالتَّشديد فأدغم التاء في الذال؟

الجواب: كأنه يخبرهم أيضا بأن تذكركم أيضًا عملية تحتاج إلى انفعال وإلى مجاهدة، دل عليها هذا الإدغام الذي دلَّت عليه الشَّدَّة.

فإن قلت: هل كلمة: ﴿قَلِيلًا﴾ هنا تدلُّ على القلة مقابل الكثرة، أم تدل على العدم؟

الجواب: ذكر ابن عاشور رحمه الله أن ﴿قَلِيلًا﴾ يَجُوزُ أَنْ يُحْمَلَ عَلَى حَقِيقَتِهِ؛ لِأَنَّهُمْ قَدْ يَتَذَكَّرُونَ، ثُمَّ يُعْرِضُونَ عَنِ التَّذَكُّرِ فِي أَكْثَرِ أَحْوَالِهِمْ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ﴿قَلِيلًا﴾ مُسْتَعَارًا لِمَعْنَى النَّفْيِ وَالْعَدَمِ عَلَى وَجْهِ التَّلْمِيحِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [البَقَرَة: ٨٨]، فَإِنَّ الْإِيمَانَ لَا يُوصَفُ بِالْقِلَّةِ وَالْكَثْرَةِ[2]، والأصل حمل الكلام على مقتضى الظاهر إلا بقرينة، وهذه القاعِدَة من القواعد التَّفسيريَّة التي قرَّرْتها في كتابي "الأساس والتنوير في أصول التَّفسير"[3]، ولا بدَّ من الاعتماد عليها، فالأصل عدم اللُّجوء إلى أساليب الـمجاز، وإلى الخروج عن الحقيقة، أو عن مقتضى الظاهر بدون دليل قويٍّ ظاهر، وهنا يقول الله تعالى: ﴿قَلِيلًا﴾ فنقول: المعنى كما هو ظاهر اللفظ: القليل هنا حقيقة، فهو ضدُّ الكثرة، وليس مستعملًا في العدم، كما جوَّزَ الطَّاهر رحمه الله، وذلك لأنه لا يكاد يوجد إنسان حتى أعتى مجرمي الأرض إلا تذكر، وذلك ليس إلا تذكرًا قليلًا مقارنة بالحال العام.. ولتوضيح ذلك نقول:

---

(١) تفسير الرازي (١٤/ ١٩٨).

(٢) التحرير والتنوير(٨-ب/ ١٨).

(٣) ينظر: (١/ ٣٢١).

إما أن تكون ﴿قَلِيلًا﴾ صفة للوقت، أي: زمنًا قليلًا تتذكَّرون فيه، أو صفةً للآيات أي: قليلًا من الآيات تتذكَّرون بها، وأنتم تتركون الكثير.

ولذلك تجد بعض الملحدين يقول: أنا يعجبني القرآن في كذا، فمثلًا: (نِتشه) من الذين يكادون أن يُعبدوا في أوساط الملحدين، وفي كتابه "المسيح الدَّجال" أثنى في مواضع على بعض التَّعليمات التي جاء بها النَّبيُّ ﷺ في القرآن الكريم، وما أوحي إليه من السُّنَّة، وهذا نوع من التَّذكُّر القليل، لكن هذا لا يدلُّ بالضرورة على أنه أسلم، ويتفاوت النَّاس في مقدار قِلَّة التَّذكُّر، والآية تشمل جميع أحوالهم، وهذا التَّنبيه للغافلين من البشريَّة، ولكنه تنبيهٌ خطير للمؤمنين خاصَّة.

وتجد أن كلمة: ﴿قَلِيلًا﴾ تستفزُّ الذي يسمعها من أجل أن يحاولوا أن يتذكَّروا، أو يُفَكِّرُوا، أو يُحَرِّكُوا عقولهم، وكأنه يقال لهم: أنتم غافلون، فلماذا لا تستيقظون من سُبَاتكم؟

هنا ستسأل: ولماذا كانت هذه الآية تنبيهًا خاصًّا للمؤمنين؟ أين الدليل في الآية على أن هذا التَّنبيه الخطير يُقصد به المؤمنون قبل غيرهم؟

الجواب: المؤمنون أولى من غيرهم بالتَّذكُّر والتَّذكير؛ فإنهم بشر، وهم ينسون، وتحدث لهم الغفلة، وهم أولى بأن يُذكَّروا على المستوى الفرديِّ، وعلى المستوى الجماعيِّ، على المستوى الأُسَريِّ، وعلى المستوى الأَبَويِّ، والأَخويِّ.

ولكنَّك -وفقك الله- ينبغي أن تتأمَّل في هذه الآية؛ إذ قال الله ﷻ في الآية قبلها: ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾، وهنا قال: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾، وعندما تجمع بين الجملتين؛ تعلم أن المؤمنين مقصودون قبل غيرهم بهذا العتاب، كأن الله ﷻ يقول لهم:

إنكم أيها المؤمنون وإن أظهرتم اتِّباع القرآن، إلا أن الغفلة عن تطبيقه والتزامه تصيبكم، وقد تُسَبِّبُ لكم مصائب، ولها درجات:

فمنها: غفلة عن الاستقامة عن تطبيقه كلِّه، ويكون المعنى: قليلًا من الآيات تتذكَّرون بها.

ومنها: غفلة عن تطبيقه في جميع الأوقات، ويكون المعنى: قليلًا من الأوقات تتذكَّرون بها، فعندما تكونون في المسجد تتذكَّرون، لكنكم تغفلون عندما يتعلَّق الأمر بالاقتصاد، أو المعاملات الاجتماعيَّة مثلًا.

كما تدلُّ عليه القِصَّة المشتهرة المرسلة (نافق حنظلة)، فتأمَّلْ في معانيها، واغترف من معينها، واستمتع بمغانيها، قال حنظلة رضي الله عنه:

لَقِيَنِي أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه، فقَالَ: كيفَ أَنْتَ؟ يا حَنْظَلَةُ قالَ: قُلتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ، قالَ: سُبْحَانَ اللهِ ما تَقُولُ؟ قالَ: قُلتُ: نَكُونُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم، يُذَكِّرُنَا بالنَّارِ وَالْجَنَّةِ، حتَّى كَأنَّا رَأْيُ عَيْنٍ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِن عِندِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم، عَافَسْنَا الأزْوَاجَ وَالأوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ، فَنَسِينَا كَثِيرًا، قالَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه: فَوَاللهِ إنَّا لَنَلْقَى مِثْلَ هذا، فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه، حتَّى دَخَلْنَا علَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم، قُلتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ، يا رَسُولَ اللهِ، فَقالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم: «وَما ذَاكَ؟» قُلتُ: يا رَسُولَ اللهِ! نَكُونُ عِنْدَكَ، تُذَكِّرُنَا بالنَّارِ وَالْجَنَّةِ، حتَّى كَأنَّا رَأْيُ عَيْنٍ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِن عِندِكَ، عَافَسْنَا الأزْوَاجَ وَالأوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ، نَسِينَا كَثِيرًا، فَقالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم: «وَالَّذِي نَفْسِي بيَدِهِ! إنْ لو تَدُومُونَ علَى ما تَكُونُونَ عِندِي، وفي الذِّكْرِ، لَصَافَحَتْكُمُ المَلَائِكَةُ علَى فُرُشِكُمْ وفي طُرُقِكُمْ، وَلَكِنْ يا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً» ثَلَاثَ مَرَّاتٍ [(١)].

وربما تساءلت: التَّذكُّر يدلُّ على الانتباه والتَّيقُّظ، وقد عرفناه، فما ضِدُّ التَّذكُّر، وما الحكمة في التَّعبير بـ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾، دون قوله: كثيرة هي غفلاتكم مثلًا؟

وإليك الجواب: هنا ترى بريق الكمال القرآنيِّ يحبس أنفاسك؛ إذ كانت هذه الكلمات المعدودات هي الوحيدة التي تعبِّر بإيجاز وإعجاز عما يضادُّها، فإن التَّذكُّر يضادُّه: الغفلة

(١) مسلم (٢٧٥٠).

كما يضادُّه الاستكبار، وبدلًا من أن يقول: كثيرة هي غفلاتكم، وكثيرة الأوقات التي تغفلون بها، وكثيرة هي أوقات استكباركم، قال: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾، ليشمل ما يضادُّها من حالات الغفلة والاستكبار، ولذا يذكر الله ﷻ هذين الدَّاءين الضَّخمين في عدد من آيات هذه السُّورَة المباركة، مثل قوله جلَّ ذكره: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

لعلك تسأل: ما مفاجأة كلمة ﴿ما﴾؟ وما المعاني التي تحبوك هذه الكلمة؟

الجواب: لا تقف المعاني عند ذلك فها هي كلمة ﴿ما﴾ في قول ربِّنا: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ تفاجئك بما تختزنه، فتصبح المعاني للآية ثريَّةً بناء على ذلك، وذلك لأن كلمة ﴿ما﴾ يحتمل أن تكون موصولة، وأن تكون مصدرية[1]، وبذا يجتمع لنا معنيان:

الأول: قَلِيلًا تَذَكُّرُكم لما يحرسكم ويحميكم (على أنَّ "ما" مصدرية)، ففعل التَّذكُّر قليل في نفسه، فقليلًا ما تحاولون مجاهدة أنفسكم ومعالجة أهوائها.

الثاني: قليلًا الذي تتذكَّرونه من توجيهات القرآن، ومن التَّنبيهات التي تأتيكم من ربِّكم (على أنَّ "ما" موصولية).

فقد تتذكَّرون الصَّلاة، ولا تتذكَّرون الزَّكاة، وقد تتذكَّرون ذِكْرَ الله ﷻ باللِّسان، ولا تتذكَّرون خشيته بالغيب، وقد تتذكَّرون حقَّ الزَّوجة والولد، ولا تتذكَّرون حقَّ الوالدين والأرحام، وقد تتذكَّرون بذل المعروف، ولا تتذكَّرون كفَّ الأذى، وقد تتذكَّرون إطعام الطعام، ولا تتذكَّرون نصرة المظلوم، وهكذا.

(١) ينظر: تفسير ابن عطية (٢/ ٣٧٣).

وذكر البِقَاعِيُّ رحمه الله أن (ما) نافية، وأنه أُكِّد التقليل بها وبـ(تاء) التفعُّل، فقال: ﴿مَّا تَذَكَّرُونَ﴾، "أي: تعالجون أنفسكم على ذِكرِ ما هو مركوز في فِطَرِكم الأولى؛ فإنكم مُقِرُّون بأن ربَّكم ربُّ كلِّ شيء، فكلُّ من تدعون من دونه مربوب، وأنتم لا تجدون في عقولكم ولا طباعكم ولا استعمالاتكم ما يدلُّ بنوع دلالة على أن مربوبًا يكون شريكًا لربِّه"(١).

عرفنا ثماني خصائص تجعل القرآن المجيد كتاب الإنقاذ للعالم من المخاطر الواقعة والمُتَوَقَّعة حسب تفسير الآيات السَّابقة، فما الخاصِّيَّة التَّاسعة؟

والجواب:

الخاصِّيَّة التَّاسعة: التَّفصيل الحافظ:

حيث يفصِّل الله عز وجل لنا الدَّمار الذي يصيب الأمم والحضارات؛ ليحذر العالم من أن يحلَّ به مثل ذلك، وتتحقَّق الحماية من المخاطر الدُّنيويَّة والأُخرويَّة بصورة مباشرة، وتُبَصِّرنا بهذه الخاصِّيَّة الآيات [٤-٩] من سورة الأعراف:

الاتصال وجمال الانتقال:

بصَّرنا الله عز وجل بقوله: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ بأن الغفلة والاستكبار يسيطران على الذين لا يتذكَّرون، وهنا يُبَصِّرنا الله عز وجل بالدَّمار الذي يسقط فيه الغافلون والمستكبرون، وبأن هذا الدَّمار وذلك الخسار يصيبان هذين الصِّنفين في الدُّنيا والآخرة، فيقول: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ۝٤ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا إِلَّا أَن قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ۝٥ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ۝٦ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ۝٧ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝٨ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ٤-٩].

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٧/ ٣٥٥).

وقد تسأل: ما الحكمة من ذكر هلاك القرى هنا؟

الجواب: لأنَّ الله ﷻ يخبرك عن العاقبة النِّهائيَّة للغافلين والمستكبرين، مهما بدا لك ولهم أنهم آمنون لا يعذَّبون، ومما يدلُّك على هذه العاقبة النِّهائيَّة، أنك ترى القرى الكثيرة حولك قد هلكت في وقتها المعلوم عند الله ﷻ.

ويلفت البِقَاعِيُّ رحمه الله نظرنا إلى أنه يدخل في وجه الاتِّصال بين هذه الآيات وما سبقها أعْظَم ما يجب أن يُتَذَكَّرَ، وأعظم ما يجب أن يُتذكَّرَ: سارُّ النِّعَمِ وضارُّ النِّقَمِ، فسارُّ النِّعم يجب أن يتذكره الإنسان حتى يشكره، وضارُّ النِّقَم يجب أن يتذكَّره حتى يحذر من أن يحلَّ به، فإذا تذكَّر الإنسان ذلك أقبل عَلى اللهِ ﷻ، واتَّبع ما أنزل إليه من ربِّه ﷻ، وحينها لا يغترُّ بِأَسْبابِ الأمْنِ والرَّاحَةِ [1].

وتأمَّل الإحكام في الاتِّصال بين الآيات تجده واضحًا، فمصارع الحضارات الغابرة خير منذر، وخير مذكِّر لمن أراد الحياة الحقيقيَّة.

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٧/ ٣٥٥).

المشاهد المتعدِّدة للمهالك التي تحدث لغير المُتَذَكِّرين

أ.د. عبد السلام مقبل المجيدي

المشاهد المتعددة التي تحدث لغير المتذكرين

1 - مشهد الدمار المفاجئ

﴿وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا بَيَٰتًا أَوۡ هُمۡ قَآئِلُونَ﴾

2 - مشهد الاعتراف

﴿فَمَا كَانَ دَعۡوَىٰهُمۡ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾

3 - مشهد المحاكمة العادلة العليا

﴿فَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾

4 - مشهد انكشاف المستور

﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيۡهِم بِعِلۡمٖۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾

5 - مشهد الوزن الكاشف

﴿وَٱلۡوَزۡنُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّۚ﴾

6 - مشهد نتيجة الوزن المصيريّة

حيث ينقسم النّاس إلى فريقين ﴿فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ (8) وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظۡلِمُونَ﴾

﴿مفصل سورة الأعراف (1)﴾

هذه الآيات تصوِّرُ لك في مشاهدَ متعدِّدةٍ الـمهالكَ الدُّنيويَّة والأُخرويَّة التي تحدث لغير الـمُتَذَكِّرين:

الـمشهد الأول: مشهد الدَّمار المفاجئ، ويُبَصِّرنا بذلك قوله تَعالى ذِكْرُهُ: ﴿وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا بَيَٰتًا أَوۡ هُمۡ قَآئِلُونَ﴾ [الأعراف: ٤].

المشهد الثاني: مشهد الاعتراف، ويُبَصِّرنا به قوله تَعَالى جَدُّهُ: ﴿فَمَا كَانَ دَعۡوَىٰهُمۡ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ٥].

المشهد الثالث: مشهد المحاكمة العَادِلَة العليا، ويُبَصِّرنا به قوله تَعَالى جَدُّهُ: ﴿فَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦].

المشهد الرابع: مشهد انكشاف المستور، ويُبَصِّرنا بذلك قوله جلَّ ذِكرُه: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيۡهِم بِعِلۡمٖۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾ [الأعراف: ٧].

المشهد الخامس: مشهد الوزن الكاشف، ويُبَصِّرنا بذلك قوله عزَّ شَأْنُهُ: ﴿وَٱلۡوَزۡنُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّۚ﴾ [الأعراف: ٨].

المشهد السادس: مشهد نتيجة الوزن المصيريَّة، حيث ينقسم النَّاس إلى فريقين، ويُبَصِّرنا بهذا المشهد قوله: ﴿فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٨ وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظۡلِمُونَ﴾ [الأعراف: ٨-٩].

ولنذهب إلى تفصيل هذه المشاهد كما تنقلها بصائر القرآن الكريم في هذه السُّورَة:

المشهد الأول: مشهد الدَّمار المفاجئ:

ويُبَصِّرنا بذلك قوله تعالى ذِكْرُه: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَـٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَـٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ﴾ [الأعراف: ٤]؛ فإن عدم اتِّباع المعرفة القُرآنيَّة يؤدِّي إلى إشاعة الظُّلم، والظُّلم يجلب الدَّمار للمجتمعات:

وهنا ربما تقول: كلمة ﴿وكم﴾ في أول الآية.. ماذا تعني؟ وهل تَعَدُّدُ معناها يوسِّع آفاقنا في الشُّعور بالسُّنَن الاجتماعيَّة حولنا؟

الجواب: الواو قبل كلمة: ﴿وَكَم﴾ واو العطف، أو واو الحال التي تربط بين الجملة بعدها وما قبلها ربطًا محكمًا، والتقدير كما يقول البِقَاعِيُّ رحمه الله: "قَلَّ تَذَكُّرُكم وخَوْفُكم مِن سَطواتِنا، والحالُ أنَّهُ ﴿كَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَـٰهَا﴾"(١).

وأما كلمة: ﴿كَم﴾ فهي هنا خبرية تصف لك كثرة ما قد أصاب الأمم السَّالفة من الدَّمار الذي ينتبه له أولو الاعتبار، حيث أهلك الله ﷻ القرى والأمم بتكذيبهم رسلَه، وكذلك تفعل العرب إذا أرادوا الخبر عن كثرة العَدَد، كما قال الفرزدق:

كَـمْ عَمَّـةٍ لَـكَ يـا جَـرِيرُ وَخَالَـةٍ ... فَدْعَـاءَ قَـدْ حَـلَبَتْ عَـلَيَّ عِشَـارِي(٢)

فهذه الكلمة ﴿كَم﴾ تُبَصِّرنا بالردِّ على سؤال ربما قاله المستهزئون، وربما قاله المحبُّون المُتلهِّفون.

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٧/ ٣٥٥، ٣٥٦).

(٢) ديوان الفرزدق (ص: ٣١٢)، شرحه وقدم له: الأستاذ علي فاعور، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، (فدعاء): هي المرأة التي اعوجت إصبعها من كثرة حلبها، ويقال: الفدعاء، هي التي أصاب رجلها الفدع من كثرة مشيها وراء الإبل، والفدع: زيغ في القدم، بينها وبين الساق، (عشاري): العشار: جمع عُشَراء، بضم العين وفتح الشين: وهي الناقة التي مضى عليها من وضعها عشرة أشهر.

وقد تسأل: هل هناك دول وحضارات وأمم دُمِّرت بسبب ظلمها؟ فنحن نرى دولًا عظمى تَظْلِم وتُشَرِّع الظُّلم، ولا نرى الدَّمار قد حلَّ بها؟

فيأتيك الجواب: كم من قرية حدث لها ذلك الدَّمار، فلا تغترَّ بالصُّورة الحاليَّة، ولذلك جاءت كلمة ﴿قَرْيَةٍ﴾ نَكِرَة تدلُّ في سياقها على التَّكثير، والتَّكبير، أي: كم من حضارات عظيمة كبيرة جاءها البأس الإلهيُّ، والمقصود بالآية أي: كم من قرى كثيرة، وكم من حضارات وأُمَمٍ متعدِّدة أهلكناها.

بصيرة: التَّذكُّر الذي يورث الحَذر من المخاطر جزءٌ من اتِّباع الوحي الإلهيِّ، وهو الذي يعصم من الدَّمار الحضاريِّ، فما أكثر الحضارات التي دَمَّرها بأس الله ﷻ عبر التَّاريخ بسبب غفلتها: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَـٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَـٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ﴾ [الأعراف: ٤].

وبما أننا نقرِّر: أن الآية تُبَصِّرنا (كم) أهلك الله ﷻ من حضارات وأمم، فدعنا نتوقَّف عند كلمة (قرية) فماذا يعني بالقرية؟ هل هي المنطقة الريفية كما نعرفها نحن الآن؟

الجواب: ينبغي أن تلاحظ أنه عُبِّرَ عن الحضارات والأمم في القرآن بكلمة: ﴿قَرْيَةٍ﴾، وجمعها قرى، وتَرِدُ هذه الكلمة في القرآن، دون كلمة حضارة، أو دولة لتشمل الأمم الصغيرة والكبيرة، والدُّوَل القويَّة والضَّعيفة، فكلمة: ﴿قَرْيَةٍ﴾ أدلُّ في معناها على كلِّ ذلك من غيرها.

وقد تسأل: لماذا التَّعبير بكلمة: ﴿قَرْيَةٍ﴾ أدلُّ على المعنى من غيرها؟

الجواب: ليدخل في الحديث كلُّ أُمَّة مجتمعة اجتماع الماء، سواء أكانت أُمَّة كبيرة، أم صغيرة، فكلمة ﴿قَرْيَةٍ﴾ تدلُّ على الاجتماع كبرت أم صغرت، والقرية في العرف القرآنيِّ قد تطلق على الحضارة المدنية العظيمة، وليس كما هو إطلاقها في العرف المتأخِّر على المَحَلَّة الرِّيفيَّة الصَّغيرة، كما أن ذكر القرية يدلُّ على قوَّة التَّماسك في الدَّولة المحدَّدة؛ فإن رجعت

إلى معنى هذه الكلمة وجدتها من: (قَرَى) الماءَ في المِقراة يَقْرِيه: جَمَعه، وذلك الماء المجموع قَرِيٌّ، والمِقْرَى والمَقْراة: كلُّ ما اجتمع فيه الماء، مثل الإناء العَظِيم يُشْرَبُ بِهِ الماءُ، ومثل المَسِيل وَهُوَ الموضِعُ الَّذِي يَجْتَمِعُ فِيهِ ماءُ المطَرِ من كلِّ جانِبٍ، والقارِيَةُ: الحاضِرَةُ الجامِعَةُ، مقابل البادِيَةِ[1].

سُمِّيت القرية قرية؛ لاجتماع النَّاس فيها، ولاجتماع المنافع، فهي المحلُّ الذي يضمُّ أهله، فيجتمعون، ويتفقون، ويتَّحدون، وعند ذلك تهابهم الحضارات المجاورة.

وقد تكبر القرية حتى تصبح مدينة، ولذلك تُطلَق القرية على المدينة في القرآن الكريم، كما في قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا﴾ [يوسف: ٨٢]، وقد سمَّاها الله ﷻ المدينة في السُّورة ذاتها فقال: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ [يوسف: ٣٠].

وقد تكبر القرية حتى تشكِّل دولة كاملة فيها مُدُن متعدِّدة، فهي كما قال ابن سِيْدَه رحمه الله: "المِصْرُ الجامِعُ"[2]، وقد تطلق في القرآن المجيد على المدينة العظيمة المتباعِدة الأطراف، أو الدولة الكبيرة التي تضمُّ عِدَّة مُدُن، وكلُّ مَكانٍ اتَّصَلَتْ بِهِ الأَبْنِيةُ واتُّخِذَ قَرارًا، فتَقَعُ بذلك اسمًا على المُدُنِ وغيرِها[3]، وعندما تسمع قول الله جلَّ مَجْدُه: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾ [البقرة: ٥٨]، وتذكر أن هذه القرية هي بيت المقدس وما حولها - لأن المراد أن يسيطروا على تلك المنطقة- هنا تشعر بأن كلمة ﴿قَرْيَةٍ﴾ أعلى من مجرد (مدينة)، حيث تتوفَّر في هذه القرية سُبُل العيش الواسع، وتتعدَّد فيها المُدُن، ففيها سيأكلون

---

(١) ينظر: مقاييس اللغة (٥/ ٧٨)، الصحاح (٦/ ٢٤٦١).

(٢) المحكم والمحيط الأعظم (٦/ ٤٩٦).

(٣) تاج العروس (٣٩/ ٢٨٢).

حيث شاءوا رغدًا، فدلَّ هذا على أن كلمة (القرية) تعني الدَّولة التي تضمُّ عِدَّة مُدُن، وبذا نخلص إلى أن:

القرية هي المكان الذي يوجد فيه الْأَبْنِيَة الَّتِي تجمع النَّاس لإنشاء الحضارة، وتبادل المصالح والمنافع، وتكوين مصادر القوَّة والثَّروة، ويحوطها الأمن ويظللها الاستقرار.

فاتَّضح لنا أن كلمة ﴿قَرۡيَةٍ﴾ في القرآن تطلق على المَحِلَّة الصَّغيرة، وعلى المدينة الكبيرة، وعلى الدَّولة التي تضمُّ عِدَّة مُدُن، وعلى الحضارة الشَّاملة.

وقد تتساءل: ما الحكمة من تخصيص (القُرى) في الكلام عن الإهلاك دُونَ ذكر الأُمَم التي تعيش في هذه القرى، كما في قوله تعالى: ﴿وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا﴾، مع أن الأمم المهلكة قد ذُكرت في سورة الحاقة: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهۡلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ ۝٥ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهۡلِكُواْ بِرِيحٍ صَرۡصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٥، ٦]؟ فهل القرى هي التي تظلم أم أهلها؟

الجواب: سبب ورود كلمة القرى هنا دون الكلام عن شَعْبٍ بعينه ما يأتي:

السبب الأول: لِأَنَّ الله ﷻ يريد ذكر أهل تلك الحضارات سواء أسكنتها قبيلة واحدة أم أعراق متعدِّدة:

فتطلق القرية ويراد أهلها، كما قال تَعالى: ﴿وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ [يوسف: ٨٢]، ومثل قوله: ﴿مَآ ءَامَنَتۡ قَبۡلَهُم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآۖ أَفَهُمۡ يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٦]، فالقرية لا تؤمن بذاتها، وإنما الذي يؤمن أهلها، والدَّليل على ذلك قوله: ﴿أَفَهُمۡ يُؤۡمِنُونَ﴾، فالمقصود هنا أهلكنا أهلها.

والقرية أو الحضارة الواحدة قد تسكنها قبيلة واحدة مثل عاد وثمود، فسكان مناطق عاد هم أهلها، وسكان مناطق ثمود هم من انتسب إلى قبيلتها، ولكن العالم يتداخل، فقد تسكن القرية مجموعة من القبائل والشُّعوب التي تنتسب إلى أنساب مختلفة، والله ﷻ يُبَصِّرنا بحال

سكان هذه الحضارات سواء أكانوا من قبيلة واحدة، وشعب واحد أم قبائل متعدِّدة، وشعوب مختلفة، والعالَـم اتَّجه بعد الأمم الأولى إلى التَّمَدُّنِ بصورة واضحة، فصارت القرى تضمُّ عِدَّة أعراق بشريَّة، وباتت الحضارات تحمل صبغة التَّنوع العِرْقيِّ، وهنا يكلمنا الله ﷻ عن الحضارات مهما كان نسبهم، وكان هذا الكلام مناسبًا جدًّا لأهل مكة الذين كانوا أوَّل من خُوطب بهذا الخطاب عندما نزل، فقد جمعت مكَّة بين عِدَّة قبائل وشعوب من العرب العدنانيين والعرب القحطانيين والأحباش، وإن غلبت قريش على الـموقف.

السبب الثاني: لأن قداسة القرية لا تمنع من إهلاكها: فالله ﷻ خاطب أَهْل مَكَّةَ أولًا، وهي أُمُّ القُرى، فما جرى على القرى من سُنَن الهلاك يجري عليها، فلا يَظُنَّنَّ أهلها أنها خارجة عن سُنَن الله ﷻ، ولا يَظُنَّنَّ أن قداستها مانعة من أن يحلَّ بها ما حلَّ بغيرها إن ظلم أهلها وطغوا، وقد حذَّر رَسُولُ اللهِ ﷺ من ظلم أهل الحرم، فقَالَ: «وَلَنْ يَسْتَحِلَّ الْبَيْتَ إِلا أَهْلُهُ، فَإِذَا اسْتَحَلُّوهُ فَلاَ تَسْأَلْ عَنْ هَلَكَةِ الْعَرَبِ يومئذ»[1]، وكأن الله ﷻ يقول: لا تظنُّوا يا قريش أن قداسة مكَّة تمنع عنكم العقوبة إذا أصررتم على الظُّلم.

السبب الثالث: لأن الهلاك لا يقتصر على الأمم، بل قد يأتي على القرى ذاتها، فيذهب ازدهارها، وتـأفل قواها، ويتآكل بنيانها، وتُهدم قصورها، ويهلك أهلها أو يهجرونها، كما قال تعالى شَأْنُه: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَـٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ [الحج: ٤٥].

وهذه الآية تبصِّرك أن الهلاك يأتي على القصور والـمصانع والـمباني، كما يأتي على النَّاس، فتكون أشمل من أن يقول: وكم من أقوام أهلكناهم؛ لأنه قد يهلك الأقوام، وتبقى دولتهم

(١) أحمد (٧٩١٠)، قال الأرناؤوط: "إسناده صحيح، رجاله ثقات، رجال الشيخين، غيرَ سعيد بن سمعان...وهو ثقة"، وصححه الألباني في الصحيحة (٥٧٩).

يعمرها غيرهم، أو تبقى شاهدة عليهم بقوتها وعمرانها، كما قال الله ﷻ عن عاد: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴿٢٥﴾﴾ [الأحقاف: ٢٥]، وقال عن ثمود: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴿٥٢﴾﴾ [النمل: ٥٢]، وأما هنا فيخبرنا الله ﷻ أن الهلاك يأتي القرية، فربما اقتصر على أهلها، وربما شملها فدمَّر بيوتها، ومصانعها، وطرقها، كما يحدث عندما ترى موجات الزَّلازل أو البراكين التي تدمِّر القرى وتُخْلِيها من ساكنيها، أو عندما تحدث موجات الأمواج العاتية (تُسُونامي) التي تدمِّر المباني وتغرق أهلها، ففي إهلاكها إهلاك مَنْ فيها مِنْ أهلها، فإذا دمَّرت طرق القرية، وبيوتها، وقصورها، ومنشآتها، فكيف يبقى لأهلها فيها مكان يؤويهم؟ فيحدث الدَّمار للمساكن مع كلِّ ساكن، نعوذ بالله من ذلك.

السبب الرابع: لأنَّ التَّعبير بهلاك القرية يدلُّ على أن الله ﷻ ربَّما أهلك نظام تلك الدَّولة، فلم تَعُدْ قرية آمنة مطمئنة تجمع أهلها.. لقد زالت عنها وظيفة (القرية)، ففسد نظامها، وتشتت أهلها، وتفرَّقت أيدي سبأ في المشرق والمغرب، وقد لا يجد أحدهم ظلًّا يستظلُّ به. إذا تشتت نظامها، أكل الكبير الصغير، وعبث القوي بالضَّعيف.. يتشتت نظامها فيهاجر من استطاع الهجرة.. ذهب نظام هذه القرية فدمِّرت فعليًّا بتدمير النِّظام والدُّستور الذي يجمعها ويحوطها. وهذه الصُّورة نجدها في قوله: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا﴾ [الأعراف: ٤]، أي: أهلكنا نظامها، وحينها ربما يُنَصِّبُ المجرمون أنفسهم أهل سلطة يحكمون في القرية، فيصيرون أشدَّ النَّاس إهلاكًا لغيرهم، ﴿أَهْلَكْنَٰهَا﴾ أي: فلا يوجد نظام يسوسها، ودمَّر بعضهم بعضًا، وبدلًا من صورة القرية المجتمعة تظهر صور الجماعات المسلَّحة المتحاربة التي تنال كثيرًا من سكان تلك البلاد، فتزيد الآلام، وتكثر الآهات، وتسوء الأحوال، ولربَّما وجد أحدهم الموت

خيرًا من الحياة، بل ربما قتل أحدهم أولاده من إملاق، وهذا تشاهده في الأرض.. نعوذ بالله من تلك الحال.

السبب الخامس: في التَّعبير بالقرية دون التَّعبير بأهلها نورٌ مشرقٌ آخر: فكأنَّ الله ﷻ ينبئك أن فساد أهل القرية في أرضها قد بلغ حدًّا عظيمًا حتى كأن القرية نفسها بجدرانها وأراضيها ومصانعها وحقولها تساعد في نشر هذا الفساد، فاستحقَّت الهلاك التَّامَّ.

وهذا يدفعك إلى تدبرٍ آخر:

ما الحكمة في هذا التَّرتيب حيث ذكر: ﴿فَجَآءَهَا﴾، ثم قال: ﴿أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ﴾، فذكر القرية أي: المكان أولًا في البيات، وذكر السُّكَّان ثانيًا في القيلولة؟

الجواب: لاحظ أن هذا التَّفَنُّن والتَّنويع في ذكر مجيء البأس المهلك؛ ليبيِّنَ لك أن الهلاك قد يقع على هذه الحضارة المدنيَّة، فتنهار بُنْيَتُها الأساسية، وتُدمَّر وسائل الاستقرار والتَّنميَّة فيها، فيتشرَّد أهلها، وقد يقع الهلاك عليهم هم، فيحصدهم العذاب، كما حصد عادًا من قبل، فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم.

عد بنا إلى الآية مجدَّدًا حيث تجد الله ﷻ يقول لك: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَـٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَـٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ﴾ [الأعراف: ٤].

ولاحِظ كيف ذكر وقوع العذاب عليها بلفظ ﴿فَجَآءَهَا﴾ فاسْتُعِيرَ المَجِيءُ لوقوع العذاب بَعْدَ أنْ لَمْ يَكُن؛ كأنه كان نائيًا عنهم بعيدًا عن الوصول إليهم، لكنهم بفظائعهم وجرائمهم تَسبَّبوا في قدومه التَّدريجيِّ، كما يجيء القادم من مكان آخر، وكأنه يتربَّص بهم هل يحلُّ عليهم أم لا.. وهم يرونه يتقدَّم نحوهم، فهل يصحِّحون تصرفاتهم ليتقوه أم يُصِرُّون على غفلتهم؟..أمَا وقد ظلموا بآيات الله ﷻ فقد استحقُّوا أن يحلَّ بهم بعد أن كان بعيدًا في معزلٍ عنهم.

قد تقول: عرفنا معنى: ﴿وَكَم﴾، ومعنى ﴿قَرْيَةٍ﴾ فما معنى كلمة ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾؟ لماذا لم يقل مثلًا: أَفْنَيْنَاها؟

الجواب: قوله: ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾ كلمة تصوِّر الواقع تصويرًا دقيقًا، فهي مُشتقَّة من (هَلَكَ)، وهي تَدُلُّ عَلَى ذهاب حقيقة الشيء، فقد يكون ذلك بفَنَائه، وقد يكون بكَسْره وَسُقُوطه حتى لا يصبح مشابهًا لحقيقة وجوده، فيكون عذابًا وانعدامًا للحياة الحقيقيَّة وإن وجدت الحياة الصُّوْرية.

ومن ذلك: "الهَلَكون" وهي الأرض الجَدْبَة ليس فيها شيءٌ وإن كان فيها ماء، فذهبت خصوبتها، ومنه: الهَلَك، وهو جِيفَة الشيء الهالك، حيث ذهبت حقيقته بفراغه من الرُّوح، فالجسد موجود، ولكن الحياة غير موجودة، ومنه: الهالك من السحائب: الذي يَصُوبُ المَطَرَ، ثم يُقلع فلا يكون له مطر، والمستهلك الذي يأخذ الشيء فيفنيه في حاجته، ولكنه يبقى بعد الإفناء، ليفني شيئًا جديدًا، فكأنه لا يكفيه ما سبق[1]، وذكر الرَّاغب رحمه الله أن كلمة (الْهَلَاك) تأتي على أربعة أوجه، كلها تشترك في معنى الفناء، والذَّهاب لحقيقة الشيء، مع احتمال بقاء صورته، فقد يكون ذهابًا محضًا، مثل: قول الظَّالم الذي ورد في هذه الآية: ﴿هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٩]، مع أنه قد يرى المال أمامه، وقد يرى قُوَّاته أمامه يوم القيامة، لكنها لا تنفعه، ولا تدفع عنه.

وأهلك المال: أنفقه ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا﴾ [البلد: ٦]، وقد يكون الهلاك ذهابًا بفساد، مثل: ﴿وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ﴾ [البقرة: ٢٠٥]، وقد يكون موتًا محضًا لذهاب النَّفْس، وبقاء الجسد في موضعه من القبر أو غيره، كقوله: ﴿إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ [النِّساء: ١٧٦]، ﴿وَلَقَدْ

---

(١) ينظر: المعجم الاشتقاقي المؤصل (٤/ ٢٣١٤، ٢٣١٥).

جَآءَكُمۡ يُوسُفُ مِن قَبۡلُ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلۡتُمۡ فِي شَكّٖ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلۡتُمۡ لَن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗاۚ﴾ [غافر: ٣٤].

وقد يصحب الهلاكَ العذابُ والتَّدمير، ومما يوضح أن الهلاك يعبر به عن العذاب قوله على ألسنة الظَّالمين يوم القيامة: ﴿أَفَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٣]، وقوله: ﴿فَهَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، ﴿ثُمَّ صَدَقۡنَٰهُمُ ٱلۡوَعۡدَ فَأَنجَيۡنَٰهُمۡ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهۡلَكۡنَا ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ [الأنبياء: ٩][1].

وبعد هذا يتَّضح لك وجه التَّصوير في قوله: ﴿أَهۡلَكۡنَٰهَا﴾؛ لأن السِّياق يحدِّثنا عن أنواع الفناء الذي حلَّ بالقرى المختلفة، فيدخل فيه: الإماتة، والإفْناءُ، والاِسْتِئْصالُ والإبادة، والتَّدمير حسب السِّياق، فقوله: ﴿أَهۡلَكۡنَٰهَا﴾ أي: أفنيناها، أو استأصلناها، أو دمَّرناها، أو عذَّبناها.

نعود إلى الآية لنتعرف إلى بصائرها: ﴿وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا بَيَٰتًا أَوۡ هُمۡ قَآئِلُونَ﴾ [الأعراف: ٤]، عرفنا كيف صوَّرت لنا كلمة ﴿قَرۡيَةٍ﴾ الحضارات والمدن الصغيرة، والكبيرة، وكيف أظهرت لنا كلمة: ﴿أَهۡلَكۡنَٰهَا﴾ أنواع الفَناء المتعدِّدة لتلك الحضارات المختلفة، فما معنى كلمة: ﴿بَأۡسُنَا﴾؟

وللإجابة أقول: حتى نفهم الصُّورة التي أظهرتها لنا هذه الجملة ﴿فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا﴾ لا بدَّ أن نعرف معنى الْبَأْس:

فالبأس كلمة تدلُّ على الشِّدَّة العظيمة، والقوَّة الكبيرة في أمرٍ محدَّد مخيف للآخرين، ومنه وصف الله ﷻ الحديد في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ﴾ [الحديد: ٢٥]، أي: قوَّة كبيرة تُحْدِث المكروه في العدوِّ وتُخيفه، وهذه القوَّة تجعل الإنسان يحاول استكشافها ليصل

---

(١) ينظر: المفردات للراغب (ص: ٥٤٤، ٥٤٥).

إلى أسرارها، ويفيد من صناعتها على الوجوه المختلفة القوِّية المؤثرة؛ فَذَرَّتُهُ هي أكثر الذَّرات المعروفة تماسكًا وصلابة وقوَّة، وله خواصٌّ طبيعية وكيمائية تجعل وصفه القرآنيَّ إعجازيًّا(١)، ويقال للحرب: "حين البأس" للشِّدَّة التي تحتاج إليها الأطراف فيها، وَيقال: رَجُلٌ ذُو بَأْسٍ وَبَئِيسٌ أَيْ شُجَاعٌ، وَقَدْ بَأَسَ بَأْسًا، ومنه قال عليٌّ رضي الله عنه: «كنا إذا احمَّر -أي: اشتدَّ- البأس، ولقيَ القومُ القومَ اتَّقَيْنَا برسول الله ﷺ»(٢)، والفعل من هذا: بَؤُسَ (ككَرُم) بَأْسًا -بالفتح- فهو بئيس: شجاع (أو شديد)، فالشَّجاعة والإقدام بأس؛ لأنها تتضمَّن القوَّة الشَّديدة التي يُكره فيها الجسد على ما يؤلمه، والكراهة هنا تزيد من مدح ذي البأس؛ إذ يُكره نفسه على ما لا يقدر عليه غيره.

ومن ذلك وصف القوَّة العظيمة بقوله: ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ﴾ [الكهف: ٢]، ﴿وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ [النِّساء: ٨٤]، فإن كان البأس لتعذيب المجرمين، فسيجدون من الشِّدَّة التي يكرهون قوَّتها وحِدَّتها ما لا يقدرون عليه.

فبأس الله ﷻ الذي يأتي القرى، هو قُوَّته التي تتضمَّن التَّدمير والإهلاك، بأن تحلَّ المصائب والكوارث، وحصول الكوارث أو المصائب لا يدلُّ بالضرورة على أن الذي حصلت له ظالم، فقد يكون ظالمًا، وقد يكون مؤمنًا تقيًّا، وقد يكون بريئًا، ويظهر كلُّ واحد ممن جاءهم بأس الله ﷻ يوم القيامة، فعند الله ﷻ تجتمع الخصوم، وعنده تنكشف الصحف، وتنجلي الغيوم ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ١٨﴾ [الحاقة: ١٨].

نعود الآن إلى قوله جل شأنه: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ [الأعراف: ٤] حيث بيَّن الله ﷻ أن مجيء البأس إنما يكون في وقتين، **فما هذان الوقتان؟**

---

(١) ينظر: الإشارات العلمية في آيات الحديد في القرآن الكريم (ص: ٩٧).

(٢) أحمد (١٣٤٧)، وقال الأرناؤوط: "إسناده صحيح".

بيَّن الله ﷻ أنَّ مجيء البأس الإلهيِّ ربما كان في أحد وقتين:

الأول: بصَّرنا به قوله: ﴿بَيَٰتًا﴾: فالْبَيَاتُ: مَصْدَر لِـ(بَاتَ) يَبِيتُ إِذَا أَدْرَكَهُ اللَّيْلُ، فيطلق البيات على النُّوم ليلًا، وقد يطلق على الْإِغَارَةِ عَلَى الْعَدُوِّ لَيْلًا، وَالْإِيقَاعِ بِهِ فِيهِ عَلَى غَفْلَةٍ مِنْهُ، فيقال: بيَّت فلان فلانًا أي: طرقه ليلًا، وهجم عليه، ويطلق على الهجوم ليلًا: "البيات"؛ لأن صاحبه يستغلُّ أفضل وقتٍ يكون خصمه فيه غافلًا [(١)].

وكذلك أن يُبَيِّتَ الإنسان شيئًا يريد أن يفعله في النهار، فيُبَيِّت هنا يعني: يدبِّر في وقت هدوء وصفاء نفس وسكون وبُعْدٍ عن المشاغل، فقوله: ﴿بَيَٰتًا﴾ مَنصُوبة عَلى الحالِ مِنَ البَأْسِ، أيْ: جاءَهُمُ البَأْسُ ليلًا مُبَيِّتًا لَهم، أو جاءهم بأسنا حال كونهم بائتين[(٢)]، كأنه تربَّص بهم فجاءهم في غفلة أشدَّ ما يكونون آمنين، فظنوا أنه لن يأتيهم العذاب وهم في هذه الرَّاحة والطَّمأنينة، وما علموا أنَّ الحوادث قد يَطْرُقْنَ أسحارًا، وممَّن جاءهم البأس بياتًا قَوْم لُوطٍ ؈، فقد طرقهم وقْتَ السَّحَرِ مع الإصباح، فهذا الوقت الأول لمجيء البأس الإلهيِّ: إنه وقت البيات.

الثاني: ﴿أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ﴾ أي: وقت القيلولة، أو القائلة، فإنه وقت الرَّاحة منتصف النَّهار، ويبتدئ مِن نِصْفِ النَّهارِ وينتهي بِالعَصْرِ، وفِعْلُهُ: قالَ يَقِيلُ، فَهو قائِلٌ، والـمَقِيلُ: الرَّاحَةُ في ذَلِكَ الوَقْتِ، وإنْ لَمْ يَكُنْ مَعَ ذَلِكَ نَوْمٌ، والدَّلِيلُ عَلَيْهِ أنَّ الجَنَّةَ لا نَوْمَ فِيها، واللهُ تَعالى يَقُولُ: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٤][(٣)]، ولذلك أطلقت القائلة على ذلك الوقت؛ لأن الإنسان يميل إلى أن يأخذ قسطًا من الرَّاحة بعد أن يكون قد اجتهد في

(١) ينظر: تفسير المنار (٨/ ٢٧٦).

(٢) ينظر: التحرير والتنوير (٨ب/ ٢١).

(٣) ينظر: تهذيب اللغة (٩/ ٢٣٢)، تفسير الرازي (١٤/ ١٩٩).

الحركة ابتداء من صباحه.

والمعنى: انظروا أيُّها المتذكِّرون، وفكِّروا أيُّها الغافلون في كثرة الحضارات التي أصرَّت على عدم التَّذكُّر، وجاءها الكتاب الإلهيُّ فلم تتأثر، فحَكَمَ الله ﷻ عليها بالهلاك، ففي الوقت المناسب لهلاكها جاءها البأس الإلهيُّ الذي يجمع بين القوَّة والشِّدَّة غير المُتَوَقَّعة، فلا تتوقَّعوا وقتًا محدَّدًا لهذا الهلاك؛ إذ إنه قد يأتي بياتًا أي: ليلًا، حال كونهم قد باتوا، أي ناموا واستراحوا، وقد يأتيهم حال كونهم "قائلين"، أي نهارًا في وقت القائلة.

عرفنا الوقتين وهنا تأتينا الإثارة للتدبُّر؛ لنتساءل:

ما الحكمة من تخصيص هذين الوقتين: البيات، والقيلولة بالذِّكر؟

الجواب: لأنهما اللَّذان يطلب فيهما النَّاس الرَّاحة والدَّعَة، فوقوع العذاب فيهما أشدُّ على النَّاس، ولأن التَّذكير بالعذاب فيهما يُنَغِّص على المكذِّبين تَخَيُّلَ نعيمِ الوقتين[(١)]، وذلك من آيات الله ﷻ في كلماته؛ فإنه خصِّص أكثر وقتين يشعر الغافلون فيهما بالطمأنينة، وبدأ بأعظم الوقتين من حيث الاستراحة والغفلة، والشُّعور بالأمن والسَّكينة وهو وقت (البيات)، فمجيء البأس بياتًا، ومثل ذلك وقت القيلولة فإنه وقت الرَّاحة منتصف النهار، ومَعْنى الآيَةِ: جاءَ بَأْسُنا وهم غَيْرُ مُتَوَقِّعِينَ لَهُ؛ إمّا لَيْلًا وهم نائِمُونَ، وإما نَهارًا وهم قائِلُونَ، فجاءَهُمُ العَذابُ عَلى حِينِ غَفْلَةٍ مِنهم مِن غَيْرِ تَقَدُّمِ أمارَةٍ تَدُلُّهم عَلى نُزُولِ ذَلِكَ العَذابِ، وذلك لشدة اغترارهم واطمئنانهم لعيشهم الدُّنيوي، ولتوفُّر وسائل الأمن، وأجهزة الحراسة، وثروات الإغراء والاستعباد.

والبأس قد يأتي عن طريق ظالم، فليس بالضرورة أن يأتي عن طريق عادل، أو عن طريق مصيبة أو كارثة.

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير (٨ب/ ٢٣).

وكم رأينا من ظالمٍ بطش بظالم سابق، وقعد على كرسيِّه مقعد المنتصر المنتشي المفتخر، فلم يلبث إلا أيامًا معدودة حتى سلَّط الله ﷻ عليه من كان أظلم، فأسدل عليه ستار النِّسيان، وأذاقه من الكأس الذي ذاقه قبله أهل الطُّغيان ﴿ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾﴾ [الشعراء: ٢٠٩].

وقد تسأل: ما ملامح الإعجاز البياني التي تبدو من قوله جلَّ ذِكرُه: ﴿بَيَٰتًا أَوۡ هُمۡ قَآئِلُونَ﴾؛ إذ نلاحظ المقابلة بين ﴿بَيَٰتًا﴾ و﴿قَآئِلُونَ﴾ مع أنهما غير متقابلين على وجه الدِّقَّة، فكلمة: ﴿بَيَٰتًا﴾ وصف للوقت، وكلمة: ﴿قَآئِلُونَ﴾ وصف للنَّاس؟ فالأصل أن يُقَابل الوقت بالوقت، أو النَّاس بالنَّاس؟

الجواب:

هذا الأسلوب القرآنيُّ الفريد المدهش سمَّاه علماؤنا "الاحتباك"، وهو أن تذكر شيئًا ثم تقابله بما لا يقابله على وجه الدِّقَّة، فهذه الآية فيها احتباكٌ يُفصح لنا عن كلماتٍ محذوفة، وأنظمة غير ظاهرة لكنها مبينة مصفوفة، والتَّقْدِيرُ:

فجاءها بأسنا بياتًا ليلًا هم فِيهِ نائِمُونَ، أوْ جاءها بأسنا نهارًا قائلة هم فِيها قائِلُونَ، فدَلَّ إثْباتُ (بياتًا) أوَّلًا عَلى حَذْفِ (قائِلَة) ثانِيًا، وإثْباتُ (هم قائِلُونَ) ثانِيًا عَلى حَذْفِ (هم نائِمُونَ) أوَّلًا[1]، ولأن هذه هي مُقَدِّمَة سورة الأعراف فقد فصَّل الله ﷻ ذلك بعد ذكر العذاب الذي دمَّر عددًا من الحضارات في وسط السُّورَة، ولكن مع ذكر أوقاتٍ أوسع عند قَوْلِهِ تَعالى جَدُّهُ: ﴿أَفَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا بَيَٰتٗا وَهُمۡ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا ضُحٗى وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ﴾[الأعراف: ٩٧، ٩٨].

(١) ينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٧/ ٣٥٧).

وما أكثر ما يغترُّ المرء بالثَّروات الماليَّة، والجُند البشريِّ الذي يحيط به، فيظنُّ أنه وصل إلى نهاية التَّاريخ، وألَّا تغيير للوضع القائم، ويقول كما قال المغترُّون السابقون: ﴿وَقَالُواْ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٥]

عرفنا أن القرآن العظيم ينذر العالمين من المخاطر الواقعة والمُتوَقَّعة التي تحل بصورة غير متوقَّعة، فما وجه إنذار هذه الآية ضمن السُّنَن الاجتماعيَّة؟

وجواب ذلك: أن الآية تنذر الجميع: المتذكِّرين وغير المتذكِّرين من الغافلين والمستكبرين بالمخاطر الرَّهيبة التي قد تؤدي إلى هلاكهم في أيِّ لحظة إن لم ينتبهوا لاتِّباع ما أنزل إليهم من ربِّهم ﷻ، فينظِّموا حياتهم وَفْقَ الحقِّ الذي أنزله لهم ربُّهم ﷻ، فالمتذكِّرون تزيدهم الآية انتباهًا، وغير المتذكِّرين تنبِّههم وتحذِّرهم، وهنا تدرك أن أبا البقاء الرُّنْديَّ رحمه الله استشعر هذه الآيات، وهو يرى التَّدمير التَّدريجيَّ لحضارات الأندلس العظيمة، وأهلها غافلون:

لكلِّ شيءٍ إذا ما تمَّ نقصانُ	فلا يُغرُّ بطيبِ العيشِ إنسانُ
هي الأيامُ كما شاهدتها دُوَلٌ	مَن سَرَّهُ زَمنٌ ساءَتهُ أزمانُ
وهذه الدارُ لا تُبقي على أَحَدٍ	ولا يَدومُ على حالٍ لها شانُ
يُمزِّقُ الدهرُ حتمًا كلَّ سابغةٍ	إذا نَبَتْ مشْرِفيَّاتٌ وخُرصانُ[1]
ويَنتَضِي كلَّ سيفٍ للفناء ولوْ	كان ابنَ ذي يزَن والغَمدَ غُمدان
أين الملوكُ ذَوو التِّيجان مِنْ يَمَنٍ	وأين منهم أكاليلٌ وتيجانُ؟

---

(١) المشرفيات: السيوف، والخرصان: الرماح. المرشد إلى فهم أشعار العرب (٤/ ٤١٤).

وأيـن مـا شَـــادَه شـــدَّادُ في إرمٍ ... وأين ما سَـاسَـه في الفرس سـاسـانُ؟
وأيـن مـا حـازه قـارونُ مـن ذَهَـبٍ ... وأيـن عـادٌ وشـــدَّادٌ وقـحـطـانُ؟
أتـى عـلـى الـكُـلِّ أمرٌ لا مَـردَّ لـه ... حتى قَضَـوا فكـأنَّ القومَ مـا كـانوا
وصـــارَ ما كـانَ من مُلْكٍ ومن مَلِكٍ ... كما حكى عن خيالِ الطَّيفِ وَسْـنانُ
دارَ الـزَّمـانُ عـلـى (دارًا) وقـاتِـلِـهِ ... وأَمَّ كسـرى فـمـا آواه إِيْـوانُ [(١)]
كأنما الصَّـعبُ لم يسْـهُلْ له سـببُ ... يـومًـا ولا مَـلـكَ الـدُّنـيـا سُـلـيمـانُ
فـجـائـعُ الـدَّهـر أنـواعٌ مُـنـوَّعـةٌ ... ولـلـزَّمـان مســرَّاتٌ وأحـزانُ[(٢)]

وقال محمَّد بن حازم البَاهليُّ:

يـا راقـدَ الـلَّـيـلِ مســرورًا بـأوَّلـهِ ... إنَّ الحوادثَ قـدْ يطرقنَ أسـحـارَا
لا تـفـرحـنَّ بـلـيـلٍ طـابَ أوَّلـهُ ... فـربَّ آخـرِ لـيـلٍ أجَّـجَ الـنَّـارا
أفنى القرونَ التي كـانـتْ منعَّـمةً ... كـرُّ الـجَـدِيـديـن إقـبـالًا وإدبـارَا
كمْ قدْ أبادتْ صروفُ الدهرِ منْ مَلِكٍ ... قـدْ كـان في الـدَّهـرِ نفَّـاعًـا وضـرَّارا
يـا مـنْ يـعـانـقُ دنـيـا لا بـقـاءَ لـهـا ... يمسـي ويصـبحُ في دنياهُ سـفَّـارا
هـلاَّ تـركـتَ مـنَ الـدُّنـيـا مـعـانـقـةً ... حتَّـى تـعـانق في الـفـردوسِ أبـكـارا
إنْ كنتَ تبغي جنانَ الخُلدِ تَسْـكُنُها ... فـيـنـبـغـي لـكَ أنْ لا تـأمـن الـنَّـارا[(٣)]

---

(١) أجرى هذا مجرى المثل الذي تفهمه العامة، وعلى النظر الأول يريك في عجز البيت ضعفًا، ثم عند إعادته تتبين ما تحته من عمق الحسرة التي ظاهرها هذه السذاجة في التعبير. المرشد إلى فهم أشعار العرب (٤/ ٤١٥).

(٢) نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب (٤/ ٤٨٧).

(٣) ديوان محمَّد بن حازم الباهلي، دار قتيبة، دمشق، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م، (ص: ٥٥).

ربما تساءلت: ما معنى الفاء في قوله: ﴿فَجَآءَهَا﴾؟ وما الحكمة من مجيء: ﴿أَهۡلَكۡنَٰهَا﴾ بالماضي قبل قوله تعالى: ﴿فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا﴾؟ هل جاء البأس بعد الهلاك؟

الجواب: هذه الفاء البديعة أنبأتنا بصورٍ متعدِّدة تكتنزها الآية:

فالصُّورة الأولى: تظهر لنا سرعة الوقوع، أو مجيء الوقوع مباشرة وَفْقَ الإرادة الإلهيَّة، فإذا أراد الله ﷻ إهلاك دولة أو حضارة فإن بأسه العظيم يأتيها فورًا:

فقد فهمنا من كلمة: ﴿أَهۡلَكۡنَٰهَا﴾ الإرادة، أي: أَرَدْنا إهْلاكَها، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [المائدة: ٦]، فكلمة: ﴿قُمۡتُمۡ﴾ من (قام) الماضي، والتقدير: إذا أردتم القيام، والمعنى هنا: ﴿أَهۡلَكۡنَٰهَا﴾ أي: أردنا إهلاكها، وقضينا بِهِ لاستحقاقها ذلك، وهذا تعبير عن إرادة الفعل بذكر الصِّيغة التي تدلُّ على وقوع الفعل؛ لينبِّئك أن الإرادة ستتحقَّق تحقُّقًا لا يمكن أن يتأخَّر، وأنَّ الزَّمان لا اعتبار به أمام الإرادة الإلهيَّة النَّافذة، فيكون معنى قوله تعالى: ﴿فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا﴾: لما أردنا إهلاكها حدث الهلاك بأن جاءتها قوَّة الله ﷻ الشَّديدة الغليظة التي سمَّاها الله ﷻ ﴿بأسًا﴾، وأسند البأس إليه ﷻ بـ(نا) الدَّالة على العظمة، فقال: ﴿بَأۡسُنَا﴾، بِما لَنا مِنَ القُوَّةِ والعَظَمَةِ، قال الطَّاهر بن عاشور ﵀: "والتَّعْبِيرُ عَنْ إرادَةِ الفعل بذكر الصِّيغَةِ التي تَدُلُّ عَلى وُقُوعِ الفِعْلِ يَكُونُ لِإفادَةِ عَزْمِ الفاعِلِ عَلى الفِعْلِ، عَزْمًا لا يَتَأخَّرُ عَنْهُ العَمَلُ، بِحَيْثُ يُسْتَعارُ اللَّفْظُ الدّالُّ عَلى حُصُولِ المُرادِ لِلْإرادَةِ لِتَشابُهِهِما"(١).

والفاء في قوله: ﴿فَجَآءَهَا﴾ تصوِّر لك التَّعقيب المباشر لهذه الإرادة في الوقت المناسب، فكأن البأس الإلهيَّ حلَّ بالقرية بمجرد إرادة الله ﷻ أن يهلكها في الوقت الذي حدَّده، فحلَّ بها ذلك البأس دون تأخُّر أو إبطاء.

---

(١) التحرير والتنوير (٨ب/ ٢٠).

فإن قلت: ما الحكمة من تصوير هذا الهلاك السَّريع بهذه الطريقة: ﴿أَهۡلَكۡنَٰهَا فَجَآءَهَا﴾، والفاء للتَّعقيب؟

نجد الجواب في هذه البصيرة: فإن الهدف من التَّصوير القرآنيِّ لحلول البأس الإلهيِّ بالقرى: أن يُوجِد القلق الشَّديد في أنفس السَّامعين من المتذكِّرين والمعرضين، فالمتذكِّرون يزدادون حذرًا، ويحوِّلون الحذر إلى عمل، والمعرضون يخافون، فيتركون الغفلة والاستكبار والإعراض، ويسارعون إلى اتِّباع ما أنزل إليهم من ربِّهم ﷻ.

وقد تسأل: هل لهذه الفاء في قوله: ﴿فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا﴾ معنى آخر غير معنى التَّعقيب يصوِّر لنا الدَّمار الحضاريَّ الذي يحلُّ بالقرى، ويزلزل أفئدة المؤمنين وغير المؤمنين، والمتذكِّرين والغافلين المستكبرين؟

الجواب: نعم، فتعال اشهد الثَّراء القرآنيَّ؛ إذ يمكن أن تقول بأن الفاء هنا ليست للتَّعقيب الزَّمنيِّ، بل للتَّعقيب الذِّكْري، وحقيقتها أنها للتَّفصيل والتَّفريع، فهي مِن عَطْفِ الـمُفَصَّلِ علَى الـمُجْمَلِ، ومثال ذلك قوله تَعالى: ﴿إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ﴾ [الواقعة: ٣٥]، ﴿فَجَعَلۡنَٰهُنَّ أَبۡكَارًا﴾ [الواقعة: ٣٦]، فهُنَّ أبكار مع الإنشاء، ولكن الفاء للتَّفصيل والتَّنويع(١)، فكأنَّ الله ﷻ يقول: ﴿وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا﴾ وتفصيل هذا الإهلاك: أن جاءها بأسنا بياتًا أو هم قائلون، فما كان دعواهم...، ويمكن أن تجعلها فاء الفصيحة التي تفصح عن كلام محذوف، وكأنَّ ربَّك العلَّام العظيم يقول لك: وكم من قرية أهلكناها، فسألتم عن كيفية الإهلاك، فاعلموا أنه جاءها بأسنا بياتًا أو هم قائلون، وعلى التَّقديرين يكون المعنى الكلِّيُّ:

﴿وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ﴾ عَصَتْ ربَّها ﷻ، وأَبَتْ اتِّباع نظامه، أو غفلت عن أسباب الأمن، فكان عاقبتها أن ﴿أَهۡلَكۡنَٰهَا﴾، بأن منعناها من اتِّباع الهدى بعد أن أصرَّت على تركه، ثم

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير (٨ب/ ٢١).

﴿أَهۡلَكۡنَٰهَا﴾ بعقوبة ماديَّة مدمِّرة، فتفصيل ذلك إن سألت عنه أنه جاءها بأسنا بياتًا أو هم قائلون.. وهنا ترانا فسَّرنا الإهلاك بالأمرين معًا: الإهلاك المعنويُّ بمنع الغافلين المستكبرين من اتِّباع الحقِّ المبين، والإهلاك الماديُّ الذي يَعْقُبُ ذلك، وبذا رأيت الثَّراء في المعاني القُرآنيَّة للآية، وهي تصوِّر لك الحال البائسة التي وصلت لها الحضارات العاصية القاسية.

هذه الآية تفتح عيونك بدهشة وأنت قلقٌ على البشريَّة من مصير القرى الغافلة المعاندة.

ولكنك ربما تساءلت:

ما الحكمة من التعبير بـ(أو) في قوله تعالى: ﴿فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا بَيَٰتًا أَوۡ هُمۡ قَآئِلُونَ﴾؟ مع أنها كلمة يؤتى بها لوجود شكٍّ في الخبر.. فكيف يجوز أن يكون في خبر الله ﷻ شكٌّ؟

والجواب واضح لمن يتدبَّر من أولي الألباب؛ فإن (أو) هنا ليست للشَّك من المتكلِّم بل للتَّنويع والتَّوزيع بين الوقتين؛ فالإهلاك قد يأتي بياتًا، وقد يأتي حال القيلولة، ومن فوائد هذا التَّنويع والتَّوزيع: أن بعض القرى قد يأتيها البأس الإلهيُّ بياتًا، وبعضها قد يأتيها وهم قائلون، وهذا التَّنويع والتَّوزيع يورث الخوف في نفس السَّامع، فهذا التَّعبير يشعرك بضرورة عدم الشُّعور بالأمان من خطر هلاك الحضارات طوال اليوم والليلة.

بصيرة: ﴿فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا بَيَٰتًا أَوۡ هُمۡ قَآئِلُونَ﴾ تخوِّفك من حلول البأس الإلهيِّ في أيِّ لحظة من ليل أو نهار، وهذا يجعلك تشعر بعدم الأمان، وعدم الشُّعور بالأمان هو بوابة الوصول إلى الأمان.

ولذلك قال الإمام الحسن البصريُّ ؒ: لأنْ تصحب أقوامًا يُخَوِّفونك حتى تبلغ المأمن، خير لك من أنْ تصحب أقوامًا يُؤَمِّنونك حتى تبلغ المخاوف[١].

(١) مرآة الزمان في تواريخ الأعيان (٢٢/ ١٠٣).

ومن هنا تُشهَدُ الحكمة في وصف المُصَلِّين في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ٢٧ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ٢٨﴾ [المعارج: ٢٧، ٢٨].

ماذا يعني ذلك؟

يعني القيام بالأمور اللّازمة على المستوى الفرديِّ؛ لئلا يحدث الهلاك لنا، وكذلك أن نقوم بالأمور اللّازمة على المستوى الجماعيِّ حتى لا يحدث الهلاك للمدينة التي نعيش فيها، أو للحضارة التي نتفيأ ظلالها، أو للدُّول التي تُصِرُّ على الغفلة أو الاستكبار.

كان ذلك هو المشهد الأول الذي رأيناه في قوله جلَّ ذِكرُه: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَـٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَـٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ٤﴾ [الأعراف: ٤]**، والآن هلمَّ إلى المشهد الثاني، فإن الشَّوق يحدونا إلى أن نسأل: ما المشهد الثاني الذي يُبَصِّرنا به قوله تَعَالى جَدُّهُ:** ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ٥﴾؟

الجواب: هنا يأتي

المشهد الثَّاني: مشهد الاعتراف:

تسمع في هذا المشهد الاعتراف باقتراف الظُّلم الجماعيِّ أو باقتراف الظُّلم الفرديِّ عند وقوع البأس الإلهيِّ، ويُبَصِّرنا به قوله تَعَالى جَدُّهُ: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴿٥﴾﴾:

فهذه الآية جاءت في موضعها بعد قوله جلَّ ذِكْرُه: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾﴾ [الأعراف: ٤]؛ إذ إنك إن سمعت الآية السَّابقة تساءلت: ماذا حدث لهم عندما جاءهم البأس الإلهيُّ، فحلَّ بهم سطوات الله ﷻ، ونقمه، ونزل عليهم غضبه سواء أكان ذلك يوم القيامة أم كان في الدُّنيا.. ماذا حلَّ بهم؟

يجيبك الله ﷻ: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴿٥﴾﴾ فجأة تحوَّلوا إلى الدُّعاء والاستجداء بالاعتراف.. لقد اعترفوا بأنهم كانوا ظالمين.

نعم اعترفوا بأنهم كانوا ظالمين، وهنا نسأل: فما موقع هذه الكلمة (الظُّلم) في الحياة الحضاريَّة والاجتماعيَّة للأمم؟

هل تذكر أننا أبصرنا التَّحذير الإلهيَّ من عدم التَّذكُّر في قوله تعالى: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف ٣]، ومن الذي لا يتذكَّر؟

الغافل، والمستكبر، فظهر لنا أن قِلَّة التَّذكُّر تعني وجود صفتين مدمِّرتين: الغفلة والاستكبار، وهنا يأتيك الله ﷻ بالصِّفة الثَّالثة المدمرة للأفراد والأمم: الظلم، وهذه الصِّفات تعالجها هذه السُّورَة علاجًا متميزًا:

فالصِّفة الأولى: الغفلة: وهي التي بصَّرنا بها قوله تعالى شأنه: ﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٢]، وقوله: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٣]، فإن ضِدَّ التَّذكُّر الغفلة، ثم

سيأتي التَّصريح بها في خمسة مواضع من السُّورَة، ويبيِّن الله ﷻ أنها أهمُّ أسباب نزول العذاب بالأمم:

فالموضع الأول: نزول العذاب بالغافلين من قوم فرعون، حيث قال: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ١٣٦﴾ [الأعراف: ١٣٦].

والموضع الثاني: عدم استحقاق الغافلين لهداية الله ﷻ: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

والموضع الثالث: تحذير الغافلين من أن غفلتهم لن تكون عذرًا يوم القيامة: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

والموضع الرابع: العاقبة الأخيرة للغافلين أنهم سيكونون وقودًا لجهنَّم: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ١٧٩﴾ [الأعراف: ١٧٩].

والموضع الخامس: تحذير المتذكِّرين من أعمال الغافلين، حيث يقول الله ﷻ: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥].

والصِّفة الثَّانية التي تصحب الغفلة: الكبر: وقد تكرَّر ذكرها عشر مرَّات في هذه السُّورَة المباركة، وينتج عن الغفلة والكبر: الظُّلم الذَّاتيُّ، والظُّلم المتعدِّي، وهو الذي اعترف به هؤلاء الغافلون المستكبرون هنا.

ومن بصائر سورة الأعراف يمكننا أن نقرِّر قانونًا يجمع الصِّفات الثَّلاث المدمِّرة للحضارات والأمم ﴿وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَـٰهَا﴾:

الغفلة تُنْتِجُ الكبر، والكبر يُنْتِجُ الغفلة، والغفلة والكبر يُنْتِجان الظُّلم، والظُّلم يؤدِّي إلى حدوث الدَّمار والتَّعذيب للأفراد والأمم، وبصائر السُّورَة تهدينا اللوحة الآتية:

أ.د. عبد السلام مقبل المجيدي

﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ﴾[الأعراف: 4]

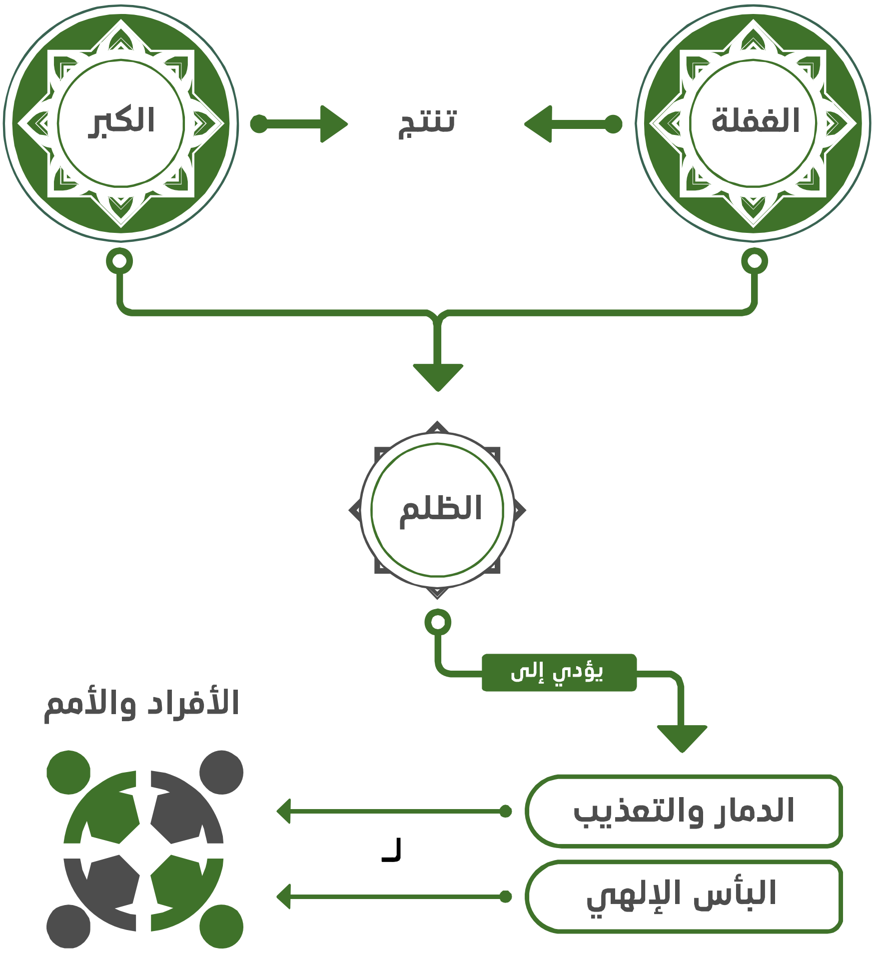

﴿مفصل سورة الأعراف (1)﴾

وبعضهم يقول:

قد رأينا الظَّالمين، ولم نر أنه حلَّ بهم العذاب المبين.. فما الجواب على ذلك؟

نقول له: ما أدراك أنهم لا يُعَذَّبون من النَّاحية الفرديَّة أو حتى من النَّاحية الجماعيَّة؟

أنت لا تحصر العذاب في أن يكون عذابًا ماديًّا مستأصلًا فقط مثل زلزال يحلُّ، أو خسف من السماء، فأحد ممثِّلين (هوليوود) مؤخرًا بلغ نحوًا من ستين سنة، وكان في أعلى درجات النَّجاح المهنيِّ حسب أعرافهم، ولكنه انتحر، هذا من النَّاحية الفرديَّة(١).

وأما من النَّاحية الجماعيَّة فإنك ترى حضارات هائلة لكن الأغنياء فيها معدودون، والفقر يجتاحها، وانظر إلى أكبر الدُّول لترى المشرَّدين ينتشرون في أَزِقَّة المدن.

ولكننا نقول في الجواب على هذا التَّساؤل:

العذاب يحلُّ على الظَّالمين عاجلًا أو آجلًا، والمخلوق لا يشترط على الله ﷻ وقت وقوعه، وفي هذه السُّورَة سيبين الله ﷻ لك أن هناك آجالًا محدَّدة عنده وليس عندك أنت، فلا تستعجل؛ فالسُّورَة تجيبك على ذلك؛ إذ يقول الله ﷻ في هذه السُّورَة نفسها: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤].

هذا الأجل لا تفرضه على ربِّك ﷻ، بل الله ﷻ الذي له الحكم الفصل قد حدَّد موعده مسبقًا، وتتكرَّر هذه المعاني في الآيات القرآنيَّة بأساليب عدَّة مع مفاهيم تفصيليَّة، مثلًا يقول: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: ٦٠]، ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ﴾ [آل عمران: ١٩٦].

والآن تعال بنا نشاهد التَّفاصيل التي تحبونا بها الآية: فما معنى الفاء في قوله: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ﴾؟

---

(١) وهو (روبن ويليامز) الذي انتحر سنة ٢٠١٤م. ينظر: روبن ويليامز – ويكيبيديا.

الجواب: الفاء في قوله: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ﴾ للتَّرتيب المعنويِّ؛ إذ لمَّا حلَّ بهم بأس الله ﷻ قاموا يصيحون ويبكون ويعترفون بأنهم ظالمون، فحدَّدتِ الفاء الزَّمن الذي رفع فيه هؤلاء الدَّعوى.. إنه زمن مجيء البأس الإلهيِّ المدمِّر.

ولكنك لا بد أن تتساءل: فما معنى الدَّعوى؟

وأجيبك: بأن هذه الكلمة تصف بدِقَّة الذي يحدث من القوم المعذبين عندما يأتيهم البأس الإلهيِّ المبين، فهم يلجؤون إلى أمرين توضِّحهما هذه الكلمة العظيمة؛ لأن كلمة "دعوى" تأتي في كلام العرب بوجهين: أحدهما: الدُّعاء، والآخر: الادِّعاء للحقِّ[(١)]:

الأمر الأوَّل: "الدَّعوى" التي معناها الدُّعاء، ومنه قول الله تبارك وتعالى: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٠﴾ [يونس: ١٠]، ومنه قول الشاعر:

وَإِنْ مَذِلَتْ رِجْلِي دَعَوْتُكِ أَشْتَفِي   بِدَعْوَاكِ مِنْ مَذْلٍ بِهَا فَيَهُونُ[(٢)]

" أي إن خَدِرَت رِجْلي دعوت باسمك، فيذهب الخَدَر"، ونقل الرَّازيُّ ؒ أنَّ سيبويه ؒ حَكى: اللَّهُمَّ أَشْرِكْنا في صالِحِ دُعاءِ المُسْلِمِينَ، ودَعْوى المُسْلِمِينَ[(٣)].

الأمر الثاني: "الدَّعوى" تأتي بمعنى الادِّعاء الذي يُطلب له بيِّنة ليثبت، فيقال: الدَّعوى التي رفعها فلان صحيحة، ولها أدلَّة.

والمراد بالدَّعوى هنا: كلا المعنيين، أي: فلم يكن لهم من دعوى يطالبون بها إلا الدُّعاء، ولم يكن دعاؤهم إلا أن ظلوا يظهرون النَّدم والتَّوبة والحسرة والألم بقولهم: ﴿إِنَّا كُنَّا

---

(١) ينظر: المفردات في غريب القرآن (ص: ٣١٥، ٣١٦).

(٢) البيت بلا نسبة في: لسان العرب (١١/ ٦٢٢)، تاج العروس (٣٠/ ٤٠١).

(٣) تفسير الرازي (١٤/ ١٩٩).

ظَٰلِمِينَ﴾، أي: فانْقَطَعَتْ عنهم كُلُّ الدَّعاوى الكبيرة التي كانوا يباهون بها أمام العالم ليوهموهم أنهم على حقٍّ، وأنه لا يأتيهم العذاب.

فهناك مَنْ دعواهم في الدُّنيا أنهم يحمون البشريَّة من أخطار التَّطرف.

وفريق منهم يدَّعون الحقَّ في تعدُّد الآلهة.

وآخرون يدَّعون الحقَّ في التَّمييز العنصريِّ.

وآخرون يدَّعون الحقَّ في الإجرام الاقتصاديِّ؛ لحذقهم في الاحتيال على الآخرين.

فما ستكون دعواهم وهم يعاينون العذاب؟

لم يكن لهم من دعوى يطالبون بها رفع العذاب عنهم إلا اعترافهم بأنهم ظالمون.

وقد تسأل: ولماذا يعترفون بأنهم كانوا ظالمين؟

الجواب: هم يثبتون التُّهمة، ولا يستطيعون نفيها عسى أن يُرحموا لاعترافهم بالذَّنب، وليبيِّنوا أنهم قد عزموا على توبة صادقة تشبه توبة آدم وزوجه عليهما السلام لـمَّا قالا: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]، فأولئك القوم صار ادِّعَاؤُهم دعاءَهم، وصار دُعَاؤُهم أن يردِّدوا بأنَّهم كانوا ظالمين.. فهل نفعهم هذا الاعتراف؟

الفرصة كانت قد انتهت، وقد عُمِّروا أوقاتًا يتذكَّر فيها من تذكَّر.

والبأس الإلهيُّ قد يكون في الدُّنيا، وقد يكون عند الموت وفي الآخرة، وممَّا يصوِّر لك مشهد البأس الإلهيِّ في الدُّنيا قِصَّة الظَّالمين من أصحاب الجنَّة في اليمن حين تآمروا على الفقراء، وأصرُّوا على منعهم من حقوقهم في حصاد تلك الجنَّة، فكانت النتيجة أن جاءهم بأس الله عز وجل ليلًا: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ۝١٩ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ۝٢٠﴾ [القلم: ١٩، ٢٠]، ولمَّا أصبحوا يريدون الخروج إلى أرباحهم ومكاسبهم لم يجدوا إلا الأرض متفحمة، وحينها ارتفع ادِّعاؤهم ودعاؤهم: ﴿قَالُواْ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝٢٩ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ

بَعۡضٖ يَتَلَٰوَمُونَ ٣٠ قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ٣١ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبۡدِلَنَا خَيۡرٗا مِّنۡهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ٣٢﴾ [القلم: ٢٩-٣٢].

وبعض النَّاس يرى البأس الإلهيَّ قرب الموت، كفرعون حين اعترف بظلمه، وأعلن إسلامه، وقد جاءه البأس الإلهي، فأتاه الرد: ﴿ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [يونس: ٩١].

هنا أذكِّرك بأمر خطير يتعلَّق بهذا الاعتراف:

الاعتراف بأنهم ظالمون في آخر الحياة الدُّنيويَّة يمثِّل المُقَدِّمَة لِشَهادَةِ الظَّالمين على أنفسهم بألسنتهم أنهم فسدوا وظلموا وأخطأوا، وأنهم يستحقُّون الجزاء الذي سيجدونه في الحياة الأُخرويَّة، ويوم الفصل العظيم! ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعۡذِرَتُهُمۡۖ وَلَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ [غافر: ٥٢]، **وليكون هذا القول في ذاته نوعًا من العذاب العاجل؛ إذ يصحبه الألم والحسرة، ويظهر منه زوال سَوْرَةِ العناد والكبر والتَّعالي والغرور.**

نعم، لقد كانوا كما قالوا: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ **فظلموا أنفسهم عندما اتخذوا من دون الله** ﷻ **أولياء، وشرعوا لأنفسهم طريقة تبغي الحياة عوجًا، فأضاعوا الصَّلاة، واتبعوا الشَّهوات، وربما كان منهم من أوتي المال والقوَّة والسُّلطة، فجعل رسالته في الحياة أن يعبث بأمن المستضعفين، ويتلاعب بأقوات العالمين، ويخادع الخلق أجمعين، ويفسد في الأرض بعد إصلاحها، فلمَّا جاءه البأس الإلهيُّ عند الموت أو في الحشر قام يعتذر ويردد مع المجرمين!** ﴿إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ٥].

وعندها تتساءل: لماذا اعترفوا بهذه الجريمة تحديدًا.. بجريمة الظُّلم؟

الجواب: لأن "الظُّلم" وصف للذُّنوب الصَّغيرة والكبيرة الفرديَّة والجماعيَّة التي يرتكبها الإنسان مصرًّا عليها، وهو في الظُّلم يبغي الحياة عوجًا، ويُصِرُّ على وضع الأشياء في غير موضعها، ويظنُّ أن الاعتراف يكفيه إذا وقع البأس الإلهيُّ.

وقد تتساءل أمام قوارع هذه الآية المباركة:

ما الحكمة في التَّعبير عن ظلمهم بالجملة الاسميَّة المؤكَّدة: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾، بينما رأينا آدم وزوجه ٣عبَّرا عما اقترفاه بالجملة الفعليَّة: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]؟

الجواب: لم يَعُدْ لهم من كلمة.. ضاعت منهم العبارات، وذهبت الأنفس المستكبرات، وقاموا يلهثون ويئنون فاعترفوا على أنفسهم بأنهم كانوا ظالمين، وإلى أنفسهم مسيئين، وانظر كيف تصوِّر لك الآية شعورهم بالهول، وأحاسيسهم بالويل:

﴿فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ٥]، لقد ذهبت عنهم كلُّ دعوى إلا الاعتراف بالظُّلم عسى أن يُرحموا، ولكن بعد فوات الأوان..

ها هم يهتفون في اعترافهم: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾، فأتوا بالتأكيد ﴿إِنَّا﴾، وبالجملة الاسميَّة ﴿كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ ليجعلوا اعترافهم واضحًا صادقًا، فالجملة الاسميَّة تدلُّ على أنَّ الظُّلم سِمَتُهُمُ الدَّائمة، وسلوكهم الثَّابت الذي لا يتغيَّر، فما عادوا ينسبون لأنفسهم خيرًا، بل يؤكِّدون أنَّ حياتهم لم تكن إلا ممتلئة بظلمهم لأنفسهم وللآخرين، وظنُّوا أن هذا الاعتراف الصَّريح ربَّما يخفِّف عنهم هول العقوبات القادمة.

أمَّا بعد أن شعرت بقوة البيان القرآنيِّ في التَّعبير عن ألمهم وندمهم ولوعتهم واسترحامهم لا بدَّ أن ندرك سرَّ تعبير آدم وزوجه عليهما السلام عن ندمهما من ذنبهما بالفعل، حيث ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]، فالفعل الماضي يدلُّ على

الوقوع مرَّة، وقد يدلُّ على الوقوع مرَّات، لكنه لا يدل غالبًا على الدَّيمومة والثَّبات والتأصُّل، بل على الإطلاق، والإطلاق يتحقَّق بمرَّة واحدة، وقد وقع ذلك من آدم وزوجه عليهما السلام حيث لم يذنبا إلا مرَّة واحدة، فلما اتَّجها إلى إعلان النَّدم وَثَّقا ندمهما بأنَّ الذَّنب وقع مرَّة، ودلَّ قولهما على سرعة النَّدم والتَّوبة بعد وقوع الذَّنب، كما دلَّ على عدم تأصُّل هذا الذَّنب في وجدانهما وحياتهما، بل على أنه طارئ عارض، وهما يعزمان على عدم تكرُّره.. أرأيت الفرق المبين في التعبير عن أسلوب النَّدم في المشهدين، فاستحقَّ آدم وزوجه عليهما السلام أن تقبل توبتهما بخلاف أولئك الخاطئين.

هذا الاعتراف بالظُّلم بعد وقوع العقوبة لم يغن عن أصحابه شيئًا، وسنجد الاعتراف عند آدم وزوجه عليهما السلام في هذه السُّورَة كما سنجده عند عبدة العجل، والموقفان مناقضان لعقيدة العناد والإنكار والاستكبار التي وقع فيها إبليس حين أبى الانصياع للأمر الإلهيِّ بالسُّجود.

بعد أن بصَّرتْنا الآية بحال الآلام التي اجتاحتهم عندما نزل بهم العذاب، وبعد أن أسمعتنا الصِّياح الذي سيطر عليهم عندما حلَّ عليهم العذاب.. فما الذي تُبصِّرنا به الجملة الاسميَّة أيضًا من سبب هذا العذاب في الدُّنيا؟

الجواب: إنها تُبصِّرنا بأن هذا العذاب لم ينزل بهم إلا بعد أن بلغوا الغاية الكاملة في الظُّلم، وهذا الجواب أيضًا على الذي يقول: نرى العصاة ولا ينزل بهم العذاب؟!

نجيبه: العذاب لا ينزل هكذا بمجرد أن يعصي الإنسان.. نعم! قد ينزل بمجرد أن يعصي الإنسان إذا كان هذا الإنسان قريبًا من الله عز وجل؛ تذكيرًا له، أما الظَّالم فلا ينزل به العذاب بمجرد العصيان، بل يعذِّبه بأن يزداد إثمًا، وعندما يتراكم عليه العصيان، وعندما يكون أشدَّ ما يكون أمنًا يأتيه البأس الإلهيُّ، كما في قوله -جلَّ مَجْدُه-: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤]، فإن من

حكمة الله تعالى أن يملي للظَّالم ويمهله، ولا يهمله فإذا أَخَذَهُ أَخَذَهُ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقتدرٍ، وفي هذا قال العشماويُّ:

أَيُّـهـا الـمُسْـتَـبِدُّ، كـلُّ مُـرادٍ ... كنتَ تسعى إليه أصبح وَهْمَا

قُضِـيَ الأمرُ، وانتهى كلُّ شيءٍ ... وطَوَى اللهُ ما نَشَرْتَ وأَطْمَى

يحسبُ المرءُ أنه يُعجزُ اللـ ... ـهَ فيَلْهُو ويَمْلأُ الأرضَ ظُلْمَا

يَتَسَامَى فلا يَرَى مَنْ يُسَامِيه ... وفي النَّاس من هو أَسْمَى

ويرى النَّاس كالدُّمَى يستجيبون ... لما يبتغيه صُمًّا وبُكْمَا

ويَجِيءُ القضاءُ حتمًا فلا يَقْـ ... ـدِرُ ردًّا ولا فيه حُكْمَا

خذ هذا الجواب للردِّ على بعض المستهزئين الفاسقين الذين يُشيعون الفاحشة، ويقولون في أنفسهم: لم نر أن السَّماء تشقَّقت، ولم نجد الأرض تزلزلت عقوبة لنا على ما نفعل، فقل لهم: لا تحلُّ العقوبة إلا إذا تكامل الظُّلم وصار الظُّلم أساس حركتهم في الحياة.. صار أساس أعمالهم، كلُّ ذلك تُظهره الجملة الاسميَّة التي قال الله ﷻ فيها: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ٥].. والآية تبصِّرك بطرفٍ خفيٍّ أن العذاب لم يَفْجَأْهُم إلا عند أشدِّ درجات الغرور؛ نظرًا للأمن الذي يحيط بهم، فجاءهم بياتًا أو هم قائلون مطمئنون، ولا ينزل العذاب كذلك إلا بعد أن أقيمت عليهم الحجَّة، وتحقَّق فيهم أن سبب العذاب قائم، ومانعه منعدم، ولذلك قال النَّبيُّ ﷺ: «لن يَهلِكَ النَّاسُ حتى يُعذِروا من أنفسهم»(١)، أي حتى تقوم عليهم الحجَّة قيامًا واضحًا، فتكثر ذنوبهم وعيوبهم، ويظهر

---

(١) أحمد (١٨٢٨٩) و (٢٢٥٠٦)، وصحَّح إسنادَه الأرناؤوط، والألباني في صحيح الجامع (٥٢٣١)، قَالَ أَبُو عُبَيْدَة: يَقُول: حَتَّى تكْثر ذنوبهم وعيوبهم، وَفِيه لُغَتَانِ: يُقَال: أعذر الرجل إعذارًا -إِذا صَار ذَا عيب وَفَسَاد، وَكَانَ بَعضهم يَقُول: عذَر يعذِر- بِمَعْنَاهُ وَلم يعرفهُ الْأَصْمَعِي. غريب الحديث لأبي عبيد (١/ ١٣١).

فسادهم وتقوم الحجَّة عليهم، ويكون العذر واضحًا لمن يعاقبهم، ومنه يقال: أَعْذَرَ فلان من نفسه، إذا أتي من نفسه، كأنها هي التي قامت بعذر من لامها، ومنه قول الأخطل:

فَإِنْ تَكُ حربُ ابنَيْ نِزارٍ تواضعت ... فقد عَذَرَتْنَا فِي كلاب وَفِي كعبِ[1]

ويُروى: أعذرتنا، أَي: جعلت لنا عُذرًا فِيمَا صنعناه وَمِنْه قَول النَّاس: من يَعذِرني من فلَان.

بصيرة: قد تتفاجأ بأنَّ المجرمين الظَّالمين سيعذرون من يعذِّبهم يوم القيامة لشِدَّة وضوح الحجَّة عليهم، وسيقولون عندها: ﴿يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٤].

هكذا: كُلُّ مُذْنِبٍ تأتيه العقوبة يُظهر التَّندم والتَّحسُّر ويعترف بظلمه وجُرْمه.

فإن قلت: ما الحكمة من ذِكْر إهلاك القرى هنا، دون ذِكْر إهلاك الأفراد؟

أجيبك بأن: الظُّلم الجماعي سبب لدمار الحضارات وزوالها، واندثارها، وأما الظُّلم الشخصي الذي يكون بين الإنسان وربِّه ﷻ من الذُّنوب الفرديَّة، فهي تورث عقوبة متراخية، وقد تكون خفيَّة، فإن السِّكِّير -مثلًا- يُصِرُّ على المباهاة بالخمر، فما تلبث الخمر بعد مُدَّة أن تقضي على حياته، ويمكن للإنسان أن يبحث عن التَّوبة العاجلة منه قبل أن يدهمه البأس الإلهيُّ، وتأتيه سطوة الله ﷻ فلا يملك لها حِوَلًا، ولا يستطيع لها دفعًا ولا ردًّا، وقد تكرَّر الإنذار بذلك في القرآن المجيد بصورةٍ كبيرة لا تجدها في كثيرٍ من السُّنَن الكونيَّة.

فالذُّنوب التي يجعل الله ﷻ لها عقوبة دنيويَّة، لا تأتي الأفراد في الدُّنيا فتستأصلهم غالبًا، لكنها تأتي مستأصلة للحضارات والأمم والمجموعات، ولا تقع غالبًا إلا على التَّراخي بعد أن يمهل الله ﷻ المذنبين الـمُدَد المتطاولة لئلا يكون لهم حجَّة.

---

(١) ديوان الأخطل (ص: ٢٧).

إذن هنا مقارنة بين عقوبات الأفراد وعقوبات الحضارات والأمم: فعقوبة الأفراد قد تحدث بصورة تدريجيَّة خفيَّة كلَّما رسخ الإنسان في الفسق جاءه العقاب رويدًا رويدًا حتى يهلكه، أما الحضارات فقد تجتاحها العقوبة اجتياحًا في طرفة عين، وفي المقابل فإن عقوبة الأفراد قد تصيبهم مع مقارفة الذَّنب، ولكن دون استئصال، أما الحضارات فلا تصيبهم إلا بعد مُدَد متطاولة حتى يظنَّ أهلها أنهم مُخَلَّدون، كما قال يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ [الكهف: ٥٩].

ربما قلت: هلَّا ذكر لنا الوحي الشَّريف، وبصَّرنا التَّنزيل المُنِيف ببعض الأمثلة على الظُّلم الذي يترتَّب عليه نزول العذاب؟

وإليك الجواب: فمن أسوأ الجرائم الظالمة التي تدمِّر الحضارات مجموعة من الجرائم التي يترتَّب عليها تسلُّط أعداء الأمَّة لتأكل خيراتها، وتسلب استقلالها، فقد روى عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: أَقْبَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم، فَقَالَ: «مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ، خَمْسٌ إِذَا ابْتُلِيتُمْ بِهِنَّ، وَأَعُوذُ بِاللهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ:

لَمْ تَظْهَرِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ، حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا، إِلاَّ فَشَا فِيهِمُ الطَّاعُونُ، وَالأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلاَفِهِمُ الَّذِينَ مَضَوْا.

وَلَمْ يَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ، إِلاَّ أُخِذُوا بِالسِّنِينَ، وَشِدَّةِ الْمَؤُونَةِ، وَجَوْرِ السُّلْطَانِ عَلَيْهِمْ.

وَلَمْ يَمْنَعُوا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ، إِلاَّ مُنِعُوا الْقَطْرَ مِنَ السَّمَاءِ، وَلَوْلاَ الْبَهَائِمُ لَمْ يُمْطَرُوا.

وَلَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَ اللهِ عز وجل، وَعَهْدَ رَسُولِهِ صلى الله عليه وآله وسلم، إِلاَّ سَلَّطَ اللهُ عز وجل عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ، فَأَخَذُوا بَعْضَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ.

وَمَا لَمْ تَحْكُمْ أَئِمَّتُهُمْ بِكِتَابِ اللهِ ﷻ، وَيَتَخَيَّرُوا مِمَّا أَنْزَلَ اللهُ ﷻ، إِلاَّ جَعَلَ اللهُ ﷻ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ»(١).

هنا تجيب على هؤلاء المغفَّلين من كهنة الظُّلم، وحُرَّاس الإجرام في وسائل إعلام الطُّغاة؛ إذ يرون معبوديهم من الظَّالمين يسجنون الأبرياء، ويأخذون أموال المستضعفين، ويمارسون الرَّذيلة، بل يتنافسون في إشاعة الفاحشة في الذين آمنوا.. وينبعث سَدَنة الإعلام المجرم ليقولوا: لم نر خسفًا بنا، ولا مسخًا، ولم تنزل علينا الكواكب، ولم تهاجمنا الشُّهُب والنَّيَازك.. فيزدادون ظلمًا وطغيانًا وفسقًا وإجرامًا.. نقول لهم: أمَا يكفيكم أنَّ أعداءكم سُلِّطوا عليكم يسومونكم سَوْم الشَّاة والبعير؟! أمَا تتعظون بعَاد وثمود؟! أما تنزجرون بقَارون والنَّمْرُود؟! أما سمعتم عن فرعون وهامان، وأكاسرة الفرس وقياصرة الرُّومان؟!

لكنَّ حقيقة الخبر أنَّ هؤلاء البشر، سَدُّوا على أنفسهم نوافذ العِبَر، وسلكوا بأرواحهم مسالك الضرر، فهان عليهم كلُّ شيء، فالواحد منهم مَيِّتٌ في مِسْلَاخ حيٍّ، كما قيل:

مَنْ سَاسَهُ الظُّلْمُ بِسَوْطِ بَأْسِهِ — هَانَ عَلَيْهِ الذُّلُّ مِنْ حَيْثُ أَتَى
وَمَنْ يَهُنْ هَانَ عَلَيْهِ قَوْمُهُ — وَعِرْضُهُ وَدِينُهُ الَّذِي ارْتَضَى(٢)

---

(١) ابن ماجه (٤٠١٩)، وقال الأرناؤوط: "حسن لغيره، وهذا إسناد ضعيف؛ لضعف ابن أبي مالك، واسمه خالد بن يزيد بن عبد الرَّحمَن الهمداني الدمشقي"، وقال البوصيري في مصباح الزجاجة (٤/ ١٨٦): "حَدِيث صَالح للْعَمَل بِهِ، وَقد اخْتلف فِي ابْن أبي مَالك وَأَبِيهِ"، قال الألباني في الصحيحة (١٠٦) معلقًا على كلام البوصيري: "قلت: الأب لا بأس به، وإنما العلة من ابنه، ولذلك أشار الحافظ ابن حجر في "بذل الماعون" لضعف الحديث بقوله: " إن ثبت الخبر". قلت: قد ثبت حتمًا فإنه جاء من طرق أخرى عن عطاء وغيره، ثم ذكر له طرقًا أخرى.

(٢) ذكرهما محمَّد رشيد رضا في تفسير المنار (٨/ ٢٧٨).

هنا لا بد أن تتساءل مع الطَّبَريِّ رحمه الله[1]: ما الحكمة من قول الله ﷻ: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ٥]؟ كيف أمكنهم أن ينادوا هذا النِّداء ويصيحوا هذا الصِّياح مع أنه قد جاءهم بأس الله ﷻ؟ فالله جل جلاله يخبر عنهم أنهم قالوه حين جاءهم، لا قبل ذلك؟ فكيف يقولونه وقد هلكوا؟

تبصِّرك الآية بالجواب عند التأمُّل؛ فإن البأس جاءهم، ولكنَّ قدرتهم على أن يُظهروا التَّوبة والنَّدم، ويعبِّروا عن الألم تدلُّ على امتداد هذا العذاب، فهو لا يأخذهم، فيُحدِث لهم الإفناء التَّامَّ في لحظة؛ بل إن العذاب الموجع الحقيقيَّ هو المستمرُّ الذي يشعر معه المُعذَّب بالألم ويتمنى معه الموت العاجل، والفناء المستأصل، ولكنه لا يجده كما قال المتنبي[2]:

كفى بكَ داءً أنْ ترَى الموْتَ شافِيَا ... وَحَسْبُ المَنَايَا أنْ يكُنَّ أمانِيَا
تَمَنَّيْتَهَا لَمَّا تَمَنَّيْتَ أنْ تَرَى ... صَديقًا فأعْيَا أوْ عَدُوًّا مُداجِيَا

فهذه الصُّورة الأولى للعذاب المستطيل وقته الذي لا يستأصل النَّاس، لكنهم يتمنَّون معه الموت، فلا موت يحلُّ بهم، ولا حياة حقَّة يجدونها.

ويعبِّر الطَّبَريُّ رحمه الله عن صورةٍ أخرى تتعلَّق بظهور بدايات العذاب بصورةٍ يتيقَّن معه المُعَذَّب أنْ سيهلك، وألَّا منجاة له منه، عندها يصيح من سيحلُّ بهم العذاب، فيقولون: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾، "فكان بين أوَّل ظهور السَّبب الذي علموا أنهم به هالكون، وبين آخره الذي عمَّ جميعَهم هلاكُه، المدَّة التي لا خفاء بها على ذي عقل، ومنهم من مُتِّع بالحياة بعد ظهور

(١) تفسير الطَّبَري (١٢/ ٣٠٤).

(٢) ديوان المتنبي (ص: ٤٤١).

علامة الهلاك لأعينهم أيامًا ثلاثة، كقوم صالح عليه السلام"(١)، ومن ذلك فرعون ما مات، بل أُخِذ بالعذاب، ولما شعر بالهلاك اعترف بظلمه وهو يغرق.

وقد بيَّن الله ﷻ ذلك في تقنين عامٍّ في سورة غافر عندما قال: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا﴾ [غافر: ٨٥].

فهذه الآيات قصَّت علينا المخاطر الدُّنيويَّة التي تحيط بالبشريَّة، إذا لم تتَّبع ما أنزل إليها من ربِّها ﷻ، فغفلت واستكبرت، وقد تتساءل: فإن لم تحدث العقوبات الدُّنيويَّة للأمم الغافلة عن البيان الإلهيِّ، فهل يعني ذلك أنها ستعجز الله سبحانه وتعالى وتفوته، وتخرج عن نطاق العدل الإلهيِّ؟ هلَّا وضَّحت لنا ذلك في ضوء الآية الآتية، وهي قوله جلَّ ذِكرُه: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦]؟

الجواب: هنا ترى المناسبة والاتِّصال بين الآيات قائمًا حيث تظهر المخاطر الأُخرويَّة التي تنتظر الغافلين أو المستكبرين عن اتِّباع البيان الإلهيِّ، وبذا يظهر المشهد الثالث في هذه الآيات:

(١) تفسير الطَّبَري (١٢/ ٣٠٥).

المشهد الثالث: مشهد المحاكمة العَادِلَة العُليا:

حيث يسأل الله أحكم الحاكمين الجميع يوم القيامة، ففي مواقف الحياة الأُخرويَّة يُسأل كلُّ فردٍ من البشر عن اتِّباع الكتاب الذي جاءه من ربِّه ﷻ، هل بلَّغه وعمل به، ويُبَصِّرنا بذلك قوله تَعالى جَدُّهُ: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦]:

وهنا ستسأل: كيف أدَّت الفاء العاطفة في قوله: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ﴾ دور الربط المُحْكَم بين هذه الآية وما قبلها؟ وكيف صوَّرته؟

الجواب: الفاءُ في قَوْلِهِ: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ﴾ بعطفها ما بعدها على ما قبلها تربط بين الآيات بحبل وثيق، حيث رتَّبت الأخبار؛ ففي الآية السَّابقة جاء بأس الله ﷻ في الدُّنيا، فقال الذين جاءهم البأس: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾، ولكنهم لم يروا من بأس الله ﷻ إلا مظهره الدُّنيويَّ، وفي هذه الآية يبيِّن الله ﷻ أنَّ الذي أتاه البأس الإلهيُّ في الدُّنيا والذي لم يأته سيرى بأس الله ﷻ في الآخرة، وحينها سيعترف الظَّالمون إمَّا مجدَّدًا كما اعترفوا في الدُّنيا، وإما سيعترفون لأوَّل مرَّة، فيقولون: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾، وحينها ستقام أعظم محكمة عليا يمكن أن يعرفها البشر؛ فالبأس الذي حلَّ في الدُّنيا لا يعني انقطاع الأمر في الآخرة، بل سيظهر الموقف الكامل يوم القيامة، ولذا قال ﷻ: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ﴾ بنون العظمة أيْ: بِما لَنا مِنَ العَظَمَةِ والقوة، وجاءت لامِ القَسَمِ لتؤكِّد الواقع العظيم الذي ينتظر الجميع، وزاد الموقف تأكيدًا بنُونِ التَّوْكِيدِ ليزيل كلَّ شكٍّ في وقوع هذا المشهد العظيم.

وهنا ربما يدفعك قوله تعالى: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ﴾ إلى التَّساؤل: مَنِ الأطراف التي ستُسأل يوم القيامة؟

الجواب: سيُسأل يوم القيامة طرفان:

الطَّرَف الأول: الأمم التي أرسل الله ﷻ لها الرُّسل: ﷺ ويخبرنا الله ﷻ عن هؤلاء، فيقول: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾.

وماذا سيسألهم؟

الجواب: سيسألهم: هل وصلتهم الرِّسالات؟ وكيف تعاملوا مع رسالات الله ﷻ؟ كيف كانت رِدَّة فعلهم عندما بلَّغهم المرسلون عن حقيقة وجودهم في الحياة؟ ويفصِّل الله ﷻ ذلك في سورة القصص فيقول: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٦٥].

وفي محكمة العدل الإلهيَّة العليا يبدأ الله ﷻ بهم، فما الحكمة؟

الجواب: لأنهم الطَّرف الذي يدَّعي المظلوميَّة، فسيبدأ التحقيق به، ليظهر العدل، فقبل أن يحبوهم بالثواب، أو يحكم عليهم بالعقاب يسألهم عن حياتهم الدُّنيا كيف كانت.

وهم قسمان: منهم الصَّالحون ومنهم الفاسقون:

فأما السؤال الموجَّه للَّصالحين فقد يكون سؤال تشريف وتعظيم ليعلم النَّاس قَدَرهم، وقد يكون سؤالًا لإقامة الحجَّة على الآخرين ليشهدوا عليهم أو لهم، وقد يكون سؤال معاتبة لطيفة فيما قصَّروا فيه، وهذا هو الحساب اليسير كما بيَّنه الله ﷻ في سورة الانشقاق، ويستبين للصَّالح من خلاله مقدار ستر الله ﷻ عليه، وكرمه الفيَّاض المنهمر المحيط به.

هلمَّ بنا إلى النَّبيِّ ﷺ لنسمع منه ما يوضِّح هذا المشهد، فيقول: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ سَيُكَلِّمُهُ اللَّهُ ﷻ، لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تُرْجُمَانٌ، فَيَنْظُرُ أَيْمَنَ مِنْهُ فَلاَ يَرَى إِلاَّ مَا قَدَّمَ، وَيَنْظُرُ أَشْأَمَ مِنْهُ فَلاَ يَرَى إِلاَّ مَا قَدَّمَ، وَيَنْظُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَلاَ يَرَى إِلاَّ النَّارَ تِلْقَاءَ وَجْهِهِ، فَاتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ»(١)، وقال ﷺ: «إِنَّ اللهَ يُدْنِي الْمُؤْمِنَ، فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ وَيَسْتُرُهُ، فَيَقُولُ: أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا، أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا، فَيَقُولُ: نَعَمْ أَيْ رَبِّ، حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ، وَرَأَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ هَلَكَ، قَالَ: سَتَرْتُهَا

(١) البخاري (٦٥٣٩).

عَلَيْكَ فِي الدُّنيا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ، فَيُعْطَى كِتَابَ حَسَنَاتِهِ. وَأَمَّا الْكَافِرُ وَالْمُنَافِقُونَ، فَيَقُولُ الْأَشْهَادُ: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ١٨]»(١).

قَالَ الْبَيْهَقِيُّ رحمه الله: قَوْلُهُ: «يُدْنِي الْمُؤْمِنَ»: يُرِيدُ بِهِ يُقَرِّبُهُ مِنْ كَرَامَتِهِ، وَقَوْلُهُ: «يَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ»: يُرِيدُ -وَاللهُ أَعْلَمُ- عَطْفَهُ وَرَأْفَتَهُ وَرِعَايَتَهُ"(٢).

وأما سؤال العاصين فله ثلاثة أهداف: إقامة للحجَّة عليهم، وتقريرًا للعدالة معهم، وتوبيخًا وتقريعًا حيث يهانون يوم القيامة.. بذلك كلِّه تظهر العدالة الإلهيَّة، فالسؤال ليس للاستعلام كما يقول الرَّجل للرَّجل: "ألم أحسن إليك فأسأت؟" و"ألم أصلك فقطعت؟"

كان هذا الطَّرَف الأول الذي يُسأل يوم القيامة.. فما الطَّرَف الثاني؟

الجواب:

الطَّرَف الثاني: المرسلون الذين أرسلهم الله عز وجل إلى أقوامهم:

فقال جلَّ ذِكرُه: ﴿وَلَنَسۡـَٔلَنَّ﴾ فاللام واقعة في جواب القَسَم، أيْ: والله لنسألنَّ بِعظَمَتِنا ﴿ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ الذين أرسلناهم ليبلِّغوا أمانة الرسالة إلى أقوامهم. إنهم الرسل عليهم السلام، نعم يُسألون. اللهم سلِّم، ولكن لماذا يُسألون؟

الجواب: يُسأل الرُّسل عليهم السلام لإظهار قيامهم بواجباتهم، ولإقامة الحجَّة على المرسل إليهم، وللاستشهاد بهم على زوال كلِّ عذر، فيسألهم الله جل جلاله: هل بلَّغوا رسالاته؟ هل قاموا بذلك البلاغ على الوجه الكامل المطلوب الذي تقام به الحجَّة؟

ويصف الله عز وجل لنا أنموذجًا من السؤال الموجَّه للأنبياء عليهم السلام، فيقول: ﴿۞يَوۡمَ يَجۡمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبۡتُمۡۖ قَالُواْ لَا عِلۡمَ لَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ١٠٩﴾ [المائدة: ١٠٩].

---

(١) البخاري (٢٤٤١).

(٢) شعب الإيمان (١/ ٤٣١).

ومن أبرز نماذج إقامة الحجَّة سؤال عيسى عليه السلام حيث نسب الملايين إليه ضلالتهم: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ [المائدة: ١١٦].

تَصَوَّرِ المشهد!!

هناك سيسأل الله عز وجل الصَّادق والكاذب، سيسأل الله -جلَّ مَجْدُه- الصَّالح والطَّالح، سيسأل الله -تَعَالى جَدُّهُ- المُبَلِّغ والمُبلَّغ.

ويستوقف هذا المشهد الفضيل بن عياض رحمه الله، فيقول: "مَا تَزَيَّنَ النَّاس بِشَيْءٍ أَفْضَلَ مِنَ الصِّدْقِ وَاللهُ عز وجل، يَسْأَلُ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ مِنْهُمْ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ عليه السلام، كَيْفَ بِالْكَذَّابِينَ الْمَسَاكِين، ثُمَّ بَكَى وَقَالَ: أَتَدْرُونَ فِي أَيِّ يَوْمٍ يَسْأَلُ اللهُ عز وجل عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ عليه السلام يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ عز وجل فِيهِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ آدَمَ عليه السلام فَمَنْ دُونَهُ، ثُمَّ قَالَ: وَكَمْ مِنْ قَبِيحٍ تَكْشِفُهُ الْقِيَامَةُ غَدًا"[١].

هنا في قوله: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦] عن ماذا سيكون السؤال؟

الجواب: يسأل الله عز وجل كلَّ واحد من النَّاس في ثلاثة مجالات:

المجال الأول: الأسئلة الخاصَّة به وبحياته:

ويفصِّل لنا النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم بعض هذه الأسئلة، فقد روى ابن عمر عن ابن مسعود رضي الله عنه: عن النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم قال: «لَا تَزُولُ قَدَمُ ابْنِ آدَمَ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ خَمْسٍ، عَنْ عُمُرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ، وَعَنْ شَبَابِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ، وَمَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ، وَمَاذَا عَمِلَ فِيمَا عَلِمَ»[٢]، وأوَّل

---

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٨/ ١٠٨).

(٢) الترمذي (٢٤١٦)، وقال: "حديث غريب لا نعرفه من حديث ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم من حديث الحسين بن قيس، وهو يضعف في الحديث من قبل حفظه"، وحسَّنه الألباني لغيره، حيث قال في الصحيحة (٩٤٦) معقِّبًا على كلام الترمذي: "لكن له شواهد تدل على أنه قد حفظه من حديث أبي برزة الأسلمي ومعاذ بن جبل".

ما يسأل عنه من الأعمال: الصَّلاة، فيروي أَنَس بن مالك رضي الله عنه قال: «أَوَّلُ مَا يُسْأَلُ عَنْهُ الْعَبْدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُنْظَرُ فِي صِلَاتِهِ، فَإِنْ صَلُحَتْ فَقَدْ أَفْلَحَ، وَإِنْ فَسَدَتْ فَقَدْ خَابَ وَخَسِرَ»(١).

وعَنْ حُرَيْثِ بْنِ قَبِيصَةَ، قَالَ: قَدِمْتُ المَدِينَةَ، فَقُلْتُ: اللَّهُمَّ يَسِّرْ لِي جَلِيسًا صَالِحًا، قَالَ فَجَلَسْتُ إِلَى أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، فَقُلْتُ: إِنِّي سَأَلْتُ اللهَ أَنْ يَرْزُقَنِي جَلِيسًا صَالِحًا، فَحَدِّثْنِي بِحَدِيثٍ سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم لَعَلَّ اللهَ أَنْ يَنْفَعَنِي بِهِ، فَقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا يُحَاسَبُ بِهِ العَبْدُ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنْ عَمَلِهِ صَلَاتُهُ، فَإِنْ صَلُحَتْ فَقَدْ أَفْلَحَ وَأَنْجَحَ، وَإِنْ فَسَدَتْ فَقَدْ خَابَ وَخَسِرَ، فَإِنْ انْتَقَصَ مِنْ فَرِيضَتِهِ شَيْءٌ، قَالَ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ: انْظُرُوا هَلْ لِعَبْدِي مِنْ تَطَوُّعٍ فَيُكَمَّلَ بِهَا مَا انْتَقَصَ مِنَ الفَرِيضَةِ، ثُمَّ يَكُونُ سَائِرُ عَمَلِهِ عَلَى ذَلِكَ» (٢).

الثاني: الأسئلة المتعلِّقة بمَنْ للإنسان مسؤولية عليهم، ولو كان مسؤولًا عن واحد:

عن ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: «كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ: الإِمَامُ رَاعٍ، وَمَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ، وَهُوَ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا، وَمَسْؤُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا، وَالْخَادِمُ رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّدِهِ، وَمَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، -قَالَ وَحَسِبْتُ أَنْ قَدْ قَالَ- وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي مَالِ أَبِيهِ، وَمَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَكُلُّكُمْ رَاعٍ، وَمَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ»(٣)، زاد الطَّبرانيُّ رحمه الله: «فَكُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَأَعِدُّوا لِلْمَسَائِلِ جَوَابًا، قَالُوا: وَمَا جَوَابُهَا؟ قَالَ: أَعْمَالُ الْبِرِّ» (٤)، وينبئنا المقدام بن معد يكرب

---

(١) المعجم الْأَوْسَطِ (٣٧٨٢)، وقال: "لَمْ يَرْوِ هَذَا الْحَدِيثَ عَنْ قَتَادَةَ عَنْ أَنَسٍ إِلَّا خُلَيْدُ بْنُ دَعْلَجٍ، تَفَرَّدَ بِهِ رَوْحُ بْنُ عَبْدِ الْوَاحِدِ"، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ٢٩٢): "وفيه خليد بن دعلج، ضعَّفه أحمد، والنسائي، والدارقطني، وقال ابن عدي: "عامة حديثه تابعه عليه غيره"، وصححه الألباني بمجموع طرقه. الصحيحة (١٣٥٨).

(٢) الترمذي (٤١٣)، وقال: "حديث حسن غريب من هذا الوجه"، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٤١٣).

(٣) البخاري (٨٩٣).

(٤) المعجم الصغير (٤٥٠)، والمعجم الأوسط (٣٥٧٦)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٥/ ٢٠٧): "رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ فِي الصَّغِيرِ

رضي الله عنه أنَّ السؤال لا يقتصر على الرئيس، بل يشمل المرؤوسين، فيقول: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «لَا يَكُونُ رَجُلٌ عَلَى قَوْمٍ، إِلَّا جَاءَ يَقْدُمُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَيْنَ يَدَيْهِ رَايَةٌ يَحْمِلُهَا، وَهُمْ يَتْبَعُونَهُ، فَيُسْأَلُ عَنْهُمْ، وَيُسْأَلُونَ عَنْهُ» (١).

الثالث: الأسئلة الخاصَّة بالشهادة على غيره.

ولتوضيح هذا النَّوع من الأسئلة فشرع بطرح هذا السؤال من خلال مدلول قوله -جل شأنه-: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ﴾:

هل فصَّل الله ﷻ لنا بعض مشاهد السؤال الإلهي يوم القيامة؟

الجواب: حدَّثنا الله ﷻ عن هؤلاء الذين جاءهم البأس الإلهيُّ: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ٥].

وهؤلاء يحشرون مع أمثالهم وأشباههم، ويوقفون للسُّؤال: ﴿ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ ۝٢٢ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ۝٢٣ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾ [الصافات:٢٢- ٢٥].

هناك يحاول المجرمون المراوغة عند السُّؤال، ويَكْذِبون، ويتظاهرون أنهم ما كانوا يعرفون ماذا يريد الله ﷻ منهم، ولا أُرسِل إليهم رسل، فتحدث اللَّقطات المثيرة التي نوجزها في الآتي:

وَالْأَوْسَطِ بِإِسْنَادَيْنِ، وَأَحَدُ إِسْنَادَيِ الْأَوْسَطِ رِجَالُهُ رِجَالُ الصَّحِيحِ".

(١) المعجم الكبير (٦٥٢)، وقال الهيثمي: "رواه الطبراني في الأوسط، وفيه محمَّد بن إسماعيل بن عياش، وهو ضعيف" مجمع الزوائد (٥/ ٢٠٨)، وهو في الكبير وليس في الأوسط.

أ.د. عبد السلام مقبل المجيدي

لَقَطات يوم القيامة وأسئلة الحجَّة والتَّبكيت والملامة

1 لقطة [1]
سؤال المرسَل إليهم
﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي﴾ [الأنعام: 130].

2 لقطة [2]
يُسأل المشركون خاصّة فيقول الله عز وجل لهم
﴿أَيۡنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ﴾ [الأنعام: 22].

3 لقطة [3]
سؤال المرسلين
﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ﴾ [البقرة: 143].

4 لقطة [4]
الحساب الفرديُ
﴿وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ وَلَيُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ [العنكبوت: 13].

6 لقطة [5]
ظهور الشُهود الصّادقين غير المُتوَقّعين
﴿يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [النُور: 24].

6 لقطة [6]
سؤال التّبكيت والتّوبيخ مجدّدًا بعد شهادة الشُهود
﴿أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمۡۚ﴾ [النحل: 27].

7 لقطة [7]
السُكوت المخزي، والإقرار على أنفسهم
﴿شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا﴾ [الأنعام: 130].

8 لقطة [8]
نداءات الحقِ والأشهاد تُسمعهم النّتائج المُحطّمة لنفسيّاتهم
﴿وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ﴾ [الأنعام: 130].

9 لقطة [9]
صدور الحكم الفظيع الذي ينشقُ له الصّدر
﴿فَٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَلَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾ [النحل: 29].

10 لقطة [10]
يظلُ السُؤال مستمرًا، فيساقون إلى النّار، وتسألهم خزنة جهنّم
﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ﴾ [الزمر: 71].

﴿مفصل سورة الأعراف (1)﴾

لَقَطات يوم القيامة وأسئلة الحجَّة والتَّبكيت والملامة

اللَّقْطة الأولى: سؤال المرسَل إليهم:

يسألهم الله جلَّ مَجْدُه أولًا: ﴿يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا﴾ [الأنعام: ١٣٠].

اللَّقْطة الثَّانية: يُسأل المشركون خاصَّة فيقول الله ﷻ لهم: ﴿أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام: ٢٢].

فيمهلهم الله ﷻ، ويمنحهم الفرصة كي يدافعوا عن أنفسهم، ويقولون: مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلا نَذِيرٍ، وينكرون أنهم أشركوا، وهنا يراوغون، ويناورون، ويكذبون، فيقولون: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣].

ويظنُّون في أنفسهم أن الكذب ربما يجعل لهم مخرجًا يوم القيامة، كما كانوا يستعملونه في الدُّنيا: ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ﴾ [المُجادِلة: ١٨].

ويأتيهم نداء الحقِّ: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ٢٤].

وحتى يظهر العدل الإلهيُّ الحقُّ تأتي اللَّقْطة الثَّالثة:

اللَّقْطة الثَّالثة: سؤال المرسلين:

يتوجَّه السُّؤال إلى المرسلين: فيُسأل المرسلون: "هل بلَّغتم ما أرسلتم به"؟ أو قيل لهم: "ألم تبلِّغوا إلى هؤلاء ما أرسلتم به"؟

فسؤال المرسلين إنما هو لإقامة الحجَّة على المرسل إليهم؛ لإظهار جهود المرسلين في تبليغ الرسالة ولإكرامهم بذلك من جهة، وللاستشهاد بهم من جهة أخرى، وربما جحد المكذِّبون ذلك أيضًا، وعندها يسأل الله ﷻ طرفًا ثالثًا يكونون شهودًا على الواقع، والطَّرَف

الثَّالث هنا هم أمَّة محمَّد ﷺ، ويصف الله ﷻ ذلك فيقول جل ثناؤه لأمَّة نبيِّنا محمَّد ﷺ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ﴾ [البقرة: ١٤٣]، **ويفصِّل النَّبيُّ ﷺ ذلك فيقول: «يُدعى نوح ؏ يوم القيامة، فيقول: لبيك وسعديك يا رب، فيقول: هل بلَّغت؟ فيقول: نعم، فيقال لأمَّته: هل بلغكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير، فيقول الله ﷻ: من يشهد لك؟ فيقول: محمَّد ﷺ وأمَّته، فيشهدون أنه قد بلَّغ،** ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ﴾ [البقرة: ١٤٣]، **فذلك قوله جلَّ ذِكرُه:** ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ﴾ [البقرة: ١٤٣]»(١).

ثم تأتي اللَّقْطة الرَّابعة: الحساب الفرديُّ، حيث يسألون عن تفاصيل ذنوبهم وجرائمهم:

حيث يحاسب الله ﷻ كلَّ فرد حسابه الخاصَّ به على نحوٍ يعلمه الله ﷻ، فممَّا علمناه من ذلك أن الله ﷻ قصَّ علينا أن المفترين سيُسألون عن افترائهم يوم القيامة، حيث قال الله ﷻ في سُورَةِ الْعَنْكَبُوتِ: ﴿وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ وَلَيُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ [العنكبوت: ١٣]، **ومن أمثلة الافتراء الذي سيُسألون عنه:** ﴿وَيَجۡعَلُونَ لِمَا لَا يَعۡلَمُونَ نَصِيبٗا مِّمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡۗ تَٱللَّهِ لَتُسۡـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمۡ تَفۡتَرُونَ﴾ [النحل: ٥٦].

ومع استمرار محاسبتهم يعلمون أنَّ أمامهم المستقبل الذي لا يمكن تغييره، وأنَّ الله ﷻ قد أتاح لهم هذه الفرصة ليدفعوا عن أنفسهم، فيتمسَّكون بما يمكنهم أن يتمسَّكوا به، ويُصِرُّون على الكذب، ويصف الله ﷻ صورة هؤلاء: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡۖ﴾ [النحل: ٢٨].

فماذا يفعلون؟ تندهش لمحاولتهم المستميتة في المغالطة: ﴿فَأَلۡقَوُاْ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعۡمَلُ مِن سُوٓءِۭۚ بَلَىٰٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [النحل: ٢٨].

---

(١) البخاري (٤٤٨٧).

اللَّقطة الخامسة: ظهور الشُّهود الصَّادقين غير المُتَوَقَّعين:

من أعظم ما نقل لنا تفصيل السؤال فيه ما يحدِّثنا به أبو هريرة رضي الله عنه قَالَ: قال صلى الله عليه وسلم: «فَيَلْقَى الْعَبْدَ، فَيَقُولُ: أَيْ فُلْ أَلَمْ أُكْرِمْكَ، وَأُسَوِّدْكَ، وَأُزَوِّجْكَ، وَأُسَخِّرْ لَكَ الْخَيْلَ وَالْإِبِلَ، وَأَذَرْكَ تَرْأَسُ وَتَرْبَعُ؟ فَيَقُولُ: بَلَى، قَالَ: فَيَقُولُ: أَفَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلَاقِيَّ؟ فَيَقُولُ: لَا، فَيَقُولُ: فَإِنِّي أَنْسَاكَ كَمَا نَسِيتَنِي، ثُمَّ يَلْقَى الثَّانِيَ فَيَقُولُ: أَيْ فُلْ أَلَمْ أُكْرِمْكَ، وَأُسَوِّدْكَ، وَأُزَوِّجْكَ، وَأُسَخِّرْ لَكَ الْخَيْلَ وَالْإِبِلَ، وَأَذَرْكَ تَرْأَسُ، وَتَرْبَعُ، فَيَقُولُ: بَلَى، أَيْ رَبِّ فَيَقُولُ: أَفَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلَاقِيَّ؟ فَيَقُولُ: لَا، فَيَقُولُ: فَإِنِّي أَنْسَاكَ كَمَا نَسِيتَنِي، ثُمَّ يَلْقَى الثَّالِثَ، فَيَقُولُ لَهُ مِثْلَ ذَلِكَ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ آمَنْتُ بِكَ، وَبِكِتَابِكَ، وَبِرُسُلِكَ، وَصَلَّيْتُ، وَصُمْتُ، وَتَصَدَّقْتُ، وَيُثْنِي بِخَيْرٍ مَا اسْتَطَاعَ، فَيَقُولُ: هَاهُنَا إِذًا، قَالَ: ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: الْآنَ نَبْعَثُ شَاهِدَنَا عَلَيْكَ، وَيَتَفَكَّرُ فِي نَفْسِهِ: مَنْ ذَا الَّذِي يَشْهَدُ عَلَيَّ؟ فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ، وَيُقَالُ لِفَخِذِهِ وَلَحْمِهِ وَعِظَامِهِ: انْطِقِي، فَتَنْطِقُ فَخِذُهُ وَلَحْمُهُ وَعِظَامُهُ بِعَمَلِهِ، وَذَلِكَ لِيُعْذِرَ مِنْ نَفْسِهِ، وَذَلِكَ الْمُنَافِقُ، وَذَلِكَ الَّذِي يَسْخَطُ اللهُ عَجَلَّ عَلَيْهِ»[(١)].

وقد ذكر الله عَجَلَّ شهادة هؤلاء الشُّهود غير المتوقَّعين في قوله: ﴿يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [النُّور: ٢٤]، وفي قوله: ﴿وَيَوۡمَ يُحۡشَرُ أَعۡدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمۡ يُوزَعُونَ ۝١٩ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [فصلت: ١٩، ٢٠].

وعَن أَنَس بن مالك رضي الله عنه قال: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم فَضَحِكَ، فَقَالَ: «هَلْ تَدْرُونَ مِمَّ أَضْحَكُ؟» قَالَ قُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «مِنْ مُخَاطَبَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ عَجَلَّ، يَقُولُ: يَا رَبِّ أَلَمْ

---

(١) مسلم (٢٩٦٨)، (أي فل) معناه يا فلان، وهو ترخيم على خلاف القياس، (أُسَوِّدْكَ) أي: أجعلك سيدًا على غيرك، (ترأس) أي تكون رئيس القوم وكبيرهم، (تربع) أي تأخذ المرباع الذي كانت ملوك الجاهلية تأخذه من الغنيمة، وهو ربعها، يقال: ربعتهم أي: أخذت ربع أموالهم، ومعناه ألم أجعلك رئيسًا مطاعًا، (لِيُعْذِرَ) من الإعذار، والمعنى ليزيل الله ﷻ عذره من قبل نفسه بكثرة ذنوبه وشهادة أعضائه عليه بحيث لم يبق له عذر يتمسك به.

تُجِرْنِي مِنَ الظُّلْمِ؟ قَالَ: يَقُولُ: بَلَى، قَالَ: فَيَقُولُ: فَإِنِّي لاَ أُجِيزُ عَلَى نَفْسِي إِلاَّ شَاهِدًا مِنِّي، قَالَ: فَيَقُولُ: كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ شَهِيدًا، وَبِالْكِرَامِ الْكَاتِبِينَ شُهُودًا، قَالَ: فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ، فَيُقَالُ لأَرْكَانِهِ: انْطِقِي، قَالَ: فَتَنْطِقُ بِأَعْمَالِهِ، قَالَ: ثُمَّ يُخَلَّى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلاَمِ، قَالَ فَيَقُولُ: بُعْدًا لَكُنَّ وَسُحْقًا، فَعَنْكُنَّ كُنْتُ أُنَاضِلُ»، وفي رواية: «عجبتُ من مجادلة العبدِ ربَّه يوم القيامة يقول: أيْ ربِّ أليس وعدتني أنْ لا تظلمني؟ قال: بلى، قال: فإنِّي لا أقبل عليَّ شاهدًا إلاَّ من نفسي قال: فيقول تبارك وتعالى، أو ليس كفاني شهيدًا، وبالملائكة الكرام الكاتبين شهودًا. قال: فيردِّد هذا الكلام مرارًا قال: فيختم على فِيْهِ، وتتكلَّم أركانه بما كان يعمل، فيقول: بُعْدًا، لَكُنَّ وسُحقًا، عَنْكُنَّ كنت أجادل: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ﴾ [فصلت: ٢٢]»[1].

لكن هذا المعنى تراه جليًّا في سورة فُصِّلت، وتسمع تكملة ذلك المشهد المخيف، حيث يقوم الإنسان يعاتب جلده، فما يفيده شيئًا، وانظر لهذا التَّصوير العظيم: ﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [فصلت: ٢١- ٢٢].

فيصابون عند ذلك بخزي عظيم ويصف الله ﷻ هذا الخزي فيقول: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ﴾ [النحل: ٢٧].

ثم تأتي اللَّقْطة السَّادسة: سؤال التَّبكيت والتَّوبيخ مجدَّدًا بعد شهادة الشُّهود:

بعد هذا الخزي الذي أصيبوا به يأتيهم السؤال مجددًا، سؤال تبكيت وخزي، فيقول الله ﷻ لهم: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ ۚ﴾ [النحل: ٢٧].

(١) مسلم (٢٩٦٩)، والرواية الأخرى في مسند البزار (٧٤٧٦)، بسند ضعيف.

ثم تأتي اللَّقْطة السَّابعة: حيث يصابون بالسُّكوت المخزي، فيُقِرُّون على أنفسهم ويعترفون:

ففي ختام المحاكمة يميِّز الله ﷻ المجرمين بعلاماتهم وأحكامهم، فيقول لهم يومئذ: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ٦٠ وَأَنِ ٱعْبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [يس: ٦٠، ٦١]، حينها يعترفون، فيقولون: ﴿شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا﴾ [الأنعام: ١٣٠].

ثم تأتي اللَّقْطة الثَّامنة: ترتفع نداءات الحقِّ والأشهاد تُسمعهم النَّتائج المُحَطِّمة لنفسيَّاتهم:

فيسمعون منادي الحقِّ ﷻ يقول: ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٠].

وينبعث الأشهاد من الملائكة وأهل العلم، فيقولون: ﴿وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ١٨].

وينبعث أشهاد آخرون ليذكروا العبارات المذلَّة لهؤلاء الكاذبين، فيقول الله ﷻ عنهم: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْيَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [النحل: ٢٧].

اللَّقْطة التَّاسعة: حينها يصدر الحكم الفظيع الذي ينشقُّ له الصَّدر:

﴿فَٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [النحل: ٢٩].

اللَّقْطة العاشرة: يظلُّ السُّؤال مستمرًّا، فيساقون إلى النَّار، وتسألهم خزنة جهنَّم:

﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ [الزمر: ٧١].

هنا يعترفون فلا مفرَّ لهم بعد أن قضي الأمر في محكمة العدل الإلهيَّة، فيقولون: ﴿قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الزمر: ٧١].

وحينها يسمعون ما لا يحبون سماعه من النَّتيجة الوخيمة: ﴿قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٧٢].

وتعود خزنة جهنَّم ليسألوا الأفواج التي تلقى في جهنم سؤال توبيخ وتقريع: ﴿كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ﴾ [الملك: ٨].

فيعترفون مجدَّدًا، ولعلَّهم يظنُّون أن هذا الاعتراف ينفعهم: ﴿قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ فَكَذَّبۡنَا وَقُلۡنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ﴾ [الملك: ٩].

يقدِّم لك القرآن العظيم تصويرًا مدهشًا، ولَقَطاتٍ متتابعةً تكوِّن الصُّورة الكاملة، وعندما تجمعها تزداد تعظيمًا للقرآن، وتردد فيه دأبًا: ﴿فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا﴾ [الجن: ١].

لكن الصُّورة الكاملة لمشهد السؤال يوم القيامة تجعلك أكثر رهبة لربِّك، وأشدَّ خشية، وأعظم تقوى، وأكبر وجلًا من ذلك المستقبل إن لم تستدرك نفسك في حياتك.

وقد تتساءل أيضًا: كيفَ نجمع بَيْنَ قَوْلِهِ: ﴿فَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦]، وبَيْنَ قَوْلِهِ: ﴿فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُسۡـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٞ وَلَا جَآنّٞ﴾ [الرَّحمَن: ٣٩]، وقَوْلِهِ: ﴿وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ [القَصَص: ٧٨]؟

الجواب:

أولًا: القرآن هو الحجَّة القائمة على العالم، وقد أنزله الله ﷻ بلسان عربيٍّ مبين، والسؤال المذكور يردِّده السائل دائمًا في معرض الاستشكال، وبعضهم يحاول الطَّعن في القرآن من خلاله، مع أنه لو تدَّبر القرآن تدبُّرًا جيِّدًا لظهرت له الإجابة جليَّة واضحة، قال الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا﴾ [النِّساء: ٨٢].

ثانيًا: السُّؤالُ فِي اللغة العربية قَدْ يَكُونُ لِأجْلِ الِاسْتِرْشادِ والاستخبار والِاستعلام، أي لأجل طلب الإرشاد، ولأجل معرفة الخبر، ولأجل طلب المعلومة، وقَدْ يَكُونُ السؤال لأجل الرِّفعة والإكرام، وقد يكون لِأجْلِ التَّوْبِيخِ والإهانَةِ والملام، وقد يكون لأجل بيان المكانة[1].

فَقَوْل الأب لابنه عندما يطلب منه مالًا: أَلَمْ أُعْطِكَ؟ إمَّا أن يكون الأب غير متذكِّر، فسؤاله لأجل طلب المعلومة، وإمَّا أن يكون متذكِّرًا، فسؤاله لأجل التَّقرير: يعني قد أعطيتك، وإمَّا أن يكون متذكِّرًا، وأراد أن يلوم ابنه على سلوكه، فالسُّؤال للتَّوبيخ.. فالسِّياق يحدِّد المُنْسَاق أي يحدِّد معنى الكلام.

وتعال إلى القرآن المجيد تجد أن قَوْله تَعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [يس: ٦٠]، ليس لطلب المعلومة، بل لأجل التَّوبيخ، وعندما تسمع الشَّاعر يقول[2]:

أَلَسْـتُمْ خَيْرَ مَن رَكِبَ المَطايا ... وأَنْدَى العَالَمِينَ بُطُونَ راحِ

تعلم أن السُّؤال هنا للتقرير أي: أنتم خير من ركب المطايا.

وكقول الشَّافعيِّ رحمه الله:

ألستَ الذي رَبَّيتَنِي وهَدَيتَنِي ... وما زِلْتَ منَّانًا عليَّ ومُنْعِما

فالسُّؤال هنا للاعتراف بالمِنَّة والتَّملُّق بين يدي المنَّان، عظيم الشأن، ذي الإحسان.

والآن عد بنا إلى الآية:

فالله جل جلاله قال: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص: ٧٨]، وقال: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرَّحمَن: ٣٩]، فهذا السؤال المنفي سؤال الاستخبار والاستفهام والاسترشاد والاستثبات والاستعلام، فالله عز وجل لا يسألهم ليستعلمهم، لا يسألهم ليعلم أشياء

---

(١) تفسير الرازي (١٤/ ٢٠١).

(٢) البيت لجرير يصف عبد الملك بن مروان، و(راح): جمع راحة، وهو الكَفُّ. ديوان جرير (ص: ٧٧).

لم يكن يعلمها من قبل.. لا يسألهم ليطلب العلم منهم أو الفهم عنهم، أو التثبت من حالهم، أو ليسترشد في الوصول إلى الحكم فيهم.. كلا! فهو العالم بالأشياء قبل كونها، لا يعزب عنه مثقال ذرَّة في الأرض ولا في السماء.

وأما السُّؤال المثبت في قوله: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦]، فهو سؤال المحاسبة، وإقامة العدل والحجَّة، وإظهار الحقيقة أمام العالم عن السُّعداء والأشقياء، فيُسأل القوم عن الأعمال سؤال محاسبة وعدل، لا سؤال استعلام، ويفصِّل الله ﷻ ذلك، فيقول: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ۝٨٣ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِي وَلَمْ تُحِيطُواْ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: ٨٣- ٨٤]؛ ثم يبيِّن جلَّ مَجْدُه أن السؤال للمحاسبة، فيقول: ﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُواْ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾ [النمل: ٨٥].

من أنفع القوانين في فَهْمِ الأسلوب القرآنيِّ: أن نجمع بين الآيات، ونُوْقِع أساليب اللُّغة العربية على كلِّ آية بما يناسبها في سياقها، والذي يغبى عن فَهْمِ اللُّغة العربية يقع فيما يُضحِك من الاعتراض بغبائه على الأسلوب القرآنيِّ.

هكذا تَبَيَّن لنا الجمع بين الآيات على خير وجه، ووجدنا أن كلًّا منها تهدينا سواء السبيل، وهذا القانون في علوم القرآن، ويعود إلى فَهْمِ طبيعة اللُّغة العربيَّة، أعني بالقانون.

وإذا كان قوله جلَّ ذِكرُه: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦] يُبَصِّرنا بسؤال الجميع يوم القيامة في مشهد العدالة الإلهيَّة، فما المشهد الذي يُبَصِّرنا به قوله جلَّ ذِكرُه: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾ [الأعراف: ٧]؟

الجواب: هذا المشهد مترتِّب على المشهد السَّابق فترى الإحكام والتَّتابع، فإذا كان المشهد السابق مشهدًا للعدالة الإلهيَّة، حيث سيقف الجميع أمام الله ﷻ، والله القويُّ القادر العلي

العظيم سيسألهم، فإن قوله: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيۡهِم بِعِلۡمٍۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾ [الأعراف: ٧] يقدِّم لنا المشهد الرابع:

المشهد الرابع: مشهد انكشاف المستور:

حيث تنكشف كلُّ الأحداث الظاهرة والباطنة، التي عملها كلُّ إنسان في الدُّنيا، ويُبَصِّرنا بذلك قوله جلَّ ذِكرُه: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيۡهِم بِعِلۡمٍۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾ [الأعراف: ٧]:

﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيۡهِم﴾: على مَنْ؟

الجواب: على المسئولين السَّابقين في الآية السَّابقة، فهذه الآية تصوِّرُ لك شِدَّة الاتِّصال وجلالة الإحكام بين آيات القرآن المجيد.

هذه الآية تمنحك جوابًا على شبهة عدم الإحكام في آي القرآن، وتبيِّن طبيعة الخطاب القرآني المتآزر غير المتناقض، وتوضِّح لك مشهدًا عظيمًا يوم القيامة، ستقف البشريَّة صالحها وفاسدها أمامه.

هنا ستسأل: فكيف توضِّح لنا هذه الآية دِقَّة الإحكام والاتِّصال بين الآيات؟ وما علاقة الفاء في قوله: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ﴾ بذلك؟

الجواب: فلأنك سمعت كلام الله ﷻ في الآية السَّابقة: ﴿فَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦]، فربَّما جاء بعضهم فقالوا: وما الحاجة إلى أن يسأل الله ﷻ النَّاس؟ هل هذا يدلُّ على نقصٍ في علمه؟ تعالى عما يقولون علوًّا كبيرًا.

بل إنك -وأنت تتابع الآيات مصحوبًا بإثارة عارمة في تتابع الأحداث- ربما سألت السؤال الذي أثاره الطَّبَري رحمه الله:

كيف يسأل الله ﷻ الرُّسلَ ﵈، والمرسل إليهم، وهو يخبر أنه يقصُّ عليهم بعلم بأعمالهم وأفعالهم في ذلك؟ ولماذا يسألهم وهو يعلم ما في البر والبحر، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها، ولا حبة في ظلمات الأرض، ولا رطب، ولا يابس إلا في كتاب مبين؟

هنا تجيبك الآية؛ فقد أراد الله ﷻ أن يزيح هذه الشُّبهة؛ إذ عندما تسمع الله ﷻ يقول لك: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم﴾، تعلم أن السؤال ليس للاستعلام، ولا للاستفهام، فليس لطلب الفهم، ولا لطلب العلم، بل السؤال لأجل إقامة الحجَّة، وفَصْل القضاء، وليس سؤال احتياجٍ للمعلومة، فالفاء لِلتَّفْرِيعِ والتَّرتيب عَلى قَوْلِهِ: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ﴾، فسنسألهم، ثم نخبرهم بتفاصيل ما أخفوه، أو أبهموه، أو أنكروه، أو نسوه[1].

تأتي الفاء التَّفريعيَّة لتخبرك بأن سؤال الله ﷻ للخلق يوم القيامة له هدفان:

الأول: إظهار الملك والعدل، وإقامة الحكم والفصل، من خلال إقامة الحجَّة على النَّاس، فلا يستطيع عند ذلك أي إنسان أن يقول: الله ﷻ قضى عليَّ بعلمه، ولم يسمح لي أن أدافع عن نفسي، فهنا يخبرك الله ﷻ أنه سيسألك، وأنه بعد أن يسألك سيبين لك ما أظهرت وما أخفيت.

والثاني: لزيادة التَّبكيت للمفسدين بنشر خزيهم وجرائمهم على الملأ، ولمضاعفة الإعلاء للمصلحين وللصَّالحين؛ إذ فيه بيان لمجهوداتهم على ما قاموا به.. فانظر: ما الذي تحبُّ أن يُنشر لك يوم القيامة أمام الخلق. اللهم إنا نسألك أعظم الرِّفعة، وأوسع السَّعادة في ذلك اليوم.

فانظر كيف يمتلئ قلبك من تعظيم الله ﷻ بهذا الوصف القرآنيِّ، وتتعجَّب عندما تقارن هذا بوصف الله سبحانه وتعالى في بعض المواضع في التَّورَاة الحاليَّة؛ فإنك تجد بعض الألفاظ تشير إلى عدم إثبات الكمال للكبير المتعال، أما هنا فعندما قال الله ﷻ: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ

(١) ينظر: التحرير والتنوير (٨ب/ ٢٧).

أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦] أتبعها مباشرة بما يدفع عنك خيال الشُّعور بأنَّ السؤال يدلُّ على احتياج السائل للعلم، فقال: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيۡهِم بِعِلۡمٖۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾ [الأعراف: ٧]، فجاءت الفاء في قوله: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ﴾ لتظهر لك حقيقة السؤال: إنه سؤال إقامة الحجَّة، وإعلاء الصَّادقين بالمحجَّة، حيث يسأل الله ﷻ الطَّائع ليكرمه ويُشَرِّفَه، ويسأل العاصي ليُقَرِّعَه ويوبِّخه، ويكشف حقائق الأمور، فأثناء المساءلة.

ستقول: من أين أفدنا أنهم سيسمعون التَّفاصيل؟

أجيبك: أنه دَلَّ عَلى أن الله ﷻ سيخبرهم بالتَّفاصيل التي وقعت في الحياة الدُّنيا بدِقَّة أربعة أمور في الآية:

١) كلمة: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ﴾.

٢) وكذلك تَنْكِيرُ كلمة ﴿عِلۡمٍ﴾ في قَوْلِهِ: ﴿بِعِلۡمٖۖ﴾.

٣) والتنوين الموجود في كلمة: ﴿بِعِلۡمٖۖ﴾.

٤) وقوله: ﴿وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾.

هنا ستسأل متدبرًا متلهِّفًا: كيف صَوَّرَتْ لنا كلمة ﴿فَلَنَقُصَّنَّ﴾ دِقَّة السؤال، وتفصيل التَّتَبُّع لما وقع منهم في الدُّنيا؟ ولم يقل: فلنخبرن؟

الجواب: هذه الكلمة ﴿فَلَنَقُصَّنَّ﴾ تدُلُّ عَلَى تَتَبُّعِ الشَّيْءِ تتبُّعًا محكمًا في كلِّ جزء من أثره لتستبين حقيقته، أو ليدلَّ على واقعه أو مكانه، ومِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُمُ -كما يقول ابن فارس رحمه الله-: اقْتَصَصْتُ الْأَثَرَ، إِذَا تَتَبَّعْتُهُ، قال تعالى: ﴿فَٱرۡتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصٗا﴾ [الكهف: ٦٤]، أي: يتتبعان الأثر الذي بقي في الطريق الذي سارا عليه سابقًا؛ ليصلا إلى المكان الذي فقدا فيه الحوت، ومثله: ﴿وَقَالَتۡ لِأُخۡتِهِۦ قُصِّيهِۖ﴾ [القصص:١١]، حيث كانت أخت موسى عليه السلام تتبع الأثر والعلامات وتقيس الأمر في البر والماء، وتفعل مهمتها الاستخبارية بجوار ذلك لتصل إلى

المكان الذي تظن أن اليم قذف أخاها موسى عليه السلام فيه، وَمِنْ ذَلِكَ اشْتِقَاقُ الْقِصَاصِ فِي الْجِرَاحِ، وَذَلِكَ أَنَّهُ يُفْعَلُ بِهِ مِثْلُ فِعْلِهِ بِالْأَوَّلِ، فَكَأَنَّهُ اقْتَصَّ أَثَرَهُ، وَمِنَ الْبَابِ الْقِصَّة وَالْقَصَصُ؛ لأنها الأخبار المتتبَّعة التي تذكر وتحكى كأنها وقعت أمام عين الإنسان، قال: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾ [آل عمران: ٦٢] (١).

فهذه الكلمة العجيبة ﴿فَلَنَقُصَّنَّ﴾ جاءت في موضعها لتصوِّر لك دِقَّة التَّتبُّع لكلِّ أحداث الدُّنيا: كيف وصل المرسلون، وكيف تلقاهم المرسل إليهم، وماذا حدث من كلِّ واحدٍ منهم من الأعمال الصَّغيرة والكبيرة الخَيِّرَة والشِّريرة.

وهنا ستبادر: عرفنا كيف تروي لنا كلمة ﴿فَلَنَقُصَّنَّ﴾ كيفية إخبار الله -سبحانه- الجميعَ بتفاصيل أحداث الدُّنيا.. والتفاصيل التي جرت في كل حضارة، وظهرت في كل أمة، فكيف نَصَر هذا المعنى النكرةُ في قوله: ﴿بِعِلْمٍ﴾، والتنوين الذي صاحب هذه الكلمة؟

الجواب: النَّكِرة في سياقها إمَّا أن تدلَّ على التَّحقير والتَّقليل، وإمَّا أن تدلَّ على التَّعظيم والتَّكثير، وهي هنا بحسب سياقها تدلُّ على التعظيم والتكثير، ووجود التَنْوِين في كلمة ﴿بِعِلْمٍ﴾ ساعد على فَهْمِ ذلك، أي: بعِلْمٍ عَظِيمٍ يليق بالعلم الكامل المحيط الذي نتصف به، لِلتَّعْظِيمِ.

وزادَ ذَلِكَ بَيانًا قَوْلُهُ: ﴿وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾، فمعناه: أحطنا بهم وبأعمالهم وأنفاسهم علمًا ﴿وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾ عنهم في كلِّ خطرة من خطراتهم، وتصرف من تصرفاتهم، وسكنة من سكناتهم؛ وسكتة من سكتاتهم، فلا يَعْزُبُ عَنْ عِلْمِنا شَيْءٌ، ولا يغيب عنا ما ظهر وما بطن، وما علا وما سفل، وما تقدَّم وما تأخَّر.

(١) ينظر: مقاييس اللغة (٥/ ١١).

﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾ [الأعراف: ٧]:

فمهما حاول الكاذبون أن يَكْذِبوا، أو مهما حاول المقصِّرون أن يخفوا فإن الله ﷻ سيقصُّ عليهم بعلم، لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، فالله ﷻ قد أحاط بما لديهم، وهو الذي قال لكلِّ واحدٍ منهم: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [يونس: ٦١].

وهنا تقف أمام مشهدهم، وكلٌّ منهم يسمع السُّؤال، ثم يخبر بالجواب الذي يأتي به، فربما كان المسؤول منافقًا أو مجرمًا، فتلاعب بالجواب، وحلف ليقلب الصواب: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ [المُجادِلة: ١٨]، **فإذا به يفاجأ بأن الله ﷻ يذكر إعلان المحاكمة العادِلَة:** ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾ [الأعراف: ٧].

﴿وَمَا كُنَّا﴾: **النون للتعظيم، وليس للجمع.**

﴿غَآئِبِينَ﴾: **فِي وقْتٍ مِنَ الأوْقاتِ أو فِي حَالٍ مِنَ الحالات، بَلْ كُنَّا مَعَهُمْ نَسْمَعُ مَا يَقُولُونَ، وَنُبْصِرُ مَا يَعْمَلُونَ، وَنُحِيطُ عِلْمًا بِمَا يُسِرُّونَ وَيُعْلِنُونَ، كَمَا قَالَ:** ﴿وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ [النِّسَاء: ١٠٨](١).

ويبيِّن ابن عبَّاس رضي الله عنهما تفسير الآيتين ومواقف الطَّرفين، فيقول: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف:٦]، **قال: "يسأل الله ﷻ النَّاس عما أجابوا المرسلين، ويسأل**

(١) تفسير المنار (٨/ ٢٨١).

المرسلين عما بَلَّغوا"، ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾ [الأعراف:٧] قال: "يوضع الكتاب يوم القيامة، فيتكلم بما كانوا يعملون"(١).

فيذكر الله ﷻ أحوالهم حتى تشهد آثارهم على أفعالهم، فاللهم سلِّم.. اللهم سلِّم

حينها ستنكشف الحقائق التي لا يمكن تزييفها، إنها حقائق الأقوال والأعمال والنِّيَّات والضَّمائر، في يوم لا قوَّة فيه ولا وليَّ ولا ناصر، إلا من كان له الكريم الغافر.

يقول محمَّد المثيل -غفر الله له-:

وتنكشف الحقائقُ والسَّرائرُ ... ولا تخفى النَّوايا والضَّمائِرْ
ويبرأُ كلُّ خِلٍّ من خليلٍ ... ويُدْبِرُ كلُّ مَنْصُورٍ وناصِرْ
فما للمرءِ منَّا من مَلاذٍ ... سوى لِجَنابِ سَتَّارٍ وغافِرْ
ستشهدُ ألسنٌ أيدٍ علينا ... وأسماعٌ جلودٌ والنواظِرْ
وتتَّضحُ الكبائرُ والصَّغائرْ ... نراها في كتاب لا يُغادِرْ
ولا يُجدي اعترافٌ أو نِدامٌ ... ولاتَ مناص يا مسكينُ.. بادِرْ
وخذ زادًا من الإيمانِ تَنْجو ... فذي من مَنْهلِ التَّقوى بصائِرْ

(١) تفسير الطَّبَري، طبعة دار الحديث (٥/ ٢٦٤)، وضعَّف إسلام منصور سنديهما؛ أما الأول فلأن فيه أبو صالح كاتب الليث، وأما الآخر ففيه عائلة العوفي الضعفاء.

دلائل العظمة في كلمات: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيۡهِم بِعِلۡمٖۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾:

أ.د. عبد السلام مقبل المجيدي

دلائل العظمة في كلمات ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيۡهِم بِعِلۡمٖۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾

[1] ﴿فَلَنَقُصَّنَّ﴾
الفاء تفريع لإظهار حقيقة السؤال في الآية السابقة، فهو سؤال إقامة الحجة، وإظهار العدل.

[2] ﴿فَلَنَقُصَّنَّ﴾
لام القسم لتأكيد وقوع ذلك الحدث تأكيدًا نبع من عظمة المقسم تعالى مجده

[3] ﴿فَلَنَقُصَّنَّ﴾
النون الأُولى لبيان عظمة أحكم الحاكمين، ونشر وصف الجلال

[4] ﴿فَلَنَقُصَّنَّ﴾
القص نقل تفاصيل أحداث الدنيا بدقة كما وقعت

[5] ﴿فَلَنَقُصَّنَّ﴾
النون المشددة لتأكيد وقوع الحدث تأكيدًا ثانيًا جازمًا بعد التأكيد الأول بلام القسم

[6] ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾
تحدد المسؤولين سؤال توبيخ وإرغام، أو سؤال إعلاء وإكرام

[7] ﴿بِعِلۡمٖۖ﴾
تحدد نوع الأدلة، فهي أدلة قائمة على علم عظيم قطعي

[8] ﴿وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾
أي أن الله الذي يحكم ذلك اليوم كان مشاهدًا رقيبًا أثناء أحداث الدنيا، وسيكون شاهدًا أثناء محاكمات الآخرة

﴿مفصل سورة الأعراف (1)﴾

وهنا ربما تسأل: ما البصائر المحكمة التي تصوِّرها كلمات الآية؟

وإليك الجواب المفصَّل، فتأمَّل: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ﴾، الفاء: تفريع لإظهار حقيقة السؤال في الآية السَّابقة، فهو سؤال إقامة الحجَّة، وإظهار العدل.

﴿فَلَنَقُصَّنَّ﴾:

لام القَسَم: لتأكيد وقوع ذلك الحدث تأكيدًا نبع من عظمة المقسِم تعالى مَجْدُه.

﴿فَلَنَقُصَّنَّ﴾:

النون الأُولى: لبيان عظمة أحكم الحاكمين، ونشر وصف الجلال، وتستلزم نشرَ كُلِّ كَمال للكبير المتعال.

﴿فَلَنَقُصَّنَّ﴾: القصُّ: نقل تفاصيل أحداث الدُّنيا بدِقَّة كما وقعت.

﴿فَلَنَقُصَّنَّ﴾:

النون المشدَّدة: لتأكيد وقوع الحدث تأكيدًا ثانيًا جازمًا بعد التَّأكيد الأول بلام القَسَم.

﴿عَلَيۡهِم﴾:

تحدِّد المسؤولين سؤال توبيخ وإرغام، أو سؤال إعلاء وإكرام، فالتفاصيل لأجلهم، لا لِيَتَفَكَّهَ بها غيرهم.

﴿بِعِلۡمٖۖ﴾:

تحدِّد نوع الأدلَّة، فهي أدلَّة قائمة على علمٍ عظيم قطعيٍّ يعرف صاحبُه -جلَّ مَجْدُه- السِّرَّ وأخفى، لا أدلَّة ظنٍّ وتخمين، ﴿فَلَنَقُصَّنَّ﴾ عَلَى العالَم، وعلى المرسلين الَّذِينَ أُرْسِلُوا إِلَيْهِمْ كُلَّ الأحداث التَّفصيليَّة التي وقعت في الدُّنيا مِنَ الْفَرِيقَيْنِ قَصَصًا لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ.

﴿وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾: أي أنَّ الله ﷻ الذي يحكم ذلك اليوم كان مشاهدًا رقيبًا أثناء أحداث الدُّنيا الباطنة والظَّاهرة، كما سيكون شاهدًا أثناء محاكمات الآخرة.

رأينا المشهد الرابع من مشاهد الدار الآخرة في قوله جلَّ ذِكرُه: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ۝٧﴾، وكان مشهدًا يخبرنا عن الحساب الذي سيجده كلُّ إنسان عن أعماله التي عملها في الدُّنيا، والآن ننتقل إلى قوله تَعَالى جَدُّهُ: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّۚ﴾..

فما المشهد الخامس الذي تُبَصِّرنا به كلمات هذه الآية؟

الجواب:

المشهد الخامس: مشهد الوزن الكاشف:

حيث تنكشف القيمة الحقيقيَّة للإنسان عند الميزان في الآخرة، ويُبَصِّرنا بذلك قوله عزَّ شَأْنُهُ: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّۚ﴾ [الأعراف: ٨]، والوزن يكون بناء على اتِّباع ما أنزل إلينا من ربِّنا ﷻ حيث ذكر الله ﷻ ذلك أوَّل السُّورَة: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَۗ﴾ [الأعراف: ٣].

ولكنك ستسأل: كيف اتَّصلت هذه الآية بما قبلها؟

وإليك الجواب:

تذكَّر أننا ما زلنا في مُقَدِّمَة سورة الأعراف، وفيها ذِكْرُ الخواصِّ العظمى التي تجعل من القرآن العظيم كتاب الإنذار العالميِّ من الأخطار الواقعة والمُتَوَقَّعة، فنبهنا الله تعالى مَجْدُه إلى ثماني خواصٍّ، ووقفنا في الخاصِّيَّة التَّاسعة، وهي خاصية التَّفصيل الحافظ:

حيث تفصِّل لنا الآيات الكريمة الدَّمار الذي يصيب الأمم والحضارات ليحذر العالم من أن يحلَّ به مثل ذلك، وتتحقَّق الحماية من المخاطر الدُّنيويَّة والأُخرويَّة بصورة مباشرة، وتُبَصِّرنا بهذه الخاصِّيَّة الآيات [٤-٩] من هذه السُّورَة، وتضمَّنت هذه الخاصِّيَّة المشاهد الآتية:

المشاهد المنظَّمة في آيات المُقدِّمة:

المشهد الأول: مشهد الدَّمار المفاجئ للحضارات الظَّالمة التي لا تتذكَّر:

وتُبَصِّرنا بذلك الآية الرَّابعة: ﴿وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَـٰهَا فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا بَيَـٰتًا أَوۡ هُمۡ قَآئِلُونَ﴾ [الأعراف: ٤]؛ فإن الغفلة والاستكبار يمنعان النَّاس من اتِّباع ما أنزله الله ﷻ، وذلك يؤدِّي إلى إشاعة الظُّلم، والظُّلم يجلب الدَّمار للمجتمعات، وهنا يأتي:

المشهد الثاني: مشهد الاعتراف باقتراف الظُّلم الجماعيِّ، أو باقتراف الظُّلم الفرديِّ عند وقوع البأس الإلهيِّ:

وتُبَصِّرنا بذلك الآية الخامسة: ﴿فَمَا كَانَ دَعۡوَىٰهُمۡ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ٥]، ويظلُّ هذا الاعتراف على ألسنة الظَّالمين حتى يواجهوا:

المشهد الثالث: مشهد المحاكمة العَادِلَة العليا يوم القيامة:

قد يكون الاعتراف بالاقتراف في الدُّنيا، وقد يكون في الآخرة، لكنَّ الله ﷻ يطوي لنا المراحل الزَّمنيَّة، حيث ينقلنا إلى مشاهد الآخرة، وهناك يسأل أحكم الحاكمين الجميع يوم القيامة، ففي مواقف الحياة الأُخرويَّة يُسأل كلُّ فردٍ من البشر عن اتِّباع ما أنزل إليه من ربِّه ﷻ، هل بلَّغه وعمل به، وتُبَصِّرنا بذلك الآية السَّادسة: ﴿فَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦]. وتظهر الحقيقة من الجميع، وعندما يحاول الظَّالمون المراوغة يأتي:

المشهد الرابع: مشهد انكشاف المستور:

حيث تنكشف كلُّ الأحداث الظَّاهرة والباطنة التي عملها كلُّ إنسان في الدُّنيا، وتُبَصِّرنا بذلك الآية السَّابعة: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيۡهِم بِعِلۡمٍۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾ [الأعراف: ٧].

وبعد المحاكمة يأتي المشهد الجديد الذي تبيِّنه لنا الآية الثَّامنة: إنه مشهد نهاية المحاكمة حيث يقف الإنسان أمام الوزن الحقِّ.

وهنا ستبادر إلى أن تتساءل:

على أيِّ شيء عطف الله ﷻ جملة: ﴿وَٱلۡوَزۡنُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّۚ﴾ [الأعراف ٨]؟ فالحرف القرآني لا يأتي سدى، ولا تكميلًا.. لا بد أن تظهر فيه الحكمة الكاملة، ويجب أن تلمس منه دوره الكامل.. فعلامَ تمَّ العطف؟

الجواب: عُطِفَتْ جُمْلَةُ: ﴿وَٱلۡوَزۡنُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّۚ﴾ عَلى جُمْلَةِ: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ﴾ فَكَأَنَّهُ قِيلَ: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيۡهِم بِعِلۡمٖۖ﴾ [الأعراف: ٧] أثناء محاسبتنا لهم، ولنضعنَّهم بعد ذلك أمام ميزان دقيق يزن الأمور بحقٍّ لا يداخله ذرَّة زيف، ولَنُجازِيَنَّهم عَلى أعْمالِهِمْ جَزاءً لا غَبْنَ فِيهِ عَلى أحَدٍ، فجاءت الواو في قوله: ﴿وَٱلۡوَزۡنُ﴾ لتربط هذه الآية ربطًا محكمًا بما سبقها، كأنه قال: وبعد المحاكمة والمساءلة والشهود ينتقلون إلى الوزن، والوزن يومئذ ليس كوزن الدُّنيا، بل هو الحقُّ.

ولكنك ربما تتساءل: فما معنى كلمة ﴿يَوۡمَئِذٍ﴾؟ وماذا يعني التنوين هنا؟

الجواب: التَّنوِينُ في قَوْلِهِ: ﴿يَوۡمَئِذٍ﴾ عِوَضٌ عَنْ جملة هي مُضاف إلَيْهِ، دَلَّ عَلَيْها قوله: ﴿فَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ﴾ [الأعراف: ٦]، والتَّقْدِيرُ: والوزنُ يَوْمَ إذ نَسْألُهم، ونَسْألُ رُسُلَهم، ونَقُصُّ ذُنُوبَهم عَلَيْهِمْ، الحقُّ(١).

فبعد أن يقصَّ الله ﷻ عليهم بعلم ما كانوا في الدُّنيا عاملين، يُظهر لهم الآثار المترتِّبة على العلم الإلهيِّ التَّفصيليِّ بكلِّ حركات الإنسان، وظواهره وخباياه، هنا ترى الحسنات والسَّيِّئات، ولتتحقَّق العدالة فلا بدَّ من الوزن الدَّقيق الذي يُقَدَّر فيه ما يستحقُّه كلُّ إنسان من خير أو شرٍّ، ويترتَّب على الوزن ظهور الفلاح (الرِّبح) أو الخسارة، والفلاح هنا يعني الفوز

(١) التحرير والتنوير (٨ب/ ٢٩).

بنجاة النَّفس وسعادتها، والخسارة خسارة النَّفس، وتَفاوت درجات المفلحين كما تتباين دركات الخاسرين.

وهنا ستسأل: بما أن الفلاح يترتَّب على الوزن، فما معنى كلمة: ﴿وَٱلْوَزْنُ﴾؟

إليك -أيّدك الله- جواب ذلك: فـ﴿ٱلْوَزْنُ﴾ "كلمة تدلُّ على تَعْدِيلٍ وَاسْتِقَامَةٍ وبيان لمقدار الشيء، وثِقْلِه، فتقول: "وزنت كذا وكذا أزِنه وَزْنًا وزِنَةً"، مثل: "وَعَدْته أَعِدُه وعدًا وعِدَة"، وَيُقَالُ: قَامَ مِيزَانُ النَّهَارِ، إِذَا انْتَصَفَ النَّهَارُ، حيث يتزن طرفا النَّهار، وَوَزِينُ الرَّأْيِ: إذا كان رزينًا مُعْتَدِل الرأي، وَهُوَ رَاجِحُ الْوَزْنِ، إِذَا نَسَبُوهُ إِلَى رَجَاحَةِ الرَّأْيِ وَشِدَّةِ الْعَقْلِ، "ويقال: وَزَنَ الشيءَ: إذا قدَّره"، وَلَيْسَ لِفُلَانٍ وَزْنٌ - أَيْ ليس له قيمة ولا قَدْرٌ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: ١٠٥]، ويقال للآلة التي يوزن بها الأشياء: "ميزان"، فالْوَزْن: عملٌ يُتعرَّف منه المقدار الحقيقي للشَّيء بِالْآلَةِ الَّتِي تُسَمَّى الْمِيزَانَ[(١)].

كما أن الإقساط تقدير القسط المناسب العادل الذي يعطاه من يستحقُّه، وآلته تسمَّى الْقِسْطَاس بكسر القاف وضمها، والله ﷻ أنزل الميزان كما أنزل الكتاب: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ﴾ [الشورى: ١٧].

فمعنى قوله: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ﴾، أي: ستحدث عملية التقدير الموزونة أمام كل إنسان لتظهر قيمته الحقيقيَّة.. اللهم لا تخزنا يوم القيامة.

ولكن الكلمات الثَّلاث لم تنته بعد، ففي قوله: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ﴾ [الأعراف: ٨]، بقي لنا أن نعرف معنى كلمة "الحقِّ" فكيف تنور أفهامنا هنا؟ وكيف أبانت عن جمال الآية؟

﴿ٱلْحَقُّ﴾: هو الشَّيء الثابت الذي يحِقُّ ليصير به كلُّ شيء في موضعه دون خلل، فكلمة: ﴿ٱلْوَزْنُ﴾ مُبْتَدَأٌ، وكلمة: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ ظَرْف زمان مَنصُوبٌ بِهِ، وقوله: ﴿ٱلْحَقُّ﴾ خَبَرُ الـمُبْتَدَأ،

(١) ينظر: مقاييس اللغة (٦/ ١٠٧)، تفسير المنار (٨/ ٢٨٣).

وتقدير الكلام: والوزن يوم نسأل الذين أرسل إليهم والمرسلين هو الحقُّ الذي يُطابِقُ الواقِع مُطابَقَةً حَقِيقِيَّةً، وبه يحقُّ القَدْر الذي يوازن صاحبه، فكلمة: ﴿ٱلْحَقُّ﴾ أبانت لنا أنه لا يمكن لهذا الوزن أن يعتريه السَّهو، ولا التَّلاعب، ولا الزَّيف، ولا المجاملات، ولا الرَّشوات، ولا الواسطات، ولا الباطل، ولا الخلل، ولا الزَّلل في الميزان، ولا الميل لفلان وفلان، ولا عدم القدرة على وزن بعض الأمور، لدِقَّتها أو لضخامتها، أو لصغرها أو لكبرها، فالإخْبارُ عَن المبتدأ بِالـمَصْدَرِ مُبالَغَةٌ في كَوْنِهِ مُحِقًّا، فكأن الله ﷻ يقول لك: في مشهد المحاكمة العليا العَادِلَة بعد أن نقصَّ على العالمين ما حدث منهم ولهم في الدُّنيا، ننقلهم إلى مشهد العدل، حيث نزن كل إنسان وأعماله، حتى تتحقق العدالة، ويعلم كل مخلوق مقداره وقيمته بناء على أعماله، وهذا الوزن لا يكون إلا حقًّا: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

ففي الدُّنيا: لا يمكن أن يزن الميزان النَّفس، ولا الهواء، ولا الكلمة.. لكنَّ ذلك يحدث في الآخرة، فالوزن شامل، وهو الوزن الحقُّ.

هنا تظهر الحقائق الكاملة.. دعك من ألقاب الدُّكتور، والطَّبيب، والمهندس، ودعك من ألقاب الثَّريِّ والملياردير والفقير.. دعك من ألقاب الحاكم، والرئيس، والزَّعيم، والمَلِك، والأمير، والمأمور.. هنا تظهر الحقائق بعيدًا عن الألقاب، ويظهر الوزن الحقيقيُّ للإنسان ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ﴾.

تجلية المكنون في الميزان والموزون:

ما الذي يوزن يوم القيامة؟

الجواب: الذي يظهر أن ثلاثة أمور توزن في الميزان:

أولًا: الأعمال وإن كانت أعراضًا؛ لأن الله ﷻ يُجسِّدها:

فتوزن الْأعْمال أنفُسها بَعْدَ تجسيدها بما يناسبها من الهيئات، فمعنى قوله: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ أي: فمن ثقلت بكثرة حسناته التي ترتَّبت على أعماله، ولقد ذكر لنا النَّبيُّ ﷺ أعمالًا لها شأن عظيم في الميزان، ومنها:

التَّسبيح، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي المِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحمَن: سُبْحَانَ اللهِ العَظِيمِ، سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ»(١).

ومن أعظم أعمال الذِّكر التي لها شأن في الميزان: الحمدلة التي تعني الرِّضا بالحياة والتَّعامل الإيجابي معها، فعَنْ أَبِي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ، وَسُبْحَانَ اللهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَآنِ -أَوْ تَمْلَأُ- مَا بَيْنَ السَّمَوات وَالْأَرْض»(٢).

ويحاول النَّوويُّ رحمه الله فَهْمَ المعنى هنا، فذلك يعني عنده أن تتجسَّد الحسنات المترتِّبة على الحمدلة على هيئة معينة، فيقول: "«والحمد لله تملأ الميزان»: فمعناه عِظَمُ أجرِها، وأنه يملأ الميزان، وقد تظاهرت نصوص القرآن والسُّنَّة على وزن الأعمال، وثقل الموازين وخفتها"(٣).

---

(١) البخاري (٦٤٠٦)، مسلم (٢٦٩٤).

(٢) مسلم (٢٢٣).

(٣) شرح النووي على مسلم (٣/ ١٠١).

توزن الأعمال أنفسها بعد تجسيدها بما يناسبها من الهيئات، فمعنى قوله: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُۥ﴾، أي فمن ثقلت بكثرة حسناته التي ترتَّبت على أعماله.

ومن أعظم الأعمال وزنًا: حُسْنُ الخلق الذي يعني إيجاد أفضل العلاقات مع جميع المخلوقات، فعن أم الدَّرداء رضي الله عنها، عن أبي الدَّرداء رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ قال: «لَيْسَ شَيْءٌ أَثْقَلَ فِي الْمِيزَانِ مِنْ خُلُقٍ حَسَنٍ»[(١)]، وفي رواية: «مَا مِنْ شَيْءٍ يُوضَعُ فِي الْمِيزَانِ أَثْقَلُ مِنْ حُسْنِ الخُلُقِ، وَإِنَّ صَاحِبَ حُسْنِ الخُلُقِ لَيَبْلُغُ بِهِ دَرَجَةَ صَاحِبِ الصَّوْمِ وَالصَّلاة»[(٢)].

ومن أعظم الأعمال -أيضًا- التي توزن يوم القيامة: الوقف على ما يحمي أمن النَّاس، ويكفل بقاء قوَّتهم في سبيل الله عز وجل، فعن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، يَقُول: قَالَ النَّبيُّ ﷺ: «مَنِ احْتَبَسَ فَرَسًا فِي سَبِيلِ اللهِ عز وجل-يعني جعله وقفًا في سبيل الله- إِيمَانًا بِاللهِ عز وجل وَتَصْدِيقًا بِوَعْدِه؛ فَإِنَّ شبعَهُ، وَرِيَّهُ، وَرَوْثَهُ، وَبَوْلَهُ، فِي مِيزَانِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[(٣)].

ثانيًا: تُوزَنُ صحائف الأَعْمَال:

واستدلوا على هذا القول بما رواه عَبْد اللهِ بْن عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنهما قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ اللهَ عز وجل سَيُخَلِّصُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ سِجِلًا كُلُّ سِجِلٍّ مِثْلُ مَدِّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا، أَظَلَمَكَ كَتَبَتِي الْحَافِظُونَ»، فَيَقُولُ: لاَ يَا رَبِّ. فَيَقُولُ: «أَفَلَكَ عُذْرٌ؟» فَيَقُولُ: لاَ يَا رَبِّ. فَيَقُولُ: «بَلَى إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً، فَإِنَّهُ لاَ ظُلْمَ عَلَيْكَ الْيَوْمَ، فَتَخْرُجُ بِطَاقَةٌ، فِيهَا أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ محمَّدا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَيَقُولُ: احْضُرْ وَزْنَكَ»، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ مَا هَذِهِ الْبِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ

(١) أحمد (٢٧٥٣٢)، وصحح إسناده الأرناؤوط، والألباني في الصحيحة (٨٧٦).

(٢) الترمذي (٢٠٠٣)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٧٢٦).

(٣) البخاري (٢٨٥٣).

السِّجِلاَّتِ؟! فَقَالَ: «إِنَّكَ لاَ تُظْلَمُ. قَالَ: فَتُوضَعُ السِّجِلاَّتُ فِى كِفَّةٍ، وَالْبِطَاقَةُ فِى كِفَّةٍ، فَطَاشَتِ السِّجِلاَّتُ، وَثَقُلَتِ الْبِطَاقَةُ، فَلاَ يَثْقُلُ مَعَ اسْمِ اللهِ شَيْءٌ»[١].

قَالَ الطِّيبِيُّ رحمه الله: "قِيلَ: إِنَّمَا تُوزَنُ الصُّحُفُ، وَأَمَّا الْأَعْمَالُ فَإِنَّهَا أَعْرَاضٌ، فَلَا تُوصَفُ بِثِقَلٍ وَلَا خِفَّةٍ، وَالْحَقُّ عِنْدَ أَهْلِ السُّنَّةِ أَنَّ الْأَعْمَالَ حِينَئِذٍ تُجَسَّدُ، أَوْ تُجْعَلُ فِي أَجْسَامٍ، فَتَصِيرُ أَعْمَالُ الطَّائِعِينَ فِي صُورَةٍ حَسَنَةٍ، وَأَعْمَالُ الْمُسِيئِينَ فِي صُورَةٍ قَبِيحَةٍ، ثُمَّ تُوزَنُ، وَرَجَّحَ الْقُرْطُبِيُّ رحمه الله أَنَّ الَّذِي يُوزَنُ الصَّحَائِفُ الَّتِي تُكْتَبُ فِيهَا الْأَعْمَال، وَنقل عَن ابن عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: "تُوزَنُ صَحَائِفُ الْأَعْمَالِ" قَالَ: "فَإِذَا ثَبَتَ هَذَا فَالصُّحُفُ أَجْسَامٌ، فَيَرْتَفِعُ الْإِشْكَالُ، وَيُقَوِّيهِ حَدِيثُ الْبِطَاقَةِ"، ثم رجَّح ابن حجر رحمه الله: أن الذي يوزن هو الأعمال[٢].

وقد تتساءل: هل حديث البطاقة يعني أن نطق كلمة التَّوحيد يكفي ليرتكب المرء معها الموبقات، ويتكل على أن يقول: "لا إله إلا الله" لتثقل موازينه؟

الجواب: كلَّا، وأخشى أن الاستدلال بمثل هذه الآثار بمعزلٍ عن الآيات والأحاديث الأخرى يجعل المرء متجرِّئًا على المعاصي، ذاهبًا مذهب المرجئة دون أن يشعر، وربما يسلك بذلك مسلك المفسدين في الأرض.. إنهم الذين وصفهم الله عز وجل هنا، فقال: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظۡلِمُونَ﴾ [الأعراف: ٩].

فكلُّ من يذكر مثل هذا الحديث ينبغي أن يذكر نصوصًا تقابل ذلك منها مثلًا: نصوص الثلاثة المؤمنين الذي تُسَعَّرُ بهم النَّار أول النَّاس لمراءاتهم، في حديث أَبِى هُرَيْرَةَ رضي الله عنه المشهور قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: «إِنَّ أَوَّلَ النَّاس يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ، فَأُتِىَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى

---

(١) أحمد (٦٩٩٤)، وقوى إسناده الأرناؤوط، وصححه الألباني في الصحيحة (١٣٥).

(٢) فتح الباري لابن حجر (١٣/ ٥٣٩).

اسْتُشْهِدْتُ. قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لأَنْ يُقَالَ: جرئٌ. فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ»، ثم ذكر حال القارئ، وحال المنفق بالمثل [1].

الذي يستدلُّ بهذا ينبغي أن يذكر قول النَّبيِّ ﷺ لأناس من أمَّته يذادون عن الحوض: «سُحْقًا سُحْقًا لِمَنْ بَدَّلَ بَعْدِي»[2]، ومن أقوى الأجوبة مَا أَشَارَ إِلَيْهِ التِّرْمِذِيُّ رحمه الله مِنْ أَنَّ وَجْهَ تَخْلِيصِ صَاحِبِ الْبِطَاقَةِ بِالشَّهَادَتَيْنِ، أَنَّهُ مَاتَ عَلَى الْإِيمَانِ، وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ كَانَ كَافِرًا فَآمَنُ، فَمَاتَ قَبْلَ أَنْ يَتَمَكَّنَ مِنَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَة، وَلَا خِلَافَ فِي نَجَاةِ مِثْلِهِ[3].

فليس المراد أنه يقول: (لا إله إلا الله)، ثم يصنع كلَّ عمل يناقض لا إله إلا الله، لأنَّ ذلك قد يؤدِّي به إلى الكفر، فاسمع لقول ربي وربك -تعالى مجده-: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾ [النِّسَاء: ١٣٧].

لا تتوهَّم -أيدك الله- أن هذا الحديث (شِيكٌ على بياض)، ليعمل الظَّالم ما شاء، بمجرد أن يقول: لا إله إلا الله؛ لأن الله ﷻ يقول دون أي تأويل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣﴾ [الصف: ٢-٣].

وماذا بعد أن يقول لك: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٣].. انتبه فالوزن يوم القيامة الحقُّ.

ثالثًا: يُوزَنُ صَاحِبُ العَمَل:

واستدلَّ من ذهب إلى هذا بحديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلُ العَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ القِيَامَةِ، لا يَزِنُ عِنْدَ اللهِ ﷻ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ، وَقَالَ: اقْرَءُوا ﴿فَلَا نُقِيمُ

(١) مسلم (١٩٠٥).

(٢) البخاري (٧٠٥١)، مسلم (٢٢٩١).

(٣) ينظر: تفسير المنار (٨/ ٢٨٩).

لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَـٰمَةِ وَزۡنٗا﴾ [الكهف: ١٠٥]»[1]، فيوزن أصحاب الأعمال لا ليظهر مقدار ما يحملونه من لحمٍ وعظمٍ، بل لتظهر مكانتهم الحقيقيَّة...فهناك تظهر الحقائق بعيدًا عن الزَّيف والزُّور والأوهام، فالأعمالُ تُرَجِّح الموازين، وتُعظِّم مكانة الشَّخصيَّات، فعن مجاهد ﵀ في قول الله ﷻ: ﴿وَٱلۡوَزۡنُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّۚ﴾ [الأعراف: ٨]، قال: قال عبيد بن عمير ﵀: "يؤتى بالرَّجل العظيم الطَّويل الأكول الشَّرُوب، فلا يزن عند الله جناح بَعُوضة"[2].

والذي يظهر أن الجميع يوزن، فتوزن الأعمال مجسَّدة، وتوزن الصُّحف، ثم يوزن صاحب العمل، حيث يظهر قَدْره في الميزان. فاللهمَّ ربَّنا ثقِّل موازيننا، وصحفنا، واجعلنا في الرَّفيق الأعلى الأسعد يا أرحم الراحمين.

هنا لا بدَّ أن تتساءل عن الوزن بأيِّ شيء يتحقَّق؟ هل هناك ميزان على الحقيقة يوم القيامة؟ أم هو مجازٌ؟

الجواب: ذكر الله ﷻ لفظ الوزن والميزان في القرآن الكريم في نحو ثلاث وعشرين آية؛ خمس عشرة آية منها تتعلَّق بالعدل في ميزان الدُّنيا، والتَّحذير من التَّطفيف الاقتصاديِّ، وثماني آيات خاصَّة بالوزن في الآخرة، والميزان يوم القيامة حقٌّ، وكيفيته من أمور الغيب، ويكفي في إثباته قوله تعالى مجده: ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَـٰمَةِ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

وهيئة الميزان يوم القيامة تختلف عن هيئة موازين الأرض، فعَنْ سَلْمَانَ الفارسيِّ ﵁ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «يُوضَعُ الْمِيزَانُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَلَوْ وُزِنَ فِيهِ السَّموات وَالْأَرْضُ لَوَسِعَتْ، فَتَقُولُ

(١) البخاري (٤٧٢٩).

(٢) تفسير مجاهد (ص: ٣٣٣).

الْمَلَائِكَةُ: يَا رَبِّ لِمَنْ يَزِنُ هَذَا؟ فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى: لِمَنْ شِئْتُ مِنْ خَلْقِي، فَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ: سُبْحَانَكَ مَا عَبَدْنَاكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ»(١).

ونُقل عن بعض العلماء مِنهُمُ الضَّحَّاكُ، ومُجاهِدٌ، والأعْمَشُ رحمهم الله نفي وجود ميزان مجسَّد، وأشاروا إلى أنه مجاز عن العدل، ولا شك أن هذا القول غير صحيح(٢).

وهنا لا بدَّ أن تسأل: ما هيئة هذا الميزان؟ وكيف نردُّ على من ينكر وجود الميزان يوم القيامة؟ وكيف نقنع العقل بوجوده؟

فقد نقل الطَّبَريُّ رحمه الله تساؤلات من ينكر الميزان يوم القيامة؛ وأجاب عنها، ودعنا ننقل تصوُّرَه في الأسئلة التي يطرحها من ينكر الميزان:

هل يحتاج الله عز وجل إلى وزن الأشياء، وهو العالم بمقدار كلِّ شيء قبل خلقه إيَّاه وبعده، وفي كلِّ حال؟

وكيف توزن الأعمال، والأعمال ليست بأجسام توصف بالثِّقَل والخِفَّة، وإنما توزن الأشياء ليعرف ثقلها من خفَّتها، وكثرتها من قلَّتها، وذلك لا يجوز إلا على الأشياء التي توصف بالثِّقَل والخِفَّة، والكثرة والقِلَّة(٣)؟

الجواب: دعنا نجيب عن هذه الأسئلة مستلهمين بعض الإجابة من الطَّبَري رحمه الله:

أولًا: الموازين الأُخرويَّة لا يعلم دِقَّة صنعها، وعظمة تكوينها إلا الله جل جلاله، فهيئة الميزان غيبيَّة، لكن وجوده ماديٌّ حقيقيٌّ(٤).

---

(١) المستدرك (٨٧٣٩)، وذكره الألباني في الصحيحة (٩٤١).

(٢) ينظر: التفسير البسيط للواحدي (٩/ ٢٤، ٢٥).

(٣) تفسير الطَّبَري (١٢/ ٣١٢).

(٤) ينظر: لوامع الأنوار البهية (٢/ ١٨٤، ١٨٥).

ونحن نرى أنواعًا كثيرة جدًّا من الموازين في الدُّنيا، فميزان قياس الحرارة غير ميزان الأثقال، وميزان المطعومات غير ميزان المحمولات، ولعله لأجل ذلك ذكر الله ﷻ كلمة ﴿الموازين﴾ بالجمع في سورة الأنبياء،

حيث يجد الإنسان الوزن الحقَّ!

وقد وجدنا في بعض الأحاديث ذكر كفتين للميزان؛ فعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما قَالَ: «إِنَّ نَبِيَّ اللهِ نُوحًا عليه السلام لَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ قَالَ لابْنِهِ: إِنِّي قَاصٌّ عَلَيْكَ الْوَصِيَّةَ: آمُرُكَ بِاثْنَتَيْنِ، وَأَنْهَاكَ عَنِ اثْنَتَيْنِ، آمُرُكَ بِلاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، فَإِنَّ السَّمواتِ السَّبْعَ، وَالأَرْضِينَ السَّبْعَ، لَوْ وُضِعَتْ فِي كِفَّةٍ، وَوُضِعَتْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ فِي كِفَّةٍ، رَجَحَتْ بِهِنَّ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، وَلَوْ أَنَّ السَّمواتِ السَّبْعَ، كُنَّ حَلْقَةً مُبْهَمَةً، قَصَمَتْهُنَّ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ ...» الحديث[(١)].

لكن ذلك لا يعني أن الكلام هنا عن موازين الآخرة، ولا يعني أيضًا أن موازين الآخرة لها هيئات متصوَّرة، فما تراه في الدُّنيا لا يعدو أن يكون تقريبًا، لكنه كسراب يحسبه الظمآن ماء، وفي الآخرة ترى النَّبأ اليقين، فلا ينبغي أن يتصوَّرَ النَّاس عالم الغيب ويقيسونه بما يرونه في زمانهم من المشاهدات، وقد قال محمَّد رشيد رضا رحمه الله: "وَإِذَا كَانَ الْبَشَرُ قَدِ اخْتَرَعُوا مَوَازِينَ لِلْأَعْرَاضِ كَالْحَرِّ وَالْبَرْدِ، أَفَيَعْجَزُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْقَادِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ عَنْ وَضْعِ مِيزَانٍ لِلْأَعْمَالِ النَّفْسِيَّةِ وَالْبَدَنِيَّةِ، الْمُعَبَّرِ عَنْهَا بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ، بِمَا أَحْدَثَتْهُ فِي الْأَنْفُسِ مِنَ الْأَخْلَاقِ وَالصِّفَاتِ؟! وَالنَّقْلُ وَالْعَقْلُ مُتَّفِقَانِ عَلَى أَنَّ الْجَزَاءَ إِنَّمَا يَكُونُ بِصِفَاتِ النَّفْسِ الثَّابِتَةِ، لَا بِمُجَرَّدِ مَا كَانَ سَبَبًا لَهَا مِنَ الْحَرَكَاتِ وَالْأَعْرَاضِ الزَّائِلَةِ: قَالَ تَعَالَى: ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٩]"[(٢)].

---

(١) أحمد (٦٥٨٣)، وصححه الأرناؤوط، والألباني في الصحيحة (١٣٤).

(٢) تفسير المنار (٨/ ٢٨٧).

ثانيًا: الأصل أن تحمل نصوص القرآن على ظاهرها، وقد ذكر الله ﷻ الوزن، والموازين، فلماذا نحملها على غير ظاهرها، مع أنها لا تختلف عن الأمور الغيبيَّة التي نؤمن بها يوم القيامة؟!

ثالثًا: الميزان من حُجَج الله ﷻ على الخلق في كمال ملكه، وكمال علمه، وكمال قدرته، وصِحَّة عدله:

فالله تبارك وتعالى لا يحتاج للوزن ليثبت شيئًا، لكن الذي يحتاج للوزن هو الإنسان الذي يُصِرُّ على إقامة الأدلَّة عليه ليجد العدل حتى عند لقائه بربِّه ﷻ.. انظر لكمال العدل الإلهيِّ.. ينصب لهم الميزان –وهو أعلم بهم–.

والميزان كما تقام به الحجَّة، كذلك يدلُّ على كمال الملك وعظمته، ومن كمال الملك وإقامة الحجَّة أن الله جل جلاله أثبت كلامه وأعمال العباد في أمِّ الكتاب واستنسخه، وأمر القلم أن يكتب ما كان، وما يكون من غير حاجة به إلى كلِّ ذلك، ومن غير خوف من نسيانه، بل هو العالم بكلِّ ذلك في كلِّ حال ووقت قبل كونه، وبعد وجوده.. ذلك كله لإقامة الحجَّة على الخلق من جهة، ولبيان كمال الملك وعظمته من جهة أخرى.

رابعًا: ما الفرق بين أن نثبت الكتاب الذي يتلقاه كل واقف يوم القيامة للحساب وبين الميزان؟

الجواب: أننا نثبت هذا وذاك، وكلَّ ما جاء في كتاب الله تعالى، فإن لتوزيع كتب الأعمال (الصُّحف المنشَّرة) موقفًا ومشهدًا وللميزان موقفًا ومشهدًا، فالميزان، كما تمَّ تقريره سابقًا توزن فيه الأعمال بعد تجسيمها، وكذا صحائف الأعمال، وكذا العباد العُمَّال، ففي موقف الكتب للأفراد والأمم نستمع إلى كلام الله –تَعَالى جَدُّهُ– يقول: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦۖ وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبٗا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا ١٣ ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ

حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٣- ١٤]، ويقول جل ثناؤه: ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٢٨ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٨- ٢٩]، **فكذلك وَزْنُه تعالى أعمالَ خلقِه بالميزان، حجَّة عليهم ولهم، إمَّا بالتقصير في طاعته والتضييع، وإمَّا بالتَّكميل والتَّتميم.**

خامسًا: الميزان تُقَدِّرُ فيه الأعمال بدِقَّة بعد أن عرفها الإنسان المحاسب، فبعد معرفة الأعمال يأتي تقدير كلِّ عمل، وذلك يُسهِم في الحرص على إتقان الأعمال:

فالميزان يجعل المرء يفكر ألف مرَّة في الدُّنيا قبل أن تصدر منه الحركة، أو يظهر منه القول، أو يبدو منه الفعل، ويجعل الصالح يفكر كيف يثقل العمل الذي يشترك فيه مع غيره، فهو يُصَلِّي، وصاحبه يُصَلِّي، وقد يكون بينهما في الصَّلاة كما بين السماء والأرض، فقد لا يكون حاضرًا بقلبه في صلاته، فهو في وادٍ آخر، وليس له من الصَّلاة إلا شكلها، وأمَّا جوهرها وحقيقتها فأبعد ما يكون عنها، كما قال المقري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

تُصَلِّي بِلا قَلْبٍ صَلاةً بِمِثْلِهَا ... يَكُونُ الفَتَى مُسْتَوْجِبًا لِلْعُقُوبَةِ
تَظَلُّ وقد أتممتها غير حاضرٍ ... تزيد احتياطًا ركعةً بعد ركعةِ
فويحك تدري من تُنَاجِيه معرضًا ... وبين يدي مَنْ تَنحني غيرَ مخبتِ
أَمَا تستحي من مالكِ المُلك أن يرى ... صدودَك عنه يا قليلَ المروءةِ(١)

وقد أعلمنا الله عَزَّ وَجَلَّ **بدِقَّة هذا الميزان، حيث قال جلَّ ذِكرُه:** ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، **ولذلك يحضر النَّبيُّ** ﷺ **في مثل هذا الموطن الخطير رحمة للعالمين، فعَنْ أَنسٍ** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ

(١) مجموع القاضي الفاضل الإمام العلامة إسماعيل ابن أبي المقري (ص: ٦٢).

قَالَ: سَأَلْتُ نَبِيَّ اللهِ ﷺ، أَنْ يَشْفَعَ لِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، قَالَ: «أَنَا فَاعِلٌ»، قَالَ: فَأَيْنَ أَطْلُبُكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَا نَبِيَّ اللهِ؟ قَالَ: «اطْلُبْنِي أَوَّلَ مَا تَطْلُبُنِي عَلَى الصِّرَاطِ»، قَالَ: قُلْتُ: فَإِذَا لَمْ أَلْقَكَ عَلَى الصِّرَاطِ؟ قَالَ: «فَأَنَا عِنْدَ الْمِيزَانِ»، قَالَ: قُلْتُ: فَإِنْ لَمْ أَلْقَكَ عِنْدَ الْمِيزَانِ؟ قَالَ: «فَأَنَا عِنْدَ الْحَوْضِ، لَا أُخْطِئُ هَذِهِ الثَّلَاثَ مَوَاطِنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»(١).

سادسًا: لا ينفي وجود الميزان الأخرويِّ لا عقل ولا نقل، فلماذا إنكاره أو تأويله؟

يقول الطَّبَريُّ رحمه الله لمن ينكر الميزان: "فما الذي أوجب لك إنكار الميزان أن يكون هو الميزان الذي وصفنا صفته، الذي يتعارفه النَّاس؟ أحجَّة عقل تُبْعِد أن يُنال وجه صحَّته من جهة العقل؟ وليس في وزن الله -جلَّ ثناؤه- خَلْقَه وكُتُبَ أعمالهم لتعريفهم أثقل القِسْمين منها بالميزان، خروجٌ من حكمة، ولا دخول في جور في قضية، فما الذي أحال ذلك عندك من حجَّةِ عقلٍ أو خبر؟ إذ كان لا سبيل إلى حقيقة القول بإفساد ما لا يدفعه العقل إلا من أحد الوجهين اللَّذين ذكرتُ، ولا سبيل إلى ذلك، وفي عدم البرهان على صحَّة دعواه من هذين الوجهين، وضوحُ فساد قوله، وصحَّة ما قاله أهل الحقِّ في ذلك"(٢).

ويقول صاحب الظِّلال رحمه الله في تقعيد متين يجذب القارئ ببراعة إلى الاستنارة بنور القرآن الكريم: "ولا ندخل هنا في طبيعة الوزن وحقيقة الميزان - كما دخل فيه المتجادلون بعقليَّة غير إسلاميَّة في تاريخ الفكر الإسلامي! فكيفيَّات أفعال الله عز وجل كلها خارجة عن الشَّبيه والمثيل. مذ كان الله سبحانه ليس كمثله شيء.. وحسبنا تقرير الحقيقة التي يقصد إليها

(١) أحمد (١٢٨٢٥)، والترمذي (٢٤٣٣)، وقال الأرناؤوط: "رجاله رجال الصحيح، ومتنه غريب" وصححه الألباني.
(٢) تفسير الطَّبَري (١٢/ ٣١٤).

السِّياق.. من أن الحساب يومئذ بالحقِّ، وأنه لا يظلم أحد مثقال ذرَّة، وأن عملًا لا يبخس، ولا يغفل، ولا يضيع"(١).

ومثل الميزان في إقامة الحجج أن تنطق الأيدي والأرجل وتشهد الجلود وتُحدِّث الأرض بما كان الخلق يعملون.

وقد تتساءل: أما يكفي كتب الأعمال، والصحف التي يأخذها أهل القيامة عن أيمانهم أو عن شمائلهم؟

ويأتيك الجواب: فإن الوزن يكون بعد الحساب(٢) ليتبين لكلِّ واحد القيمة الحقيقيَّة لعمله، والتقدير الدَّقيق لما قام به من خير أو شرٍّ، فقد يتساوى العَمَلان في الظَّاهر، ويكون أحدهما أعظم من الآخر لما احتفَّ به من إخلاص، أو صلاح، أو أثر، أو نِيَّة صادقة، وحاول ابن بطال ﵀ تلخيص بعض الأهداف من الميزان، فنقل أن الله ﷻ يُري النَّاس أعمالهم ممثَّلة في الميزان لأعين العاملين؛ ليكونوا على أنفسهم شاهدين، قطعًا لحججهم، وإبلاغًا في إنصافهم عن أعمالهم الحسنة، وتبكيتًا لمن قال: إن الله ﷻ لا يعلم كثيرًا مما يعملون، وتقصِّيًا عليهم لأعمالهم المخالفة لما شرع لهم، وبرهانًا على عدله على جميعهم، وأنه لا يظلم مثقال حبَّة من خردل حتى يعترف كل بما قد نسيه من عمله، ويميز ما عساه قد احتقره من فعله(٣).

الوزن يكون بعد الحساب؛ ليتبين لكلِّ واحد القيمة الحقيقية لعمله، والتَّقدير الدَّقيق لما قام به من خير أو شرٍّ، فقد يتساوى العَمَلان في الظَّاهر، ويكون أحدهما أعظم من الآخر لما احتفَّ به من إخلاص، أو صلاح، أو أثر، أو نيَّة صادقة.

(١) في ظلال القرآن (٣/ ١٢٦١).

(٢) ينظر: التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة (ص: ٧١٥).

(٣) شرح صحيح البخاري لابن بطال (١٠/ ٥٥٩).

تنقلنا الآية إلى مشهد الوزن، وماذا يحدث بعد الوزن؟ فما الذي سيحدث للناس؟ ما نتيجة الوزن؟

والجواب يأتيك -أيدك الغني الحميد- من أنوار بصائر مشهد جديد:

المشهد السادس: مشهد نتيجة الوزن المصيريَّة، حيث ينقسم النَّاس إلى فريقين:

من تثقل موازينه بأعماله، وصحفه، ونفسه، ومن تخفّ موازينه، ويُبَصِّرنا بهذا المشهد قوله: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٨ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ٩٨]

نتيجة الوزن مصيرية، تحدِّد المصير الخالد للخلق، حيث سينقسم العالم إلى فريقين:

الفريق الأول: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٨﴾:

تثقل موازينهم؛ لأنهم اتَّبعوا ما أنزل إليهم من ربهم ﷻ من نظام وأعمال وطريقة حياة، وعندها يكتسبون النجاح الأعظم الذي لا يمكن أن يساويه نجاح: ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٨].

وستسأل: ما الحكمة من مجيء صيغة ميزان بالجمع، فقال الله ﷻ: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ [الأعراف: ٨]؟

أجيبك: بأن الجمع في ﴿مَوَٰزِينُهُۥ﴾ يُبَصِّرنا بأنه يحتمل أن جمع ميزان يقابل جمع النَّاس الذين توزن أعمالهم، والاحتمال الأوضح أن يكون الجمع لتعدُّد الأعمال واختلاف وزن كلِّ عمل، فيحتمل تتعدَّد الموازين فيكون لكلِّ نوعٍ أو جنس من الأعمال وزنه الخاصُّ به، فالجمع إما أن يدلَّ على تعدُّد الموازين، أو يدلَّ على تعدُّد كيفيات الوزن بما يناسب الأعمال، ومثل ذلك قوله جلَّ مَجْدُه: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

فقد يراد بالجمع: تعدُّد الأعمال، فللصَّلاة ميزانها، وللصَّوم ميزانه، ولحسن الخلق ميزانه.. ثم تجمع مع بعضها في ميزان واحد لتخرج النِّسبة التي يفلح بها الإنسان أو يخسر، فاستعنَّا بما نعرفه في الدُّنيا لمجرد تقريب الصُّورة، وإلا فالأمر لا تطيقه تصوراتنا، ولله المثل الأعلى!

فأنت في الدُّنيا: توزن لك مادة القرآن، وتوزن مادة الرياضيات، وتوزن مادة العلوم في الاختبار، ثم تجمع لتنظر أنجحت أم فشلت.

خذ مثلًا آخر: يوزن لك ما اشتريته من فاكهة، وخضار، حتى يوزن ما أخذته من مشتريات أخرى بميزان سعرها، ثم تجمع كلُّها لتقدِّم الحساب.. كلُّ هذا يقرِّب لك المسألة، ويبيِّن لك الحكمة من جمع كلمة "ميزان" في قوله تعالى: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾، والصَّلاة على سبيل المثال أهمُّ الأعمال، فوزنها لا بدَّ أن يختلف عن وزن غيرها.

اللَّهمَّ اجعلنا ممن تثقل موازينهم.

تصوَّر –وفقك الله-: توزن لك البسمة والعبسة، وتوزن لك الكلمة الحسنة، والكلمة السَّيِّئة، وتوزن لك إماطة الأذى عن الطريق.. ما مقدارها.. يختلف ذلك باختلاف النَّاس.. واطمئن فلا توجد مجاملة؛ لأن الوزن يومئذ الحقُّ، وفي ذلك يقول محمَّد المثيل –عفا الله عنه-:

فلا تَحتقرْ يا أخي بَسْمَةً ... فربَّ ابتسامٍ أزاحَ هُموما
ورُبَّ طَلاقةِ وجهٍ تُزيلُ ... كآبةَ وَجهٍ أطالَ وُجوما
ورُبَّ سماحةِ نفسٍ سَرتْ ... كبَلْسَمِ حُبٍّ تُداوي كُلُوما
وكم من عبارةِ خيرٍ سَقْتْ ... يَبَابَ قلوبٍ وأحيت رُسُوما
فإن لم تكن باذلًا للجميلِ ... فَكُفَّ أذًى أو فَرُدَّ ظَلوما
ولا تك للخائنين خصيمًا ... ولستَ بعُدوان ظُلمٍ مَلُوما
فَخُذْ يا نَديمي بنُصْحِ صدوقٍ ... لترقى وتلقى هناك النُّجوما

وربما تسأل: فكيف تحدث عملية الوزن بدقة يوم القيامة؟

إليك الجواب: هنا تجد النَّبيَّ ﷺ يخبرنا بأنموذج عن التَّفصيل الدَّقيق لعملية وزن جميع الأعمال الصَّادرة من العبد في حياته، فقد جلس رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ: إِنَّ لِي مَمْلُوكِينَ يُكْذِبُونَنِي، وَيَخُونُونَنِي، وَيَعْصُونَنِي، وَأَضْرِبُهُمْ وَأَسُبُّهُمْ، فَكَيْفَ أَنَا مِنْهُمْ؟ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يُحْسَبُ مَا خَانُوك، وَعَصَوْكَ، وَكذبوك، وَعِقَابُكَ إِيَّاهُمْ. فَإِنْ كَانَ عِقَابُكَ إِيَّاهُمْ دُونَ ذُنُوبِهِمْ كَانَ فَضْلًا لَكَ عَلَيْهِمْ، وَإِنْ كَانَ عِقَابُكَ إِيَّاهُمْ بِقَدْرِ ذُنُوبِهِمْ كَانَ كَفَافًا، لَا لَكَ وَلَا عَلَيْكَ، وَإِنْ كَانَ عِقَابُكَ إِيَّاهُمْ فَوْقَ ذُنُوبِهِمْ، اقْتُصَّ لَهُمْ مِنْكَ الْفَضْلُ الَّذِي بَقِيَ قِبَلَكَ» فَجَعَلَ الرَّجُلُ يَبْكِي بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَيَهْتِفُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا لَهُ؟ مَا يَقْرَأُ كِتَابَ اللهِ ﷻ: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَـٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]»، فَقَالَ الرَّجُلُ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا أَجِدُ شَيْئًا خَيْرًا مِنْ فِرَاقِ هَؤُلَاءِ -يَعْنِي عَبِيدَهُ- إِنِّي أُشْهِدُكَ أَنَّهُمْ أَحْرَارٌ كُلُّهُمْ(١).

فتَصَوَّرْ -رحمك الله- مقدار دِقَّة الوزن، ولا تستهن ببسمتك، أو عبستك، أو همزك، أو لمزك..

فإن سألت: ما الحكمة مِنْ وصف الله ﷻ مَنْ ثقلت موازينه بهذا الوصف: ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٨]؟ وما الحكمة من اختيار كلمة: ﴿ٱلْمُفْلِحُونَ﴾؟

الجواب: لاحظ البيان المبهر: ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ﴾ اسم الإشارة الذي للبُعد في معرض المدح يدلُّ على بُعْدِ المكانة، والمفاخرة به، أي: فأولئك هم الذين حقَّقوا أعلى مراتب النَّجاح، وأدركوا

(١) أحمد (٢٦٤٠١)، وضعفه الأرناؤوط، الترمذي (٣١٦٥)، وقال: "غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد الرَّحمَن بن غزوان، وقد روى أحمد بن حنبل هذا الحديث عن عبد الرَّحمَن بن غزوان"، وقال الحافظ المنذري: "وإسناد أحمد والترمذي متصلان، ورواتهما ثقات؛ عبد الرَّحمَن هذا يكنى أبا نوح؛ ثقة احتجَّ به البخاري، وبقية رجال أحمد ثقات، احتجَّ بهم البخاري ومسلم"، وصحَّحه الألباني لغيره. صحيح الترغيب والترهيب (٣/ ٤٢٧).

الفوز الكبير، وأما الحكمة في اختيار لقب ﴿ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ في وصفهم؛ فلأنَّ الفَلاح هو الظَفَر التَّامُّ بالخير المطلوب وزيادة عليه، ولا يكون إلا بناء على تعب سابق، والتَّعبير بالفلاح دون النَّجاح له مدلوله الرَّائع، فالفلَّاح يَفْلح الأرض أي يشقُّها، ليضع فيها البذور أو الفسائل، ثم يتعهدها بالرِّعاية والعناية والاهتمام صابرًا على ذلك التَّعب إلى التَّمام، ثم يُفلح بالحصول على مراده من طعام، أو تجارة زراعيَّة هي أساس كلِّ ما في الدُّنيا من حِرَفٍ صناعيَّة أو تجاريَّة، كذلك.

الذي يزرع العمل الصَّالح في الدُّنيا ينبغي أن يتعهده بالرِّعاية القلبيَّة، والمراقبة النَّفسيَّة متبتلًا مخلصًا صابرًا على مجاهدته وتعبه حتى يلقى الله ﷻ، فيوفِّيَه أجره، ويزيدَه من فضله، والله يرزق من يشاء بغير حساب. اللَّهمَّ إنا نسألك من ذلك أوفر الحظِّ والنَّصيب.

عرفنا الفريق الأول –جعلنا الله منهم– فماذا عن الفريق الثاني؟

الجواب: الفريق الثاني: ﴿وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظۡلِمُونَ﴾ [الأعراف: ٩]:

لأنَّ هذا العاصي أو الكافر وصل إلى زمن الحقائق، فتوزن أعماله؛ وقد يظنُّ الإنسان أن هذا الفريق عندما يأتي بسيِّئاته، فإنَّ سيِّئاته سَتَثْقُلُ، ويعاقب بناء على ذلك، لكنَّ التَّعبير القرآني جاء بقول: ﴿وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ﴾، والسؤال هل كانت ثقيلة حتى خفَّت؟ ما الحكمة من التعبير بكلمة ﴿مَوَٰزِينُهُۥ﴾؟

الجواب: يقرِّب لنا صورة خِفَّة الميزان أنَّ الإنسان المجرم توزن أعماله وصحائفه، ثمَّ يوزن هو، وعندما يأتي أمام ميزان الصَّلاة مثلًا:

يوجد في مقياس الميزان ما يقابل الفطرة السليمة التي خلق بها، والتي بناء عليها كان سيصلِّي، ثم توزن صلاته، فلا يوجد عنده شيء، أو عنده شيء يسير، وعند ذلك يَخِفُّ المقياس بقدر تضييعه للصَّلاة وللحسنات المترتِّبة على الصَّلاة.

وكذلك قد يضاف إلى ميزانه أعمال صالحة جرت منه لم يرد فيها الله ﷻ والدار الآخرة، مثل أعمال الكافر الخيِّرة إن أسلم، كما جاء في الحديث عَنْ حَكِيمِ بنِ حِزامٍ رضي الله عنه، قالَ: قُلتُ: يا رَسولَ اللهِ، أرَأَيْتَ أشْياءَ كُنْتُ أتَحَنَّثُ بها في الجاهليَّة مِن صَدَقَةٍ، أوْ عَتاقَةٍ، وصِلَةِ رَحِمٍ، فَهلْ فيها مِن أجْرٍ؟ فقالَ النَّبيُّ ﷺ: «أسْلَمْتَ علَى ما سَلَفَ مِن خَيْرٍ»(١).

أو أراد اللهَ ﷻ ولكنه ضيَّعها بالأعمال السَّيِّئة، فأما الأعمال الصَّالِحَة التي لم يرد بها الله ﷻ والدَّار الآخرة، فإنها تصبح هباء منثورًا، حيث قال الله ﷻ: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]، ثم تأتي الأعمال السَّيِّئة لتجعل موازينه تَخِفُّ شيئًا فشيئًا، حتى يذهب ثقل رصيد فطرته، ويصيبه شيء يمكن أن نقرِّبه بصورة دنيويَّة: حيث يرتفع مؤشر الثقل في قيمته وقدره، ويقلُّ ثقله، وتزداد خِفَّته بعد أن تطرح عليه الأعمال السيئة التي لم تجد أمامها رصيدًا من أعمال الخير أو من الفطرة الأصليَّة.

إنه يرى أمامه كيف تَخِفُّ قيمته، ويذهب رأس ماله، ويزول ما فعله من حسنات، ويحدِّثنا النَّبيُّ ﷺ عن أنموذج لهذا الخاسر، فيقول: «أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟» قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لاَ دِرْهَمَ لَهُ وَلاَ مَتَاعَ. فَقَالَ: «إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِى يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلاَةٍ، وَصِيَامٍ، وَزَكَاةٍ، ويَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ

(١) البخاري (١٤٣٦).

حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ، أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ»(١).

والتَّعبير بالجمع في الموازين لافت جدًّا: ينظر في الصَّلاة فإذا ميزانها قد خفَّ، وينظر في الزَّكاة فلا يجد شيئًا، الميزان خفيف، وينظر في بقية العبادات فإذا ميزانها خفيف، ينظر في الصدق.. في الأمانة، في صلة الأرحام، في حفظ الدِّماء، في حفظ الأموال، في حسن الخلق حتى في إماطة الأذى عن الطَّريق.. كلُّ ميزان لكلِّ عمل يصير خفيفًا، فإذا نظر في مجموع كلِّ ذلك وجد نفسه خاسرًا: ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم﴾ [الأعراف: ٩].

وتحتمل الخِفَّة صورًا أخرى تعكس عدم إفادته من رصيد الفطرة الذي يعكس الميثاق الإلهيَّ الأوَّل المأخوذ على بني آدم، وعدم إفادته مما أنزل إليه من ربِّه ﷻ.

ولكنك عندما تسمع قوله عزَّ شأنُهُ: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا يَظْلِمُونَ ۝٩﴾ تتساءل: ما وجه جمال هذا التعبير ﴿خَسِرُوٓاْ﴾؟

جوابه: الخُسْرانُ: ضياع رأس المال، وذهاب أصل التِّجارة، فهو ضِدُّ الرِّبْحِ، وهو كلمة تدلُّ على نقص الأصل، فيقال: الْخُسْر وَالْخُسْرَان، كَالْكُفْرِ وَالْكُفْرَانِ، وَالْفُرْقُ وَالْفُرْقَانُ، وَيُقَالُ خَسَرْتُ الْمِيزَانَ وَأَخْسَرْتُهُ، إِذَا نَقَصْتَهُ(٢)، وينسب ذلك إلى الإنسان، فيقال: خَسِرَ فلان، وإلى الفعل فيقال: خسرت تجارته، قال تعالى: ﴿تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ [النازعات: ١٢]، ولكن الخسارة ليست النَّقص فقط، فقد عدَّد بعض علماء اللغة معاني خسر، فقالوا: الخسارة هي الهلكة، والغَبن، وعدم الظَّفَر بالمطلوب، وعدم الانتفاع بالشَّيء، والعقوبة، والنَّقص المادي،

---

(١) مسلم (٢٥٨١).

(٢) مقاييس اللغة (٢/ ١٨٢).

والضَّعف، وذهاب القيمة والكرامة، ومنه قوله: ﴿قَالُواْ لَئِنۡ أَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّآ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ﴾ [يوسف: ١٤] أي: عَجَزةٌ ذهبت كرامتهم.

وقبل أن يظهر لك قوَّة التعبير في قوله: ﴿خَسِرُوٓاْ﴾، ربما تسأل: ما الحكمة من تقييد الخسارة بأنها للنَّفس، فقال: ﴿خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم﴾؟

يظهر لي أن الخسارة ليس مجرد عدم الانتفاع، بل فَقَدُوا الآلة والغاية وهي النَّفس، فهي الآلة التي كان يمكنهم أن يستعملوها في تحصيل الأرباح، وتحقيق الفلاح، وفقدوا الغاية، وهي الحفاظ على النَّفس لتحصيل لَذَّة الحياة، ﴿خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم﴾.

فيالها من خسارة، لقد خسر أعظم رؤوس أمواله، وهي نفسه. وهبه الله ﷻ إيَّاها لتكون أعظم آلة تبني له الحياة، وتشيِّد بالتَّقوى بروج السَّعادة، لكنه أبى إلا إذلالها وإهانتها.

وبذلك ظهر لك قوَّة استعمال كلمة ﴿خَسِرُوٓاْ﴾، حيث جمعت ثلاثة أمور:

الأول: النَّقص لمن كان عنده حسنات، وسيِّئات، ولكنَّ سيِّئاتِه زادت على حسناته، فخسر بعض تلك الحسنات أو كلِّها.

الثاني: الهلكة، وذهاب الكرامة، فتذهب كرامة الخاسرين يوم القيامة مع أنهم ربما كانوا في المحلِّ العزيز في الدُّنيا، ولذا تخاطب الملائكة بعضَ هؤلاء الذين كانوا أعزَّة في الدُّنيا، وهو يذيقهم عذاب الجحيم! ﴿ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩].

الثَّالث: ذهاب رأس المال، وهو الجسد والحياة، وتحولهما إلى أداة للتَّعذيب... نعوذ بالله من الخِذلان، والهوان.

فالخسران نقصان ما كان عند الإنسان، ثم قد ينقص حتى يصبح ما عند الإنسان وبالًا عليه بدلًا من أن يكون عونًا له، فجسده يخسره في الآخرة ليصبح أداة شعوره بالعذاب.. يصبح

الجسد أداة ذوقه للألم، ويخسر أهله وولده، فبدلًا من أن يكونوا مصدر ربحه في الآخرة، وأحد أهمِّ وسائله ليفوز، يتحوَّلوا إلى أداة تعذيبه وهلكته، فنقول له:

لَقَدْ صَاحَبْتَ أَعْلامًا كِبَارًا ... وَلَمْ أَرَكَ اقْتَدَيْتَ بِمَنْ صَحِبْتَا
وَنَادَاكَ " الْكِتَابُ " فَلَمْ تُجِبْهُ ... وَنَهْنَكَ الْمَشِيبُ فَمَا انتَبَهْتَا
لَيَقْبُحُ بِالْفَتَى فِعْلُ التَّصَابِي ... وَأَقْبَحُ مِنْهُ شَيْخٌ قَدْ تَفَتَّى
فَأَنتَ أَحَقُّ بِالتَّفْنِيدِ مِنِّي ... ولو سكتَ المُسِيءُ لما نَطَقْتَا
وَنَفْسَكَ ذُمَّ لاَ تَذْمُمْ سِوَاهَا ... بِعَيْبٍ فَهْيَ أَجْدَرُ مَنْ ذَمَمْتَا
فَلَوْ بَكَتِ الدِّمَا عَيْنَاكَ خَوْفًا ... لِذَنْبِكَ لَمْ أَقُلْ لَكَ قَدْ أَمِنْتَا
وَمَنْ لَكَ بِالأَمَانِ وَأَنْتَ عَبْدٌ ... أُمِرْتَ فَمَا ائْتَمَرْتَ وَلاَ أَطَعْتَا
ثَقُلْتَ مِنَ الذُّنُوبِ وَلَسْتَ تَخْشَى ... لِجَهْلِكَ أَنْ تَخِفَّ إِذَا وُزِنْتَا
وَتُشْفِقُ لِلْمُصِرِّ عَلَى المَعَاصِي ... وَتَرْحَمُهُ وَنَفْسَكَ مَا رَحِمْتَا
رَجَعْتَ الْقَهْقَرَى وَخَبَطْتَ عَشْوَا ... لَعَمْرُكَ لَوْ وَصَلْتَ لما رَجَعْتَا
وَلَوْ وَافَيْتَ رَبَّكَ دُونَ ذَنْبٍ ... وَنُوقِشْتَ الْحِسَابَ إِذًا هَلَكْتَا
وَلَمْ يَظْلِمْكَ فِي عَمَلٍ وَلكِنْ ... عَسِيرٌ أَنْ تَقُومَ بِمَا حَمَلْتَا
وَلَوْ قَدْ جِئْتَ يَوْمَ الْحَشْرِ فَرْدًا ... وَأَبْصَرْتَ الْمَنَازِلَ فِيهِ شَتَّى
لأَعْظَمْتَ النَّدَامَةَ فِيهِ لَهْفًا ... عَلَى مَا فِي حَيَاتِكَ قَدْ أَضَعْتَا
تَفِرُّ مِنْ الْهَجِيرِ وَتَتَّقِيهِ ... فَهَلاَّ عَنْ جَهَنَّمَ قَدْ فَرَرْتَا
وَلَسْتَ تُطِيقُ أَهْوَنَهَا عَذَابًا ... وَلَوْ كُنْتَ الْحَدِيدَ بِهَا لَذُبْتَا

فَـلاَ تــكـذب فَـإِنَّ الأَمْـرَ جِـدٌّ وَلَيْسَ كَمَـا احتَسَـبْـتَ وَلاَ ظَنَنْتَـا[1]

هنا لا بدَّ أن تسأل: ما الحكمة من قول الله ﷻ: ﴿بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظۡلِمُونَ ۝٩﴾؟ ولعلَّ الذي يظهر للبعض في التركيب: بما كانوا يظلمون آياتنا، فقُدِّمت كلمة: ﴿آياتنا﴾، وأُدخل عليها الباء؟

الجواب: تصوِّر لك الباء الأولى في قَوْلِهِ: ﴿بِمَا كَانُواْ﴾ في هذا التَّعبير: ﴿بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظۡلِمُونَ﴾ [الأعراف: ٩] السَّبب الذي لأجله خفَّت موازين هؤلاء الخاسرين، فهي سببية، و(ما) مَصْدَرِيَّةٌ، وكلمة: ﴿كَانُواْ﴾ تبصرك أن فعلهم هذا كان في الزَّمن الماضي أي في الدُّنيا، والتقدير: خسروا أنفسهم بسبب أنهم كانوا بآياتنا يظلمون.

وقدَّم كلمة: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ على الفعل: ﴿يَظۡلِمُونَ﴾؛ للاهتمام الزَّائد بها.

صُوَرٌ لحياة من خفَّت موازينهم:

يوضِّح لك ذلك أن الباء في قوله: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ تمنحك ثلاث صورٍ لحياة من خفَّت موازينهم:

الصُّورة الأولى: يظلمون الآيات نفسها، فلا يعدلون في موقفهم منها، فالظُّلْمُ ضِدُّ العَدْلِ: أيْ يَظْلِمُونَ الآياتِ فَلا يُنْصِفُونَهَا، ولا يمنحونها حَقَّهَا مِنَ الصِّدْقِ، بأن يكذِّبوها، ويكفروا بها، وضُمِّنَ ﴿يَظۡلِمُونَ﴾ مَعْنى يُكَذِّبُونَ ويكفرون، فَلِذَلِكَ عُدِّيَ بِالباءِ، فَكَأنَّهُ قِيلَ: بِما كانُوا يَظْلِمُونَ الآيات فَيُكَذِّبُونَ بها تكذيبًا علميًّا عَلى حَدِّ قَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ﴾ [النمل: ١٤][2].

---

(١) الأبيات للعلامة أبي إسحاق إبراهيم بن مسعود الإلْبِيريّ (ت ٤٦٠هـ). ينظر: ديوان أبي إسحاق الإلبيري، حققه وشرحه واستدرك فائته: الدكتور محمَّد رضوان الداية، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.

(٢) التحرير والتنوير (٨ب/ ٣٢).

الصُّورة الثَّانية: يكفرون بالآيات، ويكرهون انتشارها، فلا يحبُّون انتشار دور القرآن الكريم، ويظلمون البشر والأرض بسبب محاربتهم لتلك الآيات التي جاءتهم من ربِّهم ﷻ، ولذا تراهم لا يتورَّعون عن تدمير مدارس القرآن، وقتل حفظته من الصِّغار والكبار، فالباء هنا سببية، تبيِّن سبب ظلمهم، وهو كرههم للآيات، والتَّكذيب للآيات هنا علميٌّ، فلا يؤمنون بها أصلًا، بل يحاربونها، ويجعلونها سببًا لظلم الآخرين؛ لأنهم اتَّبعوها، فيجعل المجرمون الآيات سببًا لاضطهاد كلِّ من آمن بها، لكرههم ما أنزل إليهم من ربِّهم ﷻ.

الصُّورة الثَّالثة: يكذِّبون بالآيات عمليًّا، فيظهرون الإيمان بها نظريًّا بها، لكنهم أشدَّ النَّاس بعدًا عن تنفيذ مقتضياتها، وأكثرهم محاربة لتطبيقاتها، فتكون الباء هنا باء آلة، أي أنهم يستخدمون الآيات لتكون وسيلة للظُّلم، وقد تقول: وكيف ذلك؟

الجواب: يظلمون النَّاس، ويستدلُّون بالآيات على صِحَّة ظلمهم للناس.. يعذِّبون النَّاس، ويسرقون النَّاس، ويقتلون الأبرياء، وينهبون الثَّروات، ويستدلون بالآيات لتبرير أفعالهم، بأن يستدلُّوا بها في غير موضعها، فيجعلون الآيات أداة للظُّلم تحريفًا وتزويرًا بدلًا من أن يجعلوها أداة للعدل، فيحرِّفونها لفظًا أو معنى ليجعلوها أداة لتشريعات مناقضة لها.

﴿بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَظۡلِمُونَ﴾ تعبير يحذِّر الغُلاة الذين يظهرون بمظهر التَّدين من اليهود والنَّصارى والمسلمين، فهم يجعلون الآيات أداة للظُّلم، ويستدلُّون بها على الإفساد في الأرض، ويرتكبون الجرائم باسمها.. تَصوَّرْ مثلًا أن محاكم التَّفتيش في إسبانيا كانت تعتمد في تعذيبها على ما يسمُّونه آيات الكتاب المقدَّس!!

!!

﴿بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَظۡلِمُونَ﴾ تحذير في المقابل لعُتاة المجرمين الذين يستخدمون الأموال والقوّة لنشر الظُّلم في الأرض، ثم يُوظِّفون المُفتين من الحاخامات والقُسُس والشُّيوخ ليقدِّموا لهم الفتاوى الجاهزة؛ لتبرِّر لهم ظلم النَّاس، بدلًا من أن يسترشدوا بها لإقامة العدل في العالم.

وربما تسأل: ما الحكمة في مجيء صيغة المضارع في قوله: ﴿يَظۡلِمُونَ﴾ مع أن الآية تحدِّثنا عن الميزان في الآخرة؟

الجواب: صِيغَةُ المُضارِعِ في قَوْلِهِ ﴿يَظۡلِمُونَ﴾ تحكي حالهم المعتاد في ممارسة الظُّلم، وتَجَدُّدِه في حياتهم، أفلا يستحقُّون الخسارة الأبدية، وهم ينامون ويستيقظون على كيفية الإجرام وإشاعة الظُّلم في الأرض.

فإن قلت: ما الحكمة من تقدُّم الجار والمجرور في ﴿بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ على ﴿يَظۡلِمُونَ﴾؟

الجواب: قدَّم الجار والـمَجْرُور في قَوْلِهِ: ﴿بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ عَلى عامِلِهِ، وهو ﴿يَظۡلِمُونَ﴾، لِلاهْتِمامِ بِالآياتِ [(١)]، فهي التي كان يجب عليهم أن يتبعوها، فكفروا بها، ثم اتخذوها أداة لظلم غيرهم.

وقد تسأل: ما الحكمة من الإخبار عنهم باسم الإشارة الدَّالّ على البُعد، حيث قال: ﴿وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَظۡلِمُونَ ٩﴾ كيف تفسِّر قول الله تعالى وقد تقرَّر أنَّ الإشارة بالاسم الدَّالّ على البُعد ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ﴾ يدلُّ على عظيم المنزلة؟

---

(١) التحرير والتنوير (٨ب/ ٣٢).

أجيبك: بأن البيان القرآنيَّ يوحي إليك بالفرق بين الفريقين، والفرق في المقصد من ندائهم باسم الإشارة الدالِّ على البُعد، فقد يراد به التَّحقير والإهانة كما في حالة هذا الفريق الخاسر، وقد يراد التَّعظيم ورفعة المكانة كما في حالة الفريق السَّابق الفائز.

وقوله جَلَّ جَلَالُهُ فِي الْمجرمين: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنٗا﴾ [الكهف: ١٠٥]، ليس نفيًا للميزان، بل معناه أَنَّهُ لَا قِيمَة لهم وَلَا قَدْر في ذلك المكان والزَّمان، فالمجرم قد توجد له حسنات لكنها تصير هباء منثورًا أمام الظُّلم الذي اقترفه، وقد تسهم حسناته في تخفيف عقوبته، فعن الْعبَّاس بْن عَبْدِ الْمُطَّلِب رضي الله عنه قَالَ لِلنَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم: مَا أَغْنَيْتَ عَنْ عَمِّكَ فَإِنَّهُ كَانَ يَحُوطُكَ وَيَغْضَبُ لَكَ؟ قَالَ: «هُوَ فِي ضَحْضَاحٍ مِنْ نَارٍ، وَلَوْلاَ أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرَكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّار»(١).

آيات الميزان توقظ الغافل، والمستكبر، والنائم الوَسْنان.. تذكِّره بمشهد خطير ينتظره حيث الفلاح الأبدي، أو الخسارة المحطِّمة الدَّائمة.

وحرص أولو الألباب على التَّذكير بها، فلَمَّا حَضَرَ أَبَا بَكْرٍ الْمَوْتُ دَعَا عُمَرَ رضي الله عنهما فَقَالَ لَهُ: "اتَّقِ اللهَ يَا عُمَرُ، وَاعْلَمْ أَنَّ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَمَلًا بِالنَّهَارِ لَا يَقْبَلُهُ بِاللَّيْلِ، وَعَمَلًا بِاللَّيْلِ لَا يَقْبَلُهُ بِالنَّهَارِ، وَأَنَّهُ لَا يَقْبَلُ نَافِلَةً حَتَّى تُؤَدَّى الْفَرِيضَةُ، وَإِنَّمَا ثَقُلَتْ مَوَازِينُ مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِاتِّبَاعِهِمُ الْحَقَّ فِي الدُّنيا وَثِقَلِهِ عَلَيْهِمْ، وَحَقٌّ لِمِيزَانٍ يُوضَعُ فِيهِ الْحَقُّ غَدًا أَنْ يَكُونَ ثَقِيلًا، وَإِنَّمَا خَفَّتْ مَوَازِينُ مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِاتِّبَاعِهِمُ الْبَاطِلَ فِي الدُّنيا وَخِفَّتِهِ عَلَيْهِمْ، وَحَقٌّ لِمِيزَانٍ يُوضَعُ فِيهِ الْبَاطِلُ غَدًا أَنْ يَكُونَ خَفِيفًا"(٢).

---

(١) البخاري (٣٨٨٣)، واللفظ له، ومسلم (٢٩٠).

(٢) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (١/ ٣٦).

يشعر أولو الألباب بصورة الميزان أمامهم.. يجعلهم ذلك يعبِّرون عن جواهر المعاني، ويبنون حياة الفضائل، ويشيِّدون درجاتهم يوم القيامة بالعمل لا بالأماني.

وخذ هذه الصُّورة عن سلمان الفارسيِّ رضي الله عنه، فعَنْ عَمْرِو بْنِ قَيْسٍ قَالَ: قِيلَ لِسَلْمَانَ رضي الله عنه: مَا حَسَبُكَ؟ قَالَ: «كَرَمِي دِينِي، وَحَسْبِيَ التُّرَابُ، وَمِنَ التُّرَابِ خُلِقْتُ، وَإِلَى التُّرَابِ أَصِيرُ، ثُمَّ أُبْعَثُ وَأَصِيرُ إِلَى الْمَوَازِينِ، فَإِنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينِي، فَمَا أَكْرَمَ حَسَبِي وَمَا أَكْرَمَنِي عَلَى رَبِّي يُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ، وَإِنْ خَفَّتْ مَوَازِينِي فَمَا أَلْأَمَ حَسَبِي وَمَا أَهْوَنَنِي عَلَى رَبِّي وَيُعَذِّبُنِي إِلَّا أَنْ يَعُودَ بِالْمَغْفِرَةِ وَالرَّحْمَةِ عَلَى ذُنُوبِي»[1].

لقد انتهى هذا المشهد المهيب بفرح المفلحين بثقل موازينهم، وحسرات المجرمين بخفة موازينهم.. إنها أعمال الدُّنيا، وحسناتها أو سيِّئاتها فأين من يستمع للحقِّ المبين، ولقد قال الحَسَنُ رحمه الله: "وحَقٌّ لِميزانٍ تُوضَعُ فِيهِ الحَسَناتُ أنْ يَثْقُلَ، وحَقٌّ لِميزانٍ تُوضَعُ فِيهِ السَّيِّئات أنْ يَخِفَّ"[2].

هل يوجد فريق ثالث لا تخف موازينه، ولا تثقل، بل يعتدل الأمر بالنسبة إليه؟

الجواب: عُدْ بنا إلى الميزان عمومًا فقد ذكر الله سبحانه وتعالى فريقين بالنسبة لهذه الموازين:

فالفريق الأول قال عنهم: ﴿فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٨﴾.

والفريق الثاني قال عنهم: ﴿وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا يَظۡلِمُونَ﴾ [الأعراف: ٨- ٩].

(١) الزهد الكبير للبيهقي (٧٦٣).

(٢) الكشاف (٢/ ٨٩).

وذلك مؤشِّر على أنه لا يوجد قسم ثالثٌ تستوي حَسَناتُهُ وسَيِّئاتُهُ، وذلك لدِقَّة الوزن وعدالته، حيث تضاف له رحمة الرَّحمَن، وفضله للمنِّ على من يستحقُّ ويختصُّه الرَّحمَن.

بينما رأى قوم أن هناك قسمًا ثالثًا هم أصحاب الأعراف، الذين يكونون بين الفريقين، ولكننا سنبين قِصَّة الأعراف في موضعها إن شاء الله.

التَّصديق والهيمنة

هل نجد ذكرًا للميزان في التَّوراة والإنجيل الحاليين؟

أجيبك: بأننا نجد شيئًا يشير إلى ذلك ففي سفر أيوب٣١: ١ «عَهْدًا قَطَعْتُ لِعَيْنَيَّ، فَكَيْفَ أَتَطَلَّعُ فِي عَذْرَاءَ؟ ٢ وَمَا هِيَ قِسْمَةُ اللهِ مِنْ فَوْقُ، وَنَصِيبُ الْقَدِيرِ مِنَ الأَعَالِي؟ ٣ أَلَيْسَ الْبَوَارُ لِعَامِلِ الشَّرِّ، وَالنُّكْرُ لِفَاعِلِي الإِثْمِ؟ ٤ أَلَيْسَ هُوَ يَنْظُرُ طُرُقِي، وَيُحْصِي جَمِيعَ خَطَوَاتِي؟ ٥ إِنْ كُنْتُ قَدْ سَلَكْتُ مَعَ الْكَذِبِ، أَوْ أَسْرَعَتْ رِجْلِي إِلَى الْغِشِّ، ٦ لِيَزِنِّي فِي مِيزَانِ الْحَقِّ، فَيَعْرِفَ اللهُ كَمَالِي»(١).

لكن لا توجد نصوص واضحة على مشاهد القيامة، كما هي واضحة في الكتاب الخاتم، فالنَّصارى مثلًا يؤمنون بالبعث الجسدي، والنَّعيم الأبديِّ في الجنَّة والعذاب الأبديِّ في النَّار، كما جاء في (إنجيل متَّى) (٢٥/ ٣٤) "ثم يقول الملك للذين عن يمينه: تعالوا يا مباركَي أبي. رثوا الملكوت المعد لكم منذ تأسيس العالم. ثم يقول أيضًا للذين عن اليسار: اذهبوا عني يا ملاعين إلى النَّار الأبدية المُعَدَّة لإبليس وملائكته؟؟؟... فيمضي هؤلاء إلى عذاب أبدي، والأبرار إلى حياة أبدية"(٢)، إلا أنهم يزعمون أن النَّعيم روحانيٌّ لا جسمانيٌّ.

فأين هذا من الوصف الدَّقيق لموازين يوم القيامة ممَّا رأيت وصفه في الآيات، ووجدنا البصائر القُرآنيَّة تملأ نفوسنا به، يقول محمَّد المثيل -غفر الله له-:

فـجـلَّ جـلالُ اللهِ أَجـمِـلْ بَـقُـولِـهِ ... مُبِينًا، على كُتُب السَّـمـاءِ مُهيمِنا

ففيـه لـذي لُـبٍّ فَضـاءٌ وفُسْـحَـةٌ ... وفيـه لـذي قَلْـبٍ إذا مـا صَـفـا غِنـا

(١) تفسير سفر أيوب، القس أنطونيوس فكري (ص: ١٣١).

(٢) إنجيل متى، القس أنطونيوس فكري (ص: ٣٥٩).

فهرس الموضوعات

مُقدِّمة ٥
صُوَرٌ من لَذَّة التَّعب في استكشاف كنوز الآيات القُرآنيَّة ٩
الموضوع الكُلِّيُّ الذي لأجله سُوِّرت آيات سورة الأعراف ١٣
الأساس الأول: النُّزول أو السِّياق التَّاريخيُّ لسورة الأعراف ١٦
المبحث الأول: تحديد وقت نزول سورة الأعراف ١٦
المبحث الثاني: الآيات في سورة الأعراف التي قيل إنها مدنية ٢٤
الأساس الثاني: التَّرتيب أو السِّياق المصحفيُّ ٢٩
(السُلَّم الموضوعي للترتيب المصحفي) إلى سورة الأعراف: ٢٩
العلاقة بين سورة الأعراف والسُّورَة التي قبلها (الأنعام): ٣٢
تفصيل لتلك العلاقات بين السُّورتين: ٣٦
الأساس الثالث: اسم سورة الأعراف، وعلاقته بالموضوع الكُلِّي للسُّورة ٥٧
المبحث الأول: الاسم المميز لهذه السُّورَة ٥٨
المبحث الثاني: سبب تسمية سورة الأعراف بهذا الاسم ٦١
المبحث الثالث: الأعراف وعلاقته بالحجاب ٦٦
المبحث الرابع: سبب جعل هذه التَّسمية مركزية للسُّورة: ٨٣
المبحث الخامس: أسماء أخرى لسورة الأعراف ٨٥
الأساس الرابع: المواضيع الكبرى التي تضمها سورة الأعراف ٨٧
الأساس الخامس: مدد السَّابقين من المفسِّرين في التعرُّف إلى الموضوع الكلِّيِّ لسورة الأعراف . ١٠١
الموضوع الكلِّيُّ لسورة الأعراف في نظري ١١١
الأساس السادس: الخريطة الكُلِّيَّة التي تظهر المحاور العامة المتتابعة لسورة الأعراف ١١٣

الـمُقَدِّمَة: القرآن كتاب الإنذار العالـميِّ من الأخطار الواقعة والمُتَوَقَّعة [الأعراف:١-٩] ١١٥
الـمحور الأول: البداية والنهاية للرحلة الإنسانيَّة الكبرى في مسيرة الحياة [الأعراف:١٠-٥٣] ١١٧
الـمحور الثاني: الـمعالـم العامة التي تعرِّف بالله ﷻ [الأعراف: ٥٤-٥٨]............................. ١٢١
الـمحور الثالث: أهمُّ العهود التَّاريخيَّة الفاصلة التي عاشتها الإنسانيَّة قبل العهد الإسرائيلي [الأعراف: ٥٩-٩٣].. ١٢٦
المحور الرابع: السُّنَن الاجتماعية العامَّة التي تجري في تاريخ ذرِّيَّة آدم عليه السلام [الأعراف:٩٤-١٠٢] ١٣٣
المحور الخامس: العهد السَّادس من عهود الذُّرِّيَّة الآدميَّة: العهد الإسرائيلي [الأعراف: ١٠٣-١٧١] ... ١٤٠
الفصل الأول: عودة التوحيد الإلهي، وبداية الانبعاث الإسرائيليِّ [الأعراف: ١٠٣-١٢٦] ١٤١
الفصل الثاني: عهد الـمواجهة ونهاية التَّاريخ الفرعوني [الأعراف:١٢٧-١٣٧] ١٤٣
مرحلة [١]: إدارة التَّوحُّش الفرعونيِّ على المستضعفين [الأعراف:١٣٧-١٢٩] ١٤٣
مرحلة [٢]: مرحلة أخذ العقوبات الجزئية الإملاء والإمهال: [الأعراف: ١٣٠-١٣٥] ١٤٥
مرحلة [٣]: نتائج الصراع بين دعوة الحقِّ الموسوية ودعوة الباطل الفرعونية [الأعراف:١٣٦-١٣٧] ... ١٤٧
الفصل الثالث: عهد التحرُّر الإسرائيلي: إفسادهم في الأرض بتأسيس الأنقاض الكبرى للميثاق الإلهي [الأعراف: ١٣٨-١٧١] ١٤٨
النَّقْض الأكبر الأول: "العَقْليَّة الشِّرْكيَّة الإسرائيليَّة"[الأعراف: ١٣٨-١٤١]........................... ١٥٠
النَّقْض الأكبر الثاني: "العَقْليَّة الفِسْقيَّة الإسرائيليَّة" [الأعراف:١٤٢-١٤٧]............................ ١٥٠
النَّقْض الأكبر الثالث: "العَقْليَّة العِجْليَّة الإسرائيليَّة" [الأعراف: ١٤٨-١٥٣]. ١٥٢
النَّقْض الأكبر الرابع: "العَقْليَّة السَّفَهيَّة الإسرائيليَّة" [الأعراف: ١٥٤-١٥٨]. ١٥٣
النَّقْض الأكبر الخامس: "العَقْليَّة التَّبْديليَّة الإسرائيليَّة" [الأعراف: ١٥٩-١٦٢] ١٥٥
النَّقْض الأكبر السادس: "العَقْليَّة التلاعبية الحُوتِيَّةُ" [الأعراف١٦٣- ١٦٧] ١٥٧
النَّقْض الأكبر السابع: "العقلية الجَبَلِية الإسرائيليَّة" [الأعراف: ١٦٨-١٧١] ١٦٠
الـمحور السادس: عهدُ الإنسانيُّ الحديثُ والأخيرُ، ويُظهِر الله ﷻ فيه آيات القرآن التي جاء بها النَّبيُّ الخاتم لتمثِّل للعالم مفاتح فَهْمِ الحياة، وتقدِّم للبشرية دوافع الاهتداء [الأعراف:١٧٢-١٩٨] ١٦٦
الدَّافع الإيمانيُّ [١]: الميثاق الإلهيُّ الأوَّل الذي أخذه الله ﷻ على بني آدم [الأعراف:١٧٢-١٧٤]...... ١٦٧

الدَّافع الإيمانيُّ [٢]: الحذر من "الانسلاخ المُرعب" [الأعراف:١٧٥-١٧٧]. ١٦٩
الدَّافع الإيمانيُّ [٣]: ثلاثية الاهتداء [الأعراف: ١٧٨-١٨٠]. ١٧١
الدَّافع الإيمانيُّ [٤]: مصاحبة الذين يهدون بالحقِّ وبه يعدلون [الأعراف: ١٨١-١٨٣]. ١٧٥
الدَّافع الإيمانيُّ [٥]: رباعيَّة التفكُّر، والنَّظر، والأجل، والخوف من عدم اتخاذ القرار الصَّحيح........ ١٧٩
الدَّافع الإيمانيُّ [٦]: الحذر من قيام السَّاعة قبل أن يهتدي الإنسان [الأعراف: ١٨٧]. ١٨٣
الدَّافع الإيمانيُّ [٧]: الاقتداء بالنَّجم الأعظم، والمثال البشريِّ الأكبريِّ [الأعراف: ١٨٨].............. ١٨٥
الدَّافع الإيمانيُّ [٨]: الله ﷻ هو الذي خلق الإنسانيَّة، وخلق نَسْلها [الأعراف: ١٨٩-١٩٠]. ١٨٦
البراهين على وَحْدانيَّة الله تعالى ١٨٧
الدَّافع الإيمانيُّ [٩]: التَّحذير من أعظم الأخطار التي تهدِّد الحياة البشريَّة: الشِّرك [الأعراف:١٩١-١٩٨]. ... ١٩١
الخاتمة: آداب التَّعامل مع الكتاب الذي يحمي الإنسانيَّة من الأخطار [الأعراف: ١٩٨-٢٠٦]........... ١٩٨
نظرة أعمق لمحاور سورة الأعراف ٢٠٣
الزَّاوية الأولى: العهود الكبرى للبشريَّة في رؤية سورة الأعراف ٢٠٣
الزَّاوية الثَّانية: المواضيع الكبرى للمحاور التي كوَّنت السُّورَة ٢٠٥
لمحة من التَّناسب الدَّائريِّ (المناسبة بين أول السُّورَة وخاتمتها)..................................... ٢٠٦
تفصيل محاور سورة الأعراف المُقَدَّمَة ٢١١
القُرْآنُ كِتَابُ الإِنْذَارِ العَالَمِيِّ مِنَ الأَخْطَارِ الوَاقِعَةِ وَالمُتَوَقَّعَةِ [الأعراف:١-٩] ٢١١
خواصُّ القرآن المجيد التي يحفظ بها الأمم من المخاطر الواقعة والمُتوقَّعة ٢١٧
الخاصِّيَّة الأولى: القرآن كتاب المعرفة الواضحة.. ٢١٩
الخاصِّيَّة الثَّانية: هو دستور مكتوب ٢٣٢
الخاصِّيَّة الثَّالثة: مزية هذا المكتوب أنه منزل من عند الله ﷻ.............................. ٢٤١
الخاصِّيَّة الرَّابعة: نزول هذا القرآن على خاتم النَّبيِّين ٢٤٥
الخاصِّيَّة الخامسة: كماله اللفظيُّ والعلميُّ والعمليُّ ٢٤٦
الخاصِّيَّة السَّادسة: هدف إنزال الكتاب: إنقاذ العالم من المخاطر الواقعة والمُتوقَّعة ٢٥٦

الخاصِّيَّة السَّابعة: تعريف العالـم بضرورة اتباع ما أنزل الله، ونبذ كل ولي دونه:............ ٢٦٤
الخاصِّيَّة الثَّامنة: القرآن حقٌّ حتى لو قلَّ التَّذكُّر به وقلَّ اتباعه.............................. ٢٧٦
الخاصِّيَّة التَّاسعة: التَّفصيل الحافظ: ٢٨٣
المشاهد المتعدِّدة للـمهالك التي تحدث لغير الـمُتَذَكِّرين ٢٨٥
الـمشهد الأول: مشهد الدَّمار المفاجئ ٢٨٧
المشهد الثَّاني: مشهد الاعتراف ٣٠٦
المشهد الثالث: مشهد المحاكمة العَادِلَة العُليا ٣٢٢
لَقَطات يوم القيامة وأسئلة الحجَّة والتَّبكيت والملامة ٣٢٩
المشهد الرابع: مشهد انكشاف المستور.. ٣٣٧
المشهد الخامس: مشهد الوزن الكاشف ٣٤٥
المشاهد المنظَّمة في آيات المُقَدِّمَة ٣٤٦
تجلية المكنون في الميزان والموزون: ٣٥٠
المشهد السادس: مشهد نتيجة الوزن المصيريَّة.. ٣٦٢
التَّصديق والهيمنة ٣٧٦
فهرس الموضوعات ٣٧٧

للتعرف على مؤسسة بصائر المعرفة القرآنية

امسح الرمز

الأستاذ الدكتور عبد السلام مقبل المجيدي

- رئيس مؤسسة بصائر المعرفة القرآنية، ومؤسس مشروع تسوير السور القرآنية.
- أستاذ دكتور في قسم القرآن والسنة/كلية الشريعة/ جامعة قطر حاليًا، وجامعتي حضرموت وذمار سابقاً.
- شارك في تحكيم نحو **30** مسابقة دولية للقرآن الكريم في أنحاء متفرقة في العالم.
- أشرف وناقش العديد من رسائل الماجستير والدكتوراه. في جامعات ذمار وحضرموت، وقطر وعمان.
- قدَّم عددًا من البرامج الإعلامية، والدورات العلمية والتدريبية في التفسير وعلوم القرآن في عدة دول.

بصائر المعرفة القرآنية — تسوير السور القرآنية — مفصل تفسير سورة الأعراف

هذه البصائرُ تنشر النَّور في العالمين، إنها تسعى بجدٍّ لبعث فِكْرٍ مستنيرٍ من كلام الله العليِّ القدير، فما أعذب المورد وأصفاه!.. وفي هذا الضِّياء الماثلِ أمامكم، المعروضِ بين أيديكم بصائرُ مُشْرِقةٌ لسورة الأعراف، حيث التَّذكيرُ الخالد للعالمين وأهمِّيَّة اتِّباعه، وكيف بدأت قِصَّة البشريَّة من أوَّل الدُّنيا إلى آخرها، ثم الجنَّة والنَّار، والفصل يوم الحكم والقرار.. وفي أثنائها ذاك التَّذكير العظيم بتسلُّلِ أخطر عدوٍّ للبشريَّة -إبليس- إلى فكر أبينا آدم عليه السلام وإغوائه، ثم يقظة النور عند أبينا عليه السلام وتوبته، غير أنَّ المعركة كُتِبَ لها أن تستمرَّ، وقد مرَّ هذا الصِّراع بمنعطفاتٍ تاريخيَّةٍ، حيث علَّم إبليسُ طغاةَ الأرض كيفيَّةَ التَّمرُّد على الله تعالى، وعلى رأسهم فرعون، لكنَّ انتقامَ الله عزّوجل غير بعيد عن كلِّ طاغٍ مُتَعَجرِفٍ، ورحمتَه قريبةُ المنال من كلِّ مجاهدٍ متوكِّلٍ مُسْتَضعَفٍ..

وهذا الكتاب هو الجزء الأوَّل من أجزاء ستَّة لسورة الأعراف -سترى النُّور قريبا بإذن الله تعالى- لتقديم تفسيرٍ تجديديٍّ يُظهر الحكمة العظيمة في "تسوير السُّوَر القرآنيَّة"، حيث نرى محاور كلِّ سورة في صورة خطِّيَّة متتابعة، ودائريَّة مترابطة؛ تقنعك بتماسكها، وتتابع أفكارها، وإحكام بنائها. وهو لَبِنَةٌ في مشروع البصائر القرآنيَّة الذي يهدف إلى تقريبِ البصائرِ القرآنية ليتذوق العالَم -وخاصَّة الفئات الشَّبابيَّة- البيِّنَة القرآنيَّة، التي تمثِّل الحصنَ الثقافيَّ من الأخطار الفكريَّة والسُّلوكيَّة مثل: الإلحاد، والفسق، والإجرام، والغلوّ، وتقديمِ الإعجازِ الواقعيِّ للبصائر القرآنيَّة المجيدة لتوجِّهَ الحياة، وتبني المجتمع البشريَّ بهداياتها، وذلك باستنباط الرؤية القرآنيَّة التي تحدِّد للبشريَّة -أفرادًا وأمَّة، وشعوبًا وحكومات- الأولياتِ الحياتيَّة.. إنها الأوليات التي نبصر بها كيفية التعامل مع الوجود، قال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا﴾ [الأنعام: ١٠٤]

مكتبة الأسرة العربية®
خيارك الأفضل للمعرفة الآمنة
UFUK neşriyat®
BASIN-YAYIN-DAĞITIM

www.arabfamilybs.com
+90 212 631 8109
+90 555 028 1155
info@arabfamilybs.com

ISBN 978-625-6451-08-7